

الهمس في تهذيب النفس

تأليف

إبراهيم أحمد عنكير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فإن الأمة المسلمة أمة صافية نقية ، تركها قائدها وقودتها النبي محمد (ﷺ) على المحجة البيضاء . لكن تباعد الزمان عن عصر النبوة ، وتباعد الشعور عن نبع القرآن ، ونتيجة لغرق الناس في زماننا هذا في الماديات والشهوات ، يحتاج المسلم بين الحين وآخر لهمسة في الأذن تصل إلى القلب تذكره بتقوى الله واستشعار عظمتة ومراقبته ومحاسبة النفس .

وكتاب (الهمس في تهذيب النفس) جهد في هذا المضمار ، يعيد للنفس ألقها ، ويمسح عنها أدرانها ، ويقوي صلتها بخالقها ، ويهذبها ليكون صاحبها من المفلحين مصداقاً لقول رب العالمين : (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) .

وهنا يحضرنى قول الحسن البصري مخاطباً لأصحابه : (لا تكن شاة الراعي أعقل منك ...!! تزجرها الصيحة وتطردها الإشارة ... وأنت كم زجرتك آيات الله ... من النار تخوفك فلا تخاف .. وإلى الجنة تدعو كوكأن المخاطب غيرك .. ومن الله تحذرك فتعرض لغضبه ...) .

فاصبر نفسك لتسمع هذه الهمسات .. ثم اصبر نفسك ثانية لتفهم دلالات ومعاني الكلمات .. ثم اصبر نفسك في الثالثة للعمل والأستقامة والثبات حتى الممات .

والله نسأل أن يجعلنا من أصحاب النفوس المطمئنة التي يناديها رب البرية قائلاً : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) .

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ لَنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ هَدْيَ الطَّرِيقِ فِي السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ عَلَى مَنَهْجِ النَّبِيِّ ﷺ
وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ وَأَنْ يَكُونَ بَدَايَةَ هُدَايَةِ شَبَابِنَا الْمُسْلِمِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا
مُخْلِصِينَ فِي أَعْمَالِنَا نَبْتَغِي بِهَا رِضَا اللَّهَ سُبْحَانَهُ، وَأَنْ نَكُونَ صَادِقِينَ فِي التَّوَجُّهِ إِلَى مَعَالِجَةِ النَّفْسِ
بِالْإِكْثَارِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَتَذَكُّرِهِ. وَرَبِّطِ النِّعَمَ بِالْمَنْعِ الْأَوْحَدِ وَالْمَحْسَنَ الْأَوْحَدَ وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ.

اللَّهُمَّ طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِنْ كُلِّ وَصْفٍ يَبَاعِدُنَا عَنْ مَشَاهِدَتِكَ وَمَحَبَّتِكَ، وَأَدِّمْ عَلَيْنَا عَيْنَ
عِنَايَتِكَ، وَاسْتَرْنَا بِسِتْرِكَ الْجَمِيلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ آمِينَ.

وَاللَّهُ نَسَاءً أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْكِتَابَ خَالِصاً لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَأَنْ لَا يَجْعَلَنَا مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً
(الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صَنِيعاً).

وَمَا تَفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

خطر المعاصي
والذنوب
ووجوب التوبة منها

اطلب التوبة من الله في كل وقت

يقول ابن عطاء الله: أيها العبد: اطلب التوبة من الله في كل وقت، فإن الله تعالى قد ندبك^(١). إليها، فقال تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]. وقال رسول الله ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»^(٢).

تعريف التوبة:

التوبة في اللغة: الرجوع، وتعني في الاصطلاح: الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود منه، وبعبارة أخرى: الرجوع إلى الله سبحانه بعد الابتعاد عنه بسبب الذنوب والمعاصي.

والتوبة هي أول مراحل سالكي طريق الآخرة، بل هي المدخل المفضي-إليه، وكلمة «التوبة» شائعة على الألسن، حتى لكأن شيوعها ابتدؤها وأطفأ سناها الكريم، مع أن دلالة الكلمة تجعلها أخطر من أن يجازف بها.

هل يلغو إنسان فيقول: بنيتُ قصراً، أو يلغو فيقول: ألفت كتاباً!!.

إن بناء قصر شاهق أهون من بناء نفسٍ خربة، وإن تأليف كتاب ثمين أرخص من تأليف نفس فرق الهوى أقطارها.

(١) ندبك: دعاك.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة». كتاب الدعوات، باب: استغفار النبي في اليوم واللييلة، رقم (5832). وأخرجه مسلم عن الأغرمزني أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة». كتاب: الذكر والدعاء، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (2702): 4/ 2075.

والتوبة هي هذا البناء والتأليف، فمن الهزل العجائب أن تدور على الألسنة دون تيقظ وإدراك^(١).

إن البشر جميعاً محتاجون للتوبة، إذ قلما تجد من لا يذنب أو يقصر في حقوق الله سبحانه وتعالى، وقلما ينجو أحدنا من التخليط والتخبط وضعف اليقين، فيحتاج إلى هذه الشحنة لتقوية يقينه وليعود إلى إيمانه وهذه الشحنة هي التوبة.

أما علامة التوبة فهي الندم على المعصية، والندم على ما فات من الطاعات والخبرات، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الندم توبة»^(٢). ومعنى هذا: أن أعظم أركان التوبة هو الندم، وهذا كقوله ﷺ: «الحج عرفة»^(٣). لأنه أبرز وأعظم أركان الحج^(٤).

أركان التوبة:

فالركن الأول للتوبة هو: الندم، والثاني: ترك المعصية في الحال، والثالث: التصميم والعزم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي.

فإن كانت المعصية تتعلق بآدمي، فلها شرط رابع وهو رد المظلمة إلى صاحبها أو تحصيل البراءة منه، لقوله ﷺ: «من كان لأخيه عنده مظلمة من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم، قبل

(١) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 154.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة، رقم (4242). والإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود، رقم (3387).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الحج عن رسول الله، باب: ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، رقم (814) والنسائي، كتاب: مناسك الحج، باب: فرض الوقوف بعرفة (2966). وابن ماجه، كتاب: المناسك، باب: من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع، رقم (3006)، وأحمد، أول مسند الكوفيين، حديث عبد الرحمن بن يعمر، رقم (18022).

(٤) الرسالة القشيرية، ص: 92.

أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»⁽¹⁾.

وقد حث النبي ﷺ على توبة الشباب لأنها مرحلة القوة ومجاهدة النفس والهوى، فالشاب الثائمه الذي أسلم زمامه لنفسه غالباً ما تجره إلى ارتكاب المعاصي والتجروء على الله سبحانه، فإذا زلت قدم الشاب بسبب نفسه السيئة أو بسبب وسوسة الشيطان فعليه أن يسرع إلى التوبة. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أحب إلى الله عز وجل من شاب تائب»⁽²⁾.

أما التأهب لأسباب التوبة فتكون يهجر إخوان السوء، فإنهم هم الذي يشوشون صحة العزم على التوبة.

فيا من أنعم الله عليك بنعمة التوبة واعترفت بتقصيرك ووضعت رحالك في بابه سبحانه، ومن الله عليك فاستجاب دعاءك وقبل توبتك لأنه سبحانه يحب العبد التائب، ألم يقل سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]. إياك من رفقة السوء، فإن الصاحب صاحب وإن الطبع سراق. لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقالته. كما يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه.

وقد ضرب لنا النبي ﷺ مثلاً للجلس الصالح والجلس السيئ بحامل المسك ونافخ الكير فقال ﷺ: «مثل المجلس الصالح والجلس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا

(1) أخرجه البخاري، كتاب: المظالم والغصب، باب: من كانت له مظلمة عند رجل، رقم (2269).

(2) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، رقم (6153): 4 / 45.

يعدمك من صاحب المسك إما أن تشتريه أو تجد ريحهُ وكيرُ الحداد يُحرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريحاً خبيثة»^(١).

إن الرجل الفاسق يحب أن يرى الناس فساداً ليكمل عقدة النقص بمخالفته للعادات ومعصيته لله، وإن الرجل الصالح يتمنى أن يعم الصلاح على الجميع، فقرر بعقلك من تصاحب وتخالط، واعرف نهاية الطريق لكل من الصاحبين، تدرك حقيقة الصحة.

الإسراع في طلب التوبة:

ثم بحثنا ابن عطاء الله رحمه الله على الإسراع في طلب التوبة وعدم تأجيل ذلك بقوله: «اطلب التوبة من الله في كل وقت».

فالتوبة واجبة على الفور لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31].

وهذا أمر عام يشمل جميع الأوقات، لأن أي بشر- لا يخلو من معصية بجوارحه، إذ لم يسلم منه حتى الأنبياء، فقد ورد في القرآن والأخبار قصص عن خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم، فإن سلم من معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب، فإن سلم من ذلك فلا يسلم من وسوسة الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة الشاغلة عن ذكر الله، فإن سلم من ذلك فلا يخلو عن غفلة وتصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك له نقص وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بأضداد ذلك وهذا يتحقق بالتوبة^(٢).

(١) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: في العطار وبيع المسك، رقم (1995): 2 / 741. ومسلم،

كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استجاب مجالسة الصالحين ومجانبة قراء السوء، رقم (2628):

2062 / 4.

(٢) الإحياء، الغزالي: 4 / 14، 15.

إن تأجيل التوبة حتى الموت يمنع قبولها، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ [النساء: 17] أي قرب عهد بالخطيئة بأن يندم عليها ويمحو آثارها بحسنة.

فَيَاكَ والتسوية بأن تقول غداً أتوب أو عندما أحج، أو في شهر الصوم، بل إن كنت في الصباح فلا ترقب الأصيل، إذ لا مكان للتريث، إن الزمن قد يفد بعون يشد به أعصاب السائرين في طريق الحق، أما أن يهب للمقعد طاقة على الخطو أو الجري فذاك مستحيل.

لا تعلق بناء حياتك على أمنية يلدها الغيب، فإن هذا الإرجاء لن يعود عليك بخير، الحاضر القريب بين يديك، ونفسك هذه التي بين جنبيك، والظروف الباسمة أو الكالحة التي تلتفت حوالك، هي وحدها الدعائم التي يتمخض عنها مستقبلك، فلا مكان لإبطاء أو انتظار، قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»⁽¹⁾.

ثم إن كل تأخير لإنفاذ منهاج تجدد به حياتك، وتصلح به أعمالك لا يعني إلا إطالة الفترة الكابية التي تبغي الخلاص منها، وبقاءك مهزوماً أمام نوازع الهوى والتفريط. بل قد يكون ذلك طريقاً إلى انحدار أشد، وهنا الطامة.

احذروا التوسيف، فإن الموت يأتي بغتة، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شرك نعله⁽²⁾.

ولا يغترن أحدكم بالشباب والصحة، فإن الموت لا يفرق بين الشاب وبين الهرم ومن الاغترار طول الأمل، فإن تأخير التوبة سببه أيضاً طول الأمل، لذلك تبادر الشهوات وتنسى

(1) أخرجه مسلم، كتاب: التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (4954).

(2) الجانب العاطفي من الإسلام. محمد الغزالي، ص: 156، 157.

الإنبابة، فليكن عملك عملاً قصير الأمل، فلا تُؤمَس حتى تنظر فيما مضى من يومك. فإن رأيت زلة فاحمها بتوبة، أو خرقاً فارقه باستغفار، وإذا أصبحت فتأمل ما مضى- في ليلك، وإيّاك والتسوية⁽¹⁾.

إن إضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

وإليك المثال الآتي الذي يوضح ضرورة الإسراع في التوبة، يقول الغزالي في كتابه «الإحياء»: «وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة، على سبيل الفور والمبادرة تلافياً لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية، فمتناول سموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم، وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تتصرم أعمار الدنيا دون عشر عشر مدته، إذ ليس لمدته آخر البتة، فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء، فلا ينجح بعد ذلك نصيح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين»⁽²⁾.

ثم بين ابن عطاء الله أهمية التوبة بأنه ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين» فمم يستغفر النبي ﷺ وهو مغفور الذنوب؟.

(1) صيد الخاطر، ابن الجوزي: 228.

(2) إحياء علوم الدين، الغزالي، ص: 12، 13.

الغين هو ما يتغشى القلب من الغفلة عن ذكر الله الذي كان شأنه ﷺ الدوام عليه، فإذا فتر عنه عد ذلك ذنباً واستغفر منه^(١).

فقلب النبي ﷺ كان مشغولاً أبداً بالله تعالى فإن عرض له وقتاً ما عارض بشيء يشغله عن أمور الأمة والملة ومصالحها عد ذلك ذنباً وتقصيراً فيفزع إلى الاستغفار^(٢).

ومثل ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرة: «رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم»^(٣). فإذا كان النبي ﷺ يستغفر من تقصيره ويعد ذلك ذنباً، ويكرر الاستغفار في اليوم مئة مرة وقد غفر الله له ذنوبه، فماذا يكون حالنا؟. أليس ذلك تعليماً لنا على دوام التوبة والاستغفار وعدم تأجيل ذلك؟.

أفضل الأوقات لطلب التوبة:

وأفضل الأوقات لقبول التوبة هو بعد منتصف الليل حتى ينفجر الفجر لقوله ﷺ: «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاء، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: «هل من سائل يُعطى؟. هل من داع يُستجاب له؟. هل من مستغفر يُغفر له؟. حتى ينفجر الصبح»^(٤). وفي رواية للترمذي: «أقرب ما يكون العبد من الرب في جوف الليل»^(٥).

(١) شرح النووي على مسلم: 17 / 23.

(٢) عون المعبود: 4 / 265.

(٣) أبو داود، كتاب الصلاة، باب: في الاستغفار، رقم (1295). وابن ماجه، كتاب: الأدب، باب: الاستغفار رقم (3804).

(٤) مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في دعاء الضيف، (3، 35). الليل والإجابة، (1263).

(٥) الترمذي، كتاب: الدعوات عن رسول الله، باب: في دعاء الضيف، (3، 35). وقال حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وليس للتوبة صيغة معينة لكن النبي ﷺ علمنا الصيغة الآتية، فعن أبي يسار زيد بن بولا مولى النبي ﷺ: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غُفر له وإن كان قد فر من الزحف»⁽¹⁾.

أخيراً ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه، وإن تاب منها، وبكى عليها، يقول ابن الجوزي: «إني رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة، وكأنهم قد قطعوا على ذلك، وهذا أمر غائب، ثم لو غُفرت بقي الخجل من فعلها. ويؤيد الخوف بعد التوبة أنه في الصحاح: «أن الناس يأتون إلى آدم عليه السلام فيقولون: اشفع لنا! فيقول: ذنبي! وإلى نوح عليه السلام، فيقول: ذنبي وإلى إبراهيم، وإلى موسى، وإلى عيسى صلوات الله عليه وسلامه عليهم»⁽²⁾. فهو لاء إذا اعتبرت ذنوبهم لم تكن أكثرها ذنباً حقيقة، ثم إن كانت فقد تابوا منها، واعتذروا، وهم بعد على خوف منها.

ثم إن الخجل بعد قبول التوبة لا يرتفع، وما أحسن ما قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «واسوأته منك وإن عفوت». فأف والله لمختار الذنوب ومؤثر لذة لحظة تبقى حسرة على قلب المؤمن وإن غفر له! فالحذر الحذر من كل ما يوجب خجلاً، وهذا أمر قل أن ينظر فيه تائب أو زاهد، لأنه يرى أن العفو قد غمر الذنب بالتوبة الصادقة، وما ذكرته يوجب دوام الحذر والخجل»⁽³⁾.

* * *

(1) أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار، (1296).

(2) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (4343).

(3) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 412، 413.

محاسبة النفس

يقول ابن عطاء الله: فإن أردت التوبة فينبغي لك ألا تخلو من التفكير طول عمرك، فتفكر فيما صنعت في نهارك، فإن وجدت طاعة فاشكر الله عليها وإن وجدت معصية فوبخ نفسك على ذلك، واستغفر الله وتب إليه، فإنه لا مجلس مع الله أنفع لك من مجلس توبخ فيه نفسك، ولا توبخها وأنت ضاحك فرح، بل وبخها وأنت مجذ صادق، مُظهر للعبوسة، حزين القلب، منكسر ذليل، فإن فعلت ذلك أبدلك الله: بالحزن فرحاً، وبالذل عزاً، وبالظلمة نوراً، وبالحجاب كشفاً.

إذا كنت لا تعرف فيما تفكر وكيف تحاسب نفسك فإن الحارث المحاسبي يعلمك ذلك بقوله: «تفقدوا السرائر في كل حين عسى أن يكون منكم مصرٌّ على بعض المعاصي ولا يشعر، وانظروا هل تجدون في القلوب حب الدنيا، والسرور بإقبالها؟. والتقلب في شهواتها، وهل تجدون حلاوة المدحة والتعظيم أحياناً؟. وهل تأنفون من المذمة وتمتعون منها؟. وهل تكرهون شيئاً يخالف أحوالكم، وترضون بما يوافق الهوى؟. وهل تُلهون بالنظر إلى الخلق بغير اعتبار؟. وهل تلهون بفضول الكلام؟. وهل تعلمون من الأعمال شيئاً الله راض به وأنتم تأنفون من عملها؟. وهل تعلمون من الناس ما الله راضي به وأنتم تأنفون منه؟. . . فهذا ونحوه من ذنوب القلوب، وأنتم غافلون. . قد أحسب قراءكم مصرين عليها وما يشعرون»^(١).

في هذه الفقرة يؤكد ابن عطاء الله على أهمية التفكير لحصول التوبة، فإن الذي لا يتفكر ما صنع في نهاره، كان كالتاجر الذي لا يعلم هل تجارته رابحة أو خاسرة؟. والغالب فيها الخسران وهذا الواقع.

(١) آداب النفوس، المحاسبي، ص: 93.

وكذلك المسلم إن لم يحاسب نفسه كل مساء ماذا عملت في النهار، هل أدى شكر الله هل صلى خمس صلوات أم كسل عن إحداها، هل كان خاشعاً في صلاته، هل قرأ شيئاً من القرآن، هل أدى حق الزوجة والأولاد، هل اغتاب أحداً أو سبه، هل هل... الخ فإن فعل ذلك حمد الله على ما وفقه من الطاعات وتاب واستغفر من تقصيره، ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم»^(١).

أهمية الخلوة:

إن هذه الخلوة القصيرة جداً التي لا تتجاوز نصف ساعة مهمة جداً، إنها تصل العبد بالعالم العلوي، وتخلصه من شوائب الدنيا، فيبتعد بذلك عن زحمة العمل والأصدقاء والزوجة والأولاد، ويجلس وحده في غرفة ليس فيها ما يعكر صفوه، من تلفاز أو مذياع أو مجلة أو أي شيء آخر مما تفتنت به تكنولوجيا العصر، يجلس متأملاً متفكيراً في عبوديته لله، في حق الله عليه، فيشعر بضعفه أمام قدرة الخالق، فيطلب منه بكل تواضع وذل التوفيق لمزيد من الطاعات والابتعاد عن جميع المهلكات، ثم يحمد الله سبحانه وتعالى على ما منعه وأولاده وزوجه إن كان متزوجاً، بنعمة الصحة والعافية وإنها لنعمة عظيمة قل من يؤدي شكرها، قال عليه السلام: «من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا»^(٢).

إن من يفعل ذلك يبدله الله بالحزن فرحاً وبالذل عزاً وبالظلمة نوراً، لأنه عندما يرتفع إلى القلب نور الطاعات وترك الشهوات، عند ذلك تُمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم (2383).

(٢) الترمذي، كتاب: الزهد عن رسول الله، باب: في التوكل على الله، رقم (2268) وقال: حسن غريب.

وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: القناعة، رقم (4131).

حسن»^(١). وبدل حجاب الذنوب، كشفاً يشرق على القلب فيفهم مراد الله منه ولماذا خلقه ويفهم سر المكونات وأنها تدل على المكون سبحانه وتعالى.

* * *

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: البر والصلة عن رسول الله، باب: ما جاء في معاشره الناس، رقم (1910) وقال: حدث حسن صحيح، وأحمد. مسند الأنصار، حديث أبي ذر الغفاري، رقم (20392).

خطر الذنوب على القلوب

يقول ابن عطاء الله: واعلم أنه إذا كان لك وكيل يحاسب نفسه ويحاققها^(١)، فأنت لا تحاسبه، لمحاسبتة نفسه، وإن كان وكيلاً غير محاقق لنفسه، فأنت تحاسبه وتحاققه وتُبَالِغ في محاسبتة، فعلى هذا ينبغي لك أن يكون عملك كله لله تعالى، ولا ترى أنك تفعل فعلاً والله تعالى لا يحاسبك ولا يحاققك، وإذا وقع من العبد ذنبٌ وقع معه ظلمة، فمثال المعصية: كالنار والظلمة دُخانها، كمن أوقد في بيت سبعين سنة ألا تراه يسود؟! . كذلك القلب يسود بالمعصية، فلا يظهر إلا بالتوبة إلى الله، فصار الذل والظلمة والحجاب مقارناً للمعصية، فإذا بُتبت إلى الله زالت آثار الذنوب.

إن الإنسان خليفة الله في الأرض، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 165]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]. وهذا الخليفة بمثابة الوكيل الذي ضُرب به المثل في هذه الفقرة. فإن كنت تحاسب نفسك هان عليك حساب يوم القيامة، وإن قصرت في حساب نفسك فإن الموقف عصيب عليك يوم القيامة. والذي لا يحاسب نفسه يقع في معصية الله سبحانه، لأن النفس من شأنها أن تجر صاحبها إلى المعصية.

ثم بين ابن عطاء الله خطر الذنوب على القلوب بقوله: «إذا وقع من العبد ذنب وقع معه ظلمة. . . الخ الفقرة».

وليس المقصود بالقلب هنا تلك القطعة اللحمية في الجانب الأيسر- من الجسد، وإنما المقصود تلك القطعة التي بها يشعر الإنسان ويحس ويحب ويكره، فهذا الوعاء النظيف الشفاف تُسَوِّدُه المعصية وتُعَكِّرُ صفائه، فالقلب الصافي هو العامر بحب الله والخوف منه، والقلب لا يتسع لشئين معاً كالوعاء بقدر ما يدخله الماء يخرج منه الهواء، وكذلك لا يجتمع حب الآخرة وحب الدنيا في قلب واحد، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: 4].

(١) يحاققها: يخاصمها وينظر في حقوقه عليها.

فبقدر ما يمتلئ القلب بحب الآخرة يهرب منه حب الدنيا والعكس صحيح.

واسمع كيف يشرح ابن القيم هذه الحقيقة في كتابه «الفوائد» فيقول: «قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه في الذوات والأعيان فكذلك هو في الاعتقاد والإرادات، فإذا كان القلب ممثلاً بالباطل اعتقاداً ومحبة لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبة موضع، كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع، لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه إلا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل، وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير طاعة الله، لم يتمكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرغها من ضدها، فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وإرادته والشوق إليه والأنس به، لا يمكن شغله بمحبة الله وإرادته وحبه والشوق إلى لقائه، إلا بتفريغه من تعلقه بغيره، ولا حركة اللسان بذكره والجوارح بخدمته، إلا إذا فرغها من ذكر غيره وخدمته...»^(١). منال

ويشهد لهذه الحقيقة قوله ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأى قلب أشربها»^(٢). نُكتت^(٣). فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مُرباداً^(٤). كالكوز^(٥). مخجياً^(٦)، لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً إلا ما أشرب من هواه^(٧).

(١) الفوائد، ابن القيم، ص: ٤٥، ٤٦.

(٢) أشربها: تمكنت فيه وحلت كما يحل الشراب في الإناء.

(٣) النكتة: البقعة، وهي كل لون يخالف ما وجد فيه من اللون العام.

(٤) المرباد: المتغير من لونه، أو هو لون بين الغبرة والسواد.

(٥) الكوز: الإناء.

(٦) مخجياً: منكوساً.

(٧) أخرجه مسلم: كتاب: الإيثار: بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً. (٢٠٧).

فقد شبه النبي ﷺ عروض الفتن والمحن بالحصير، وكيف يتجمع وينسج بالعود بعد العود، حتى يصير حصيراً، كذلك الفتن تتجمع حتى تغير قلب الإنسان وتغلبه، فيصبح مليئاً بالشر بدلاً من الخير.

هذا التشبيه الذي صور الحالة النفسية وحدثنا عنها بعنوان «القلب» وهو مجمع التأثيرات (النفسية والمعنوية)، يشبه إتيان الفتن بالحصير ونسجه عوداً عوداً، وهكذا عرض لنا معاني متعددة:

- 1- عروض الفتن والاختبارات وشبه تدرجها في التأثير على النفس بنسج الحصير.
- 2- شبه القلب الثابت الذي سمد (ثبت) أمام هذه الحالات المغرية بالمرمر الصلب «الصفاء» الذي يسر الناظر إليه لجمال لونه وصفاته. أي إن من حافظ على استقامته ولم تتأثر نفسه بالفتن يصبح صلباً في دينه، مطمئناً ذائقاً حلاوة الإيمان، حتى يخالط نحه وعظمه ودمه.
- 3- أما النوع الثاني من القلوب وهو الذي أشربها أسود مرباد قدر، وصفه بأنه لا يقبل الخير، وشبهه في ذلك بالإناء المقلوب الذي لا يحل فيه سائل إطلاقاً، وهذا شأن الذي غاص في الفتن وحقق مستهويات نفسه وفكره، حتى أصبح مقلوباً رأساً على عقب^(١).

أما تطهير القلب من هذا السواد فيكون بالتوبة الصادقة إلى الله تعالى، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له كما قال ﷺ^(٢)، إن التوبة الصادقة هي بمثابة مسحوق الغسيل - إن صح التعبير - الذي يزيل ما على الإناء من أوساخ فيرجع الإناء نظيفاً براقاً، كذلك التوبة تغسل القلب من آثار المعاصي والذنوب فيعود القلب مشرقاً بالإيمان، وهذا معنى قول ابن عطاء الله: «... فإذا تبت إلى الله زالت آثار الذنوب».

(1) في ظلال الحديث النبوي، د. نور الدين عتر، ص: 87.

(2) ابن ماجه في الزهد، باب: ذكر التوبة، رقم (4240).

فاصبر أيها الخاطيء حتى يتحلل ماء عينيك خلال ثوب القلب المتنجس، فإذا عصرته
أكف الأسى، ثم إذا تكررت دفع الغسلات حُكم بالطهارة.

فالحمد لله الذي جعل التوبة تمحو آثار الذنوب، إن الباري برحمته ينادي العبد قائلاً:
انس الماضي وابدأ من جديد، قد غفرتُ لك ذنبك ومحوته عنك، فافتح صفحة جديدة وتقرب
مني أتقرب منك أكثر؟! مع أنه سبحانه غني عن العالمين!!..

* * *

المصاب حقاً من محقته الذنوب

يقول ابن عطاء الله: المصاب حقاً ما محقته ^(١) الذنوب والشهوات، حتى جعلته كالشن ^(٢) البالي، هذا هو المكتوب المعزى. ذهبت مأكله وشهواته، ملأ بها المرحاض، وأرضى بها زوجته، ويا ليتها كانت من حلال، فالأول ^(٣). من المقامات التوبة، ولا يُقبل ما بعدها إلا بها.

هذا هو حال من ابتعد عن الله وأعرض عن ذكره إنه مصاب ومنكوب ويصدق عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ^(١٣٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ^(١٣٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ كَذَلِكَ ^(١٣٦) وَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ^(١٣٧) ^(١٣٨) طه: 124 - 126].

إن السعادة هي في طاعة الله سبحانه، يعرف هذا من ذاق حلاوة الطاعة، أما الذي يتنكب عن طاعته سبحانه، ويقترب أصناف الذنوب والشهوات همه بطنه وفرجه ويا ليتهم ملأ شهوته بالحلال، إنه لا يبالي أكانت من حلال أم من حرام، ألا يعلم هذا أن الشهوة تنقضي- لكن تبعاتها لا تنقضي بل سيعذب عليها يوم القيامة بعد أن يُوقَفُ الله سبحانه للحساب، إن العاقل لا يمتنع نفسه لساعة ليعذب عليها أياماً وسنوات. . . فأسرع بالتوبة والإنابة إلى الله سبحانه، قبل فوات الأوان، فهذه أول مقامات الوصول إلى الله سبحانه، فهي شرط لا يقبل ما بعدها إلا بوجودها.

* * *

(١) محقته: ذهبت به ومحته.

(٢) الشن: القرية الخلق الصغيرة يكون الماء فيها أبرد من غيرها. المعجم الوسيط، ص: 516.

(٣) في المطبوع: فأول المقامات التوبة.

مثال العبد إذا فعل معصية

يقول ابن عطاء: مثال العبد إذا فعل المعصية: كالقدر الجديد، ويوقد تحتها النار ساعة فتسود، فإذا بادرت إلى غسلها انفصلت من ذلك السواد، وإن تركتها وطبخت فيها مرة بعد مرة ثبت السواد فيها حتى تتسكر، ولا يُفقد غسلها شيئاً، فالتوبة هي التي تغسل سواد القلب، فتبرز الأعمال وعليها رائحة القبول، فاطلب من الله تعالى التوبة دائماً، فإن ظفرت بها فقد طاب وقتك، لأنها موهبة من الله يضعها حيث شاء من عباده، وقد يظفر بها العبد المشفق الأكعاب دون سيده، وقد تظفر بها المرأة دون زوجها، والشاب دون الشيخ، فإن ظفرت بها فقد أحببك الله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]، وإنما يغتبط بالشيء من يعرف قدره، ولو بدرت ⁽¹⁾ الياقوت بين الدواب لكان الشعير أحب إليهم، فانظر من أي الفريقين أنت؟، إن ثبت فأنت من المحبوبين، وإن لم تثب فأنت من الظالمين، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: 11].

وهذا تأكيد على أهمية تجديد التوبة كل يوم، فالذي يسرع فيتوب من الذنب فإن التوبة تغسل هذا الذنب، وتزيل السواد من القلب، ولكن عندما تزداد الذنوب مع الغفلة عن التوبة يزداد السواد ويصعب غسله بل لا يفيد الغسل شيئاً، وهذا إشارة إلى أن القلب يصل إلى مرحلة يصبح كالكوز مجخياً كما مر في الحديث السابق، أي لا يدخله خير ولا يخرج منه خير فيموت صاحبه على ذلك والعياذ بالله.

والظفر بالتوبة دليل على محبة الله للعبد فليغبط نفسه على هذه النعمة، فكم من عبد لا يوفق إلى التوبة ويبقى شاردًا عن طريق الله حتى يموت. إن أحداً لا يأخذ التراب ويترك الياقوت إن هذا جنون مطبق؟! كذلك المسلم لا يرضى لنفسه أن يكون من الظالمين وهذه حال من لم يتب، بل يسعى لأن يكون من المحبوبين وهذه حال التائب قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(1) بدرت: لعلها بذرت بمعنى فرقت. تاج العروس ت: محمد عليه محمد بحري وخالد السروجي،

التَّوَّابِينَ وَيُجِيبُ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٧﴾ وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. هم الظالمون لأنفسهم فلا عذر لهم إن أصابهم عذاب أليم.

* * *

من تاب ظفر ومن لم يتب خسر

يقول ابن عطاء الله: ومن تاب ظفر، ومن لم يتب خسر، ولا تقطع يأسك وتقول: كم أتوب وأنقض، فالمريض يرجو الحياة ما دامت فيه الروح.

فالتائب من الذنب هو الراجح لأنه عرف الحق فالتزم به وعرف عبوديته لله فتحقق بها وعرف خطأه فسعى إلى إصلاحه، إنه ربح محبة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]. أما الذي يبقى غافلاً سادراً في غيّه لا يفطن للتوبة فهو الظالم لنفسه، والخاسر لدنياه وآخرته.

يقول ابن عطاء الله: «ولا تقطع يأسك وتقول: كم أتوب وأنقض فالمريض يرجو الحياة ما دامت فيه روح»، هذا والله حال الكثير منا يتوب وينقض، يُعاهد الله على ترك المعصية ويرجع إليها. ربما شعر العاصي بأن التوبة لا فائدة منها في هذه الحالة فيشعر باليأس من رحمة الله وقد يودي به إلى الاستمرار بالمعصية والعكوف عليها. لكن مهلاً لا تيأس فالمريض يرجو الحياة ما دامت فيه الروح. والحديث التالي يجلي هذه الحقيقة ويوضح الحل لهذه الحالة، فعن النبي ﷺ، فيما يحكيه عن ربه، تبارك وتعالى، قال: «أذنب عبدٌ ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء» (١).

(١) البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ (6953)، ومسلم،

كتاب: التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب....، (4953).

وقوله تعالى: «فليفعل ما شاء» أي: ما دام يفعل هكذا، يذنب ويتوب أغفر له، فإن التوبة تهدم ما قبلها^(١).

والمقصود بهذا الحديث هو الذي يذنب بسائق ضعف من بشرية تغلبت عليه ونفس أطغته وشيطان وسوس له، ثم عاد فتاب صدقاً وسأل الله مخلصاً أن يبعده عن هذا الذنب ويغفر له فإن الله يتوب عليه، ثم بعد ذلك ونتيجة لطغيان الهوى والنفس عاد إلى الذنب مرة أخرى، ثم سأل الله صادقاً مخلصاً أن يغفر له ويحبه هذا الذنب، وهذا العبد مهما أذنب ثم تاب تاب الله عليه. أما الذي يذنب عن قصد وتصميم وإصرار وتكبر، ثم يقول: أذنب ثم أتوب فهذا لا يغفر الله له. وهذه حال من يتوب بلسانه لا بقلبه، واستمع لما يقوله القرطبي في شرح هذا الحديث:

«وهذا يدل على عظيم فائدة الاستغفار وعلى فضل الله وسعة رحمته وحلمه وكرمه، ولكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارناً للسان لينحل من عقد الإصرار، ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة، ويشهد له حديث: «خياركم كل مُفْتَن تَوَاب»^(٢). ومعناه: «الذي يتكرر منه الذنب والتوبة، فكلما وقع في الذنب عاد إلى التوبة، لا من قال: استغفر الله بلسانه وقلبه مُصْر على تلك المعصية، فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى استغفار»^(٣).

فإياك يا أخي مهما أذنبت أن يخطر ببالك أن الله لا يغفر لك، أين أنت من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]. ثم إن الله اتصف بالمغفرة فهو الغفار، وهذا يستدعي

(1) رياض الصالحين، النووي، ص: 171.

(2) أخرجه الترمذي في نوادر الأصول: 2 / 209. والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، رقم (2862):

2 / 173. والبخاري في مسنده، رقم (700): 2 / 280 وقال: هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ

بهذا اللفظ إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي.

(3) رياض الصالحين، النووي، ص: 172.

مغفوراً له، لذلك قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذبون، فيستغفرون الله تعالى، فيغفرُ له»^(١).

فلا تؤودنك كثرة الخطايا، فلو كانت ركاماً أسود كزبد البحر ما بالى الله عز وجل بالتعفية عليها إن أنت اتجهت إليه قصداً وانطلقت إليه ركضاً، وفي حديث قدسي عن الله عز وجل: «يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك ولا أبالي، يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرةً»^(٢).

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى، فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه».

فهما أذنبت لن تبلغ درجة ذلك الرجل الذي قتل تسعة وتسعين رجلاً ثم أراد التوبة فتاب الله عليه كما ثبت ذلك في الصحيحين^(٣).

(١) أخرجه مسلم، - كتاب: التوبة، باب: سقوط الذنوب بالاستغفار، رقم (4936).

(٢) الترمذي، كتاب: الدعوات عن رسول الله، باب: في فضل التوبة والاستغفار، رقم (3463) وقال:

حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٣) البخاري في أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، رقم (3211). ومسلم في التوبة، باب: قبول توبة

القاتل وإن كثر قتله، رقم (4967).

فرحة الله ورسوله بتوبة العبد

يقول ابن عطاء الله: إذا تاب العبد فرحت به دارة من الجنة، وتفرح السماء والأرض والرسول، فالحق سبحانه لم يرُضْ أن تكون مُحباً بل محبوباً، وأين المحبوب من المحب؟!.

وهذا يدل على أن الجهادات فيها حياة خاصة بها كالسما والأرض فإنها تفرح وتحزن وتسبح ومما يؤيد ذلك حنين الجذع الذي كان النبي ﷺ يخطب عنده^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: 18].

والأحاديث في ذلك كثيرة منها قوله ﷺ فيما يرويه مسلم: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن»^(٢). وفي المعجم الكبير للطبراني يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن الجبل يقول للجبل يا فلان: هل مَرَّ بك اليوم ذاكر لله عز وجل فإن قال نعم سره به»^(٣).

وفوق كل ذلك فرحة الله سبحانه بالعبد التائب، إن فرحته به تفوق كل وصف، قال رسول الله ﷺ: «الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ، وقد ذهبت راحلته حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده»^(٤).

(1) أخرجه البخاري في الجمعة، باب: الخطبة على المنبر، رقم (867).

(2) أخرجه مسلم في الفضائل، باب: فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، رقم (4222).

(3) المعجم الكبير للطبراني، رقم (8542): 9/ 103.

(4) البخاري في الدعوات، باب: التوبة، رقم (5833).

ألا يبهرك هذا الترحاب الغامر؟. أترى سروراً يعدل هذه البهجة الخالصة؟. إن أنبل الناس عِرقاً، وأظهرهم نفساً، قلما يجد فؤاداً يتلهف على لقائه بمثل هذا الحنين، فكيف بخطأً أسرف على نفسه، وأساء إلى غيره؟. إنه لو وجد استقبلاً يستر عليه ما مضى- لكان بحسبه ذلك الأمان المبذول ليستريح ويشكر.

أما أن يُفاجأ بهذه الفرحة، وذلك الاستبشار، فذاك ما يثير الدهشة !.

وطبيعي أن تكون هذه التوبة نقلة كاملة من حياة إلى حياة، وفاصلاً قائماً بين عهدين متمايزين كما يفصل الصبح بين الظلام والضياء.

فليست هذه العودة زورة خاطفة، يترد المرء بعدها إلى ما ألف من فوضى وإسفاف. . .

وليست محاولة فاشلة ينقصها صدق العزم، وقوة التحمل، وطول الجلد، كلا، كلا، إن هذه العودة الطاهرة التي يفرح الله بها، هي انتصار الإنسان على أسباب الضعف والخمول، وسحقه لجراثيم الوضاعة والمعصية، وانطلاقة من قيود الهوى والجحود، ثم استقراره في مرحلة أخرى من الإيمان والإحسان والنضج والاهتداء. هذه هي العودة التي يقول الله في صاحبها: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه: 82].

إنها حياة تجددت بعد بلى، ونقلة حاسمة غيرت معالم النفس كما تتغير الأرض الموات بعد مقادير هائلة من المياه والمخصبات^(١).

إنها دعوة تتطلب أن يجدد الإنسان نفسه، وأن يعيد تنظيم حياته، وأن يستأنف مع ربه علاقة أفضل، وعملاً أكمل وعهداً يجري على فمه هذا الدعاء: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء^(٢) لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(٣).

(١) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 161، 162.

(٢) أبوء: أرجع.

إن الله سبحانه يحب العبد التائب، إن التائب قد عاد إلى الطريق الصحيح، وعرف الحق فاتبعه وهذا دليل محبة الله لعبده وكم من فرق بين من يحب الله ومن يحبه الله عز وجل؟! وبين من لا يملك شيئاً ومن يملك كل شيء؟!.

هذه فرحة الله بتوبة عبده المؤمن، أما فرحة رسول الله ﷺ فيبينها حديث كعب بن مالك الأنصاري وهو يروي قصة تخلّفه عن غزوة تبوك، إذ لما تاب الله عليه وعلى صاحبيه مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ذهب كعب إلى رسول الله ﷺ، يقول كعب: «فلما سلّمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قال: قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله، قال: بل من عند الله. . .» (2).

* * *

(1) هذا سيد الاستغفار كما قال ﷺ: أخرجه البخاري في الدعوات، باب: أفضل الاستغفار، رقم (5831).

(2) مسلم في التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (4973).

تجرؤ العبد على معصية المحسن سبحانه

يقول ابن عطاء الله: أف لعبد يعلم إحسان المحسن فيجترئ على معصيته، ولكن ما عرف إحسانه من أثر عصيانه، ما عرف قدره من لم يراقبه، وما ربح من اشتغل بغيره، وعلم أن النفس تدعوه إلى الهلكة فتبعها، وعلم أن القلب يدعوه إلى الرشد فعصاه، وعلم قدر المعصي فواجهه بالمعصية، ولو علم اتصافه بعظمته لما قابله بوجود معصيته، وعلم قرب مولاه، وأنه يراه فسارع لما نهاه، وعلم أثر الذنب المرتب عليه دنيا وأخرى، وغيباً وشهادة، لاستحيا من ربه، ولو علم أنه في قبضته لما قابله بمخالفته.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: 91].

حقاً كما يقول ابن عطاء الله، إذا تذكر العبد إحسان الله إليه وإنعامه الدائم له لما تجرأ على معصيته، إن الرجل المدين لرجل مثله لا يجترئ على مخالفته بل يسعى لإرضائه ولو على حساب راحته، فكيف إذا كان الدائن هو الله رب العالمين؟! .

يقول ابن الجوزي مخاطباً نفسه: «أفما تذكرين كيف ربّاك، وعلمك، ورزقك، ودافع عنك، وساق الخير إليك، وهداك أقوم طريق، ونجاك من كل كيد، وضم إلى حسن الصورة الظاهرة جودة الذهن الباطن، وسهل لك مدارك العلوم حتى نلت في قصير الزمان ما لم ينله غيرك في طويله، وجلى في عرصة⁽¹⁾ لسانك عرائس العلوم في حلل الفصاحة بعد أن ستر عن الخلق مقابحك، فتلقوها منك بحسن الظن، وساق رزقك بلا كلفة تكلف، ولا كدر من رغد غير نزر⁽²⁾. فوالله ما أدري أي نعمة عليك أن أشرح لك... ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34]⁽³⁾.

(1) العرصة: البقعة الواسعة.

(2) نزر: قليل.

(3) صيد الخاطر، ص 237.

ثم يقول ابن عطاء الله: «وما عرف قدره من لم يراقبه...»، لو أن كل مسلم راقب الله حق المراقبة وهي: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، إذ كيف يراني وأعصيه، أم كيف أراه وأعصيه؟! إن الله جعل ملائكة على كل كتف ليدذكرونا بضرورة المراقبة والحياء من هؤلاء الملائكة الكرام الموكلين على كتابة الأعمال، وبالتالي ضرورة مراقبة الخالق الذي أوكل للملائكة هذه المهمة.

ثم قال: «وما ربح من اشتغل بغيره، وعلم أن النفس تدعوه إلى التهلكة فتبعها، وعلم أن القلب يدعوه إلى الرشد فعصاه، وعلم قدر المعصي فواجهه بالمعصية ولو علم اتصافه بعظمته، لما قابله بوجود معصيته».

إن اشتغال القلب بذكر الله ومراقبته هو الربح الحقيقي، وإن تعظيم الله في القلب هو الفلاح لمن أراد الفلاح، لذلك كان التسبيح في الركوع هو «سبحان ربي العظيم» لأن الانحناء للتعظيم، والتعظيم يقتضي معرفة قدر المعظم والتفكر في هذه الصفة.

إن الرجل من إذا خلا بما يحب من المحرم ويقدر عليه، تذكر نظر الحق إليه فاستحيا منه وانصرف عن الذنب خوفاً منه سبحانه.

ثم قال: «ولو علم العبد قرب مولاه وأنه يراه فسارع لما نهاه».

إن الباري سبحانه أقرب إلينا من حبل الوريد كما أخبرنا بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16]. وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: 4]. وقال عز وجل: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: 7].

فكيف يعلم العبد أن الله قريب منه يرى ما يفعله ثم يتجراً على معصيته؟. إن المذنب عندما يرتكب جريمة الزنى فإنه يستتر عن الخلق، يخشى نظر الناس ولا يخشى نظر الحق

إليه؟! إن الحق سبحانه أقرب إلى عبده من حبل الوريد، لكنه عامل العبد معاملة الغائب عنه البعيد منه وأمره بتصحيح نيته ورفع اليدين إليه والسؤال له.

فقلوب الجاهل تستشعر البعد، ولذلك تقع منهم المعاصي، إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر، لكفوا الأكف عن الخطايا، والمتيقظون علموا قربهم، فحضرتهم المراقبة، وكفتهم عن الانبساط، ولولا نوع تغطية على عين المراقبة الحقيقة لما انبسطت كف بأكل، ولا قدرت عين على نظر، ومتى تحققت المراقبة حصل الأنس، وإنما يقع الأنس بتحقيق الطاعة، لأن المخالفة توجب الوحشة، فيا للذة عيش المستأنسين! ويا خسارة المستوحشين!^(١).

ثم قال: «ولو علم أثر الذنب المترتب عليه دنيا وأخرى، وغيباً وشهادة، لاستحيا من ربه».

أما أثر الذنب في الدنيا فهو ظهور الكدورة في الأعضاء، والجمود في العين والكسل في خدمة الله سبحانه وصفات أخرى سيأتي ذكرها قريباً، ثم إن الذنوب تجعل الحياة قاسية جداً بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: 124]. والذنوب يجعل القلب كالكوز الأسود لا يدخله خير ولا يخرج منه خير، فكيف يشرق هذا القلب بالأنوار الإلهية؟! هذه آثار الذنوب في الدنيا.

أما في الآخرة فإن المذنبين سيعذبون في النار حتى تتطهر أجسادهم من كدر المعاصي والذنوب، هذه هي قصة الذنوب في الدنيا والآخرة، فلو علم العبد هذه الحقائق لاستحيا من ربه.

ثم قال: «ولو علم أنه في قبضته لما قابله بمخالفته».

فالإنسان والحيوان والجماد والأرض والسموات في قبضته سبحانه، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَكُوتُ مَطْوِيَّتُ يَمِينِهِ﴾ [الزمر: 67]، وقال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ

(1) صيد الخاطر، ص: 234، 235، بتصرف في العبارة.

أَلْفَيْكَمَ ﴿ [الزمر: 67]. فكيف تجرؤ على مخالفته وأنت في قبضته يتصرف بك كيف يشاء،
إن شاء عذبك وإن شاء غفر لك.

فالحذر الحذر من المعاصي فإن عواقبها سيئة، وكم من معصية لا يزال صاحبها في هبوط
أبداً مع تعثر أقدامه، وشدة فقره، فوا أسفاً لمعاقب لا يحس بعقوبته، وآه من عقاب يتأخر
حتى يُنسى سببه، أوليس ابن سيرين يقول: عيرت رجلاً بالفقر فافتقرت بعد أربعين سنة،
وابن الجلاء يقول: نظرت إلى شاب مستحسن فنسيت القرآن بعد أربعين سنة. فوا حسرة
لمعاقب لا يدري أن أعظم العقوبة عدم الإحساس بها^(١).

* * *

(١) المرجع السابق، ص: 229.

ماذا تتضمن المعصية

يقول ابن عطاء الله: واعلم أن المعصية تتضمن: نقض العهد، وتحليل عقد الود، والإيثار على المولى، والطاعة للهوى، وخلع جلباب الحياء، والمبارزة^(١). لله بها لا يرضى، مع ما في ذلك من الآثار الظاهرة: من ظهور الكدورة في الأعضاء، والجمود في العين، والكسل في الخدمة، وترك الحفظ للحرمة، وظهور كسب الشهوات، وذهاب بهجة الطاعات. وأما الآثار الباطنة: فكالقساوة في القلب، ومعاودة النفس، وضيق الصدر بالشهوات، وفقدان حلاوة الطاعات، وترادف الأغيار المانعة من بروق شوارق الأنوار، واستيلاء دولة الهوى، إلى غير ذلك من ترادف الارتباب، ونسيان المآب، وطول الحساب.

المعصية جراءة على الله تحوي داخلها مصائب كثيرة يذكرها ابن عطاء الله وهي الآتي:

1- نقض العهد :

أي أن العبد العاصي نقض عهده مع الله وهي وصاياه وتكاليفه وكان الواجب عليه أن يلتزم أمر الله حين قال سبحانه: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: 152].

فلتعلم أيها المسلم أن الله حقاً عليك هو حق العبادة له سبحانه ذلك الحق الذي أخبرنا عنه نبينا ﷺ، يقول معاذ بن جبل ؓ: كنت ردف - راكباً خلفه - النبي ﷺ على حمار فقال: «يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده، وحق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلموا»⁽²⁾.

(1) في المطبوع: والمبادرة.

(2) البخاري: كتاب: الجهاد والسير، باب: اسم الفرس والحمار، رقم (2644)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم (44).

فحق الله على العباد هو العبادة قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] ثم قال ﷺ: «وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً». وهل للعباد حق على الله!!! أبدأ إنه سبحانه لا يُسأل عما يفعل؟. إنه على كل شيء قدير ليس لنا حق عليه فلو شاء سبحانه أن يدخل أهل النار الجنة أو بالعكس فلا مُلزم له، لكنه سبحانه ألزم نفسه تحبباً لنا وتلطفاً بعقولنا فسمى جزاء العباد حقاً. وهذا أمثلته كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: 60] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 101] وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

2- تحليل عقد الود:

الود هو: الحب، ويأتي هنا على معنيين: حب الله لعباده الصالحين، أو امتلاء قلوب العباد بحب الله سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]، فإذا عصى العبد ربه فكأنه تخلى - والعياذ بالله - عن محبة الله، وعلى المعنى الآخر فإن العبد المداوم على الذنوب كاذب في ادعاء محبته للباري عز وجل.

3- الإيثار على المولى والطاعة للهوى:

وقد حذر الله سبحانه من اتباع الهوى، بل اعتبره إلهافاً فقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 23].

وإليك أمثلة عن طاعة الهوى: كثير من الناس يحججون ويعتصرون كل عام، مع أن الفرض هو حجة أو عمرة في العمر كله، أما الزيادة فيسمى حج النفل والتطوع، فهؤلاء يحججون ويعتصرون كل سنة وهناك جيران لهم جائعون محتاجون، فإذا قلت لهم: تصدّقوا بثلثي الحجاج على الفقراء امتنعوا وما كل ذلك إلا طاعة للهوى. مع أن إطعام الجائع وكفاية المحتاج أولى من حج النفل.

كثير من الناس يتحرّزون من رشاش نجاسة، ولا يتحاشون من غيبة، ويكثر من الصدقة، ولا يبالون بمعاملات الربا، ويتهجّدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت، يذكرون الله بألسنتهم وقلوبهم محشوة بالكبر والعجب والحقْد والحسد، والأمثلة كثيرة لا تنتهي.

وسبب ذلك كله غلبة الهوى والعادة، فمن اعتاد شيئاً وألفه فإنه لا يقدر خطورته. وهذه حال المسلمين اليوم اعتادوا الاهتمام بالقشور وتركوا اللب والأصل فلم يقدره قدره.

4- خلع جلباب الحياء والمبادرة لله بما لا يرضى:

فالعبد المذنب لا يستحي من ربه، إذ كيف يعصيه وهو -سبحانه- يراه، ومن هذا قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب^(١). نُهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»^(٢).

إذ كيف يزني المؤمن الذي يعلم أن الله يراه !!! إنه ينخلع من إيمانه مدة المعصية، أفلا يخشى أن لا يعود إليه هذا الرداء؟!.

إن الحياء من الله شعبة عظيمة من شعب الإيمان، لذلك خصها النبي ﷺ بقوله: «الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»^(٣).

(1) النهب: أخذ الشيء قهراً، المعجم الوسيط، ص: 994.

(2) البخاري في المظالم والغصب، باب: النهب بغير إذن صاحبه، رقم (2295).

(3) البخاري في الإيمان، باب: أمور الإيمان، رقم (8) بلفظ: «الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان». ومسلم من الإيمان. ومسلم في الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان، رقم (51) بلفظ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة».

فالحياء صفة خُلقية تُبعد الإنسان عن الأعمال المشينة، والنبى ﷺ خصها بالذكر لما لها من أثر عظيم وفضل جليل فمن لم يستح من الله لم يبال أن يشرك به ويعصيه، والذي لم يستح من الناس لم يستح أن يعمل عمل الأشرار، فالحياء منبع القيم الإنسانية^(١).
أما آثار المعصية، فهناك آثار ظاهرة وآثار باطنة. أما الظاهرة فهي:

الآثار الظاهرة للمعصية:

١- **ظهور الكدورة في الأعضاء:** الكدورة من الكدر، وهو: ما تغير لونه ومال إلى الغبرة والرمد. وهو كناية عن ذهاب بهاء نور الوجه والأعضاء بسبب فعل المعاصي.

وهذا أمر يشهد له الواقع، إذ الأعضاء تتنور بالطاعة وتكدر بالمعصية، إن المسلم المطيع لربه يعرف إذا نظر إلى الوجوه المتق من المذنب وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿سَيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح: 29].

وعندما دخل ذلك الرجل على سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه قال له: أيدخل علي أحدكم وفي عينيه أثر الزنى، فقال الرجل: أوحى بعد رسول الله يا أمير المؤمنين قال: بل فِراسة المؤمن، قال ﷺ: «اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾^(٢). [الحجر: 75].

ولذلك كانت صفة أهل الله أن النظر إلى وجوههم يُذكر بالله سبحانه. فقال ﷺ: «خير عباد الله من إذا رُؤوا ذُكر الله»^(٣).

(١) في ظلال الحديث النبوي، د. نور الدين عتر، ص: 59.

(٢) الترمذي في تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجر، رقم (3052).

(٣) أحمد مسند الشاميين، حديث عبد الرحمن بن غنم الأشعري، رقم (17312).

2- **الجمود في العين** : فعين العاصي جامدة لا تفيض بالدمع من خشية الله واستشعار تقصيره، فأين هو من قوله ﷺ: «عينان لا تمسهما النار: عينٌ بكت من خشية الله وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله»⁽¹⁾.

3- **الكسل في الخدمة** : أي في خدمة الله وتطبيق أوامره فلا يقوم إلى الصلاة إلا عندما يقترب وقتها من الانتهاء ولا يصلي إلا وهو كسلان كالمنافقين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [النساء: 142].

4- **ترك الحفظ للحرمة** : فهو لا يعظم شعائر الله من صلاة وصيام وحج . . الخ، ولا يعظم القرآن وكلها من حرمت الله، بل ويتجرأ على الدخول في حمى الله أي محارمه كما ورد في الحديث، هم إرواء شهواته، هم الانغماس في غفلته فلا يذكر الله ولا يصلي على رسول الله ويغتاب الناس ويؤذيهم وهذا كله من حرمت الله، ويرائي بعمله ويطلب مدح الناس ورضاهم وينسى رضا الله سبحانه، وكل ذلك من تركه الحفظ للحرمة.

5- **ظهور كسب الشهوات وذهاب بهجة الطاعات** : إن العبد المذنب لا يُقدَّر قيمة الطاعة ولا يشعر بلذتها، ولو صلى ركعتين في الليل خاشعاً بعيداً عن الأغيار لذاق لذة الطاعة والقرب من الله سبحانه، لكنه معرض عن ذلك كله لاهتٍ وراء شهواته الدنيئة التي من شأنها أن تحجبه عن معرفة بهجة الطاعات.

هذه هي الآثار الظاهرة للمعصية.

(1) الترمذي، كتاب: فضائل الجهاد عن رسول الله، باب: ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، رقم (1563). وقال: حسن غريب.

أما الآثار الباطنة فهي:

1- **القساوة في القلب:** وأقسى القلوب تلك الممتلئة بحب الدنيا والجاه والتكبر، والمحشوة بالمعاصي والذنوب، نُزعت منها الرحمة والخوف من الباري سبحانه، لا يدخلها خير ولا يخرج منها خير كالكوز مُجخياً كما قال ﷺ⁽¹⁾. وفي الحديث أيضاً «أبعد ما يكون عن الله القلب القاسي»⁽²⁾. لذلك هدد الله سبحانه قساة القلوب بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 22].

2- **معاندة النفس:** عاند فلان فلاناً: خالفه وعارضه فيما يفعل⁽³⁾. فالمطلوب من النفس طاعة ربها والتزام أوامره. وعندما تشرذ عن كل هذا، فعلى صاحبها معاندتها لردها إلى الحق. وهو ما يسمى: مجاهدة النفس الأُمارة بالسوء.

3- **ضييق الصدر بالشهوات، وفقدان حلاوة الطاعات:** سئل وهيب بن الورد: أيجد لذة الطاعة من يعصي؟ فقال: لا ومن هم. فرب شخص أطلق بصره، فحرم اعتبار بصيرته، أو لسانه فحُرِمَ صفاء قلبه، أو آثر شُبْهة في مطعمه، فأظلم سره، وحُرِمَ قيام الليل، وحلاوة المناجاة إلى غير ذلك وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفوس⁽⁴⁾.

4- **الأغيار المانعة من بروق شوارق الأنوار:** الأغيار هي الشواغل عن الله سبحانه وتعالى فكل ما يشغلك عن الله يمنع عنك توفيقه وإلهامه، إذ العبد المجاهد لنفسه المطيع لربه يوفقه الله لمزيد من الطاعات، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69].

(1) سبق تخريجه، ص: 31.

(2) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد عن رسول الله، رقم (2335). وقال: حديث حسن غريب.

(3) المعجم الوسيط، ص: 654.

(4) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 85.

5- استيلاء دولة الهوى: بسبب طاعة النفس وشهواتها، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 23]. وقال سبحانه: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَشَبَّهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ﴾ [الأعراف: 176].

يقول ابن الجوزي: «تأملت وقوع المعاصي من العصاة فوجدتهم لا يقصدون العصيان، وإنما يقصدون موافقة هواهم، فتبع العصيان تبعاً. فنظرت في سبب ذلك الإقدام مع العلم بوقوع المخالفة، فإذا به ملاحظتهم لكرم الخالق، وفضله الزاخر. ولو أنهم تأملوا عظمته وهيبته ما انبسطت كف بمخالفته. فليعرض المقدم على الذنوب على نفسه الحذر ممن هذه صفته. فقد قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: 28].

وملاحظة أسباب الخوف أدنى إلى الأمن من ملاحظة أسباب الرجاء، فالحائث آخذ بالحزم، والراجي متعلق بحبل طمع، وقد يخلف الظن»⁽¹⁾.

إن موافقة الهوى سبب للذل والخسران، ومخالفة الهوى سبب للعرز والكرامة.

اسمع لما يقوله ابن الجوزي - رحمه الله -: «قرأت سورة يوسف عليه السلام، فتعجبت من مدحه عليه السلام على صبره وشرح قصته للناس ورفع قدره بترك ما ترك، فتأملت خبيثة الأمر، فإذا هي مخالفة للهوى المكروه. فقلت: واعجباً لو وافق هواه من كان يكون؟! ولما قد خالفه (خالف هواه)، لقد صار أمراً عظيماً يضر - ب الأمثال بصبره، ويفتخر على الخلق باجتهاده، وكل ذلك قد كان بصبر ساعة، فياله عزاً وفخراً!

وبالعكس منه حالة آدم في موافقته هواه، لقد عادت نقيصة في حقه أبداً لولا التدارك ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 37]. فتلمحوا - رحمكم الله - عاقبة الصبر، ونهاية الهوى.

(1) صيد الخاطر، ص: 245.

فالعاقل من ميز بين الأمرين: الحلوين والمرين، فإن من عدل ميزانه ولم تمل به كفة الهوى رأى كل الأرباح في الصبر، وكل الخسران في موافقة النفس، وكفى بهذا موعظة في مخالفة الهوى لأهل النهي! والله الموفق»^(١).

6- **ترادف الارتياح، ونسيان المآب، وطول الحساب:** إن المعاصي سبب للتشكيك في كل الأمور: قد تكون المعاصي سبباً للشك في الله - والعياذ بالله - والشك في الرزق، والشك في حكمة الله في خلقه، والشك في عذاب القبر وأهوال يوم القيامة والحساب والعقاب والجنة والنار. كل ذلك لنقص اليقين بالله سبحانه بسبب ما ران على القلب من الذنوب والمعاصي.

إن العبد الغافل ينسى القدوم على الله، فليتفكر في ذلك اليوم وما يحويه من الأهوال وطول الحساب، ذلك اليوم المرعب الذي وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: 2]. سكارى من شدة الخوف لا من شرب الخمر.

وهو يوم تشيب له رؤوس الأولاد الأبرياء، قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: 17].

وفيه ينسى الإنسان كل من حوله ولا يظن إلا لنفسه، يقول سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ (٣٢) يَوْمَ يَقَرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَنْجِبِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: 33 - 37].

(١) المرجع السابق، ص: 249، 250.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تُحْشَرُونَ مِنْ حِفَاءِ عِرَاءٍ غَرَلًا»^(١)،
قالت عائشة: فقلت يا رسول الله ينظر الرجال والنساء بعضهم إلى بعض فقال: الأمر أشد
من أن يُهمهم ذلك»^(٢).

وانظر كيف يصور الباري سبحانه ذلك المشهد من مشاهد يوم القيامة بقوله تعالى:
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ^(٣) فِيهِ الْأَبْصَارُ ۖ

مُتَهَطِّعِينَ^(٤) مُقْنِعِي^(٥) رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ^(٦) وَأَفْعِدَتُهُمْ هَوَاءً^(٧)﴾ [إبراهيم: 42 - 43].
فهل أنت مستعد لكل ذلك؟ أنسيت ذلك الموقف؟!.

ثم أيها العبد تذكر الحساب وطوله يوم القيامة، وأنت ستقف بين يدي الله سبحانه
وتعالى ليس بينك وبينه ترجمان فيسألك عما اقترفته يداك ومشت به رجلاك وتكلم به لسانك،
قال تعالى: ﴿فَلْتَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلْتَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6]. وقال
سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ^(٨) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: 92 - 93]. سوف
يسألك ربك عن النعم التي وهبك إياها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾
[التكاثر: 8]. ستسأل عن كل شيء، قال عز وجل: ﴿وَفَقُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: 24].

(1) غرلاً: غير مختونين.

(2) البخاري، كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر، رقم (6046).

(3) تشخص: يرتفع جفنها وتبقى مفتوحة من شدة الهول.

(4) مهطعين: مسرعين إلى الداعي بذلة وخوف. قال تعالى: ﴿مُتَهَطِّعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَاثِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾

[القمر: 8].

(5) مقنعي رؤوسهم: رافعيها مديمي النظر للأمام فلا يتلفتون يمينا ولا شمالاً.

(6) لا يرتد إليهم طرفهم: لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم بعد شخوصها.

(7) وأفعدتهم هواء: قلوبهم خالية من الفهم والتدبر كالهواء والخلاء الذي لا شيء فيه.

أي احبسوهم للحساب ولن تجد النصير أو المعين، قال تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَنْفِئُونَ ﴾ [الصفافات: 25 - 26].

في ذلك اليوم: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْغِلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: 39] لأن الله سبحانه علمها منهم وكتبها الحفظة عليهم. فأَي دَاع لسؤالهم عن ذنوبهم!

في ذلك اليوم يُمنع العاصي من الكلام، ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالتَّوَصَّى وَالْأَقْدَامِ ﴾ [الرحمن: 41] ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: 30].

في ذلك اليوم توضع الأغلال في أعناق الكافرين والظالمين، قال تعالى: ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: 71 - 72]. يومٌ تحرس فيه الألسن وتنطق الجوارح، يوم شَيَّب ذكره سيد المرسلين ﷺ إذ قال له الصديق ﷺ: يا رسول الله شبت، قال: «شيبني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت» (١).

فيا من ضيع عمره بالشهوات والغفلة، استمع لقوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) مَا يَأْنِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مَنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنبياء: 1 - 3].

يا من تظن أن يوم القيامة بعيد استمع لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ (٦) وَرَنَاهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج: 6 - 7].

في ذلك اليوم ستقف بين يدي الله سبحانه للحساب، يقول ﷺ في ذلك: «ليقفن أحدكم بين يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له: ألم أنعم عليك؟ ألم أوتك مالاً؟

(1) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله، باب: ومن سورة الواقعة، رقم (3219). وقال: حديث حسن غريب.

فيقول: بلى، فيقول: ألم أرسل إليك رسولا؟ فيقول: بلى، ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فليَتَقَيَّنْ أحدكم النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة»^(١).

فكيف يكون حياؤك يا مسكين وأنت مُثْقَل بالذنوب والمعاصي، فكيف بك إذا قيل للملائكة: خذوا هذا العبد فغلوه ثم الجحيم صلوه؟!!

تذكر أن نعيم الدنيا زائل لا يبقى معك تلك اللحظة، فما هذه الدنيا التي تشغلنا عن مثل تلك المواقف، ماذا تفيدنا، إنها لا شيء!!!.

فإياك أن تغفل عن يوم القيامة، فإن عذاب من يكذب بالساعة كبير قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾^(١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ^(١٢) دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا^(١٣) لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ [الفرقان : 11-15]

يقول ابن الجوزي: «أجهل الجهال من آثر عاجلاً على آجل لا يأمن سوء مغيبته، فكم قد سمعنا عن سلطان وأمير وصاحب مال أطلق نفسه في شهواتها ولم ينظر في حلال وحرام، فنزل به من الندم وقت الموت أضعاف ما التذ، ولقي من مرير الحسرات ما لا يقاومه ولا ذرة من كل لذة. ولو كان هذا فحسب لكفى حزناً وكيف؟! والجزاء الدائم بين يديه. فلا خير في لذة من بعدها النار. وهل عد في العقلاء قط من قيل له: اجلس في المملكة سنة ثم تقتلك.

(1) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب الصدقة قبل الرد، رقم (1324).

(2) مقرنين: مقرونة أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال.

(3) الثبور: الهلاك.

هيهات بل الأمر بالعكس، وهو أن العاقل من صابر مرارة الجهد سنة، بل سنين ليستريح في عاقبته»^(١).

إن ما ينتظر الإنسان بعد الموت أعظم وأشدّ خطراً مما قبله! فالموت ليس نهاية الحياة وإنما بداية حياة أكبر؟!!

فلو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي
ولكننا إذا متنا بعثنا ونُسأل بعده عن كل شيء

هذا ما ذكره ابن عطاء الله من آثار سيئة للمعاصي والذنوب، وهناك آثار سيئة أخرى ذكرها ابن القيم في كتابه «الفوائد» منها: «قلة التوفيق وفساد الرأي، وخفاء الحق وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم ولباس الذل وإهانة العدو وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة وكسف البال تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع من الماء، والإحراق عن النار، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة»^(٢).

أسأل الله أن يجنبنا الزلل في القول والعمل، وأن ينور قلوبنا بطاعته، وأن يغفر لنا ما اقترفناه من الذنوب والمعاصي إنه هو الغفور الرحيم.

* * *

(١) صيد المخاطر، ص: 212.

(٢) الفوائد، ابن القيم، ص: 51.

مقارنة بين الطائع والعاصي

يقول ابن عطاء الله: ولو لم يكن في المعصية إلا تبدل الاسم لكان ذلك كافياً، فإنك إذا كنت طائعاً تُسمى بالمحسن المقبل، وإذا كنت عاصياً أنتقل اسمُك إلى المسيء المعرض، هذا في انتقال الاسم، فكيف بانتقال الأثر من تبدل حلاوة الطاعة بحلاوة المعصية؟! ولذاذة الخدمة بلذاذة الشهوة؟! هذا في تبدل الأثر، فكيف بتبدل الوصف؟ بعد أن كنت موصوفاً عند الله بمحاسن الصفات، فيعكس الأمر، فتتصف بمساوي الحالات، هذا في تبدل الوصف، فكيف بتبدل الرتبة؟ فبعد أن كنت عند الله من الصالحين صرت عنده من المفسدين، وبعد أن كنت عند الله من المتقين، صرت عنده من الخائنين، فإن كانت الذنوب منفتحة في وجهك فاستغث بالله، والجاإ إليه، واحث التراب على رأسك وقل: اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة، وزر ضرائع الأولياء والصالحين، وقل: يا أرحم الراحمين!.

في هذا المقطع يقارن ابن عطاء الله -رحمه الله- بين الطائع والعاصي: فالعبد الطائع محسن لنفسه، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: 7].

والعبد الذي أحسن لنفسه بطاعة ربه هو المفلح يوم القيامة، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَالَّذِينَ لَا يَنْهَوْنَ زُنُوجَهُمْ وَهُمْ لَا يَسْرِخُونَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ هَادُونَ لِحُكْمِ رَبِّهِمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [النساء: 64].

أما العبد المنغمس بالمعاصي فهو مسيء لنفسه مُعرض عن طاعة ربه، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [النساء: 64].

أما انتقال الأثر: فالطائع يتلذذ بحلاوة الطاعة، بل لو يعلم الملوك ما عليه الطائع من السرور لقاتلوه على ذلك بالسيوف كما قال أحد الصالحين. فلا حلاوة إلا حلاوة الطاعة لأن الطاعة هي مهمة العبد في هذه الدنيا، أما العاصي فيظن أنه يتلذذ بالمعصية ولا والله ليست هذه لذة لأنها تنتهي بانتهاء الفعل ويعقبها ضنك العيش في الدنيا والعذاب في القبر ويوم القيامة.

لذلك كان جزاء الذي يغض بصره عن النظر المحرم للمرأة إيماناً يملأ قلبه، قال ﷺ: «النظرة إلى المرأة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها خفتي أبدلتها إيماناً يجد حلاوته في قلبه»^(١).

أما تبديل الأثر: فالطائع يلتذ بخدمة الله وطاعته وتطبيق شرعه، والعاصي يلتذ بشهوته ويغفل عن الله سبحانه.

أما تبديل الوصف: فالطائع عبد لله معترف بعبوديته متواضع حسن الخلق، مراقب لله في السر والعلانية، يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رحيم بمن حوله واصل لرحمه منفق لماله في سبيل الله. أما العاصي فمتصف بالتكبر وقسوة القلب والغفلة والحسد وقطيعة الرحم.

أما تبديل المرتبة: فالطائع متصف بالصلاح يعمل الصالحات ويعتقد أنها خير وأبقى كما قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46].

أما العاصي فهو فاسد المزاج يسعى وراء شهوته وينسى حق الله عليه، فهو من المفسدين. والطائع متصف بالتقوى فهو ممثل لأوامر ربه مبتعد عن نواهيه، يعمل لآخرته ويتذكر ما به إلى الله، قال تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابٍ﴾ [ص: 49].

أما العاصي فهو خائن للأمانة مبتعد عن صراط الله، متبع للسبل كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153].

ثم ينصح ابن عطاء الله العبد الذي انفتحت في وجهه الذنوب أن يستغيث بالله وأن يلجأ إليه وحده سبحانه كما أوصى رسول الله ﷺ ابن عباس بقوله: «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»^(٢).

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم (10362): 10 / 173. والحاكم في المستدرک رقم (7875): 349 / 4. وقال: صحيح الإسناد.

(2) الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم (2440). وقال: حسن صحيح.

ثم يقول ابن عطاء الله مخاطباً العبد المذنب: «واحث التراب على رأسك وقل: اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة».

فحشى التراب على الرأس دليل الندم على فقد شيء عزيز كما كانت النساء تفعل في الجاهلية عندما يموت الزوج أو الابن. فالمذنب فقد لذة الطاعة ووقع في شرك الندم بسبب معصيته فعليه أن يعترف بضعفه أمام قوة الله وبذله أمام عزة الله، يقول ابن عطاء الله في إحدى حِكَمِهِ: «تحقق بأوصافك يُمْدُك بأوصافه! تحقق بذلك يُمْدُك بعزه، تحقق بعجزك يُمْدُك بقدرته، تحقق بضعفك يُمْدُك بحوله وقوته».

واعلم أن الله يستجيب دعاء المضطر المكسور الفؤاد، ألم يقل سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

ألم يقل سيدنا محمد ﷺ: «إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبين»⁽¹⁾.

إن الباري سبحانه مستغن عن عبادتنا ولا تضره معصيتنا لكنه سبحانه يتحجب إلى العاصي رحمة به ونجاة له من العذاب فيخاطبه قائلاً: مهما ابتعدت عني، مهما قصر-ت في أداء حقوقي، فأنا قريب أسمع دعاءك، فتوجه بقلبك إلي واطلب مني أحقق لك ما تريد؟!

واختر من الأوقات للدعاء أفضلها كوقت السحر، إذ يقول ﷺ: «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاء، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل فيعطى؟ هل من داع فيُستجاب له؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ حتى ينفجر الفجر»⁽²⁾.

(1) الترمذي في الدعوات عن رسول الله، باب: في دعاء النبي، رقم (3479). وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الدعاء، باب: رفع اليدين في الدعاء، رقم (3855). وأحمد باقي مسند الأنصار، حديث سلمان الفارسي، رقم (22600).

(2) سبق تخريجه، ص: 22.

ويقول ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه في جوف الليل»^(١). فإن استطعت أن تكون
من يذكر الله في تلك الساعة فقد حزت الفضيلة.

إن لحظة إدبار الليل وإقبال النهار يمكنك أن تنهض لتبني مستقبلك.

أبعد هذا كله تبقى شاردة عن صراطه، إن الباري سبحانه يدلك على الخير وأنت تهرب
منه وينجيك من العذاب الذي تزج نفسك فيه!! وما هذا إلا من الكبر، فإياك والكبر فإنه
سبب الطرد من رحمة الله، وما لعن إبليس وطُرد من رحمة الله ومن الجنة إلا بسبب كبره، قال
تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾
البقرة: 34].

وإياك أن تُصرف عن آيات الله بسبب كبر تلبست به، قال تعالى: ﴿سَاصِرُونَ عَنِ آيَاتِ
الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146].

ثم يقول ابن عطاء الله: «وزر ضرائح الأولياء والصالحين، وقل: يا أرحم الراحمين».

مشروعية زيارة القبور:

أما زيارة القبور فمشروعية بقوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فقد أذن لمحمد في
زيارة قبر أمه فزوروها فإنها تذكر الآخرة»^(٢).

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يذهب كل ليلة إلى البقيع يسلم على أهله ويدعو
ويستغفر لهم^(٣).

(1) سبق تخريجه، ص: 22.

(2) أخرجه الترمذي، كتاب: الجنائز عن رسول الله، باب: ما جاء في الرخصة في زيارة القبور، رقم (974).

(3) مسلم، كتاب الجنائز، باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (1618).

يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: «أما زيارة مسجده وقبره ﷺ فهي من أعظم القربات إلى الله عز وجل. أجمع على ذلك جماهير المسلمين في كل عصر إلى يومنا هذا. لم يخالف في ذلك إلا ابن تيمية غفر الله له، فقد ذهب إلى أن زيارة قبره ﷺ غير مشروعة. ودليل ما أجمع عليه المسلمين من دونه عدة وجوه:

الوجه الأول: ما ذكرته من زيارته ﷺ لأهله في البقيع.

الوجه الثاني: ما ثبت من إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على زيارة قبره ﷺ والسلام عليه كلما مروا على الروضة الشريفة. روى ذلك الأئمة الأعلام وجماهير العلماء بمن فيهم ابن تيمية رحمه الله.

الوجه الثالث: ما ثبت من زيارة كثير من الصحابة قبره ﷺ، فمنهم بلال ؓ، رواه ابن عساكر بإسناد جيد، وابن عمر فيما رواه مالك في الموطأ وأبو أيوب فيما رواه أحمد، دون أن يؤثر عنهم أو عن أحد منهم أي استنكار أو نقد لذلك.

الوجه الرابع: ما رواه أحمد ؓ بسند صحيح أن النبي ﷺ لما خرج يودع معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري»⁽¹⁾. فكلمة «لعل» تأتي في أعم الأحوال للرجاء، وإذا دخلت (أن) على خبرها تمحضت للعرض والرجاء، فالجملتان تطوي بصريح البيان على توصية معاذ أن يعرج عند رجوعه إلى المدينة على مسجده ﷺ وقبره ليسلم عليه»⁽²⁾.

هذا في مشروعية زيارة القبور، أما الحكمة من الزيارة فالواقف أمام القبر يتفكر في حاله وأنه سيُدفن في التراب مثل صاحب القبر وحيداً فريداً لا يدفع عنه العذاب إلا عمله بعد أن

(1) أخرجه أحمد، مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل، رقم (21042).

(2) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 560، 561.

تركه أهله وماله وولده، وهذا التفكير يجعل صاحب الذنب يرجع إلى ربه ويتوب إليه، إن زيارة القبور تذكر بحقيقة الجسد وبحقيقة هذه الدنيا.

فليُنظر المسلم إلى الذين بنوا القصور أين هم الآن، إنهم في قبورهم يحاسبون على ما فرطوا في جنب الله، فليُنظر بعين بصيرته إلى الذين لا يُصلُّون أن أول ما سيحاسبون عليه يوم القيامة هو الصلاة^(١)، فليُنظر إلى الذين لا يزكُّون ولا يقرؤون القرآن وكانوا يغتابون الناس وينهشون أعراضهم ماذا حل بهم في قبورهم، فليُنظر إلى الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات كيف يعذبون في قبورهم ثم سيحاسبون حساباً عسيراً يوم القيامة.

ثم قال ابن عطاء الله - رحمه الله -: «زر ضرائح الأولياء والصالحين وقل: يا أرحم الراحمين». أي اطلب من الله الرحمة بك والعفو عن تقصيرك واسأله المعونة على الطاعة والهداية والاستقامة، افعل ذلك بقلب منكسر ونفس متواضعة لخالقها معترفة بتقصيرها. فإن ذلك يثمر المغفرة من الله سبحانه ومحو الذنب عند ذلك عد إلى بيتك وابدأ حياتك بطاعة جديدة!!.

* * *

(١) النسائي في الصلاة، باب: المحاسبة على الصلاة، رقم (325): 1 / 143. وأبو داود في الصلاة، باب: قول النبي: «كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه»، رقم (864): 1 / 229. وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب: ما جاء في أول ما يحاسب به العبد الصلاة، رقم (1425): 1 / 458. والترمذي في الصلاة، باب: ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، رقم (463): 2 / 269. وأحمد، باقي مسند المكثرين، رقم (9210).

الذنوب الصغائر والكبائر

يقول ابن عطاء الله: وأضر ما يُخاف عليك مُحقرات الذنوب، لأن الكبائر ربما استعظمتها فُتِبَتْ منها، واستحققت الصغائر فلم تتب منها، فمثالك كمن وجد أسداً فخلَّصه الله منه، فوجد بعده خمسين ذئباً فغلبوه، قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: 15]. والكبيرة حقيرة في كرم الله، وإذا أصررت على الصغيرة صارت كبيرة، لأن السم يقتل مع صغره، والصغيرة: كالشرارة من النار، والشرارة قد تُحرق بلدة.

من تجرأ على صغيرة وقع في كبيرة:

قسم العلماء الذنوب إلى صغائر وكبائر، فالصغائر هي: الذنوب التي لم يرد فيها تهديد أو وعيد من الله تعالى أو من رسوله ﷺ.

والكبائر هي: التي ورد فيها تهديد أو وعيد من الله تعالى أو من رسوله ﷺ.

والقرآن يفرق بين أنواع الذنوب، فيقول سبحانه: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾ [النساء: 31]. وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: 32]. واللمم: الذنوب الصغيرة.

ونجد أحاديث للنبي ﷺ يفرق فيها بين الصغائر والكبائر منها:

- ما رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغش الكبائر»^(١).

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان. . رقم

- وفي الصحيحين قال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وجلس وكان متكئاً فقال: ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»^(١).

وفي البخاري عن عبد الله بن عمر قال: قلت يا رسول الله: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: إن ذلك لعظيم ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك»^(٢).

فمن الكبائر ما يأتي:

أ- الإشراك بالله والوعيد الذي جاء في حقه قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48].

ب- عقوق الوالدين: والوعيد الذي جاء في حقه، المفهوم المخالف لقول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23].

ج- قتل النفس، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: 93].

وكثير من الكبائر ذكرت في القرآن وذكر الوعيد عليها كأكل الربا والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، والزنى، وكتان الشهادة، واليمين الغموس، وشرب الخمر، وترك الصلاة، ونقض العهد، وقطيعة الرحم . . .

(1) أخرجه البخاري، كتاب: الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور، رقم (2460). ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، رقم (126).

(2) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ رقم (4117).

وكمثال على الصغائر ما رواه البخاري عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبله فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114]. فقال الرجل: يا رسول الله: ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم»⁽¹⁾.

وما رواه البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يبقى من درنه»⁽²⁾. قالوا: لا يبقى من درنه شيئاً. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»⁽³⁾.

فالخطايا هنا هي: الذنوب الصغائر لأنه شبه الخطايا بالدرن، والدرن صغير بالنسبة إلى ما هو أكبر منه من القروح والخراجات.

وصغائر الذنوب خطيرة لأن المسلم لا يأبه لها بل يستهزئ بها لكنها عظيمة عند الله، لأن الذنوب صغيرها وكبيرها نهي الله عنها، فمهما كان نوع الذنب فالعبد قد تجرأ على الله وعصى- أو امره، قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: 15].

ثم يضرب ابن عطاء الله - رحمه الله - المثل لمن يجتنب الكبائر ويقع في الصغائر فيقول: «فمثالك كمن وجد أسداً فخلصه الله منه فوجد بعده خمسين ذئباً فغلبوه».

ويشهد لهذا ما قاله أبو أيوب الأنصاري: «إن الرجل ليعمل الحسنة فيشق بها وينسى المحقرات فيلقى الله وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة فلا يزال منها مشفقاً حتى يلقي الله آمناً»⁽⁴⁾.

(1) البخاري في مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة، رقم (495).

(2) الدرر: الوسخ.

(3) البخاري في مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة، رقم (497). ومسلم في المساجد ومواضع

الصلاة، باب: المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا وترفع به، رقم (1071).

(4) فتح الباري، ابن حجر: 11 / 330.

وانظر كيف تكون الصغائر - كما يراها الناس - سبباً لدخول النار في قصة المرأة التي قال عنها النبي ﷺ: «عُذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتهها إذ هي حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»^(١) (٢).

ثم إن الصغائر ومحقرات الذنوب هي المجال الذي يوسوس فيه الشيطان بحرية مما ينتج عنه كثرة المعاصي والفتن بدليل ما قاله المصطفى ﷺ في حجة الوداع: «... وإن الشيطان قد أيس من أن يعبد في بلادكم هذه أبداً ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم فسيرضى به»^(٣).

فقد أيس الشيطان أن يطاع في عبادة غير الله أي بالكفر، أو أيس أن يعود المؤمنون إلى عبادة الأصنام، لكن سيطيعه الناس فيما دون الكفر من القتل والنهب والكبائر وتحقير الصغائر فيؤدي هذا إلى الفتن والحروب، يدل عليه قوله ﷺ في حديث آخر: «إن الشيطان قد يئس من أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»^(٤).

وفي سنن ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة إياك ومحقرات الأعمال فإن لها من الله طالباً»^(٥).

(١) خشاش الأرض: حشرات الأرض وهوامها.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث النار، رقم (3223).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن عن رسول الله، باب: ما جاء دماؤكم وأموالكم عليكم حرام. رقم (2085). وابن ماجه، كتاب: المناسك، باب: الخطبة يوم النحر، رقم (3046).

(٤) الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب: ما جاء في التباعد، رقم (1860). وقال: حديث حسن.

(٥) ابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الذنوب، رقم (4233). وإسناده صحيح ورجاله ثقات كما في الزوائد.

ثم يقول ابن عطاء الله: «والكبيرة حقيرة في كرم الله».

هذه العبارة جاءت في الحكم العطائية بلفظ: «لا صغيرة إذا قابلتك عدله ولا كبيرة إذا واجهك فضله».

فإذا واجهنا الله سبحانه بعدله لم تبق لنا صغيرة وعادت الصغائر كبائر، وإذا واجهنا الحق تعالى بفضله وكرمه وإحسانه لم تبق لنا كبيرة وعادت الكبائر صغائر.

ولذلك كان بعضهم يدعو فيقول: «واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك، والإساءة لا تضر - مع الحب منك».

ثم يقول ابن عطاء الله: «والصغيرة كالشرارة من النار، والشرارة قد تحرق بلدة».

فإيّاك وعدم المبالاة بالصغائر فإن معظم النار من مستصغر الشرر، وإن كثرة الصغائر تهلك المرة وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً لذلك فيما يرويه عنه ابن مسعود إذ يقول: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهنّ مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل الآخر يجيء بالعود حتى جمعوا سواداً فأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها»⁽¹⁾.

إن المؤمن يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيئ لأنه يقدر الله قدره فيعلم قدر المعصي فيرى الصغيرة كبيرة، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها⁽²⁾.

(1) أخرجه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود، رقم (3627).

(2) الإحياء، الغزالي: 4 / 48.

أما الفاجر فهو الذي لا يأبه لذنبه صغيراً كان أو كبيراً، هذه الحقيقة بينها المصطفى ﷺ بقوله: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبلٍ يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباتٍ مر على أنفه فقال به هكذا، قال أبو شهاب: بيده فوق أنفه»^(١).

متى يصبح الذنب الصغير كبيراً:

والذنب الصغير يصح مع الإصرار والمواظبة عليه كبيراً، لذلك قيل: لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبير مع الاستغفار. ويشهد لهذا أن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لأصحابه: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات»^(٢).

وخطر المواظبة على الصغائر أعظم من اقتراف ذنب كبير. وفي ذلك يقول الإمام الغزالي رحمه الله: «كبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها، ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توالٍ تؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر، ولذلك قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل»^(٣).

والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب، إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر، فقلما يزي الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات، وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة

(١) البخاري، كتاب: الدعوات، باب: التوبة، رقم (5933).

(٢) البخاري، كتاب: الرقاق، باب: ما تبقى من محقرات الذنوب، رقم (6011).

(٣) البخاري، كتاب: اللباس، باب: الجلوس على الحصى ونحوه، رقم (5413). ومسلم، كتاب: صلاة

المسافر وقصرها، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، رقم (1303).

سابقة ومعاداة، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولو تصور كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واطب الإنسان عليها عمره»^(١).

والصغيرة تكبر بالسرور بها والفرح والتبجح، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمفارقتها إياه، كما يقول: أما رأيته كيف فرقت عرضة، ويقول المناظر في مناظرته: أما رأيته كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ويقول في التجارة: أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبته في ماله وكيف استحمقته؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات^(٢).

والذنب الصغير يكبر بذكره بعد إتيانه، أو يأتيه في مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعته ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه، والحمل عليه، وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر، وفي الحديث الصحيح: «كل الناس معافى إلا المجاهرين يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه»^(٣).

والذنب الصغير يكبر إذا كان المذنب عالماً يُقنّدى به، فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه. مثل أن يلبس العالم الإبريسم^(٤) ويركب مراكب الذهب، ومثل أن يأخذ مال الشبهة... ويطلق لسانه في أعراض الناس وتعديه باللسان في المناظرة. وقصده الاستخفاف واشتغاله من

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي: 4 / 47، 48.

(٢) المرجع السابق: 4 / 49.

(٣) إحياء علوم الدين، الغزالي: 4 / 49.

(٤) الإبريسم: أحسن الحرير، المعجم الوسيط، ص: 2.

العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة، فهذه ذنوب يُتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيراً في العالم آماداً (أزماناً) متطاولة. . . . قال بعضهم: مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها. . . . وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا. فإذا ترك التجميل والميل إلى الدنيا وقع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم، وإن مال إلى التجميل مالت طباع من دونه إلى التشبه به، ولا يقدرّون على التجميل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك»^(١).

أمثلة عن صفائر يتسامح بها الناس:

وإليك أمثلة أخرى عن صفائر يتسامح بها الناس، يقول ابن الجوزي:

«كثير من الناس يتسامحون في أمور يظنونها قريبة، وهي تقدح في الأصول كاستعارة طلاب العلم جزءاً لا يردونه، وقصد الدخول على من يأكل ليأكل معه، وتناول طعام لم يُدع الإنسان إليه، والتسامح بعرض العدو التذاذاً بذلك، واستصغاراً لمثل هذا الذنب، وإطلاق البصر في المحرم هواناً بتلك الخطيئة، وفتوى من لا يعلم لثلا يقال: هو جاهل، ونحو ذلك مما يظن صغيراً وهو عظيم، وأهون ما يصنع ذلك بصاحبه أن يحطه من مرتبة المتميزين بين الناس، ومن مقام رفعة القدر عن الحق، وربما قيل له بلسان الحق: يا من أوّمن على أمر يسير فخان، كيف ترجو بتدليك رضا الديان؟!».

قال بعض السلف: تساحت بلقمة، فتناولتها، فأنا اليوم أربعين سنة إلى خلف، فאלله الله اسمعوا ممن قد جرب، كونوا على مراقبة، وانظروا في العواقب، واعرفوا عظمة الناهي، واحذروا من نفخة تحتقر، وشررة تستصغر، فربما أحرقت بلداً»^(٢).

(١) إحياء علوم الدين: 4 / 50.

(٢) صيد الخاطر، ص/ 171.

ومن الأمثلة أيضاً على معاصي أو حتى مكروهات يستهين بها مرتكبوها ويعاودون ارتكابها في استخفاف بها، مطمئنين إلى أنها من اللّم الذي سيعفو الله عنه.

من ذلك إصرار بعض الناس على الأكل بالشمال طبقاً لما يقتضيه عرف السكين والشوكة. مع أن الأكل باليمين ليس من الفرائض ولو أن مسلماً تغلبت عليه عادة درج عليها فأخذ يأكل باليسرى بدل اليمين، لما كان في ذلك حرج ولما ارتكب من جراء ذلك وزراً، ولكن الذين يستخفون بهذا الأدب النبوي ويرفعون عن الالتزام به استكباراً أو إثارةً لتقليد درج عليه عشاق الحضارة الآسنة. فإن هؤلاء قد تلبّسوا بمعصية كبيرة، وربما تسرّبت إلى مكمن الإيذان فزلزلته أو قضت عليه.

يتضح هذا جلياً من الحديث الذي رواه سلمة بن الأكوع أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: «كل بيمينك. قال: لا أستطيع، قال: لا أستطيع، قال: لا استطعت! ما منعه إلا الكبر. فما رفعها إلى فمه» (١).

ومن الأمثلة على ذلك استهانة بعض الناس بارتكاب محرمات بلغهم أنها من الصغائر، أو وجدوا أن القرآن ينعتها باللمم، أنواع من الاختلاط اللا منضبط بالنساء. . ومقدمات محرمة من العلاقة بهن، وكتساهل النساء في إبراز بعض مظاهر الإغراء والزينة، وكالركون إلى بعض المحرمات في نظام التعامل التجاري، اعتماداً على أنها من الصغائر التي وعد الله بالصفح عنها.

إن هذه المحرمات هي فعلاً من الصغائر إذا تورط الإنسان بها بسائق ضعف وتغلب شهوة، وقاده ذلك إلى الندم والحياء من الله تعالى واللجوء إليه بالتوبة والاستغفار فإن الله عز وجل يعُدها عليه صغيرة، ويعامله عليها بفضلته ورحمته، فيغفرها له كما وعد.

(١) أخرجه مسلم في الأشربة، باب: آداب الطعام والشراب وأحكامها، رقم (3766).

أما إن ارتكبتها آمناً مطمئناً، مستبشراً بأنه لن يلقي على أعقابها من الله أي مكروهه، ناسياً بأنه قد أهدر بارتكابه لها حق الله عليه وهو أن يطيعه ولا يعصيه، فإنها تتحول باستهتاره هذا من صغيرة إلى كبيرة، إذ لا كبيرة أكبر، بعد الكفر والشرك بالله، من الاستخفاف بقول الله تعالى . . . وعندئذ يواجهه عدل الله . . . ومن البدهة بمكان أن الله عز وجل لو قضى - بأن يحاسب الناس بعيداً عما قد ألزم ذاته العلية من الرحمة بهم والمغفرة لهم، محاكماً لهم إلى ميزان عدله المجرد، إذاً هلكوا جميعاً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾^(١) [فاطر: 45].

* * *

(١) شرح الحكم العطائية، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 2 / 231 وما بعدها.

المعصية قد تكون سببا لتوقف الرزق

يقول ابن عطاء الله: اعلم يا هذا إياك والمعصية فقد تكون سبباً لتوقف الرزق، فاطلب من الله التوبة، فإن قُبِلت وإلا فاستغث بالله، وقل: ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]. ولا تكن كمن أتى عليه أربعون سنة ولم يقرع باب الله قط.

وهذه حقيقة أخرى يجب أن يدركها كل مسلم وهي: أن المعصية من أسباب حرمان العبد من الرزق، يؤكد هذا قوله ﷺ: «لا يزيد في العمر إلا البر ولا يرد القدر إلا الدعاء، وإن الرجل ليُحرَم الرزق بخطيئة يعملها»⁽¹⁾.

ويقول ﷺ: «لا ينال ما عند الله بسخطه»⁽²⁾.

والرزق هنا يشمل كل أنواعه، فالمال رزق والبركة رزق والعافية رزق والفهم والحكمة رزق، وانظر للإمام الشافعي - رحمه الله - حين شكاً لشيخه وكيع سوء حفظه فأرشدته إلى ترك المعاصي فقال:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي فأرشدني إلى تركِ المعاصي
وأخبرني بأنَّ العلمَ نورٌ ونورُ الله لا يُهدى لعاصي

فإذا أردت استمرار رزق الله ودوام بركته عليك فالزم طاعته وتب إليه وتفكر في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 282].

(1) ابن ماجه، المقدمة، باب: في القدر، رقم (87)، وأحمد، باقي مسند الأنصار، ومن حديث ثوبان، رقم (21352) ضعيف بالزيادة.

(2) أخرجه الحاكم بلفظ مقارب، رقم (2136): 2 / 5. والطبراني في الكبير، رقم (7694): 8 / 166. وهو حديث ضعيف، انظر: مجمع الزوائد، الهيثمي: 4 / 72.

فَإِنْ قُبِلَتْ تَوْبَتُكَ فَاحْمَدِ اللَّهَ وَإِلَّا فَاسْتَغِثْ بِاللَّهِ بِقَلْبٍ مَكْسُورٍ وَقُلْ: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

وإيّاك أن يمتد بك العمر وأنت غافل لم تقرر باب الله قط: فأين أنت وماذا تفعل؟ هل استغثت عن الله! هل أنت ترزق نفسك وتشفي مرضك!.

أم أن النعم التي تتمتع بها مصدرها هو الله وحده، فهو الذي أعطى كل شيء وبه يد كل شيء، قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2].

فاقرر باب الله واطلب منه دوام الصحة والعافية ودوام الرزق، واسأله من خزائنه التي لا تنفذ، وتب إلى الله من هذه الغفلة.

الحكمة من اختيار ابن عطاء الله سن الأربعين:

أما اختيار ابن عطاء الله لسن الأربعين فله حكمة، فإن كمال العقل وإنما يكون عند مقاربة الأربعين، فإذا مرت عليك أربعون سنة ولم تقرر باب الله قط وأنت في تمام عقلك فمتى تقرر بابه؟! ولذلك بعث النبي ﷺ في الأربعين من عمره وكذلك باقي الأنبياء، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْ...﴾ [الأحقاف: 15].

فالعقل من فهم مقادير الزمان، فإنه كما قيل: قبل البلوغ صبي ليس على عمره عيار، إلا أن يُرزق فطنه، ففي بعض الصبيان فطنة تحثهم من الصغر على اكتساب المكارم والعلوم، فإذا بلغ فليعلم أنه زمان المجاهدة للهوى، وتعلم العلم، فإذا رزق الأولاد فهو زمان الكسب للمعاملة، فإذا بلغ الأربعين انتهى تمامه، وقضى مناسك الأجل، ولم يبق الانحدار إلى الوطن: فينبغي له عند تمام الأربعين أن يجعل جل همّه التزود للآخرة، ويكون كل تلمحه لما بين يديه،

ويأخذ في استعداد للرحيل. . . . فإذا بلغ الستين فقد أعذر الله إليه في الأجل^(١)، وجائز في الزمن، فليقبل بكليته إلى جمع زاده، وتمهيو آلات السفر. . . وكذا علت سنه فينبغي أن يزيد اجتهاده، فإذا دخل في عشر الثمانين فليس الوداع^(٢).

* * *

(١) يشير إلى قوله: «قد أعذر الله إلى امرئ آخره حتى بلغه ستين سنة: البخاري، كتاب الرقاق، باب: من بلغ

ستين سنة. . . رقم (5940).

(2) صيد الخاطر، ص: 301.

وَأَوْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا

يقول ابن عطاء الله: قال الله تعالى: ﴿وَأَوْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: 189]. فاعلم أن باب الرزق طاعة الرازق، فكيف يطلب منه بمعصيته؟ أم كيف يستمطر فضله بمخالفته؟ وقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «لَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ بِسَخْطِهِ»^(١). أي: لا يطلب رزقه إلا برضاه، وقد قال تعالى مبيناً ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2].

ولهذا المعنى قال الشيخ أبو العباس رضي الله تعالى عنه في حربه لما قال له: وأعطنا كذا وكذا، قال: والرزق الهني الذي لا حجاب به في الدنيا، ولا حساب ولا سؤال ولا عقاب عليه في الآخرة، فأهله على بساط علم التوحيد والشرع سالمون من الهوى والشهوة والطمع. هذا تأكيد للحقيقة السابقة بأن الرزق مقترن مع الطاعة وأن المعصية سبب من أسباب حرمان الرزق.

فالرزق الهني هو الذي يعتقد فيه العبد أن الله هو الرازق وحده لا سعيه وجهده، فيأخذ العبد بأسباب الرزق دون شهوة وطمع.

* * *

(١) لم أعثر عليه فيما اطلعت عليه من كتب الحديث.

حقيقة سوء الخاتمة

يقول ابن عطاء الله: وأكثر ما يُخاف عليك سوء الخاتمة -والعياذ بالله تعالى- بسبب إطفاء جمرة الإيمان بسواد العصيان، وهي الذنب على الذنب حتى يسود القلب من غير توبة.

سوء الخاتمة أمر خطير جداً، لأن به يختم للإنسان عمله عند موته، وهو العنوان الذي ينتقل من هذه الدنيا بعمل صالح، وبين من ينتقل بعمل سيئ.

إن سوء الخاتمة نتيجة للتصرفات والأفعال التي كان القلب مشغولاً بها في هذه الحياة، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره، ويستمر هذا الذكر لساعة الموت فترى العبد في سكرات الموت يغلب عليه ما كان مشغولاً به في حياته.

وقد قسم الإمام الغزالي رحمه الله سوء الخاتمة على رتبتين^(١):

الأولى: وهي أعظم من الأخرى وهي ما يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله: إما الشك في الاعتقاد، وإما الجحود لنعم الله، فتُقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك، فيكون ما غلب على القلب من عقده الجحود حجاً بينه وبين الله تعالى أبداً، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلّد.

وأما الثانية: وهي دون الأولى أن يغلب على القلب عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها، فتُقبض الروح في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكساً رأسه إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها.

والمرء يموت على ما عاش عليه، ولا يمكن تغيير هذه الحال بعد الموت إذا بطلت الأعمال، وعند ذلك تعظم الحسرة، ولذلك روي عن بقال أنه كان يلقن عند الموت كلمتي

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي: 4 / 251.

الشهادة فيقول: خمسة ستة أربعة، فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت.

أما سبب سوء الخاتمة فهو كثرة المعاصي والذنوب وإن قوي الإيمان، أو ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي، وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلّف والعادة، وجميع ما أَلَفَهُ الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته. . . فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت؟! فربما تُقبض روحه عند غلبة شهوة من الشهوات ومعصية من المعاصي، فيتقيد بها قلبه ويصير محجوباً عن الله تعالى، ثم يقول الإمام رحمه الله: «فعلى هذا -والعلم عند الله- من كانت الخياطة أكثر أشغاله، فإنك تراه يومئذ إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها وبيل أصبعه التي لها عادة بالكستبان^(١) ويأخذ الإزار من فوقه ويقدره ويشبره كأنه يتعاطى تفصيله، ثم يمد يده إلى المقرض، ومن أراد أن يكف خواطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر في فطامه نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب. . . فإنه يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر- على ما مات عليه، ولذلك نُقل عن بقال أنه كان يُلقن عند الموت كلمتي الشهادة فيقول: خمسة ستة أربعة، فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت»^(٢).

هذا هو معنى سوء الخاتمة وهذا هو خطرهما والأحاديث الآتية توضح هذا المعنى وتؤيده:

الحديث الأول : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق أن خلق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً أو أربعين ليلة ثم يكون علفة مثله ثم

(١) الكستبان: أو الكستبان: وهو قمع يغطي طرف إصبع الخياط ليقيه وخز الإبر وهي فارسية الأصل.

المعجم الوسيط، ص: 819.

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي: 4 / 256، 257.

يكون مضغاً مثله ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيداً ثم ينفخ فيه الروح، فإن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن أحدكم يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(١).

إنه في الظاهر يعمل بعمل أهل الجنة لكن هذا العمل شوب بالكبر والرياء وحب مدح الناس أي لا يتبغي بعمله هذا وجه الله وإنما المصلحة الدنيوية. يشرح هذه الحقيقة رواية مسلم لهذا الحديث إذ يقول فيه ﷺ: «إن الرجل يعمل بعلم أهل الجنة فيما يبدو للناس...»^(٢).

الحديث الثاني: عن أبي هريرة ؓ قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ خير فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدعي الإسلام: «هذا من أهل النار، فلما حضر القتال قاتل الرجل من أشد القتال وكثرت به الجراح فأثبتته فجاء رجل من أصحاب النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت الرجل الذي تحدثت أنه من أهل النار قد قاتل في سبيل الله من أشد القتال فكثرت به الجراح، فقال النبي ﷺ: أما إنه من أهل النار، فكاد بعض المسلمين يرتاب، فبينما هو على ذلك إذ وجد الرجل ألم الجراح، فأهوى بيده إلى كنانته فانتزع منها سهماً فانتحربها فاشتد رجال من المسلمين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله صدق الله حديثك قد انتحرب فلان فقتل نفسه فقال رسول الله ﷺ: يا بلال قم فأذن لا يدخل الجنة إلا مؤمن وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»^(٣).

الحديث الثالث: عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل يعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى حاف في وصيته فيؤختم له بشر- عمله فيدخل النار، وإن

(١) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْثَالُ عِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾، رقم (6900).

(٢) مسلم، كتاب: الإيثار، باب: غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه...، رقم (163).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: القدر، باب: العمل بالخواتيم، رقم (6116).

الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيُختم له بخير عمله فيدخل الجنة»، قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾⁽¹⁾.

من هذه الأحاديث وغيرها يتبين بأن العمر بآخره، والعمل بخاتمته، من أحدث قبل السلام بطل ما مضى من صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعاً، ومن أساء في آخر عمره لقي ربه بذلك الوجه⁽³⁾.

* * *

(1) تكملة الآيات: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿[النساء: 13 - 14].

(2) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الوصايا، باب: الحيف في الوصية، رقم (2695).

(3) الفوائد، ابن القيم، ص: 93.

الذل يترافق مع المعصية

يقول ابن عطاء الله: لا يكون معصية إلا والذل معها، أفتعصيه ويُعزك؟! كلا، فقد ربط العز مع الطاعة، والذل مع المعصية، فصارت طاعته نوراً وعزاً وكشف حجاب، وضدها معصية وظلمة وذلاً وحجاباً بينك وبينه.

هذه الحقيقة ذكرها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: 10]. وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8].

فالعزة تكون في طاعة الله وتنفيذ أوامره ووصاياه، والذل يترافق مع المعصية. وعندما التزم صحابة رسول الله الكرام بطاعة ربهم أكرمهم الله بالعز والنصر- على الأعداء. كان الواحد منهم قبل إسلامه ذليلاً لا يؤبه له، كانوا على هامش التاريخ، لكنهم عندما دخلوا الإسلام صار الواحد منهم كربعي بن عامر يدخل على رستم قائد الفرس بكل عزة غير مبال بقوته وجبروته وسطوته.

وإليك خبره كما ورد في تاريخ الطبري: «دخل ربعي بن عامر إلى خيمة رستم المجهزة بكل أنواع العظمة والزينة، دخل يسير على فرس معه سيف ملفوف بثوب خلق، ورمحه وقوسه ونبله، فلما انتهى إلى أدنى البسط قيل له أنزل، فحمل فرسه على البساط فلما استوى عليه نزل عليها وربطها بوسادتين ثم أدخل الحبل فيهما، ثم قالوا له: ضع سلاحك فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتوني فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت فأخبروا رستم. فقال: ائذنوا له هل هو إلا رجل واحد، فأقبل يتوكأ على رمحه وزجه نصل يقارب الخطر ويزد النارق والبسط فما ترك لهم نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده وتركه مخرقاً، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس وجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتك هذه. الكلمة رستم فقال: ما جاء بكم؟ قال: الله، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور

الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نقضي إلى موعود الله. قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي. . . » (١).

وإليك صورة أخرى من عز الإسلام والمسلمين الصحابي خبيب بن عدي ؓ عندما ظفر به المشركون غدرًا، وأخذوا يمثلون به حيًّا، فيقطعون من جسده القطعة تلو القطعة وهم يقولون له: أتحب أن يكون محمدٌ مكانك وأنت ناجٍ؟ فيقول والدماء تنزف منه: والله ما أحب أن أكون آمنًا وادعًا في أهلي وولدي، وأن محمدًا يوخز بشوكه؟! (٢).

فهذه والله هي العزة، أما حالنا اليوم -للأسف الشديد- فبسبب كثرة معاصينا وجرأتنا على الله قد أصابنا الله بالذل وسلط علينا أعطاءنا، وأذهب مخافتنا من قلوبهم، بعد أن كان جيش المسلمين يُنصر بالعرب وتنخلع له قلوب الأعداء من مسافة شهر، قال ؓ: «نصرتُ بالعرب مسيرة شهر» (٣).

وتحقق فينا قوله ؓ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلةٍ نحن يومئذٍ، قال: بل أنتم يومئذٍ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله ما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت» (٤).

(١) تاريخ الطبري: 2 / 401.

(٢) صور من حياة الصحابة، د. عبد الرحمن رأفت باشا، ص: 8.

(٣) البخاري، كتاب: التيمم، باب: قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ، رقم (323).
ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، رقم (810).

(٤) أبو داود في الملاحم، باب: في تداعي الأمم على الإسلام، رقم (3745). وأحمد، باقي مسند الأنصار، ومن حديث ثوبان، (21363).

إن عمر العظيم ﷺ فهم هذا الدرس فقال لأبي عبيدة بن الجراح: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العزة بغير ذلك أذلنا الله».

فيا أمة الإسلام إن نصرنا مشروط بتوبتنا إلى الله، وباعتصامنا بحبل الله المتين، نصرنا مرهون بانتصارنا على نفوسنا وأن نكون على قلب رجل واحد نحب بعضنا ونرحم بعضنا، قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١).

نصرنا وعزتنا مرتبط بالذلة لله قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ أُذْلَةٍ﴾ [ال عمران: 123] أذلة الله، متحققين بصفة العبودية له، أذلة على المسلمين لكنهم أعزة على الكافرين، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذْلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ءَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54].

وتأمل كيف أعز الله يوسف عليه السلام لما امتنع عن الوقوع في المعصية، وكيف أذل إخوته بعدما تآمروا عليه، لقد مكن الله ليوسف في الأرض، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: 21].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 56]. ثم قال سبحانه على لسان إخوة يوسف: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ﴾ [يوسف: 91].

ثم يعترف سيدنا يوسف عليه السلام بهذا العز وبهذه النعم فيقول: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ نُوَفِّي مُسْلِمًا وَآلْحَقِّنِي بِآلِصَلْدِجِينَ﴾ [يوسف: 101].

أما ذل إخوة يوسف عليهم السلام فيوم دخلوا على يوسف.

(1) البخاري، كتاب: الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (12). ومسلم، كتاب: الإيمان: الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (64).

قالوا: ﴿يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُّزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: 88].

فمن تأمل قولهم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ عرف شؤم الزلل، ومن تدبر أحوالهم شعر الفرق بينهم وبين أخيهـم—وإن كانت توبتهم قبلت— فإنه ليس من رقع وخاط كمن ثوبه صحيح ورب عظم هيض لم ينجر، فإن جبر فعلى وهي^(١).

إن ظلمة المعاصي تبدو على العاصين ويشعر بها من حولهم، فمن عرف بالزنى أو بغيره من الموبقات ترى القلوب تنفر عنه وكأنه لبس ظلمة يراها غيره. بعكس من تغلب على هواه فترى القلوب تحبه وتميل إليه من نور الطاعة التي تنعكس عليه.

ثم قال ابن عطاء الله: «فصارت طاعته نوراً وعزاً وكشف حجاب، وضدها معصية وظلمة وذلاً وحجاباً بينك وبينه».

الطاعة نور للقلب يزيل منه ظلمة المعصية، والطاعة عز المسلمين أفراداً وجماعات وكشف حجاب إذ الحجاب سببه المعاصي والذنوب وعندما يتطهر القلب من المعاصي بالطاعة فقد زال الحجاب واقترب العبد من ربه وفهم كلامه، قال تعالى واصفاً الكافرين: ﴿جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: 57]. وقال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُورُونَ﴾ [المطففين: 14 - 15].

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «وفي قوة قهر الهوى لذة تزيد على كل لذة، ألا ترى إلى كل مغلوب الهوى كيف يكون ذليلاً، لأنه قُهر، بخلاف غالب الهوى، فإنه يكون قوي القلب، عزيزاً لأنه قهر^(٢)».

* * *

(1) صيد الخاطر، ص: 161.

(2) المرجع السابق، ص: 93.

مثال الإيمان معك إذا عصيت الله كالشمس المكسوفة

يقول ابن عطاء الله: مثال الإيمان معك إذا عصيت الله تعالى كالشمس المكسوفة، أو كالسراج إذا غطيته بصحفة^(١)، وهو موجود ولكن يمنع نوره الغطاء. ثم إنك تحضر المجلس في الجامع ليتوفر عقلك، وإن كان عمرك قليلاً يصير كثيراً لحصول الإيمان والخشوع والخشية والتدبر والتذكر ونحوها، فلو عرفت الإيمان ما قاربت العصيان، فلا غريم أمطل من النفس، ولا عدو أعظم من الشيطان، ولا معارض أقوى من الهوى.

هذا المثال يبين خطر المعصية على نور الإيمان في قلب المؤمن، فإن المعصية - كما مر سابقاً - حجابٌ على القلب يمنع النور من الانتشار فيبقى القلب مظلماً، والقلب المظلم قلب سيئ جداً، ويزداد سوء كلما ازداد هذا الحجاب.

فاللهم نور قلوبنا بالإيمان ولا تحجبنا بالمعاصي عنك، بل طهر قلوبنا من النفاق والرياء والكذب والخيانة آمين.

ثم يحثنا نور قلوبنا بالإيمان ولا تحجبنا بالمعاصي عنك، بل طهر قلوبنا من النفاق والرياء والكذب والخيانة آمين.

ثم يحثنا ابن عطاء الله لكي نتخلص من حجاب المعاصي أن نحضر مجالس العلم حتى نعرف حقوق الله علينا، ونشعر بعظمته، ونحس بالخشية والخشوع تسري في كيانتنا.

أما أكثر الناس - وللأسف - فإنهم معرضون عن تلك المجالس، مشغولون بديناهم... مع أن الله أنعم علينا بأشياء تُعيننا على التذكر إن لم نحضر مجالس العلم، منها المذيع وآلة التسجيل والتلفاز والكمبيوتر والإنترنت والكتاب، فلا عذر لمن يقصر في هذا الأمر.

(١) الصحفة: وعاء متوسط في الحجم.

ثم يقول ابن عطاء الله: «فلا غريم أمطل من النفس ولا عدو أعظم من الشيطان، ولا معارض أقوى من الهوى».

فهذه أعداء الإنسان تصده عن السير إلى الله.

أما النفس والأهواء فالخلاص منهما بمخالفتهما. كما قال الشاعر:
وخالف النفس والأهواء واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

وأما الشيطان فباتخاذ عدواً كما أمرنا الباري سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: 6].

* * *

المنكوب من عصي الله

يقول ابن عطاء الله: لا تعتقد أن المنكوب من كان في الأسر أو في السجن، بل المنكوب من عصي الله وأدخل في هذه المملكة الطاهرة نجاسة المعصية.
كفى بك جهلاً أن يعاملك مولاك بالوفاء وأنت تعامله بالجفاء.

هذا جانب آخر من آثار المعصية على العاصي، فالله سبحانه وتعالى خلقنا على هذه الأرض الطاهرة وأمرنا بطاعته، ويأبى الإنسان إلا أن يملأ هذه الأرض بنجاسة المعاصي والذنوب وهي طبعاً نجاسة معنوية لا حسية. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: 41].

ثم يبين ابن عطاء الله جانباً من نعم الله علينا فإله سبحانه يعاملنا بالوفاء، فهو وعد من أطاعه بالعيش الرغيد في الدنيا والسعادة الدائمة في الآخرة، وتكفل سبحانه برزق المخلوقات كلها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 56 - 58]. وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِئَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]. ويأبى الإنسان إلا أن يعامل ربه بالجفاء والخيانة، وبدل الطاعة عصي مولاة وملأ الأرض بأصناف وأنواع لا تحصى - من الذنوب والجراة على الله سبحانه، فinsi العهد الذي طالبه الله به فحق عليه قول الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: 14].

«فيا أيتها النفس: لقد أعطاك ربك ما لم تأمل، وبلغك ما لم تطلب، وستر عليك من قبيحك ما لو فاح ضجت المشام، فما هذا الضجيج من فوات كمال الأغراض، أعملوكة أنت أم حرة»^(١).

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 232.

قصة عبد الله بن أبي نوح مع رجل يعظه:

وقال عبد الله بن أبي نوح: قال لي رجل على بعض السواحل: كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملتك بما تحب؟ .

قلت: ما أحصي ذلك كثرة.

قال: فهل قصدت إليه في أمر كربك فخذلك؟.

قلت: لا والله، ولكنه أحسن إلي وأعانني.

قلت: فهل سألته شيئاً فلم يعطله؟.

قلت: وهل منعني شيئاً سألته، ما سألته شيئاً قط إلا أعطاني ولا استعنت به إلا أعانني.

قال: أرايت لو أن بعض بني آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك؟.

قلت: ما كنت أقدر له على مكافأة ولا جزاء.

قال: فربك أحق وأمرى أن تدأب نفسك له في أداء شكره وهو المحسن قديماً وحديثاً إليك، والله لشكره أيسر من مكافأة عباده، إنه تبارك وتعالى رضي من العباد بالحمد والشكر^(١).

هناك ناسٌ لهم طباع غبية كثود، تسدي إليهم الجميل بعد الجميل فكأنما ترقم على ماء، لا يبقى في نفوسهم أثر منه، ولا اعتراف به.

وكثير ممن نلقى على هذا الغرار الرديء يجيء أحدهم بطلبه فتحس أنه محرج، وأنه محتبسٌ في دائرة هذه الحاجة التي يفترقها.

فإذا قضيتها له ولى مدبراً ولم يعقب! . . .

(١) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 214، 215.

كثير من الناس يعاملون الله بهذا الأسلوب الجاحد، يسألونه فيجيبهم فإذا رجع أحدهم بيده حافلةً مر كأن لم يدع ربه إلى ضرر مسه، مردون شكر ودون حياء...
ونحن - جماهير البشر - نصبح ونمسي - نخوض في نعم الله خوضاً، فلماذا لا نوقظ أفكارنا الغافية إلى معرفة المنن؟ ولماذا لا نوقظ ضمائرنا لشكر مرسلها؟^(١).

* * *

(١) المرجع السابق، ص: 216، 217.

طهر قلبك من العيب يفتح لك باب الغيب

يقول ابن عطاء الله: إذا انغمست في جيفة الدنيا، لا تصلح للمحاضرة، لأن حضرة الله تعالى لا يدخلها المتلطفون بنجاسة المعصية، فطهر قلبك من العيب يفتح لك باب الغيب، وتب إلى الله وارجع إليه بالإجابة والذكر، ومن أدام قرع الباب يفتح له، ولولا الملاطفة ما قلنا لك ذلك، لأنه كما قالت رابعة العدوية رضي الله عنها: متى أغلق هذا الباب حتى يُفتح؟!.

الجيفة هي جثة الميت إذا أنتنت، فمن انشغل بالجيف كيف له أن يلقي الله سبحانه؟! يقول ابن القيم رحمه الله: «تزيت الجنة للخطاب فجدوا في تحصيل المهر، وتعرف رب العزة إلى المحبين بأسمائه وصفاته فعملوا على اللقاء، وأنت مشغول بالجيف»^(١).

والجيف هنا هي الشهوات والمعاصي، هب أنك تريد الدخول إلى غرفة استقبال، كل شيء فيها نظيف لماع وحذاؤك متسخ ومتنجس، ألا تخجل من نفسك؟!.

فاحذر عندما تصلي وتقف في حضرة الله تخاطبه سبحانه وتعالى أن تكون متلطفاً بنجاسة المعصية.

واحذر عندما تدعوه أو تقرأ كلامه أن تكون على تلك الصفة السيئة. ثم يقول ابن عطاء الله «فطهر قلبك من العيب يفتح لك باب الغيب».

أي طهر قلبك من المساوئ والعيوب لما في التطهير من الخضوع والانكسار والذل والافتقار، فإذا تطهر القلب من العيوب قرب من حضرة الله وقرع الباب وطلب رفع الحجاب عندئذ يفتح باب الغيب وهي أسرار يُطلع عليها الباري سبحانه عباده الصالحين على حسب قربهم منه^(٢).

ولنزد شرحاً قول ابن عطاء الله رحمه الله «فطهر قلبك من العيب يفتح لك باب الغيب».

(١) الفوائد، ابن القيم، ص: 99.

(٢) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 172.

فالإنسان يُبصر من الكون الظاهر فقط ويغيب عن خفاياه وبواطنه، أما الكشف الرباني الذي يتمتع الله به من شاء من عباده، فيجلو به أمام بصره أو بصيرته ما شاء من أسرار ملكوته ومن معارف مخلوقاته العلوية والسفلية وما بينهما، فمنحة ومكرمة لا حد لها... ربما أكرم بها رسله وأنبياءه، وربما أكرم بها بعضاً من أصفیائه وعباده الصالحين.

فمن هذه الأسرار الكونية التي كشف الله الغطاء عنها لرسوله المصطفى ما أخبر عنه رسول الله ﷺ من حديث أبي ذر رضي الله عنه: «إني أرى ما لا ترون، أظن السواء وحق لها أن تنط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلتذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى»⁽¹⁾.

ومن ذلك ما أخبر عنه المصطفى ﷺ بقوله: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها»⁽²⁾.

وربما كشف الله من ذلك جوانب لأوليائه وعباده الربانيين، وقد علمت القاعدة المتفق عليها عند جميع علماء العقيدة الإسلامية، وهي قولهم: «كل ما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي».

وقد وقع ذلك لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه - عندما نادى، وهو في المدينة، سارية وهو في مشارف بلاد الشام: «يا سارية الجبل الجبل»⁽³⁾.

(1) الترمذي في الزهد عن رسول الله: في قول النبي ﷺ: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، رقم (2234). وقال: حديث حسن غريب. وابن ماجه في الزهد، باب: الحزن والبكاء، رقم (4180). وأحمد في مسند الأنصار، حديث أبي ذر الغفاري، رقم (20539).

(2) مسلم في الفتن، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم (5144).

(3) شرح الحكم العطائية، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 4 / 96 وما بعدها.

ثم يقول ابن عطاء الله: «تب إلى الله وارجع إليه بالإنيابة والذكر، ومن أدام قرع الباب يفتح له، ولولا الملاطفة ما قلنا لك ذلك، لأنه كما قالت رابعة العدوية رضي الله عنها: متى أُغلق هذا الباب حتى يُفتح؟!».

فالتوبة إلى الله تكون من المعاصي والذنوب والعزم على عدم العودة لذلك. وتكون التوبة من الغفلة بملء القلب بذكر الله سبحانه وتعالى، وتكون بقرع باب الله عز وجل حتى يفتح له. وهذا الباب هو باب التوبة والإنيابة إلى الله عز وجل وهو باب عظيم مفتوح دوماً حتى تطلع الشمس من مغربها. يشهد لهذا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»^(١).

وكما قالت رابعة العدوية رضي الله عنها: متى أُغلق هذا الباب حتى يُفتح جواباً لمن خاطبها قائلاً: من أدام قرع الباب يُفتح له؟!.

* * *

(١) مسلم في الذكر والدعاء، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (٤٨٧٢).

حلاوة الطاعة وخطر المعصية

يقول ابن عطاء الله: إذا ثقلت عليك الطاعة والعبادة، ولم تجد لها حلاوة في قلبك، وتخف عليك المعصية، وتجد لها حلاوة، فاعلم أنك لم تصدق في توبتك، فإنه لو صح الأصل لصح الفرع.

علامة صحة التوبة وقبولها أن تشعر بلذة الطاعة وحلاوتها في قلبك لأنك بتوبتك أعلنت ندمك على المعصية وشعورك بالحياء من الله سبحانه وعقدك العزم على المنهج الذي أمرك الله به، هذا هو الأصل وإذا صح الأصل صح الفرع الذي هو وجود حلاوة الطاعات وثقل المعاصي على القلوب. قال ﷺ: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا، قال أبو شهاب بيده فوق أنفه»^(١).



(١) سبق تخريجه ، ص : 72.

إنما عصى الله من لم يعرف عقابه

يقول ابن عطاء الله: قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]. إنما عصى الله من لم يعرف عقابه، وإنما ترك طاعة الله من لم يعرف ثوابه، فلو اطلعوا على عذاب النار لما غفلوا، ولو اطلعوا على ما أعد الله لأهل الجنة، لما تركوها طرفة عين.

إن عقاب الله للعصاة والمجرمين عظيم كما أن ثوابه للطائعين عظيم أيضاً، والعاقل هو الذي يبعد جسده عن العذاب، أما الأحق فهو كالفراس الذي يهوي إلى النار تحرقه ظاناً أن النجاة هناك، وإليك نماذج من أهوال أهل النار يوم القيامة علك تحذر أن تكون من أهلها:

صور من عقاب الله للعصاة وما أعد الله لأهل الجنة:

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ^(١٥) مِّنْ وَرَآيِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَكِيدٍ^(١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ. وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: 15 - 17].

فهذه حال كل متجبر معاند للحق، إنه يتمنى الموت لكن هيهات، إن أسباب الموت تحيط به من كل جانب لكنه لا يموت حتى يستكمل عذابه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا^(٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾ [مريم: 85 - 86].

فواحد يخرج من قبره فإذا البراق على رأس القبر والتاج والحلل، فيلبس ويركب إلى جنات النعيم وآخر يخرج من قبره فإذا الزبانية والأغلال والأنكال، يسحب إلى النار على وجهه أما تسمع قوله تعالى: ﴿أَفَنَنْتَقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرًا مِّن يَأْتِيهِ ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [فصلت: 40].

فأعظم برجل يشاهد تلك الأهوال والزلازل والوقائع، وهو آمن لا يدخل قلبه فزع، ولا يكون على قلبه ثقل !!.

وتأمل هاتين الآيتين إحداهما قوله تعالى: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝١٦﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿[الإنسان: 21 - 22]. وقوله تعالى حكاية عن آخرين: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۝١٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿[المؤمنون: 107 - 108].

وتأمل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٦﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٧ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوزٍ ۝١٧﴾ [هود: 106 - 108].

وفوق نعيم الجنة رضوان الله تعالى، وأعظم من عذاب النار سخط الله والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 15].

ويقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿[التوبة: 20 - 21].

وقال عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72].

ويقول سبحانه: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِعَآيِنَتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿[الأعراف: 8 - 9]. فخف من ميزانك أن تثقل السيئات وتطيش الحسنات.

(1) مجذوذ: مقطوع عنهم.

أما ما أعد الله لأهل الجنة فيشير إليه قوله سبحانه: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: 15]. فالمرأة في الدنيا يطرأ عليها أشياء قد تنفر منها إما خلقاً وإما خلقاً، أما نساء أهل الجنة فهم «الخور العين» وصفهم ربنا سبحانه بقوله «أزواج مطهرة» أي مطهرة من كل عيب يعيب نساء الدنيا.

ونساء الدنيا كلما تقدمت في السن تقل نضارتها ويخبو جمالها شيئاً فشيئاً، أما في الآخرة فالمرأة مطهرة من ذلك فتظل على نضارتها وجمالها إلى الأبد.

ثم يبين سبحانه أن الله اشترى من المجاهدين في سبيله أنفسهم وأعطاهم ثمنها وهو الجنة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْنِلُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنُلُونَ وَيُقْنِلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111].

وانظر إلى أصناف من النعيم أَعَدَّها الله لعباده المتقين فيقول سبحانه: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: 15].

فأنهار الجنة غير آسنة لا يتغير طعمها، أما في الدنيا فإذا توقف جريان النهر تغير طعم الماء ولونه وأصبح آسناً.

وفي الجنة أنهار من لبن لم يتغير طعمه، أما لبن الدنيا فإذا خزن يتغير طعمه.

وفي الجنة أنهار من خمر لذة للشاربين، أما خمر الدنيا فإنه لاذع لذلك تجدد الذي يشرب الخمرة يسكبها في فمه مرة واحدة ثم إنها تفسد العقول أما خمرة الآخرة فلا تغتال العقول.

وفي الجنة أنهار من عسل مصفى من الشوائب، أما عسل الدنيا فإنك تجد فيه كثيراً من الشوائب سواء من الأشجار أو من الجبال التي وجد النحل فيها.

وفي المقابل تأمل فيما أعدّه الله لأهل النار من الذل والمهانة والعذاب.

يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُّوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيِّنَا نَرُدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 27].

فكم ذاقوا في تلك اللحظة من الذل والمهانة والندم؟.

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمَا تَضَيَّتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَنِهِمْ جُلُودًا عَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: 56].

وانظر إلى هذا المشهد الذي يأخذ بالألباب فيقول عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَكُمْ وَأَبَتْ أَلَّهُ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: 50 - 51].

وعندما يعطش أهل النار يغانوا بماء مغلي قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 29].

وانظر إلى عقاب المنافقين وما أكثر النفاق في مجتمعنا -وللأسف-: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: 138]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145]. وهذا يدل على أن للنار درجات كما أن للجنة درجات. واستمع إلى حسرة الكافرين وماذا يطلبون من أهل الجنة، قال سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 50].

روي أن الحسن البصري - رحمه الله تعالى - أعطي شربة ماء بارد، فلما أخذ القدر عثي- عليه وسقط من يده، فلما أفاق قيل له: ما لك يا أبا سعيد؟ قال: ذكرت أمنية أهل النار حين يقولون لأهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾^(١) [الأعراف: 50].

أما جزاء الذي يكنزون الذهب والفضة ولا يزكونها ولا ينفقون منها في سبيل الله فهو كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢) يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهِمَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: 34 - 35].

ثم أخبرنا سبحانه كيف أن النار تحيط بأهلها من كل جهة فيقول سبحانه: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبُدُونَ﴾ [الزمر: 16].

ويقول سبحانه في آية أخرى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾^(٣) وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 41]. فالمهاد من تحتهم والأغطية من فوقهم.

فهل تقوى على حر النار يا مسكين أم تقول كما قال الإمام الشافعي - رحمه الله - :

جسمى على البرد ليس يقوى ولا على شدة الحرارة

فكيف يقوى على حميم وقودها الناس والحجارة

بعد كل هذه الآيات يتضح ما ذكره ابن عطاء الله في هذه الفقرة بقوله: «إنما عصي الله من لم يعرف عقابه، وإنما ترك طاعة الله من لم يعرف ثوابه، فلو اطلَّعوا على عذاب النار لما غفلوا، ولو اطلَّعوا على ما أعد الله لأهل الجنة، لما تركوها طرفة عين».

* * *

(1) أيها الولد، الغزالي، ص: 16.

(2) الغواش: الأغطية.

من الناس من هو جعلي الهمة فراشي العقل

يقول ابن عطاء الله: من الناس من هو جعلي الهمة ^(١). فراشي العقل، فإن الفراش لا يزال يرمي نفسه في النار حتى تحرقه، فكذلك أنت ترمي نفسك في نار المعصية عمداً، فلو أردت السير إلى الله تعالى شددت المحزم، فأين الهمة؟!.

يقول ﷺ: «مثلي ومثلكم رجل أوقد ناراً فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها وهو يذُبُّهن عنها وأنا آخذٌ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي» ^(٢).

يستغرب ابن عطاء الله من ضعف همة كثير من المسلمين في عصره، فماذا نقول نحن في عصرنا؟! لا نقول: أين الهمة؟! بل ينبغي أن نقول: فقدت الهمة؟. فالكل منغمس في أودية الدنيا، همته محصورة في جمع المال والتفاخر بالمسكن والسيارة والشهادة والأولاد، أما لعمل الآخرة فهو جعلي الهمة، كسلان يثاقل إلى الأرض؟!.

ما هي الهمة:

والهمة تعني: تعلق العبد بالحق سبحانه لا بأحد من خلقه فيزهد القلب بالدنيا وأهلها ويتبعد عن المعاصي والذنوب.

إن مثل فاقد الهمة كالفراس يرمي بنفسه إلى النار والعاصي يرمي بنفسه إلى نار جهنم، يقول ابن الجوزي: «يجب أن تكون همة المؤمن متعلقة بالآخرة، فكل ما في الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة، وكل من شغله شيء فهمته شغله. . . والمؤمن إذا رأى ظلمة، ذكر ظلمة القبر، وإن رأى الناس نياماً، ذكر الموتى في القبور، وإن رأى لذة، ذكر الجنة وذلك يشغله عن كل مأثم.

(١) الجعل: حشرة تدب على الأرض، تعيش في الأرواث وإذا شمت الورد ماتت. الحيوان، الجاحظ: ٢/

(٢) مسلم في الفضائل، باب: شفقتة على أمته، رقم (4236).

وأعظم ما عنده أنه يتخايل البقاء في الجنة، وأن بقاءه لا ينقطع، ولا يزول، ولا يعتريه نغصة، فيكاد إذا تخايل نفسه متقلباً في تلك اللذات الدائمة التي لا تفنى، يطيش فرحاً، ويسهل عليه ما في الطريق إليها من ألم ومرض وابتلاء، وفقد محبوب، وهجوم الموت، ومعالجة غُصصه... فإن التائق إلى العافية لا يبالي بمرارة الدواء، ويعلم أن جودة الثمر هناك على مقدار جودة البذر ها هنا، فهو يتخير الأجود، ويغتتم الزرع في تشرين العُمَر من غير فتور.

ثم يتخايل المؤمن دخول النار والعقوبة، فيتغنص عيشه، ويقوى قلقه، فعنده بالحالين شغل عن الدنيا وما فيها، فقلبه هائم في بیداء الشوق تارة، وفي صحراء الخوف أخرى، فما يرى البنيان، فإذا نازله الموت، قوى ظنه الملائكة بالسلامة، ورجى لنفسه النجاة، فيهنو عليه، فإذا نزل إلى القبر، وجاءه يسألونه، قال بعضهم لبعض: دعوه فما استراح إلا الساعة. نسأل الله عز وجل يقظة تامة تحركنا إلى طلب الفضائل، وتمنعنا من اختيار الرذائل! فإنه إن وفق، وإلا فلا نافع»^(١).

* * *

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 428، 429.

إذا نمت على تخليط رأيت التخليط في منامك

يقول ابن عطاء الله: إذا نمت على تخليط، رأيت التخليط في منامك، بل ينبغي لك أن تنام على طهارة وتوبة، فيفتح^(١) قلبك بنوره، ولكن من كان في نهاره لاغياً، كان في ليله عن الله ساهياً.

وأضر ما يخاف على المريض التخليط، وما من أحد إلا وهو مريض الهوى، والحمية عنه رأس الدواء، والتخليط يديم المرض.

وكذلك المسلم يضره التخليط في نهاره ويكون ذلك بمخالطة أرباب الدنيا وإظهار الزهد لهم والتخشع لاجتلاب محبتهم، ويكون بالغفلة عن ذكر الله والصلاة على رسول الله ﷺ ويكون بعدم الخشوع في الصلاة واللغو في الكلام والغيبة والسب والشتم، فكيف من كانت هذه حاله يتنور قلبه. فينبغي أن لا ينام المسلم إلا على طهارة من الذنوب والتوبة منها كل يوم. وقد علمنا النبي ﷺ عندما نضع رأسنا على الفراش نريد النوم أن نقول: «باسمك اللهم وضعت جنبي وبك أرفعه اللهم إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»^(٢).

* * *

(١) في المطبوع: فيفتاح.

(٢) البخاري في الدعوات، باب: التعوذ والقراءة عند المنام، رقم (5845). ومسلم في الذكر والدعاء، باب، ما يقول عند النوم، رقم (4889).

ما أرخص نفسك عليك

يقول ابن عطاء الله: تكون في وسط النهر وأنت عطشان، تكون معه في الحضرة وأنت تطلب الاتصال، كأن العباد لم يتواصلوا للآخرة إلا بكثرة المأكّل والمشرب، أو قيل لهم هذه توصلكم إلى الآخرة، ولكن ما أرخص نفسك عليك! لولا هوانها عليك ما عرضتها لعذاب الله تعالى، وما أغلاها في طلب الدنيا وجمعها، والعجب كل العجب فيمن يسأل المنجم^(١) عن حاله، ولا يسأل كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

إن العبد عندما يطيع الله سبحانه فإنه يقربه ويدخله حضرته، فالصلاة والذكر والدعاء وقراءة القرآن كلها دخول في حضرة الله، فكيف تغفل عن هذا؟. إن الغافل عن هذا قد حُرّم لذة القرب والمناجاة مثاله مثال من هو في وسط النهر لكنه عطشان!؟.

وإن من شأن من يهتم بشهواته من المأكّل والمشرب أن تحجبه هذه عن حضرة الله سبحانه. إنه بذلك يعرض نفسه لعذاب الله وسخطه.

إن من شأن العبد الطائع أن يفهم كلام الله ويلتزم بسنة رسول الله ولكن الذي يعطى نفسه هواها في طلب الدنيا فهو لا يدري ماذا يفعل وماذا يفعل له. إن شأنه شأن من يسأل المنجم عن حاله والمنجم من عاداته أن يكذب مئة كذبة حتى يصدق مرة واحدة.

فارجع بنفسك إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ واتبع أوامر الله وابتعد عما نهى عنه فهذا هو الصواب.

* * *

(١) المنجم: هو الكاهن وهو الذي يتعلم النجوم للحكم بها وعليها، وينسب التأثيرات من الخير والشر إليها. انظر: المعجز الوسيط، ص 941.

إن طلبت أن تعصيه فاطلب مكاناً لا يراك فيه

يقول ابن عطاء الله: إن طلبت أن تعصيه، فاطلب مكاناً لا يراك فيه أحد، واطلب القوة من غيره تعصيه بها، ولن تستطيع شيئاً من ذلك لأن الكل من نعمه، أتأخذ نعمه وتعصيه بها؟! بل تفتنت في المخالفات، مرة بالغيبة ومرة بالنميمة ومرة بالنظر، وما بنيت في سبعين سنة تهدمه في نفس واحد.

يا من يعرض نفسه في الشهوات والمعاصي، ليتك أعطيتها ذلك في المباحات.

قصة إبراهيم بن أدهم مع رجل:

روي أن رجلاً أتى إبراهيم بن أدهم فقال:

يا أبا إسحاق.. إني مسرف على نفسي، فاعرض علي ما يكون لها زاجراً، أو مستنقذاً..

قال إبراهيم: إن قبلت مني خمس خصال فقدرت عليها، لم تضرك المعصية.

قال: هات يا أبا إسحاق.

قال إبراهيم: أما الأولى، فإذا أردت أن تعصي الله عز وجل فلا تأكل رزقه.

قال: فمن أين أكل، وكل ما في الأرض رزقه؟

قال: أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتعصيه؟

قال: لا.. هات الثانية.

قال: وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده.

قال: هذه أعظم من الأولى يا إبراهيم، إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين

أسكن؟

قال: يا هذا، أفيلق بك أن تأكل رزقه، وتسكن بلاده، وتعصيه؟

قال: لا.. هات الثالثة.

قال: وإذا أردت أن تعصيه فانظر موضعاً لا يراك فيه.. فاعصه فيه..

قال: يا إبراهيم ما هذا؟ وهو يطلع على ما في السر؟.

قال: يا هذا أفيحسن بك أن تأكل رزقه، وتسكن بلاده، وتعصيه، وهو يراك ويعلم ما تجاهر به؟.

قال: لا هات. . الرابعة.

قال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له أخربي حتى أتوب.

قال: لا يقبل مني. . .

قال: يا هذا إذا كنت لا تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب، وتعلم أنه إذا جاء لم يكن له تأخير، فكيف ترجو وجه الخلاص؟.

قال: إذا جاءك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم.

قال: إنهم لا يقبلون مني.

قال: فكيف ترجو النجاة إذا؟.

قال: يا إبراهيم. . حسبي حسبي، أنا أستغفر الله وأتوب إليه ^(١).

ثم يقول ابن عطاء الله: «يا من يعرض نفسه في الشهوات والمعاصي، ليتك أعطيتها ذلك في المباحات».

إن الإسلام يحرم على الناس أموراً كثيرة، ويعترض رغبات شتى يظن البعض أن الحياة تطيب بها، إن الإسلام ما حرم طيباً ولا حظر خيراً، وكل ما تعتدل به الطبيعة البشرية وتستقيم فهو مباح لها.

إن الله ما حرم على الناس إلا ما علم أنه يزيغ بهم عن الصراط، ويتسارع بهم إلى الشر.

* * *

(١) انظر: مع الله، محمد الغزالي، ص: 451، 452.

إن تفضل عليك بالتوبة فمن فضله

سبحانه تبت إليه

يقول ابن عطاء الله: إن تفضل عليك بالتوبة فمن فضله سبحانه وتعالى تبت إليه، وإنك تذنّب سبعين سنة فتتوب إليه في نفس واحد فيمحو ما عملته في تلك المدة، «والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»⁽¹⁾، فالمؤمن كلما ذكر ذنبه حزن، وكلما ذكر طاعته فرح.

هناك من يذنب ويغفل إلى أن يموت وهذا خاتمته سيئة والعياذ بالله، أما الذي يبصر - معصيته ويتوب منها فإن هذا فضل من الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا أُنْتَقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

والمؤمن يحس بعظمة الذنب وبعظمة الخالق سبحانه، ومن رحمته سبحانه أن الله فتح باب التوبة، ولم يحدد لها زماناً أو مكاناً، فمن أذنّب سبعين سنة وتاب إلى الله توبة صادقة فإن الله يمحو كل تلك الذنوب، فكيف بعد هذا الإكرام يصّر العبد على معصيته؟! إنه يُعرض عن كرم الكريم.

ثم يقول ابن عطاء الله: «المؤمن كلما ذكر ذنبه حزن، وكلما ذكر طاعته فرح».

ألا ترى الأنبياء عليهم السلام عندما يلجأ إليهم الخلق يوم القيامة طالبين منهم أن يشفعوا لهم عند ربهم يعتذرون ويذكرون ذنباً مع أن الله قد غفر لهم ذلك⁽²⁾.

فالمؤمن كلما ذكر ذنبه حزن، وكلما ذكر طاعته فرح أن وفقه الله لتلك الطاعة والتي كانت سبباً لكسب رضا الله ودخول جنته.

* * *

(1) سبق تخريجه، ص 32.

(2) البخاري في أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْسَلْنَا نُوحًا﴾، رقم (3092).

تقهره بالضحك كأنك جاوزت الصراط

يقول ابن عطاء الله: تقهره بالضحك كأنك جاوزت الصراط، وعبرت^(١) النيران؟ ! إذا لم يكن بينك وبين الله ورع يحجزك عن المعاصي إذا خلوت، وإلا فضع التراب على رأسك لقوله ﷺ: «من لم يكن له ورع يحجزه عن معاصي الله إذا خلا، لم يعبا الله بشيء من عمله»^(٢).

هذه والله حالنا نمرح ونضحك وما ندري أنحن من الأتقياء المقبولين أم من الأشقياء المحرومين، ومن هذا خاف الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال: «أخاف أن يكون اطلع على بعض ذنوبي، فقال: لا غفرت لك»^(٣).

فيا من تقهره بالضحك، هل نسيت الصراط، أم نسيت عشرات النيران، كان ﷺ جل ضحكه التبسم، وكان يقول: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»^(٤).

والصراط جسرٌ يضرب على جهنم كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ، ففي الصحيحين: «ويضرب جسر جهنم فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذٍ اللهم سلم. وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله. فتخطف الناس بأعمالهم منهم الموبق بعمله. ومنهم المخردل ثم ينجو...»^(٥).

فهل تهبأت لذلك الصراط، هل ستمر عليه وتنجو أم تخطفك تلك الأشواك لتلقيك في نار جهنم؟!

(١) في المطبوع: وعثرات.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب، الديلمي، رقم (2964): 2 / 193.

(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 277.

(٤) البخاري، الرقاق، باب: قول النبي: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، رقم (6004).

(٥) البخاري، الرقاق، باب: الصراط جسر جهنم، رقم (6088).

ثم يقول ابن عطاء الله «إذا لم يكن بينك وبين الله ورع يحجزك عن المعاصي إذا خلوت، وإلا فضع التراب على رأسك...».

هذه الحقيقة واقع عند كثير من المسلمين، فالإنسان بطبيعته ينجل من الناس ويستحي منهم أن يرتكب ذنباً أمامهم، أما إذا خلا بنفسه تراه يقترف أنواع الذنوب جميعاً.

إن الخوف والحياء ينبغي أن يكون من الله وحده، ولا قيمة لمدح الناس وذمهم. وقد عاتب الله سبحانه نبيه ﷺ فقال له: ﴿وَتَخَشَّى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: 41]. وقال سبحانه: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 41]. ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ [البقرة: 40].

إن العمل من أجل الناس يُبْطِئ ويذهب ثوابه، وإن المسلم الذي يراقب الله سبحانه لا يجرؤ على معصيته سواء أكان بين الناس أم خالياً بنفسه. ومن قدر الله قدره فهو يخاف منه في كل الأوقات.

تعريف الورع وحقيقته:

والورع مشتق من الخوف كما تقول: راعني فلان وروعني، أي خوفني.

وفي الاصطلاح: إسقاط ما حاك في القلب مع ترك ما اشتبه عليك، وترك ما يريبك إلى ما لا يريبك. فعلى قدر هيجان الخوف يكون الورع.

والورع مشتق أيضاً من الابتعاد والمجانبة فهو يعني: مجانبته ما كره الله عز وجل، ومنه قول العرب: ورع الإبل أي جنبها⁽¹⁾.

إن الورع هو الذي يتوقى المحرمات أمام الناس وفي الخلوة، أي يخاف الله في الخلوة والجلوة.

والورع يطهر دنس القلب ونجاسته كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته.

(1) آداب النفوس، الحارث المحاسبي، ص: 124.

وقد جمع النبي ﷺ الورع في كلمة واحدة، فقال: «من حُسن المرء تركه ما لا يُعنيه»^(١). فهذا يعم الترك لما لا يعني: من الكلام والنظر، والاستماع، والبطش والمشي- والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة.

وعند ابن ماجه مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «يا أبا هريرة كن ورعاً، تكن أعبد الناس»^(٢).

فالورع سببه الخشية من الله، وقدوتنا في ذلك المصطفى ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لأكلها ثم أخشى أن تكون صدقة فألقها»^(٣).

هذه هي مدرسة النبي ﷺ التي تخرج فيها أولئك النبلاء فرسول الله ﷺ يرسم الخطوط العريضة بالتعامل مع الله في هذه الدنيا في أي أمر من أمورهما حتى ولو كانت ثمرة لم يأكلها ﷺ لأنه خشي أن تكون من تمر الصدقة، فالقضية عند رسول الله ﷺ شبهة فامتنع عن أكل تلك التمرة؟!.

وأخرج البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج أي يأتيه بما يكسبه من بيعه وشرائه، وكان أبو بكر يأكل من خراجه أي من كسب هذا الغلام، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أندري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال الغلام: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته فأعطاني

(١) الترمذي في الزهد، باب: فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم (2239).

وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وابن ماجه في الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة، رقم (3966).

(٢) ابن ماجه في الزهد، باب: الورع والتقوى، رقم (4207).

(٣) البخاري في اللقطة، باب: إذا وجد ثمرة في الطريق، رقم (2253).

بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فماذا فعل أبو بكر الصديق؟. القضية شبهة عنده، تقول عائشة: فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه»^(١).

هكذا يكون الورع، هكذا يكون التقى، هكذا تكون مراقبة الله جل وعلا، لا يريد الصديق أن يختلط في بطنه شيء فيه شبهة حرام فضلاً على شيء من المحرمات فأين الناس اليوم من هؤلاء؟!.

قصة رائعة عن الورع:

ويذكر ابن الجوزي في صفوة الصفوة أن امرأة جاءت إلى الإمام أحمد لتسأله عن مسألة جعلت الإمام يبكي، تقول المرأة: إننا نغزل على سطوحنا فيمر بنا مشاعل الظاهرية -أي نور الحرس الذين يجوبون الطرقات بالليل -ويقع الشعاع علينا - أي للحظات -أفيجوز لنا الغزل في شعاعها.

وفي رواية أخرى كان السؤال: إنني أغزل في السطح على ضوء السراج وربما انطفأ السراج فأغزل على ضوء القمر أفيجب علي يا إمام عند بيع غزلي أن أبين للمشتري ما غزلته تحت السراج مما غزلته تحت ضوء القمر. سبحان الله!! إلى هذا الحد يبلغ الخوف من الله ومراقبة الجبار في قلب هذه المرأة. فأين نساؤنا من هذه المرأة؟! فيبكي الإمام أحمد ﷺ وهو إمام الورع وألف كتاباً سماه «الورع».

ويقول للمرأة: من أنت يا أمة الله، من أنت عافاك الله، فتذكر أنها أخت لبشر -الحافي، فيبكي ويشند بكاءه ويقول: من بيتكم يخرج الورع الصادق^(٢).

(١) البخاري في المناقب، باب: أيام الجاهلية، رقم (3554).

(٢) صفوة الصفوة: 2 / 525.

فكم نحن محتاجون لتربي أبناءنا على مثل ذلك الورع، أن نغرس في قلوبهم الخوف من الله والمراقبة له. كما فعل ذلك الرجل الذي يقول ابنه: مررت مع أبي من حائط فيه تبن وقد كنت صغيراً آنذاك فأخذت عود تبن من الحائط فوقف أبي وقال: لم أخذت كأنه ينهرني. فقلت: إنما هي تبنة - براءة الصغير - أي لا تساوي شيئاً. فقال له أبوه: يا سلمان (اسم الابن) لو أن كل إنسان أخذ تبنة هل كان يبقى في الجدارتين؟.

هكذا كانوا يربون أبناءهم وصغارهم على أحقر الأشياء وأصغرها حتى إذا شب وعقل لا تمتد يده على أي شيء مهما كان كبيراً أو صغيراً، هذه والله بيوت تربت على الخوف والورع.

* * *

حقيقة الاستدراج

يقول ابن عطاء الله: ومما يُخَاف عليك موالاة الذنوب، ليستدرجك فيها، ويمكنك فيها، قال الله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: 44].

الاستدراج: استدرجه إلى كذا أي استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه.

واستدراج الله للعصاة بأن يرزقهم الصحة والنعمة فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازدياد المعاصي، وقيل: كما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها. قال ﷺ: «إذا رأيت الله يُعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج»⁽¹⁾.

هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: 44].

ويشرح الباري سبحانه هذا الاستدراج بشكل أوضح بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44].

أي فلما أعرضوا عما ذكروا به وتناسوه، وجعلوه وراء ظهورهم عند ذلك فتحنا عليهم أبواب الرزق استدراجاً لهم، حتى إذا فرحوا بالأموال والأولاد والأرزاق، أخذناهم فجأة وهم غافلون فإذا هم مبلسون أي: آيسون من كل خير.

ولذلك قال الحسن البصري: من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له، فلا رأي له ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44]. فإياك ثم إياك من الغفلة عن الله والوقوع في المعاصي والاستمرار فيها وترى أن نعم الله عليك بسبب

(1) أحمد، مسند الشاميين، حديث عقبة بن عامر الجهني، رقم (16673).

كرامتك عليه. بل ربما كان ذلك الإنعام من الاستدراج المخيف الذي نهايته عذاب عظيم من الله عز وجل.

والمؤمن يخاف دائماً عندما تفتح له أبواب الرزق من أن يكون ذلك استدراجاً له للعذاب فيبقى دائم الشكر لله مطيعاً له ومؤدياً حق المال كما أمره الله.

* * *

نعم الله على العبد

يقول ابن عطاء الله: وكم لله عليك من أيادي^(١) أكثر من أمك! إنها إذا أخذتك وأنت صغير تلبسك أحسن الملابس، فإن وسختها تخلع عليك ثياباً آخر في الوقت، وأنت تأتي إلى مملكة مزينة، ليس فيها موضع شبر إلا ويصلح للسجود عليه، تتلف ثوبك وتوسخه بالمعصية، هكذا فعلك، تجلى^(٢) عليك المحاسن فتجعل فيها ما يكدرها من المعصية!.

نعم الله علينا لا نُعدُّ ولا نُحصى ونعجز عن شكرها، إننا عاجزون عن شكر أمهاتنا لأن الأم تحرق نفسها لتضيء الطريق لولدها، منذ ولادته همها سعادة ولدها ترضعه وتلبسه وتنظفه وهي مسرورة يملأ الفرح قلبها.

الأم لا نستطيع أن نؤديها حقها، فكيف نؤدي شكر الله الذي خلقنا وخلق أمهاتنا وأعطانا كل شيء؟!.

انظر إلى نفسك ترى اللطف الرباني قد رباك، يقول ابن الجوزي: «فمن بدء الطفولة إلى الآن أرى لطفاً بعد لطف، وسترًا على قبيح، وعفوًا عما يوجب عقوبة وما أرى لذلك شكرًا إلا باللسان، ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعاً، ولو كشف للناس بعضها لاستحييت»^(٣).

فكم لله علينا من أيادي أكثر من أمهاتنا، يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه فحسن ظنك به لأجل معاملته معك، فهل عودك إلا حسناً وهل أسدى إليك إلا متناً».

(١) في نسخة أباد. والأأيادي: تستفاد مجازاً للنعمة والإحسان مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾

[المائدة: ٦٤]. لسان العرب، ابن منظور: ١٥ / ٤١٩. المعجم الوسيط، ص: ١١٠٦.

(٢) تجلى: تتجلى أي توضحت وتكشفت. المعجم الوسيط، ص: ١٣٧.

(٣) صيد الخاطر، ص: ٤٨٨.

والمملكة المزينة هي هذه الأرض التي نعيش عليها إنها مملكة ظاهرة قال ﷺ: «وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً فأياها رجل من أمتي أدركته الصلاة فليُصَلِّ . . » (١).

فإياك أن تدنس هذه الأرض الطاهرة بالمعاصي، إن الله سخر لك المكونات وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة فعليك شكر هذا لا تكديره بالذنوب.

* * *

(١) البخاري، التيمم، باب: قول الله تعالى: ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾، رقم (323). ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، رقم (810).

جددوا إيمانكم بقول لا إله إلا الله

يقول ابن عطاء الله: قال ﷺ: «جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ بِقَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»⁽¹⁾ فدل ذلك على أنه يحصل له غبار المعصية وندس المخالفة، وما كل غش يطهره الماء بل رب غش لا يطهره إلا النار، كالذهب إذا كان فيه الغش فكذلك العصاة من هذه الأمة، لا يصلحون لدخول الجنة حتى تطهرهم النار.

روى الطبراني بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَخْلُقَ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا الثَّوْبُ فَسَلُوا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجِدَّ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»⁽²⁾.

وذلك لأن العبد يتكلم بلا إله إلا الله ثم يندسها ويكدرها بسوء أفعاله، لأن من شرط المؤمنين في هذه الكلمة أن لا يكون في قلوبهم شيء إلا الله، فإذا هت قلوبهم إلى المخلوقين فقد دنسوا هذه الكلمة، وأخلقوها فأمرؤا بالتجديد بالتكلم بها. لأن المداومة عليها تجدد الإيمان في القلب وتملؤه نوراً وتزيده يقيناً.

أما عصاة هذه الأمة فلا يصلحون لدخول الجنة حتى تطهرهم النار، ويدل على ذلك ما قاله الباربي سبحانه في وصف الكافرين: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنُونَ﴾ [الذاريات: 13]. فالفتنة هنا هي: الإحراق بالنار وهي من قولهم: فتنت الذهب أي أحرقتة والفتنة: هي: الاختبار.

* * *

(1) أخرجه أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم (8353). بلفظ: «جددوا إيمانكم، قيل: يا رسول الله وكيف

نجدد إيماننا؟ قال: أكثرؤا من قول لا إله إلا الله».

(2) المعجم الكبير، للطبراني: 1 / 52.

مثال الذنب كجيفة أدخلت الكلاب

خراطيمها فيها

يقول ابن عطاء الله: مثال الذنب عند أرباب البصائر، كجيفة أدخلت الكلاب خراطيمها فيها، أرأيت إذا غمس رجل فمه في جيفة أفما تعيب عليه؟. فإذا كان الحق سبحانه قد جعل ميزاناً للبيع والشراء، أفما جعل ميزاناً للحقائق؟!

المتنجس القدم لا يصلح للمحاضرة، فكيف بمن تنجس فمه؟!

الذنب عند المؤمن نجاسة معنوية يتلبس بها المذنب، مثاله مثل النجاسة الواضحة على الثوب الأبيض. وتطهير الذنب يكون بالتوبة إلى الله سبحانه، أما مديم الذنب والكافر والمنافق فهؤلاء لا يحسُّون بخطر الذنب. إذ قلوبهم كالثوب الأسود لا يبين عليه النجاسة، فقد اعتادوا الذنوب وغفلوا عن الله سبحانه.

هذا هو ميزان الحقيقة التي ينبغي أن يتعامل العبد به مع ربه وخالقه عز وجل.

ثم يقول ابن عطاء الله: «المتنجس القدم لا يصلح للمحاضرة، فكيف بمن تنجس فمه؟!..».

فكما أن متنجس القدم لا يسمح له بالدخول للمحاضرة، كذلك متنجس الفم بالمعاصي أولى أن لا يصلح للمحاضرة ومناجاة الله سبحانه وتعالى، وهذا والله عقاب شديد للعاصي قد لا يشعر به ويظن أن الله لم يعاقبه على معصيته وهذا من الغفلة، فقد قال بعض أحبار بني إسرائيل:

يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني! ف قيل له: كم أعاقبك وأنت لا تدري، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟! (١).

فالصلاة حضور مع الله والدعاء وقراءة القرآن، إياك أن تخاطب الله بفم متنجس بالغيبة والنميمة والفحش من الكلام.

* * *

(1) صيد المخاطر، ابن الجوزي، ص: 85.

من أحب الله تطهر من العيوب

يقول ابن عطاء الله: إذا أحببت حبيباً، لن تصل إليه حتى تكون أهلاً للوصول إليه، وذلك حتى تتطهر مما أنت فيه من الرذائل.

من أحب الله تطهر من العيوب والنقائص وهي هنا تشمل جميع أنواع الذنوب والغفلة عن الله سبحانه.

هذا هو ثمن المحبة الحقيقية، أما ادعاء المحبة مع بقاء الغفلة والعيوب فهذا دليل على المحبة الناقصة والكاذبة. كما قال الشاعر:

تعصى الإله وأنت تُظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع

لو كنت تُظهر حبه لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وعندما يتطهر العبد من محبة الأغيار، ويتجه قلبه إلى شهود الله وحده، والحب له والخوف منه وحده، عند ذلك يكون أهلاً ليدخل حضرة الله وينال من أنواع المنفعة من الصلاة والذكر والدعاء وقراءة القرآن، وعندئذ يكون العبد قد وصل إلى ربه عز وجل.

* * *

العبد العاصي لا قيمة له عند ربه

يقول ابن عطاء الله : من خان هان، قيمة اليد خمسمائة دينار، قُطعت في ربع دينار إذا خانت.

لا تزال لك قيمة عند الله حتى تعصي، فإذا عصيت فلا قيمة لك.

الكريم على الله هو المتصف بذل العبودية له سبحانه، المواظب على طاعته المحافظ على الأمانة كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحراب: 72].

قيمتك أيها العبد عند الله تكون بمقدار تعظيمك له وخوفك من عقابه وطمعك في ثوابه، وبعبارة أخرى: قيمتك بمقدار سيرك على منهج الله وصراطه الذي أمرنا باتباعه.

أما إن خالفت المنهج فلا قيمة لك، وخذ مثلاً لذلك: إن الله يأمر عباده بالتواضع ويحذرهم من التكبر، تجد ذلك في آيات كثيرة وأحاديث متعددة، كقوله تعالى: ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: 88] وقوله: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ تُكُنْ فَطًّا غَلِيظًا أَلْقَلْبَ لَا تَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [عمران: 159] وقوله: ﴿ سَاصِرُفٌ عَنْ عَائِيَّتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: 146].

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل النار: كل عتل⁽¹⁾ جواظ⁽²⁾ مستكبر⁽³⁾».

ولذلك إن الذي يتكبر في الدنيا على الخلق، فيرى أنه أفضل وأعلى مستوى منهم وإن الناس يجب أن تحترمه وتسمع كلمته في الوقت الذي لا يحترم أحداً ولا يشاور أحداً. هذا

(1) عتل: الجافي الشديد الخصومة بالباطل.

(2) جواظ: الفظ الغليظ المتكبر في مشيته.

(3) البخاري في تفسير القرآن، باب: عتل بعد ذلك زعيم، رقم (4537).

الرجل يكون عقابه في الآخرة أنه يحشر أمثال الذر يغشاهم الذل من كل مكان، قال ﷺ:
«يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان»^(١).

* * *

(١) الترمذي في صفة القيامة والرقاق والورع عن رسول الله، رقم (2416).

اجتناب مجالس المعصية

يقول ابن عطاء الله: هذا زمان اجتناع، قلما تجلس مجلساً إلا وتعصي الله فيه، فكثير من السلف آثروا الجلوس في بيوتهم وتركوا صلاة الجمعة^(١)، فإن طالبتك النفس بالخروج، فاشغلها بالقعود في الدار بشيء من الطاعة فإن الغيبة أشد من ثلاثين زنية في الإسلام^(٢)، ولكن الكلاب لا تترقد على الحيطان، بل على المزابل. وأكثر ما يُخاف عليك مخالطة الناس، ولا يكفيك أن تسمع بل تشاركهم في الغيبة، وهي تنقض الوضوء وتفطر الصائم^(٣).

هذه حالنا والله! إن جلسنا في مجلس لا بد وأن تغتاب أحداً، الغيبة والنميمة والحسد هي فاكهة المجلس.

خلت مجالسنا من ذكر الله ومن الصلاة على رسول الله ﷺ، مجالسنا مجالس غفلة وبعد عن الله سبحانه، كل واحد معتد برأيه، همه أن يُظهر لمن حوله أنه الأفهم والأحكم والأعلم، إن تكلمت بالسياسة أظهر براعته في تحليل الأحداث، وإن تكلمت بالدين أظهر أنه أفقه الحاضرين وهو ليس كذلك، وإن تكلمت بفن الطبخ أظهر أنه أكثر الجالسين علماً وبراعة بهذا الفن، غير الجدل الذي عم المجالس، جدل بالحق وجدل بالباطل.

مجالسنا مجالس معصية، الكل عنده الوقت الكافي لقضاء ساعات في اللغو دون فائدة، وليس عنده دقائق ليذكر الله أو ليقراً في كتاب!.

ما أجمل أن تكون مجالسنا قصيرة بحيث لا نثقل على صاحب البيت، لعله تعباً، لعله مشغول، أنت عندك الوقت لتهدره فهل كل الناس كذلك؟!.

(١) هذا تصرف خاص بهم أما النبي ﷺ فقد حث على صلاة الجماعة ولم يرخص لأحد بتركها إلا لعذر بسبب مرض أو خوف أو نحوه. وربما هؤلاء السلف تركوا الجماعة أحياناً وليس كل الأوقات. والله أعلم.

(٢) ليس لهذا دليل من الكتاب أو السنة. والله أعلم.

(٣) الغيبة لا تنقض الوضوء ولا تفطر الصائم عند الفقهاء.

ما أجهل مجالسنا إذا خلت من الغيبة والنميمة والجدال.

خطر الغيبة وحقيقتها:

وفيا يأتي ترغيب في حفظ اللسان عن الغيبة وغيرها من المعاصي:

قال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: 18].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: 14].

ويقول الإمام النووي رحمه الله ^(١): «واعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، بل هذا كثير أو غالب في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء».

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» ^(٢).

وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لحييه ^(٣)، وما بين رجله ^(٤). أضمن له الجنة» ^(٥).

(١) الأذكار، النووي، ص: 383 وما بعدها.

(٢) البخاري في الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (5560). ومسلم في

الإيمان، باب: الحث على إكرام الجار، رقم (67).

(٣) أي لسانه.

(٤) أي فرجه.

(٥) البخاري في الرقاق، باب: حفظ اللسان، رقم (5993).

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يُلقى لها بالاً يرفع الله تعالى بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالاً يهوي بها في جهنم»^(١).

وبلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تُحصى، والذي أحصيته ثمانية آلاف عيب، ووجدت خصلة إن استعملتها سترت العيوب كلها، قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان.

هذه مقدمة عن خطر اللسان أما الغيبة والنميمة فإنهما خصلتان من أفبح القبائح وأكثرها انتشاراً في الناس حتى ما يسلم منها إلا القليل من الناس.

تعريف الغيبة:

أما الغيبة فهي: ذكر ك الإنسان بما فيه مما يكره، سواء كان في بدنه أو دينه أو دنياه أو نفسه أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجه أو عمامته أو ثوبه أو مشيته وحر كته وبشاشته وخلاعته وعبوسه وطلاقته، أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك أو كتاب، أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك. أما البدن فكقولك: أعمى، أعرج، أعمش، أقرع، قصير، طويل، أسود، أصفر. وأما الدين فكقولك فاسق، سارق، خائن، ظالم، متهاون بالصلاة، متساهل في النجاسات، ليس باراً بوالده، لا يضع الزكاة مواضعها، لا يجتنب الغيبة. وأما الدنيا: فقليل الأدب، يتهاون بالناس، لا يرى لأحد عليه حقاً، ويقاس الباقي على ذلك إن كان يكرهه.

وضابطه: كل ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم فهو غيبة محرمة.

وأما النميمة: فهي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد.

(١) البخاري في الرقاق، باب: حفظ اللسان، رقم (5992).

أما حكمهما فهي محرمتان بإجماع المسلمين. والدليل من الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: 12]. وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ (١) لُّمَزَةٍ (٢)﴾ [الهمزة: 1]. وقال تعالى: ﴿هَمَزٌ مَشَاءٌ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: 1].

ومن الأحاديث ما يأتي:

ففي الصحيحين:

- عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة نمام» ^(٣)

- في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: «إنهما يُعَذَّبان وما يعذبان في كبير، بلى إنه كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله» ^(٤).

ومعنى ما يعذبان في كبير: أي في كبير في زعمهما.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» ^(٥).

(1) الهماز: الذي يغتاب الناس ويطعن في أعراضهم.

(2) اللماز: الذي يعيب الناس وينال منهم بالحاجب والعين.

(3) البخاري في الأدب، باب: ما يكره من النميمة، رقم (5596). ومسلم في الإيمان، باب: بيان غلط تحريم النميمة، رقم (151).

(4) البخاري في الوضوء، باب: من الكبائر أن لا يستتر من بوله، رقم (209). ومسلم في الطهارة، باب: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (439).

(5) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: تحريم الغيبة، رقم (4690).

وكما أن الغيبة يحرم على المغتاب ذكرها، يحرم على السامع استماعها وإقرارها وهذا ما أشار إليه ابن عطاء الله عند قوله: «ولا يكفيك أن تسمع بل تشاركهم في الغيبة».

فيجب على من سمع إنساناً يبتدئ بغيبة محرمة أن ينهأ إن لم يخف ضرراً ظاهراً، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقتها، فإن قال بلسانه: اسكت، وهو يشتهي بقلبه استمراره، فذلك نفاق لا يخرج عن الإثم، ولا بد من كراهته بقلبه. وإن لم يتمكن من مفارقة المجلس للضرورة حرم عليه الاستماع والإصغاء للغيبة، بل طريقه أن يذكر الله تعالى بلسانه وقلبه، أو بقلبه، أو يفكر في أمر آخر ليشغل عن استماعها. ولا يضره بعد ذلك السماع من غير استماع وإصغاء في هذه الحالة المذكورة، فإن تمكن بعد ذلك من المفارقة وهم مستمرين في الغيبة ونحوها وجب عليه المفارقة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 68].

ما يباح من الغيبة:

تُباح الغيبة للمصلحة لأسباب ستة^(١):

الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان فيذكر أن فلاناً ظلمني، وفعل بي كذا وأخذ لي كذا.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا، فازجره عنه ونحو ذلك.

(١) الأذكار، النووي، ص: 392، 393.

الثالث: الاستفتاء بأن يقول للمفتي: ظلمني أبي أو أخي أو فلان بكذا، فهل له ذلك أم لا؟. بدليل قول هند زوج أبي سفيان: «يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح.. الحديث، ولم ينهها رسول الله ﷺ»⁽¹⁾.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، فإذا استشارك إنسان في مصاهرة فلان أو مشاركته أو إبداعه وجب عليك أن تذكر ما تعلمه منه على جهة النصيحة.

الخامس: أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر وأخذ الربا.

السادس: التعريف فإذا كان الإنسان معروفًا بلقب كالأعمش والأصم والأعمى والأفطس وغيرهم، ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى.

ومما استدل به على جواز غيبة أهل الفساد وأهل الريب.

ما ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: «ائذنوا له بئس أخو العشيرة»⁽²⁾.

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً»⁽³⁾. قال الليث بن سعد أحمد الرواة: كانا رجلين من المنافقين.

وحديث فاطمة بنت قيس وقول النبي ﷺ لها: «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه»⁽⁴⁾.

(1) البخاري في البيوع، باب: من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم، رقم (2059). ومسلم في الأفضية، باب: قضية هند، رقم (3233).

(2) البخاري في الأدب، باب: لم يكن النبي فاحشاً ولا متفحشاً، رقم (5572). ومسلم في البر والصلة والآداب، باب: مداراة من يتقي فحشه، رقم (4693).

(3) البخاري في الأدب، باب: ما يكون من الظن، رقم (5607).

(4) مسلم في الطلاق، باب: المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها، رقم (2709).

كفارة الغيبة والتوبة منها^(١):

التوبة من حقوق الله تعالى يشترط فيها ثلاثة أشياء: أن يقلع عن المعصية في الحال، وأن يندم على فعلها، وأن يعزم ألا يعود إليها.

والتوبة من حقوق الآدميين يشترط فيها هذه الثلاثة، ورابع: وهو رد الظلامة إلى صاحبها، أو طلب عفو عنها والإبراء منها، فيجب على المغتاب التوبة بهذه الأمور الأربعة، لأن الغيبة حق آدمي.

ويكفي أن يقول: قد اغتبتك فاجعلني في حل، ولا حاجة أن يبين ما اغتابه فيه.

فإن كان صاحب الغيبة ميتاً أو غائباً فينبغي أن يكثر الاستغفار له والدعاء ويكثر من الحسنات.

بعد هذه الجولة في الكلام عن خطر الغيبة والنميمة ثقبها قاله ابن عطاء الله: «وأكثر ما يُخاف عليك مخالطة الناس؟!».



(١) الأذكار، النووي، ص: 397، 398.

النجاة من المعاصي يكون بالهروب إلى الله والاستغاثت به

يقول ابن عطاء الله: أتنظن أن الدواء حلو تأكله^(١)، إن لم تهجم عليه هجماً لم يحصل لك الشفاء، فاهجم على التوبة ولا تغلبك حلاوة المعصية، وإذا رأيت نفسك متطلعة إلى الشهوة فاهرب إلى الله واستغث به فإنه ينجيك منها.

هذا من الخيانة التي ذكرها ابن عطاء في الفقرة السابقة بقوله: «من خان هان» إذ كيف تحتاج إلى الخلق ولا تحتاج إلى الحق؟. كيف تطلب من المخلوقين وتنسى الخالق إنها خيانة عظيمة.

والتوبة دواء للمعاصي والذنوب فاهجم عليها ولا تفكر بحلاوة المعصية حتى لا تغلبك بل تب إلى الله واترك المعصية وإن كنت قد تركت لذة فالصبر عليها هو الدواء، والدواء غالباً يكون مر المذاق فإن امتنعت عن شربه استمر المرض، أما إن هجمت عليه وسكبت في حلقك مباشرة فقد حصل لك الشفاء.

إن الذي ينجيك من أسر الشهوات هو الله وحده سبحانه فاهرب إليه واستغث به بقلب منكسر ذليل تجد أن الله يستجيب دعاء المضطر ويحقق لك ما تريد. ألم يقل سبحانه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [النمل: 62].

* * *

(١) في نسخة: حلوى تأكلها.

مثال من يكثر الذنوب والاستغفار

يقول ابن عطاء الله: مثال من يكثر الذنوب والاستغفار كمثل من يكثر شرب السم، ويكثر استعمال الترياق، فيقال له: قد لا تصل إلى الترياق مرة، فيهجم عليك الموت، قبل الوصول إليه.

إن هذه الحقيقة التي يذكرها ابن عطاء الله هي حال الكثيرين من المسلمين، تراهم يذنبون ويستغفرون ويعقدون العزم على عدم العودة لكنهم يعودون لاقتراف الذنوب، وهذا أمر حسن طالما أن الذنب كان عن ضعف بشري ووسوسة شيطان لا عن تكبر أو كَأَن يقول: أذنب ثم أتوب فهذا لا ينطبق عليه وصف العبد الذي قال عنه ﷺ في الحديث الذي يرويه عن ربه: «أذنب عبدٌ ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، يأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي... ثم يقول الله تبارك وتعالى: قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء»^(١).

لكن ابن عطاء الله، رحمه الله، يحذر من يكثر الذنوب والاستغفار أن لا يصل إلى وقت يذنب فيه لكن الموت يفجؤه قبل أن يستغفر، فينبغي للمسلم أن يقلل من الذنوب ما أمكن وأن يكثر من الاستغفار والتوبة حتى إذا جاءه الموت كان مستعداً لذلك فيُختم لم بحسن العمل ويفوز بمغفرة الله سبحانه.



(١) سبق تخريجه، ص: 38.

تنقية القلب من الذنوب يكون بالتوبة والأذكار والندم والاستغفار

يقول ابن عطاء الله: من أحب الدنيا بقلبه كان كمن بنى بناء حسناً فوقه مرحاض فرشح عليه، فلا يزال كذلك حتى يرى ظاهره كباطنه، ومنهم من يتقيه فلا يزال قلبه أبيض، وتنقيته بالتوبة والأذكار والندم والاستغفار، كذلك أنت في حضرة الله ملوث بمعصيتك، تأكل الحرام وتنظر المحرم، فمن يفعل المخالفات والشهوات يُظلم قلبه، فإن لم تتب في حالة الصحة، ربما ابتلاك بالأمراض والمحن، حتى تخرج نقياً من الذنوب، كالثوب إذا غسل.

قال رحمه الله: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»^(١). فحب الدنيا نجاسة تلوث القلب، وكلما ازداد التلوث حتى تستوعب القلب كله.

والمقصود هنا: الدنيا التي تلهي عن الآخرة، أي من شغل قلبه بالدنيا حتى نسي لقاء ربه وآخرته. وليس المقصود اعتزال الدنيا فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يعملون ويبنون ويكسبون ويتزوجون.

قال تعالى عن سيدنا داود: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: 80].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: 77].

فالدنيا يجب أن تكون في الكف لا في القلب، لأنه ممتلئ بحب الله والشوق إلى الجنة فإن تعارضت الدنيا مع الدين رمينا بالدنيا حفاظاً على الدين.

(١) رواه البيهقي في الشعب بإسناد حسن إلى الحسن البصري رفعه مرسلاً والحديث ضعيف. كشف الخفاء، العجلوني الجراحي، 1 / 412.

والخلاص من هذا البلاء يكون بالتوبة والأذكار والندم والاستغفار، فالقلب عندما يصحو للحقيقة يتوب من تلك الغفلة ويعلم أن هذه الدنيا مصيرها للزوال، ومهما تنعم فيها فإنها لا تساوي شيئاً عندما يأتي ملك الموت ليقبض الروح.

فإذا أحب الله عبداً هياً له أسباب التوبة فإن لم يتب في حال الصحة، ابتلاء بالأمراض والمحن حتى يخلص من شوائب الذنوب.

وهذه حال الكثيرين منا لا يشعر بتقصيره ولا بندمه ولا يفطن أن يتوب طالما يشعر بالقوة والصحة والغنى. لكنه عندما يُبتلى بفقد الصحة أو بفقد عزيزٍ عليه، تراه يتذكر ويتأمل في حاله وحال الدنيا فيصحو من رقدته وينيب إلى ربه، فتكون الأمراض والمحن رحمة لهم وخيراً كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216].

إن الأمراض والمحن من النعم الباطنة التي أسبغها الله علينا كما قال سبحانه ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20].

* * *

القلب يتنور بالطاعة ويظلم بالمعصية

يقول ابن عطاء الله: مثالك مثال رجلين اشتريا أرضاً قياساً واحداً، فأخذها الواحد فنقأها من الشوك والحشيش، وأجرى بها الماء، وبذر بها فنبتت وجنى منها وانتفع بها، فهذا كمن نشأ في الطاعة، قد أشرقت أنوار قلبه، وأما الآخر فإنه أهملها حتى نبت فيها الشوك والحشيش، وبقيت مأوى للأفاعي والحيات، فهذا قد أظلم قلبه بالمعاصي.

وهذا مثال واضح للقلب الذي يتعهده صاحبه فيغسله بالتوبة وينقيه من الذنوب ويسقيه بماء الطاعة فيشرق بنور الإيمان، وأما الآخر فإنه غافل عن قلبه لا يتعهده، وهذا القلب يُظلم بسبب كثرة الذنوب والمعاصي. فتراه يتخبط وربما قاده التخبط للشك في الرزق والشك في العقيدة، تضربه العاصفة من كل جهة ولا يستطيع النجاة منها وكل ذلك بسبب ظلمة قلبه.

* * *

حقيقة الفراسة

ما أتيت لموطن حكمة أو معصية إلا وفي عنقك سلسلة نورانية، أو ظلمانية، فإن كنت لا تشهدا أنت فغيرك يشهدا، ألا ترى أن الشمس يشهدا الناس أجمعون إلا من كان أعمى؟!.

هذه الحقيقة يشهد لها قول الله تعالى: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: 29]. إنه نور الإيمان والطاعة يراه ويحس به من فتح الله على بصيرته.

وهو ما يسمى بالفراسة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: 75]. وقال تعالى في حال المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 30].

فالأول : فراسة النظر والعين.

والثاني : فراسة الأذن والسمع.

والمقصود : أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه. والفراسة تتعلق بالنوعين بالنظر والسمع.

وسببها : نور يقذفه الله في قلب عبده. يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب، والفراسة على حسب قوة الإيمان. فمن كان أقوى إيماناً فهو أحد فراسة.

قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف، حيث قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: 21] وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى: ﴿أَسْتَعِجِرْهُ﴾ [القصص: 26]. وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما، حين استخلفه، وفي

رواية أخرى: وامرأة فرعون حين قالت: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾^(١) [القصص: 9].

أما السلسلة الظلمانية، فيشهد لها قصة ذلك الرجل الذي دخل على سيدنا عثمان رضي الله عنه، فقال له: يدخل علي أحدكم وفي عينيه أثر الزنى، فقال الرجل: أوحى بعد رسول الله يا أمير المؤمنين؟ قال: بل فراسة المؤمن: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^(٢).

بعد هذه الجولة في الكلام عن المعاصي والذنوب وخطرها على العبد ووجوب التوبة منها إليك هذه الأبيات التي تهيب بالنائم أن يصحو ويترك دفء الفراش يناجي ربه تائباً منياً معترفاً بتقصيره مؤملاً الخير والرشاد:

قال الشاعر:

قم في الدجى يا أيها المتعبد	حتى متى فوق الأسرة ترقد؟
قم وادع مولاك الذي خلق الدجى	والصبح وامض فقد دعاك المسجد
واسْتَغْفِر الله العظيم بذلة	واطلب رضاه فإنه لا يحقد
وأندم على ما فات، واندب ما مضى	بالأمس، واذكر ما يجيء به الغد
واضرع وقل: يا رب عفوك إنني	من دون عفوك ليس لي ما يعضد
أسفاً على عمري الذي ضيعته	تحت الذنوب أنت فوقني ترصد!
يا رب لم أحسب مرارة مصدر	عن زلة قد طاب منها المورد
يا رب قد ثقلت علي كبائر	بإزاء عيني لم تزل تتردد!
يا رب إن أبعدت عنك فإن لي	طمعاً برحمتك التي لا تبعد

(١) مدارج السالكين، ابن القيم: 2 / 153.

(٢) سبق تخريجه، ص: 51.

يا رب مالي غير لطفك ملجأً ولعلني عن بابهِ لا أطرد!
يا رب هب لي توبة أقضي- بها ديناً علي به جلالك يشهد
أنت الخير بحال عبدك إنه سلاسل الوزر الثقيل مقيد
أنت المجيب لكل داع يلتجئ أنت المجيز لكل من يستنجد
من أي بحر غير بحرك نستقي؟ ولأي باب غير بابك نقصد؟

اللهم إننا نسألك توبة نصوحة لا نكثها أبداً، ونسألك سبيل الاستقامة لا نزيغ عنها
أبداً يا رب العالمين!

* * *

فضل متابعة النبي ﷺ

حقيقة متابعة النبي ﷺ

يقول ابن عطاء الله: ولا يدخل عليك الإهمال إلا بإهمالك عن متابعة النبي ﷺ، ولا تُحصل لك الرفعة عند الله تعالى إلا بمتابعة النبي ﷺ. والمتابعة له عليه الصلاة والسلام على قسمين: جلية، وخفية.

فالجلية: كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد، وغير ذلك.

والخفية: أن تعتقد الجمع⁽¹⁾ في صلاتك، والتدبر في قراءتك. فإذا فعلت الطاعة كالصلاة والقراءة ولم تجد فيها جمعاً ولا تدبراً، فاعلم أن بك مرضاً باطناً من كبر أو عجب أو غير ذلك. قال الله تعالى: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146]. فيكون مثالك كالمحموم الذي يجد في فمه الشكر مراراً فالمعصية مع الذل والافتقار خير من الطاعة مع العز والاستكبار. قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم السلام: ﴿فَمَنْ يَتَعَنِّي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: 36]. فمفهوم هذا أن من لم يتبعه ليس منه، وقال تعالى حكاية عن نوح - عليه وعلى نبينا المصطفى أزكى الصلاة والسلام: ﴿قَالَ يَنْفُخُ فِيهِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: 46]. فالمتابعة تجعل التابع كأنه جزء من المتبوع وإن كان أجنبياً، كسلمان الفارسي رضي الله عنه، لقوله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت»⁽²⁾. ومعلوم أن سلمان من أهل فارس، ولكن بالمتابعة قال عنه ﷺ تعليماً، فكما أن المتابعة تثبت الاتصال، كذلك عدمها يثبت الانفصال.

إن علامة محبة الله تعالى هي إثارة طاعته ومتابعة نبيه ﷺ. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31].

(1) الجمع: رؤية الحق وحده سبحانه.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک وسكت عنه: 3 / 196. والطبراني في المعجم الكبير؛ 6 / 212. وسنده

ضعيف كما جاء في مجمع الزوائد: 6 / 130.

فالجادة السليمة، والطريق القويمة هي الاقتداء بصاحب الشرع، والبدار إلى الاستئان به، فهو الكامل الذي لا نقص فيه. فإن خلقاً كثيراً انحرفوا إلى جادة الزهد، وحملوا أنفسهم فوق الجهد، فأفاقوا في أواخر العمر والبدن قد نُهك، وفاتته أمور مهمة من العلم وغيره. وإن أقواماً انحرفوا إلى صورة العلم، فبالغوا في طلبه، فأفاقوا في أواخر العمر، وقد فاتهم العمل به، فطريق المصطفى ﷺ العلم والعمل والتلطف بالبدن^(١).

إن متابعة النبي ﷺ الجليلة بظاهر العبادات لا تكفي - وهذه حال كثير من المسلمين وللأسف - فكم من مصلٍّ تكون صلواته وبالأعلى عليه، بدل أن تقربه من الله عز وجل تبعده عنه. وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، والحج والجهاد كذلك.

إن المتابعة الخفية هي لب الإسلام وبها يكون الثواب والقرب من الله سبحانه.

وأساس ذلك خلو القلب من الكبر. والمعجب بطاعته ليس همه وقصده رضا الله وإنما رضا الناس وحب مدحهم والخوف من مدحهم. وهذا الأمر يحبط العمل.

إن المتابعة الحقيقية للنبي ﷺ تكون بأداء الفرائض في الظاهر وإخلاص العمل لله في الباطن.

فهذه المتابعة تجعل التابع كأنه جزء من المتبوع وإن كان أجنبياً كسلمان الفارسي رضي الله عنه، وهذه المتابعة تثبت الاتصال بالله عز وجل والقرب من النبي ﷺ، وعدمها يثبت انفصال العبد عن ربه وبعده عن نبيه المصطفى ﷺ.

* * *

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 255.

الخير يكون بمتابعة النبي ﷺ

يقول ابن عطاء الله: وقد جمع الله الخير كله في بيت وجعل مفتاحه متابعة النبي ﷺ فتابعه بالقناعة بما رزقك الله تعالى، والزهد والتقلل من الدنيا، وترك ما لا يعني من قول وفعل، فمن فتح له باب المتابعة، فذلك دليل على محبة الله له، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31].

وإذا طلبت الخير كله فقل: اللهم إني أسألك المتابعة لرسولك ﷺ في الأقوال والأفعال. ومن أراد ذلك فعليه بعدم الظلم لعباد الله في أعراضهم وأنسابهم، فلو سلموا من ظلم بعضهم بعضاً لانطلقوا إلى الله، ولكنهم معوقون كالمديان⁽¹⁾. بسبب من يطلبه. واعلم أنك لو كنت مخصصاً عند الملك، مقرباً منه، وجاء من يطلبك بدين، ضيق عليك، ولو كان قدراً⁽²⁾ يسيراً، فكيف بك إذا جئت يوم القيامة ومائة ألف إنسان أو أكثر يطلبون بديون مختلفة من أخذ مال، وقذف عرض، وغير ذلك، فكيف يكون حالك؟!.

الواقع أن الناس لم يفهموا حقيقة المتابعة للنبي ﷺ، إنهم فهموها - في هذا العصر - أقوالاً دون أفعال، يقول لك أحدهم مادحاً صفة الحلم: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: «أوصني، قال: لا تغضب فردد مراراً والنبي ﷺ يقول: لا تغضب»⁽³⁾. وتنظر إلى المتكلم فتراه إن خاصم أحداً غضب واهمرت عيناه، وانتفخت أوداجه وسب وشتم ولعن وربما كفر بالله، فأين هذه المتابعة؟!.

(1) المديان: الكثير الدين، وهو مفعول من الدين للمبالغة.

(2) في نسخة: نزرأ.

(3) البخاري في الأدب، باب: الحذر من الغضب، رقم (5651).

بماذا تكون المتابعة:

وترى آخر أغلب صلاته مع الجماعة في المسجد ترافقه السبحة دائماً ويتكلم بأمور الدين ويظهر للناس علمه وحماسه لحقائق الإسلام، فإذا حانت له فرصة ليعصي- الله فيها لم يقصر-، فيأكل الربا ويقيم الحفلات المحرمة وينافق في معاملته وو . . ، فأين المتابعة؟! .

إن المتابعة كما قال ابن عطاء الله تكون في الأقوال والأفعال. فتكون:

1- بالقناعة بما رزقك الله تعالى : وبعدم السخط لقلّة ذات يدك، ولا تكون

القناعة إلا باليقين التام بأن ما تملكه هو ما قسمه الله لك من الرزق، وبأنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب كما قال ﷺ⁽¹⁾.

2- بالزهد والتقلل من الدنيا : وليس المقصود بالزهد ترك التنعم واحتقار اللباس

والزينة وإنما أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، يكفيك أن تظهر بمظهر حسن كما أمرك النبي ﷺ، واجعل الدنيا في يدك لا في قلبك هذا هو الزهد الحقيقي.

وفي هذا الزمن الصعب الذي أصبح المال عصب الحياة من الصعب أن يكون المسلم كسلمان الفارسي وخالد بن الوليد وأبي الدرداء فإنهم ماتوا ولا يملكون من متع الدنيا شيئاً؟! . ولكن كن قانعاً بالشيء الوسط واجعل همك بناء الآخرة لا بناء الدنيا فإن مصيرها إلى الزوال.

إن الزهد في الدنيا سبب لمحبة الله، وإن الزهد بما في أيدي الناس سبب لمحبة الناس، قال

رسول الله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد بما في أيدي الناس يحبك»⁽²⁾.

(1) ابن ماجه في التجارات، باب: الاقتصاد في طلب المعيشة، رقم (2135).

(2) ابن ماجه في الزهد، باب: الزهد في الدنيا، رقم (4092).

وبقدر ما تكون متقللاً من الدنيا يهون الحساب يوم القيامة والعكس صحيح. إذ لن تزول قدماً عبد يوم القيامة كما يقول ﷺ حتى يُسأل عن أربع: «عن شبابه فيما أبلاه وعن عمره فيما أفناه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه»^(١).

3- **ترك ما لا يعني من قول وفعل** : وهذا من المتابعة لقوله ﷺ : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(٢) .

فالعاقل هو الذي يحافظ على وقته ولا يهدره بالتفاهات وبسفاسف الأمور، ما الذي يفيدته قول ما لا يعنيه وفعل ما لا يعنيه، إنه لا يزيده إلا بعداً عن الله واحتقار الناس له.

4- **عدم الظلم للعباد** : فلم يؤثر عنه ﷺ أنه ظلم أحداً.

فأين متابعة النبي ﷺ في اجتناب ظلم العباد، مع ما نراه اليوم من انتشار الظلم بين فئات المجتمع كلها.

فترى الأب يظلم أولاده، والابن يظلم أباه، والجار يظلم جاره، والزوج يظلم زوجته وبالعكس، وانتشر الظلم بين الجماعات والدول فترى الدول القوية تعتدي على الضعيفة لمصلحة خاصة غير عابئة بالآلاف الأرواح التي أزهدت وبآلاف الأسر التي شردت، إن ظلم العباد لبعضهم جعل قسماً منهم متخمين من الشيع وآخرين هياكل عظمية من الجوع؟!.

لقد عم الظلم ظهر الأرض وصدق الله سبحانه حين قال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: 41].

وانتقل الفساد إلى الفضاء لتدور حول الأرض الأقمار الصناعية بهدف التجسس على الدول؟!.

(١) الطبراني في الأوسط: 5 / 74.

(٢) سبق تحريجه، ص: 118.

إن الله سبحانه عندما حرم الظلم، حرمه لمصلحتنا، لكي نعيش بأمن وسلام ولكي ننام مطمئنين على دمائنا وأموالنا وأعراضنا، فكيف تكون حياة لا يأمن فيها المرء على حياته أو على ماله أو على عرضه، إنه يعيش في قلق واضطراب دائم، فيؤثر ذلك على تفكيره ونشاطه، فلا يمكنه القيام بالمهمة التي وكلها الله إليه وهي عمارة الأرض بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ فِيهَا﴾ [هود: 61] أي طلب منكم عمارتها.

من أجل هذا جاء الحديث النبوي الشريف الجامع؛ الذي يقول فيه ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»⁽¹⁾.

وفي الحديث القدسي يقول ربنا جل جلاله: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي- وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»⁽²⁾.

إن الله سبحانه متصف بالعدل فهو العادل سبحانه فكن أنت عادلاً. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: 51].

إن الظلم عاقبته وخيمة يوم القيامة؛ فالظالمون ليس لهم من ينقذهم وينصرهم من نار جهنم ومن سؤال الله لهم، قال الله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ⁽³⁾ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ﴾ [الحج: 71].

والظلم ظلمات يوم القيامة فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»⁽⁴⁾.

(1) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم، رقم (4650).

(2) التخريج السابق، رقم (4674).

(3) الحميم: القريب المشفق.

(4) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، رقم (4675).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء» ⁽¹⁾. من الشاة القرناء» ⁽²⁾.

ثم إن الظلم يمحى الحسنات يوم القيامة، فيقول ﷺ لأصحابه: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار» ⁽³⁾.

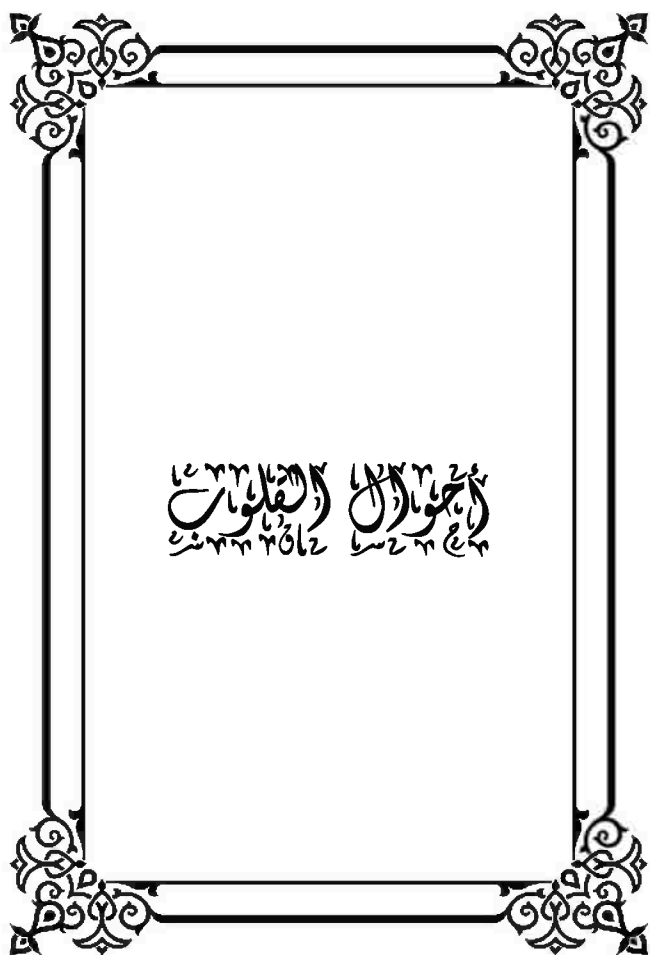
فإياك ثم إياك من ظلم العباد في أعراضهم وأمواهم!!

* * *

(1) الجلحاء: التي لا قرن لها.

(2) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، رقم (4679).

(3) مسلم في البر والصلة، باب: تحريم الظلم، رقم (4678).



إذا جف القلب سقطت ثمراته

يقول ابن عطاء الله: القلب شجرة تُسقى بماء الطاعة، وثمراتها مواجيدها، فالعين ثمرتها الاعتبار، والأذن ثمرتها الاستماع للقرآن، واللسان ثمرته الذكر، واليدان والرجلان ثمرتهما السعي في الخيرات، فإذا جف القلب سقطت ثمراته، فإن أجذب فأكثر من الأذكار.

معنى القلب:

يأتي القلب بمعنى العقل، ويأتي بمعنى العضلة المعروفة وراء الأضلاع في الجانب الأيسر من جسم الإنسان. وقد وردت بمعنى العقل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37].

فجّل المفسرين قالوا: المراد بالقلب هنا العقل.

ووردت بمعنى العضلة المعروفة مثل قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]. ولكن ليس المراد العضلة المادية التي يصطلح عليها الأطباء، بل المراد ما ينعكس على هذه العضلة من المشاعر العاطفية من حب وخوف وتعظيم، أي ما يسمى بالعواطف الدافعة والرادعة والمجددة.

ومراد ابن عطاء الله بكلمة القلب هنا بمعناه الحقيقي وليس المعنى المجازي المتمثل في العقل^(١).

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «تمكّن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال». وذلك عندما يتمكّن داء الهوى والشهوة من القلب ويرسخ فيه لا يبقى لدواء الإيمان والمعرفة واليقين محل فلذلك أعضل أمره وتعذره برؤه.

(١) الحكم العطائية، شرح وتحليل د. محمد سعيد رمضان البوطي: 1 / 168. إحياء علوم الدين، الغزالي:

فالشهوات تقسي القلب، وقسوة القلب وعماه لعنة إلهية تهبط على رؤوس الناقضين للمواثيق، المارقين من التقوى، اللاعبين بالإيمان، قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: 13].

وتظهر قسوة القلب في السلوك كالاكتداد بالشخصية، وميل إلى اتهام الغير لا يقبل العذر، وفرح بافتضاح المخطئين مليء بالشهامة. وتلك كلها خلال تنافي الإيمان، فالإيمان إنكار للذات، وحب للغير، وستر على المخطئ، وسعي لإقالته من عثرته، وسرور غامر بتوبته. الإيمان توقير للكبار ورحمة بالصغار وتكريم للعلماء.

الإيمان سعادة بالرخاء يشيع بين الناس، وألم للكوارث التي يقطب لها الجبين، ولو كان هذا أو ذاك خبراً ينقل لا علاقة لشخصك به⁽¹⁾.

هذا صنف من الناس قساة القلوب، همهم إظهار مقدرتهم العلمية وتتبع الزلات فتراهم يجادلون بالباطل لا ليتعلموا بل لينصروا أفكارهم وليشيعوا الفتنة بين الناس، والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها. إن هؤلاء في الفقه أصفار، وهذا الجهل مقبحة محدودة أما المصيبة التي لا تحد فهي اشتهاؤهم لذم الناس والتماس العيب للأبرياء.

لقد ابتلي المسلمون بهذه الفئة ممن يتكلمون باسم الدين وهم يهدمون الدين ويظنون أنهم يُحسِنون صنعة، ولو فتشت قلوبهم لوجدت حجاباً تخيناً سببه المعاصي والذنوب وسببه ابتعادهم عن آداب الإسلام وأخلاقه فليذكروا أن كثيراً من العلماء والفقهاء تمنوا أن لا يذكر اسمهم ولا ينسب لهم فقه، بل اكتبوا الكتب ونشروا العلم لفائدة الناس. وليس لنفوسهم تطلع لمنصب أو شهرة أو عرض دينوي.

إننا نحتاج اليوم لقلوب عامرة بذكر الله والخوف منه، لقلوب ممتلئة بذل العبودية لله سبحانه ممتلئة بالتواضع لله ولعباده المسلمين.

(1) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، محمد الغزالي، ص: 184.

القلب شجرة تسقى بماء الطاعة:

ثم يقول ابن عطاء الله: «فالقلب شجرة تسقى بماء الطاعة، وثمراتها مواجيدها» فالقلب كالشجرة المثمرة تسقيها طاعة الله، وينتقل أثر الطاعة إلى الأغصان أي: الجوارح.

«فالعين ثمرتها الاعتبار» بما ترى والنظر في المكونات لتستدل بها على المكون، أما إن كانت العين غافلة عن ذلك مشغولة بالنظر إلى المحرمات ومراقبة الناس فإنها ليست لها ثمرة، ومصيرها إلى النار.

«والأذن ثمرتها الاستماع للقرآن». لتفهم كلام الله وتطمئن به أما إذا رأيت الأذن قد شغلت بسماع المحرمات وتتبع أسرار الناس وعوراتهم فإن ذلك سبب لقسوة القلب.

قال تعالى محذراً من عدم استعمال العين والأذن في طاعة الله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَآلُ النَّعِيرِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

«واللسان ثمرته الذكر» إن لسان مشغول بذكر الله، فإن وجدت اللسان يلهج بالغيبة والنميمة والسب والشتم والاعتداء على أعراض الناس والكلام الفارح فإن سبب لقسوة القلب. قال ﷺ: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله»⁽¹⁾.

وعن سفيان بن عبد الله أنه قال: «قلت: يا رسول الله ما أكثر ما تخاف علي؟. فأخذ عليه الصلاة والسلام بلسان نفسه ثم قال: هذا»⁽²⁾.

(1) الترمذي، الدعوات عن رسول الله، ما جاء في فضل الذكر، رقم (3297). وابن ماجه، الأدب، فضل الذكر رقم (3783). وأحمد، مسند الشاميين، حديث عبد الله بن يسر المازني، رقم (17020).

(2) الترمذي، الزهد عن رسول الله، ما جاء في حفظ اللسان، رقم (2334). وابن ماجه، الفتن، كف اللسان عن الفتن، رقم (3962).

إن نطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان، يؤكد هذا المعنى ما روي عن مالك بن دينار أنه قال: إذا رأيت قساوة في قلب، ووهناً في بدنك، وحرماناً في رزقك فاعلم أنك قد تكلمت فيما لا يعينك ^(١).

«واليدان والرجلان ثمرتهما السعي في الخيرات». فترى المسلم يحافظ على صلاة الجماعة ويسعى لزيارة المرضى ومساعدة الناس ويتصدق بيديه وينفق مما آتاه الله، أما إذا رأيت اليدين والرجلين تستعملان لمعصية الله فإن ذلك سبب لقسوة القلب.

إن جميع ما ذكرته يجمعه قوله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء، قلنا: يا رسول الله إنا لنستحي والحمد لله، قال: ليس ذاك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى ولتذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» ^(٢).

«فإذا جف القلب سقطت ثمراته، فإن أجذب فأكثر من الأذكار» إذ إن الأذكار دواء لقسوة القلب. لذلك قال ﷺ كما مر: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله» ^(٣). فإذا هيمن على القلب ذكر الله وتسيبته فإنه يشعر أن الله يراك ويراقبك مما يعينك على طاعته ويخوفك من معصيته.

يقول الحارث المحاسبي رحمه الله: «من أحسن العبادة: أن يمتلئ قلب العبد من حب الطاعة، فإذا فاض عملت الجوارح على قدر ما رأت من القلب، فربما كانت الجوارح في العبادة والقلب في البطالة.

قلت: وكيف عبادة القلب دون الجوارح؟ وكيف يفيض القلب بالعبادة إلى الجوارح؟.

(١) منهاج العابدين، الغزالي، ص: 72.

(٢) الترمذي، صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم (2382).

(٣) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

قال: أن يصير وعاء للهم والحزن، والافتقار والخوف، والندامة والتواضع والاضطرار إلى الله عز وجل، والنصح له وحب ما يحب الله، وبغض ما يبغض الله.

فإذا عامل الله على هذا بقلبه، هاجت الجوارح بمثل ما رأت من القلب، فانبعثت على الطاعة، وإنما يكون ذلك من القلب إذا خالط سويداءه ما تأتي به القيامة.

وبالباب الآخر: أن يمتلئ قلبه من معرفة نعم الله عز وجل، وسروره بالله، وأنسه بعبادة الله، وشوقه إلى محاب الله، وحبهِ للشكر لله، ورجائه مغفرة الله.

فإذا عامل الله بهذا في قلبه، اشتاق إلى عبادة الجوارح معه، فيكون عاملاً، وفي عمله أنس وسرور وحلاوة»^(١).

إن القلب ملك مُطاع ورئيس متبوع، فالأعضاء كلها تبع له، فإذا صلح المتبوع صلح التبع، وإذا استقام الملك استقامت الرعية، يبين ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(٢).

* * *

(١) آداب النفوس، المحاسبي، ص: ١٣١، ١٣٢.

(٢) البخاري في الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٠). ومسلم في المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (٢٩٩٦).

مثال الإيمان في القلب كالشجرة الخضراء

يقول ابن عطاء الله: مثال الإيمان في القلب كالشجرة الخضراء، فإذا كثرت ^(١) عليها المعاصي يبست وفرغ إمدادها، فمن أحب القيام بالواجبات، فليترك المحرمات، ومن ترك المكروهات أعين على تحصيل الخيرات، ومن ترك المباحات وسع عليه توسعة لا يسعها عقله وأباح له حضرته. ومن ترك استماع ما حُرِّم عليه أسمعته كلامه.

إن معاصي القلوب أشد خطراً على المسلم من معاصي النفوس، فهوى النفس يرجع لشهواتها الجسدية كحلاوة المأكّل والمشارب والملابس والمراكب والمناكح والمساكن، وهوى القلب هو شهواته المعنوية كحب الجاه والرياسة والعز والمدح والخصوصية والكرامات وحلاوة الطاعات الحسية.

أما علاج النفس فيكون بالفرار من أوطان ذلك والزهد وصحبة الأخيار. وأما علاج هوى القلب إذا تمكن فهو صعب وهو الداء العضال الذي أعجز الأطباء.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال». ولا يخرج هذا الداء إلا بما قاله ابن عطاء الله في حكمة أخرى ^(٢):

«لا يُخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق».

فالخوف يصرف عن الشهوة، والشوق ينسيك حظوظك ويؤنسك بربك.

إذاً معاصي القلوب تجعل القلب يابساً وجافاً فارغاً من الطاعات.

فمن أحب القيام بحقوق الله، فعليه أن يترك المحرمات، فإنه بذلك يحظى بمحبة الله له، والأفضل من هذا أن يترك المكروهات وهي: الأفعال التي يكون تركها أولى من فعلها وفعلها ليس حراماً، فمن ترك المكروهات لله تعالى وحباً له، فإن العبد يقترب أكثر من ربه ويأنس به أكثر ممن يترك المحرمات فقط.

(١) في المطبوع: أكثرت.

(٢) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 281.

ولذلك يكافئه ربه بمزيد من الخيرات التي تنفعه يوم القيامة.

والأفضل من كل ذلك من يترك المباحات قاصداً رضا ربه عليه، فهذا جزاؤه أن يدخل حضرة الله ويطلعه الله على أسرارِهِ.

وليس المقصود ترك المباحات بالكلية وإلا فكيف يعيش الإنسان؟ وترك المباحات ينافي كلام الله الذي أباح لنا الأكل من الطيبات بقوله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: 160].

بل قد تكون المباحات قربات لها ثوابها إذا اقترنت بالنية الصالحة، كالطعام بنية القوة على العمل للدين والدنيا، والنوم قوة على الطاعة، واللباس لستر العورة، وإظهار النعمة لله، وترويح النفس لتجديد قواها. . . .

أما إذا كانت هذه الأعمال المباحة دنيئة خالية من نية صالحة فهي هدر لا ثواب بها. وهذا المعنى هو ما يقصده ابن عطاء الله.

وقد تنقلب إثماً إذا اقترنت بنية فاسدة، كالطعام قوة على الشهوة، واللباس تكبراً وهكذا⁽¹⁾. . . .

ويجمع هذا كله الحديث القدسي الذي يقول فيه الباري سبحانه: «من عادي لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي شيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»⁽²⁾.

* * *

(1) آداب النفوس، المحاسبي، ص: 87.

(2) البخاري، كتاب: الرقاق، باب: التواضع، رقم (6021).

مثال القلب كالمراة

يقول ابن عطاء الله: مثال القلب كالمراة، ومثال النفس كالنفس كلما تنفست النفس على المراة سودها.

قلب الفاجر كمرآة العجوز التي ضعفت همتها أن تجلوها وتنظر فيها، وقلب العارف كمرآة العروس كل يوم تنظر فيها، فلا تزال مصقولة.

همة الزاهدين في كثرة الأعمال، وهمة العارفين في تصحيح الأحوال.

القلب موضع نظر رب العالمين، ولذلك قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١).

فيا عجباً لمن يهتم بوجهه الذي هو موضع نظر الخلق، فيغسله وينظفه لئلا يطلع مخلوق فيه على عيب، ولا يهتم بقلبه الذي هو موضع نظر رب العالمين، فيطهره ويزينه ويطيبه كيلا يطلع الله سبحانه على دنسٍ فيه وآفة وعيب، بل يهمله بفضائح وأقذار وقبائح.

ثم يقول ابن عطاء الله: «همة الزاهدين في كثرة الأعمال، وهمة العارفين في تصحيح الأحوال».

تعريف الزاهد:

الزاهد: من الزهد وهو ضد الرغبة ويعني ترك الرغبة في الدنيا والثقة بما عند الله بأن تكون الدنيا في كفه لا في قلبه، فلا تطغيه الدنيا بلذاتها وشهواتها.

(١) مسلم في البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم وخذه... رقم (4651).

تعريف العارف:

والعارف : من المعرفة وهو المختص بمعرفة الله ومعرفة عظمته وحسن معاملته، وهو الذي أنس بالله فأوحشه من الخلق، واقتقر إلى الله فأغناه عنهم، وذلك لله فأعزه منهم، وتواضع لله فرفعه بينهم، واستغنى بالله فأحوجهم إليه.

فالعارف أعلى درجة وقرباً من الله من الزاهد لأن همة الزاهد في كثرة الأعمال مع نسيان آفات القلوب، فربما كانت الأعمال مشوبة بالرياء والعجب.

أما همة العارف فهو تصحيح حال قلبه مع الله، فلا يخرج من قلبه إلا العمل الصالح الخالص له سبحانه.

فاحذر من نفسك فإنها سبب لسواد القلب، ولا تكن غافلاً عن تنظيف قلبك وجلائه من هذا السواد، وجلأؤه بالتوبة إلى الله وبطاعته وتنفيذ أوامره.

* * *

أربعة تعينك على جلاء قلبك

يقول ابن عطاء الله: أربعة تعينك على جلاء قلبك: كثرة الذكر، ولزوم الصمت، والخلوة، وقلة المطعم والمشرب.

يرشدنا ابن عطاء الله - رحمه الله - إلى أن جلاء القلب من المعاصي والآفات التي تصيبه يكون بأربعة أشياء:

1- **الذكر**: ذكر الله يخلص القلب من القسوة ومن التعلق بغير الله سبحانه، إن القلوب التي لذكر الله، هي قلوب عرفت الإيمان ولذة القرب وحلاوة الطاعة وعرفت الخشية فذكرت الله، واقتشعت الجلود ثم لانت وهذا من صفات القلوب السليمة التائبة إلى الله قال سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَنْفَعُ مَنْ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23].

إن الذاكر لله بلسانه ليس ذاكرًا إن لم يكن ذكره من قلبه، واللسان مساعد له. فالقلب الذاكر شعر بعظمة المذكور وخاف منه مما جعله يسعى لإرضائه بطاعته واتباع أوامره.

وبالتالي فالذكر يخلص القلب من شوائب المعاصي والذنوب.

ولذلك جاء هذا التأكيد من الله سبحانه على أهمية الذكر والتكثير منه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 41].

واذكروا الله في كل الأوقات والأحوال قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 191].

2- لزوم الصمت:

قال الإمام الشافعي:

قالوا سكت وقد خوصمت قلت لهم إن الجواب لباب الشر- مفتاح
الصمت عن جاهل أو أحمق شرفٌ وفيه أيضاً لصون العرض إصلاح
أما ترى الأسد تخشى وهي صامته؟! والكلب يُخسى لعمرى وهو نباح

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» ⁽¹⁾.

إن لكثرة الكلام محاذير عدة أهمها ⁽²⁾:

أ. إن كثير الكلام ثقیل الظل غالباً لأنه يحتكر الحديث ويحول بين كثير من الراغبين في الكلام وبين بغيتهم، ويقطع على المتأمل طريق التأمل ويدخل الضيق على صدور السامعين.

ب. إن كثير الكلام معرض إلى الوقوع في الغلط غالباً لأنه سيخوض في أمور ليس عنده فيها كلها اطلاع كاف.

ج. إن الكلام الكثير غالباً ما يكون سطحيّاً سخيفاً مكروراً مهما كان صاحبه من النوايع.

(1) سبق تخريجه، ص: 132.

(2) قضايا في الدين والحياة والمجتمع، د. محمد بن لطفي الصباغ، ص: 56 وما بعدها.

إن آفات اللسان كثيرة ومتنوعة ولها في القلب حلاوة، ولا نجاة من خطرهما إلا بالصمت، لأن الصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر. لذلك قال ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة»^(١).

وفي حديث معاذ في آخره قال ﷺ: «كُفَّ عليك هذا فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟. قال، ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم»^(٢).

وذمَّ النبي ﷺ الثرثار الذي يكثر الكلام بقوله: «إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيام مساوئكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون^(٣) المتفيهقون^(٤)»^(٥).

3- الخلوة : وقد سبق الكلام عنها^(٦).

4- **قلّة المطعم والمشرّب**: فالجوع يكسر النفس، والشبع يهيج البطر ويورث القسوة والثقل والنوم، وفي الجوع قوة الهم والحزن، والهم والحزن يقطعان الشهوة والرغبة^(٧).
إن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة في المال ويتبع ذلك آفات كثيرة.

(1) سبق تحريجه، ص: 133.

(2) الترمذي في الإيمان عن رسول الله، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (2541) وقال: حسن صحيح.

وابن ماجه في الفتن، باب: كف اللسان رقم (3963).

(3) المتشدد: المتكلم بملء الفم إظهاراً للفصاحة.

(4) المتفيهق: الذي يتوسع في الكلام ويفتح به فاه.

(5) الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في معالي الأخلاق، رقم (1941). وقال: حسن غريب. وأحمد،

مسند الشاميين، حديث أبي ثعلبة الخشني، رقم (17066).

(6) انظر، ص: 22. وسيأتي ذكر فوائدها، ص 186.

(7) آداب النفوس، المحاسبي، ص: 87.

ولذلك قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلاّت يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»^(١).

وتجشأ رجل في مجلس رسول الله ﷺ فقال له: «أقصر- من جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا»^(٢).

وقال أبو هريرة: «ما أشبع النبي ﷺ أهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا»^(٣).

يقول الإمام الغزالي - رحمه الله - شارحاً فوائد الجوع:

«**الفائدة الأولى** : صفاء القلب وإيقاد العزيمة وإنفاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يحتوي على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك. . .

الفائدة الثانية: رقة القلب وصفاءه الذي به يتهيأ لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر، فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجاباً من قسوة القلب، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة، وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه. قال الجنيد: يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة»^(٤).

* * *

(١) الترمذي، الزهد عن رسول الله، ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم (2302). وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه، الأطعمة، الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، رقم (3340). وأحمد، مسند الشاميين، حديث المقداد بن معدى كرب، رقم (16556).

(٢) الترمذي في صفة القيامة، رقم (2402) وقال: حسن غريب من هذا الوجه. وابن ماجه في الأطعمة، باب: الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، رقم (3341).

(٣) مسلم في الزهد، رقم (5286).

(٤) إحياء علوم الدين: 3 / 125، 126.

القلب أشد تقلباً من القدر إذا غلت

يقول ابن عطاء الله: قال رسول الله ﷺ: «لقلب ابن آدم أشد تقلباً من القدر على النار إذا غلت^(١)». فكم من كان في جمع مع الله أثنه الفرقة في نفس واحد، وكم من بات في طاعة الله ما طلعت عليه الشمس حتى دخل في القطيعة، فالقلب بمثابة العين، والعين لا ترى بها كلها، بل بمقدار العدسة منها، وكذلك القلب لا يراود منه اللحمانية، بل اللطيفة التي أودعها الله فيه وهي المدركة، وجعل الله القلب معلقاً في الجانب الأيسر. كالدلو، فإن هب عليه هوى الشهوة حركه، وإن هب عليه خاطر التقوى حركه، فتارة يغلب عليه خاطر الهوى، وتارة يغلب عليه خاطر التقى، حتى يعرفك مرة منه ومرة قهره، فمرة يغلب عليه خاطر التقى ليمدحك، ومرة يغلب عليه خاطر الهوى ليذمك فالقلب بمثابة السقف، فإذا أوقد في البيت نار صعد الدخان إلى السقف فسوده فكذلك دخان الشهوة، إذا نبت في البدن صعد دخانه إلى القلب فسوده.

ما سمي القلب قلباً إلا من التقلب ولذلك قال الشاعر:

ما سمي القلب قلباً إلا من تقلبه والرأي يضرب بالإنسان أطواراً

فإذا زلَّ القلب -والعياذ بالله- فزلَّ الله عظيم، ووقعه أصعب، إذ أدناه قسوة وميل إلى غير الله، ومنتهاه ختم بكفر الله تعالى.

فسبب كفر الشيطان هو كبر ملأ قلبه، قال تعالى: ﴿أَبَىٰ وَأَسْتَكْبَرُ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

[البقرة: 34].

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَكْنُهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: 176]. فكان الميل واتباع الهوى في قلبه، فحمله على ذلك الذنب المشثوم بنفسه. أما تسمع قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: 110].

(1) أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث المقداد بن الأسود، رقم (2699). والحاكم في صحيحه، رقم

ولهذا المعنى خاف عباد الله تعالى الخواص على قلوبهم، وبكوا عليها وصرفوا عنايتهم إليها، فقال سبحانه في وصفهم: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: 37].

من أجل هذا كان من دعائه ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»⁽¹⁾.

وعندما سألت السيدة عائشة رضي الله عنها عن سبب إكثار النبي ﷺ من هذا الدعاء. قال: «ليس من قلب إلا هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه»⁽²⁾.

ولهذا كان دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

والقلب دائماً في صراع بين خاطر الهوى وخاطر التقى، فإن غلب عليه خاطر التقى فهذا منة سبحانه وإحسان، وإن غلب عليه خاطر الهوى فهذا من قهره سبحانه إذ تجلبى عليه سبحانه باسم الجليل والقهار.

وما قضى عليك من الوقوع في الذنوب فعليك أن ترجع إليه تائباً فإن المصائب لها فوائد عظيمة، إذ بها يُعرف الصادق من الكاذب، فإذا تجلبى لك سبحانه باسمه القهار فقابل به أنت بالذل والعبودية والاستسلام لقضائه، بعد ذلك أسأله سبحانه أن يعينك على خاطر الهوى والتزام سبيل التقى.

فالعطاء والمنع لمصلحة العبد إذ بكلتا الحالتين يتعرف العبد على خالقه ويرجع إليه، وهذا من رحمة الله وإقباله ولطفه عليه، كما قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «متى أعطاك

(1) الترمذي في القدر عن رسول الله، باب: ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم (2066). وقال:

حديث حسن. وابن ماجه في الدعاء، باب: دعاء رسول الله، رقم (3824).

(2) مسلم بالفاظ متقاربة، كتاب: القدر، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (4798).

أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجوه لطفه عليك».

فالعبودية لله تقتضي شكره على النعم والصبر ابتغاء وجهه في الضراء.

القلب بمثابة السقف وحقيقة ذلك:

ثم يقول ابن عطاء الله: «فالقلب بمثابة السقف، فإذا أوقد في البيت نار صعد الدخان إلى السقف فسوده فكذلك دخان الشهوة، إذا نبت في البدن صعد دخانه إلى القلب فسوده».

ومعنى هذا: أن للحسنة نوراً في القلب، وقوة في البدن، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة ظلمة في القلب وسواداً في الوجه، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق^(١).

ويشهد لهذا قوله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نُكْتُت في قلبه نُكْتة سوداء، فإذا تاب ونزع واستغفر صُفِّلَ قلبه وإذا زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي ذكره الله عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»^(٢) [المطففين: 14].

وعن حذيفة بن اليمان -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «تعرض الفتن^(٣). على القلوب كالخصير عوداً عوداً، فأى قلب أشربها^(٤). نُكْتُت فيه نُكْتة^(٥). سوداء،

(1) أمراض القلوب، ابن تيمية، ص: 21.

(2) ابن ماجه في الزهد، باب: ذكر الذنوب، رقم (4234). وأحمد باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة، رقم (7611).

(3) الفتن: كل ما يعرض للإنسان من مغريات شهوانية ويدخل فيها أنواع الذنوب والمعاصي مما يمتحن تقواه وثباته على دينه سلوكاً واعتقاداً. في ظلال الحديث النبوي، د. نور الدين عتر، ص: 85.

(4) أشربها: تمكنت فيه وحلت كما يحل الشراب في الإناء.

(5) النكته: البقعة.

وأَيُّ قلب أنكرها نُكُتت فيه نُكُتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباداً^(١). كالكوز مجخياً^(٢)، لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً إلا ما أشرب من هواه^(٣).

فالمعاصي سبب لسواد القلب وإنكار المعاصي، والتوبة منها سبب لبياض القلب ونقاؤه وهو مثال القلب الممتلئ إيماناً وحباً لله وخوفاً منه سبحانه.

* * *

(١) المرباد: المتغير عن لونه، أو هو لون بين الغبرة والسواد.

(٢) مجخياً: منكوساً.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً. . ، رقم (207).

مثال القلب إذا أسلمته إلى النفس

يقول ابن عطاء الله: مثال القلب إذا أسلمته ^(١) إلى النفس كمن تعلق بغريق فغرق كل واحد منهما، ومثال النفس إذا سلمتها إلى القلب كمن أسلم نفسه إلى عوام قوي فسلمها، فلا تكن كمن ^(٢) أسلم قلبه إلى نفسه!، فهل رأيت بصيراً قلده نفسه إلى أعمى يقوده؟!.

والمقصود بالنفس هنا أي: الأمانة بالسوء فإنها تسيء للقلب إساءة عظيمة إن كانت هي القائدة له. يقول ابن القيم: «ألقى الله سبحانه العداوة بين الشيطان وبين الملك، والعداوة بين العقل وبين الهوى، والعداوة بين النفس والأمانة وبين القلب. وابتلي العبد بذلك وجمع له بين هؤلاء، وأمد كل حزب بجنود وأعوان فلا تزال الحرب سجالاتاً ودولاً بين الفريقين، إلى أن يستولي أحدهما على الآخر ويكون الآخر مقهوراً معه، فإذا كانت النوبة للقلب والعقل والملك فهنالك السرور والنعيم واللذة والبهجة والفرح وقرة العين وطيب الحياة وانسراح الصدر والفوز بالغنائم، وإذا كانت النوبة للنفس والهوى من الشيطان، فهنالك الغموم والهموم والأحزان وأنواع المكارهِ وضيق الصدر وحبس الملك» ^(٣).

فالنفس الأمانة تكون سبباً في هلاك القلب، إن أسلم القيادة لها، فسلم نفسك إلى قلبك واجعل النفس تابعة للقلب لأنه منبع الإيمان والصلاح ومنبع العواطف الدافعة والرادعة والمجددة. وإلى هذا أشار ﷺ

(١) في المطبوع: سلمته.

(٢) في المطبوع: ممن.

(٣) الفوائد، ص: ٨٧.

بقوله: «إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(١). ولم يذكر النفس دلالة على أن القلب هو المسيطر على النفس والأعضاء.

* * *

(١) سبق تخريجه، ص: 164.

الغيرة على القلب والإيمان

يقول ابن عطاء الله: كفى بك جهلاً أن تغار على زوجتك ولا تغار على إيمانك، كفى بك خيانة أن تغار عليها لأجل نفسك ولا تغار على قلبك لأجل ربك، إذا كنت تحفظ ما هو لك، ألا تحفظ ما هو لربك؟!.

الغيرة على المرأة تعني: نوران النفس لإبداء المرأة زينتها ومحاسنها لغيره، أو لانصرافها عنه إلى آخر.

والغيرة على الزوجة أمر حسن إذا لم يجاوز المعقول والمعتاد، وبه يكون الحفاظ على العرض.

لكن ابن عطاء الله ينبهنا إلى ضرورة الغيرة على الإيمان، وبما أن القلب هو منبع الإيمان بدليل قوله تعالى عن الأعراب: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: 14] فإن الغيرة تشمل القلب أيضاً.

والغيرة على القلب تعني: ثوران النفس لانصراف القلب إلى التعلق بغير الله سبحانه، كأن يتعلق بالصور والمكونات ويُملاً بحب الدنيا والجاه والرياسة والحقد والحسد... الخ.
إن الغيرة هنا هي انصراف القلب إلى الله وحده وملؤه بالحب له والخوف منه وحده سبحانه.

* * *

المؤمن له قلبان يرجو بأحدهما ويخاف بالآخر

قال ابن عطاء الله: قال لقمان الحكيم المؤمن له قلبان يرجو بأحدهما ويخاف بالآخر، يرجو قبول عمله، ويخاف ألا يقبل منه، ولو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا، ومن أراد الجمع على الله فعليه القيام بأوامر الله.

ما خرب القلوب إلا قلة الخوف:

قال الإمام النووي رحمه الله: «اعلم أن المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفاً راجياً، ويكون خوفه ورجاؤه سواء، وفي حال المرض يمحض الرجاء»^(١).
أي في حال المرض واقتراب الموت يغلب الرجاء على الخوف.

خوف القلب: تعريفه وحقيقته:

1- **الخوف**: وهو رعدة تحدث في القلب عن ظن مكروه يناله، والخشية نحوه لكن الخشية تقتضي ضرباً من الاستعظام والمهابة.

ومقدمات الخوف أربع ذكرها الإمام الغزالي^(٢). وهي:

الأولى: ذكر الذنوب الكثيرة التي سبقت، وكثرة الخصوم الذين مضوا في المظالم وأنت مرتهن لم يتبين لك الخلاص بعد.

والثانية: شدة عقوبة الله سبحانه، والتي لا طاقة لك بها.

والثالثة: ذكر ضعف نفسك عن احتياها.

والرابعة: ذكر قدرة الله تعالى عليك متى شاء وكيف شاء.

(١) رياض الصالحين، النووي، ص: 179.

(٢) منهاج العابدين، ص: 154.

أما الآيات الدالة على الخوف فكثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَعْبَادُ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: 16].

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: 36].

وقوله سبحانه: ﴿وَبَدَأْهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: 47].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: 12]. وقوله سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ

نَفْسَهُ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 28]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ

ۖ ﴿٣٥﴾ وَصَخِيخَيْهِ وَبَنِيهِ ۖ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: 34 - 37].

وأما الأحاديث فكثيرة أذكر منها:

- قوله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك

يجرونها»^(١).

- عن النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون

أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل يُوضع في أخص قدميه جمرتان يُغلي منهما دماغه ما يرى أن

أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً»^(٢).

- عن أبي هريرة ؓ، أن رسول الله ﷺ قال: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب

عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم حتى يبلغ أذانهم»^(٣).

(1) مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حر نار جهنم . . ، رقم (5076).

(2) البخاري في الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، رقم (6076). ومسلم في الإيمان، باب: أهون أهل النار

عذاباً، رقم (313).

(3) البخاري في الرقاق، قول الله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۖ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ، رقم (6051).

- وعنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، إذ سمع وجبة^(١). فقال: «هل تدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها، فسمعتهم وجبتها»^(٢).

- وعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم»^(٣). وصاحب القرن (الصور) قد التقم القرن، واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ» فكان ذلك ثقل على أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لهم: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»^(٤).

رجاء القلب: تعريفه وحقيقته:

2- **الرجاء**: هو ابتهاج القلب بمعرفة فضل الله سبحانه، واسترواحه إلى سعة رحمة الله تعالى. وضده اليأس وهو: تذكر فوات رحمة الله وفضله وقطع القلب عن ذلك.

ومقدمات الرجاء أربع:

الأولى: ذكر سوابق فضل الله إليك.

والثانية: ذكر ما وعد الله من جزيل ثوابه وعظيم كرامته على حسب فضله وكرمه دون استحقاقك إياه بالفعل.

والثالثة: ذكر كثرة نعمة الله عليك في أمر دينك ودنياك في الحال، من أنواع الإمداد والألطف من غير استحقاق أو سؤال.

(1) وجبة: سقطه.

(2) مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حر نار جهنم. . . ، رقم (5078).

(3) أنعم: أطيّب عيشاً.

(4) الترمذي: في صفة القيامة والرفائق والورع عن رسول الله، باب: ما جاء في شأن الصور، رقم (2355)، وقال: حديث حسن.

والرابعة: ذكر سعة رحمة الله تعالى وسبقها غضبه، وأنه الرحمن الرحيم، الغني الكريم
الرءوف بعباده المؤمنين⁽¹⁾.

- أما آيات الرجاء فكثيرة منها:

- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: 17]. والكفور: البليغ في الكفر أي هل
يجازى بالعذاب إلا شديد الكفر، أما المؤمن منهم فهو في مأمن من ذلك.

- قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: 48].

- قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 156].

قوله تعالى: ﴿كُنْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةً﴾ [الأنعام: 12].

ومن الأحاديث ما يأتي:

- عن عبادة بن الصامت، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم
وروح منه، والجنة والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»⁽²⁾.

وفي رواية لمسلم: «أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، حرم الله عليه النار».

- وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل قال: «يا معاذ قال: لبيك يا رسول
الله وسعديك، قال: يا معاذ، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: يا معاذ. قال: لبيك يا

(1) منهاج العابدين، الغزالي، ص: 154، 155.

(2) البخاري في أحاديث الأنبياء، قوله: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَقْتُلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ رقم (3180)،
ومسلم في الإيمان، الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم (41).

رسول الله وسعديك ثلاثاً، قال: ما من عبد يشهد أن لا إله الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار. قال: يا رسول الله أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: إذا يتكلموا. فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً⁽¹⁾.

ومعنى تأثماً: أي خوفاً من الإثم في كتم العلم لقوله ﷺ: «من كتم علماً مما ينفع الله به في أمر الناس أمر الدين ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»⁽²⁾.

إن الأحاديث ليست على عمومها ويجب الحذر من الفهم الخاطئ لها. ولذلك قال الطيبي تعليقاً على قوله ﷺ: «صدقاً» في الحديث السابق: أقيم الصدق هنا مقام الاستقامة، لأن الصدق يُعبر به قولاً عن مطابقة القول المخبر عنه، ويعبر به فعلاً عن تحري الأخلاق المرضية، وقال الحافظ ابن حجر: وأراد بهذا التقرير رفع الإشكال عن ظاهر الخبر، لأنه يقتضي- عدم دخول جميع من شهد الشهادتين النار لما فيه من التعميم والتأكيد، ولكن دلت الأدلة القطعية عند أهل السنة على أن طائفة من عصاة المؤمنين يُعذبون ثم يخرجون من النار بالشفاعة، فعلم أن ظاهره غير مراد، فكأنه قال: إن ذلك أي تحريم النار مقيد بمن عمل الأعمال الصالحة، وأجاب بعضهم بأن مطلقه مقيد بمن قالها تائباً، ثم مات على ذلك، أو أن المراد بتحريمه على النار تحريم خلوده فيها لا أصل دخولها، وقوله يتكلموا: أي يمتنعوا من العمل اعتياداً على ما يتبادر من ظاهره⁽³⁾.

لذلك قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنية».

(1) البخاري في العلم، باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم (125). ومسلم في الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم (47).

(2) ابن ماجه في المقدمة، باب: من سئل عن علم فكتمه، رقم (261).

(3) رياض الصالحين، النووي، ص: 168.

فالرجاء الكاذب هو الذي يفتقر صاحبه عن العمل، ويجرئه على المعاصي والذنوب فهذا يُسمى «أمنية» واغتراراً بالله تعالى.

وقد ذم الله قوماً ظنوا مثل هذا وأصروا على حب الدنيا وتمنوا المغفرة على ذلك فسماهم الله «خلفاً» والخلف: الرديء من الناس، فقال عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: 169].

وفي الحديث قال ﷺ: «الكيس⁽¹⁾. من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»⁽²⁾.

الجمع بين الخوف والرجاء:

وأدلة ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: 13-14].

- وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ﴾ [القارعة: 6-9].

- وقوله تعالى: ﴿نَبِيِّ عِبَادِي أَتَى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 49-50]. وهذا كيلا يستولي على العبد الرجاء فأتبع المغفرة والرحمة بالعذاب الأليم.

- وقوله تعالى ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ [غافر: 3].

فأتبع الخوف والعقاب بالفضل والإنعام وهو معنى قوله تعالى: ذي الطول.

(1) الكيس: العاقل المتبصر في الأمور الناظر في العواقب.

(2) الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، رقم (2283).

وأعجب آيات الجمع بين الرجاء والخوف قوله تعالى: ﴿وَيَحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: 30]. ثم قال في عقبه: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 30].

وأعجب منه قوله سبحانه: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ﴾ [ق: 33] وإذ علق الخشية باسم الرحمن دون اسم الجبار والمنتقم والمتكبر؛ لتكون الخشية مع ذكر الرحمة كقولك: أما تخشى الوالدة الرحمة؟.

أما تخاف الوالد المشفق؟ وسبب ذلك أن يكون الطريق عدلاً، فلا تذهب إلى أمن ولا قنوط.

ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما يأتي:

- ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد» ⁽¹⁾.

- وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله» ⁽²⁾. والنار مثل ذلك» ⁽³⁾.

هل يغلب الرجاء أم الخوف؟

ذكرت قول الإمام النووي أن المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفاً راجياً كجناحي الطائر، إذ لو وزن - كما يقول ابن عطاء الله - خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا. وهذه حال التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه فالأصل له أن يعتدل خوفه ورجاؤه. أما أكثر الخلق فالخوف لهم أصلح من الرجاء، لأجل غلبة المعاصي.

(1) مسلم، التوبة، في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (4948).

(2) شراك النعل: أحد سيور النعل التي تكون في وجهها.

(3) البخاري، الرقاق، الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك، رقم (6007).

أما في حالة المرض المؤثر على العمل، وحالة الإشراف على الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن، لأن الخوف باعث على العمل وقد انقضى- في هذه الحالات وقت العمل. فالمرضى مرضاً مزمناً والمشرّف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطبق أسباب الخوف، لأن ذلك يعين على تعجيل موته، وأما الرجاء فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاءه، فلا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله، فإن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه^(١).

ولذلك حثنا النبي ﷺ على حسن الظن بالله تعالى وخاصة عند الموت فقال: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن»^(٢).

* * *

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي: 4 / 240.

(٢) مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (5124).

أمثلة القلوب

يقول ابن عطاء الله: من أراد أن ينظر إلى أمثلة القلوب، فلي نظر إلى الديار: فدارُ خربت وقد بقيت مبولة للبوالين، وقلب كالدار العامرة، وقلب كالدار الخراب.

مثال آخر لأحوال القلوب فالقلب الخرب هو قلب امتلاً بالنفاق والزيغ والغیظ والقوة والغفلة والحقْد والغل وكل ذلك بسبب حب الدنيا.

والقلب العامر هو قلب امتلاً بالإيمان والخشوع والسكينة والتقوى والرأفة والرحمة والاطمئنان والانشراح والخوف من الله.

وعلى قدر الإيمان يكون الخراب والعمار.

أمثلة القلوب العامرة السليمة:

أ. القلب الخاشع : الذي يخشع لذكر الله والحق، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: 16].

ب. القلب الساكن : الذي لا يعرف التردد ولا الاضطراب بل يرجع الأمور كلها لله سبحانه فيعلم أنه كما قال ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رُفعت الأقلام وجفت الصحف»^(١).

عندما يعلم القلب ذلك لا يخاف من أحد إلا منه سبحانه فتكون السكينة والاطمئنان التي تكون عوناً للمسلم على تحمل الشدائد والمصائب.

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح: 4].

(١) الترمذي، صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم (2440).

ج. القلب التقي: هو قلب يراقب الله في كل أموره ويعظم شعائره قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32].

د. القلب الطاهر: هو قلب تخلص من أدران الرذيلة ومن شوائب الشهوات والأهواء بل كان هواء تبعاً لما جاء به المصطفى ﷺ عن ربه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَبِيطٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكَحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 53].

وبالمقابل فإن الله لم يظهر قلوب الكافرين بل أبقاها قلوباً مريضة لأن الإيمان لم يدخلها أصلاً فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ سَكَّعُوا لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتَوْكَ بِتُحَافُظٍ أَلَكُمُ مِنَ بَعْدِ مَوَاضِعُهُ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 41].

د. القلب المنيب: العائد إلى ربه المعترف بتقصيره التائب من ذنبه، قال عز وجل: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيطٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: 32 - 33].

أمثلة القلوب السقيمة:

أما أمثلة القلوب الخربة والسقيمة فأذكر ما يأتي:

أ. القلب المريض: مريض بالشرك والكفر والنفاق والغفلة... إلخ قال تعالى واصفاً المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: 10].

ب. القلب المنافق: هو القلب الذي يظهر شيئاً ويبطن خلافاً كان يظهر الإيمان ويبطن الكفر، ويظهر النصح ويبطن الحقد والحسد. قال تعالى عقاباً للمنافقين: ﴿فَاعْقَبْهُمْ نِقَافًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: 77].

ج. القلب الزائع: هو قلب عرف الحق وتركه كبراً ونفاقاً قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أُولَ الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: 5].

ولذلك فإن المؤمن يتوجه إلى الله تعالى أن يشبته على الحق فلا يزيغ عنه، قال تعالى عن دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهْبًا لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

د. القلب الغائط: والغيط شعور بالغضب الشديد من إساءة الغير وهي من صفات المنافقين والكافرين حيث يغتاض القلب من المؤمنين ولا يتمنى لهم الخير، قال تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 14 - 15].

هـ. القلب المطبوع: هو الذي ختم الله عليه بعد استمراره بالنفاق والكفر والغفلة وإهمال علاجه، إنه عقاب من الله بسبب الإصرار على المعصية قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: 108].

و. القلب القاسي: وهو عقاب من الله لمن عرف الحق فحاده ولمن رأى المعجزات والآيات فلم يتحرك الإيمان في قلبه، فهو مرض خطير وهو من صفات المنافقين والكافرين، قال تعالى واصفاً حال اليهود: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ ثَبَتَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 13].

ثم يهدد الله أصحاب القلوب القاسية بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: 22].

إبليس يهوى القلوب الخربة:

فإذا كان القلب فارغاً من الخوف اللازم، والحزن الدائم، فهو حينئذ قلب خرب، ينفث فيه إبليس بالوسوسة لآمال الدنيا، والجمع لها، مخافة فقرها، مع لزوم طول الأمل لقلبك، وإعراضه عن الله تعالى، وانقطاع مراد عظمة الله منه، وفراغه من الهيبة والحياء منه. فإذا وجد القلب عامراً خنس، ونفر منه، ولم يجد فيه مساعاً، ولا من جوانبه مدخلاً، لأن القلب عامر بالخوف والأحزان والفكر، فهو منير مضيء يرى العبد بنور قلبه مداخل إبليس، فيرميه بالإنكار لما يدعوه إليه، ويعتصم بما أيده الله به من نور قلبه، فيدحره (يهزمه) فولى الخبيث إلى قلب قد فقد الخوف، فخرّب وأظلم، فلا نور فيه.

. . . ولا شيء أعجب إلى إبليس من ظلمة القلب وسواده، وانطفاء نوره، وتراكم الرين عليه، ولا شيء أثقل على الخبيث من النور والبياض والنقاء والصفاء، وإنما مأواه الظلمة، وإلا فلا مأوى له ولا قرار في النور والبياض^(١).

ومن النور ذكر الله عز وجل لذلك ورد في الحديث أن الشيطان إذا سمع ذكر الله أدبر وله حصاص^(٢).

وحديث أبي هريرة عند البخاري حين قبض على الجنّي يسرق من تمر الصدقة، فطلب منه الجنّي أن يتركه على أن يعلمه كلمات لا يجتمع معها جنّي أبداً، وهي آية الكرسي^(٣). وآية الكرسي ما هي إلا ذكر الله؟!

* * *

(١) آداب النفوس والمحاسبي، ص: 40، 41.

(٢) البخاري، الأذان، فضل التأذين، رقم (573)، ومسلم، الصلاة، فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، رقم (583).

(٣) البخاري في بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده، رقم (3033).

مثال الجوارح كالسواقي تجري إلى القلب

يقول ابن عطاء الله: ما مثالك إلا كالصلة إذا قشّرت خرجت كلها قشور.

إذا أردت تنظيف الماء قطعت عنه أسبابه الخبيثة، فمثال الجوارح كالسواقي تجري إلى القلب، فإياك أن تسقي قلبك بالبرديء، كالغيبة والنميمة والكلام السيئ والنظر إلى ما لا محل وغير ذلك، فإن القلب لا يحجبه ما خرج منه، وإنما يحجبه ما أقام^(١). فيه، فاستنارة القلب: بأكل الحلال والذكر وتلاوة القرآن وصونه عن النظرة إلى الكائنات المباحات والمكروهات والمحرمات، فلا تطلق صائد بصرك إلا لمزيد علم أو حكمة، عوض ما تقول: هذه المرأة صدئت، قل: عيني بها رمد!.

هذا النوع من المسلمين ما أكثره في مجتمعنا، يهتمون بالقشور وينسون اللب، مع أن اللب هو الأصل، والقشر يرمى ولا يؤكل.

إن المصيبة هي اهتمام الناس بالعبادات الظاهرة من أعمال الجوارح ونسيان تقوى القلوب. فالعمل الظاهر لا يفيد شيئاً حين يكون القلب غافلاً، قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢).

أو تقول: العلم قشر والعمل لب وماذا يفيد القشر من دون لب، وماذا يفيد العلم من دون العمل به؟!.

ثم يضرب لنا ابن عطاء الله مثلاً للقلب مع الجوارح، فإن الجوارح قد تسيء إلى القلب وتحجبه عن الله سبحانه وإن كان هو القائد لها، ولكنها كالسواقي تصب في القلب، فإن كانت الساقية نجسة تنجس القلب بها.

ومن هذه النجاسات المعنوية:

(١) في المطبوع، ما قام.

(٢) سبق تخريجه ص 168.

- الغيبة: وهي ذكرك أخاك بما يكره.

- النميمة: وهي نقل الكلام من القائل إلى المقول فيه على سبيل الإفساد.

- الكلام السيئ: لأنه يعبر عن التكبر والحقده والحسد.

- النظر إلى ما لا يحل: فإنه مخالفة لأمر الله بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ

أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...﴾ [النور: 30 - 31] وكمثال على تأثير هذه المعاصي على القلب قوله ﷺ: «النظر سهم من سهام إبليس من تركها أورثه الله إيماناً يجده حلاوته في قلبه»^(١).

كيف يستنير القلب:

ثم بين لنا ابن عطاء الله أن استنارة القلب تكون بما يأتي:

أ. أكل الحلال من الطعام: بأن يكون من كسب طيب خال من الشبهات فإن الله

سبحانه يبارك في الرزق الحلال، على عكس الرزق الحرام فإنه محقوق البركة، قال ﷺ لسيدنا سعد بن معاذ: «يا سعد! أظب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن العبد ليقتذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوماً، وأبيا عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به»^(٢).

ب. الذكر: فإن الذكر ينور القلب لدوام تذكر الله سبحانه واستشعار عظمته، فإن

القلب يطمئن بذكر الله كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]. والقلب يخاف إذا ذكر الله فيكون سبباً للاستقامة والابتعاد عن المعاصي، قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2].

(1) سبق تخريجه، ص: 30.

(2) خرجه الطبراني في الأوسط، رقم (6495): 6 / 311. قال في مجمع الزوائد: وفي الحديث من ألم أعرفهم:

فالقلب يطمئن على الرزق أنه من عند الله فلا يشكك في ذلك بل يأخذ بالأسباب كما أمره الله، أما النتائج فهي بيد الله وهكذا في كل أموره. والقلب يخاف على مصيره يوم القيامة فيسعى لإصلاح نفسه والإخلاص في عبادته لله عز وجل وبذلك يتنور القلب بطاعة ربه وتوكله عليه. وقد ضرب النبي ﷺ لنا مثلاً لمن يذكر ربه ومن لا يذكر ربه مثل الحي والميت^(١).

ج. تلاوة القرآن: فإن القرآن كلام الله سبحانه، والقلب الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب.

فالذي يقرأ القرآن يشعر بجلال الله سبحانه ونعمه وعظمته في مكوناته والقرآن شفاء لما في الصدور، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: 82]. وشفاء لمن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات، ففيه من البينات ما يُزيل الحق من الباطل: فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره، فيبقى القلب محباً للرشاد مبغضاً للغي بعد أن كان مريداً للغي مبغضاً للرشاد.

فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذي البدن بما ينميهِ ويقومه، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن^(٢).

د. صون النظر إلى الكائنات المباحات والمكروهات والمحرمات:

أي استعمال النظر بما يرضي الله سبحانه وهذا هو شكر العين أما النظر إلى المباحات فليس بحرام، لكنه عندما يُلهي عن فرائض الله ويؤخر عن الصلاة مثلاً ويُشغل القلب به عندئذ يصبح صون النظر عنه أفضل.

(١) البخاري في الدعوات، باب: فضل ذكر الله عز وجل، رقم (5928).

(٢) أمراض القلوب وشفائها، ابن تيمية، ص: 13، 14.

إذا صلاح القلب هو حياته واستنارته، قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 122].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ فِي الْمِصْبَاحِ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: 35].

فهذا مثل نور الإيمان في قلوب المؤمنين ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩) أو كَطُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَعَابٌ طُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكَادُ يَكْدِرُهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 39 - 40].

فهذا مثل ظلمة المعاصي والذنوب في قلوب الكافرين.

ثم يقول ابن عطاء الله: «عوض ما تقول هذه المرأة صددت، قل: عيني بها رمد».

فكل ما في هذا الوجود يدل على الخالق عز وجل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

إن الشمس لا ينكر وجودها أحد، ولكن من كان بعينه عور أو مرض فهو الذي لا يبصر الشمس؟! وهذه المكونات تدل على المكون.

إذا الحقائق موجودة لكن العيب منا نحن، الرمد بعينونا أما المرأة فإنها بيضاء نظيفة فلماذا ندعي أنها قد صددت، لماذا لا نقول عيوننا بها رمد؟!.

* * *

مرض القلب وعلاجه

يقول ابن عطاء الله: من مرض قلبه منع أن يلبس لباس التقوى، فلو صح قلبك من مرض الهوى والشهوة تحملت أثقال التقوى، فمن لم يجد حلاوة الطاعة دل على مرض قلبه من الشهوة، وقد سمي الله تعالى الشهوة مرضاً، بقوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: 32].

ولك في علاجه طريقان: استعمال ما هو لك نافع وهو الطاعة، واجتناب ما هو لك مضر، وهو المعصية، فإن فعلت ذنباً وأعقبته بالتوبة والندم والانكسار والإنابة كان ذلك سبب وصلتك به، وإن فعلت طاعةً فأعقبته بالعجب والكبر كان ذلك سبب القطيعة عنه.

للقلوب أمراض كما للأجساد أمراض، ومرض القلب هو: نوع فساد يحصل له يُفسد به تصوّره وإرادته: فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار.

فلهذا يُفسر المرض تارة بالشك والريب كما فسر مجاهد وقتادة قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: 10]. أي: شك.

وتارة يفسر - بشهوة الزنى كما فسر - به قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: 32] ^(١).

وعلاج القلب المريض يكون: بالتخلي عن الاعتقادات الفاسدة والأعمال التي تغضب الله سبحانه، والالتزام بطاعته وأوامره عز وجل، فإن ترك الفواحش والمعاصي يزكو به القلب، فإنها بمنزلة الأخلاق الرديئة في البدن، فإذا استفرغ البدن من الأخلاق الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن.

(1) أمراض القلوب، ابن تيمية، ص: 10.

فمن أذنب ذنباً فليسرع بالتوبة والإنابة والذل والانكسار، فإنها سبب الوصول إلى الله
وأول مقامات السائرين إليه، وإن فعلت طاعة فيأياك أن تغتر بها وتمتلىء عجباً وكبراً فإن ذلك
من أسباب القطيعة عن الله عز وجل.

* * *

علاج القلب من الهوى أفضل ممن يكثر الصلاة والصيام

يقول ابن عطاء الله: كثرة العمل مع عدم الحسن فيه كالثياب الكثيرة الوضيعة الثمن، وقلة العمل مع حسنه كالثياب القليلة الرقيقة الثمن، كالياقوتة: صغير حجمها⁽¹⁾ كثير ثمنها، فمن اشتغل⁽²⁾ قلبه بالله وعالجه مما يطرأ عليه من الهوى، كان أفضل ممن يُكثر من الصلاة والصوم.

الحسن في العمل والطاعات هو الإخلاص فيها، بأن يتغني بها رضا الله فقط، ولا تكون فيها أي شائبة من شوائب الرياء والسمعة وحب مدح الناس والخوف من ذمهم، فهذه الشوائب هفي في الحقيقة أمراض في القلب بسبب اتباع الهوى يجب التخلص منها، لذلك كان من يطهر قلبه من هذه الأمراض وإن قل عمله خير ممن لا يطهر قلبه ويكثر من العمل لأن العمل القليل المقبول عند الله أفضل من العمل الكثير غير المقبول قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَرُ﴾ [فاطر: 10].

هب أنك ترغب في تقديم هدية لرجل ساعدك كثيراً فأيهما أفضل أن تهديه ثياباً كثيرة حقيرة الثمن. أم تهديه ثوباً رفيع الثمن أو ياقوتة حجمها صغير لكن ثمنها كبير. من الواضح أن الياقوتة تدخل السرور والرضا في قلب المهدي أكثر من الثياب الكثيرة الوضيعة الثمن.

* * *

(1) في المخطوط: جرماً.

(2) في المخطوط: من أشغل.

عزلة القلب

ما نفع شيء، مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة، كيف يُشرق قلب صور الأكوان منطبعةً في مرآته أم كيف يرحل إلى الله وهو منكب على شهواته، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يطهر من جنابة غفلاته، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟.

هذه إحدى الحكم العطائية.

يركز ابن عطاء الله في هذه الفقرة على ضرورة اتخاذ الإنسان ساعات من العزلة بين الحين والآخر، يخلو فيها إلى نفسه.

وقد جاءت كلمة (عزلة) منكراً، ولم يعبر بكلمة (العزلة) معرفة وبين النكرة والمعرفة فرق دقيق المعنى.

كلمة (عزلة) منكراً تدل على التقليل، بينما المعرفة بـ «أل» تدل على التكثير. فعندما يقول: «ما نفع القلب مثل عزلة» يعني مثل شيء من العزلة الدائمة. وهو إنما يريد التنبيه إلى أن المشروع والمطلوب إنما هو شيء من العزلة لا أن يتخذ الإنسان منها منهجاً لحياته كلها، فيبتعد عن المجتمع ويقصي نفسه عن الدنيا في كهف من الغربة والابتعاد عن الناس وشؤونهم.

إن هذا الثاني يتنافى مع الفطرة الإنسانية، إذ الإنسان اجتماعي بطبعه⁽¹⁾.

إذاً ما نفع القلب شيء يطهره من الغفلة مثل عزلة عن الخلق يتفكر فيها في مخلوقات الله عز وجل، وفي الحديث قال ﷺ: «تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة»⁽²⁾.

(1) الحكم العطائية: شرح وتحليل د. محمد سعيد رمضان البوطي: 1 / 169.

(2) قال في كشف الخفاء ذكره الفاكهاني بلفظ: «فكر ساعة» وقال إنه من كلام سري السقطي. وذكره في

الجامع الصغير بلفظ: فكر ساعة خير من عبادة سنين سنة: 10 / 270.

لأن التفكير يوصل إلى معرفة حقائق الأشياء، وتزداد به معرفة الله سبحانه، ويكتشف به خفايا آفات النفس ومكائد الشيطان وغرور الدنيا.

وقد تكون العزلة بالقلب والقلب، بأن يبتعد الإنسان عن الخلق. وقد تكون بالقلب فقط، بأن يختلط معهم مع تعلق القلب بالحق سبحانه، لذلك قالوا: «كن ظاهراً مع الخلق باطناً مع الحق».

لكن مراد ابن عطاء الله هو المعنى الأول إذ لا ينفرد القلب غالباً إلا إذ ابتعد صاحبه عن الخلق.

إن الابتعاد عن الناس بعزلة يتفكر فيها يشبه الحمية بالنسبة إلى المريض، وكذلك القلب لا ينفعه إلا الحمية والفرار من الخلق ليتخلص من الخواطر والوساوس والغفلة التي تستحوذ عليه وربما سببت موته.

وساعة الخلوة يجب أن تستثمر لزيادة الإيمان ومعرفة الحقيقة الكونية كقراءة كتاب الله عز وجل، والتفكير في عمره كيف أمضاه وفي تقصيره مع ربه وفي المآب يوم القيامة، لا موضوعاً يستهوي النفس كالتي تفكر في شيء محرم أو قراءة كتاب مليء بالدجل والخرافات.

والتفكير أمر ندبنا الله إليه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرْدَى ثُمَّ نِنْفَكُكُمْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: 46].

وندبنا إليه المصطفى ﷺ من حديث عقبة بن أبي عامر أنه سأل رسول الله ﷺ: ما النجاة؟ فقال له: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»⁽¹⁾.

ثم إنه حجب إليه الخلاء قبل بعثته، فكان يتعبد الليالي ذوات العدد في غار حراء⁽²⁾.

(1) الترمذي، الزهد عن رسول الله، ما جاء في حفظ اللسان، رقم (2330). وقال حديث حسن. وأحمد، باقي مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي، رقم (21206).

(2) البخاري، بدء الوحي، رقم (3). ومسلم، الإيمان، بدء الوحي إلى رسول الله، رقم (231).

واستمرت هذه الخلوة بعد البعثة عندما أمر النبي ﷺ بقيام الليل لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمَرْمِلُ ۝١ فُرَاتِلٌ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ يَصْفَهُ ۚ أَوَانْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: 1 - 4].

فوائد الخلوة:

أما فوائد الخلوة فهي:

- 1- السلامة من آفات اللسان، فإن من كان وحده لا يجد معه من يتكلم.
- 2- حفظ البصر والسلامة من آفات النظر.
- 3- حفظ القلب وصونه عن الرياء والمداينة وغيرهما من الأمراض.
- 4- حصول الزهد في الدنيا والقناعة منها وفي ذلك شرف العبد وكمال له وسبب محبته عند مولاه لقوله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»^(١).
- 5- السلامة من صحبة الأشرار ومخالطة الأردال، وفي مخالطتهم فساد عظيم وخطر جسيم. قال وهيب بن الورد: خالطت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لي ذنباً فيما بيني وبينه، ولا وصلني إذا قطعتة ولا ستر علي عورة، ولا أمتته إذا غضب فلا اشتغال بهؤلاء حمق.
- 6- التفرغ للعبادة والذكر والعزم على التقوى والبر.
- 7- وجدان حلاوة الطاعات وتمكن لذيق المناجاة لفراغ سره، وهذه مجرب صحيح.
- 8- راحة القلب والبدن، فإن في مخالطة الناس ما يوجب تعب القلب بالاهتمام بأمرهم وتعب البدن بالسعي في أغراضهم وتكميل مرادهم وإن كان في ذلك ثواب فقد يفوته ما هو أعظم وأهم وهو جمع القلب في حضرة الرب.

(1) سبق تخريجه، ص 154.

9- صيانة نفسه ودينه من التعرض للشرور والخصومات التي توجبها الخلطة فإن

للنفس تولعاً وتسارعاً للخوض في مثل هذا إذا اجتمعت بأرباب الدنيا.

10- التمكن من عبادة التفكير والاعتبار وهو المقصود الأعظم من الخلوة^(١).

كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته:

ثم يقول ابن عطاء الله: «كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته».

وهو الحكمة مرتبطة بالتي قبلها ومنتمة لها.

فالقلب يشبه المرأة الصقيلة، إذ تنعكس عليها مشاعر الإنسان وأحاسيسه وليس لها إلا جهة واحدة.

أرأيت إلى المرأة إذ توجهها إلى بئر مظلمة كيف يغدو مسطحها أسود مظلماً، وإذ توجهها إلى الشمس الساطعة، كيف تتألأأ بمثل ضياء الشمس، كذلك القلب، إن هو إلا مرآة تنعكس عليها صور من أحوال صاحبه.

فإذا كان الإنسان متجهاً دائماً برغبته إلى الدنيا التي تتمثل بالدرهم والدينار والدور والأثاث والمتع والزوجة والأولاد والمجد والشهرة ونحو ذلك، فلا بد أن ينطبع ذلك كله على مرآة قلبه، فأنى لوجود الله وسلطانه أن يجد متسعاً على صفحة القلب وأنى يجد متسعاً للشعور بمحبة الله أو للشعور بتعظيمه والمخافة منه؟. هما ظلام وضياء إن احتل أحدهما القلب غاب عنه الآخر، إذ هما نقيضان لا يجتمعان^(٢). قال تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾

(1) إيقاظ المهمل، ابن عجيبة، ص 30 وما بعدها.

(2) الحكم العطائية، شرح وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 1/ 181.

[الأحزاب: 4] فمالك أيها العبد إلا قلب واحد إذا أقبلت به على الخلق أدبرت عن الحق والعكس صحيح.

ثم يقول ابن عطاء الله: «أم كيف ير حل إلى الله وهو مكبل بشهواته».

فالقلب المكبل بالشهوات لا يتجه إلى الله سبحانه، إن هذه الشهوات كبلتك وجعلتك تثاقل إلى الأرض، فأنتك المكون سبحانه. فالعلاج بمحو صور الأكوان من فؤادك، ليتيها لاستقبال صفات المكون وآلاته.

كيف السبيل إلى التحرر من أسر الشهوات؟.

السبيل إلى ذلك يتبين من المشكلة التي تضمنتها الفقرة الثالثة من هذه الحكمة وهي قوله: «أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟».

فالمشكلة هي غفلتك عن الله الذي بيده الخلق والأمر كله، وبيده النعم التي ترنو إليها، والشهوات التي تحلم دائماً بها، هو الذي يشعرك بلذاتها إن أقبلت إليك، وبتليك منها بالآلام والمنغصات إن أدبرت عنك.

والتحرر من هذه المشكلة يكون بالتخلص من الغفلة والاتجاه إلى الإله الذي بيده كل شيء فتتعلق آمالك به، ويصفو حبك له، عندئذ تتحرر من أسر الشهوات التي كبلتك.

ولكن ما العلاج الذي يعينك على التخلص من الغفلة؟ العلاج هو الابتعاد عن الآثام والهفوات، وهو ما تضمنته الفقرة الأخيرة التي يقول فيها: «أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟»⁽¹⁾.

* * *

(1) المرجع السابق: 187، 188.



مثال العبد مع الله

إن أردت شفاء قلبك فاخرج إلى صحراء التوبة

يقول ابن عطاء الله: القلب الحسن هو الذي لا يشغله عن الله حسن، إن أردت شفاء قلبك فاخرج إلى صحراء النوبة، وحول حالك من الغيبة إلى الحضور، وألبس ثياب الذلة والمسكنة، فإن القلب يشفى، ولكنك تحشر بطنك وتتفاخر بالسمن، فمثالك كالخروف الذي يسمن للذبح، ألا فقد ذبحت نفسك، وأنت لا تشعر.

قد ينشغل القلب بأمر ما ويفزع مما سواه، فقد ينشغل القلب بالمال أو المنصب أو بأي من مغريات الحياة الدنيا وينشغل عن الله ويتفرغ لشهواته وهذا أمر خطير على القلب، فالقلب يجب أن يكون مشغولاً بالله نابذا أهواءه وشهواته غير ملتفت إليها هذا هو النجاة للقلب.

فمن أراد النجاة وشفاء قلبه فليتب إلى الله من انشغاله عنه سبحانه وليس تبدل غيبتة عنه سبحانه بالحضور معه، ولينتقل من التكبر والغفلة إلى الذلة والمسكنة، ومن أراد ذلك فعليه بتقليل الطعام فإن النفس إذا شبت طلبت المعصية، وإذا جاعت عرفت على ربها قال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة^(١) فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء^(٢)» (٣).

وقد مر الكلام عن أهمية تقليل الطعام وفوائدها فليرجع إليه^(٤).

* * *

(١) الباءة: تكاليف الزواج والقدرة عليه.

(٢) وجاء: وقاية ومنع من الوقوع في الزلل.

(٣) البخاري، النكاح، قول النبي: من استطاع منكم الباءة فليتزوج، رقم (4778): 5 / 195.

(٤) انظر، ص: 172.

إنما الأنوار مطايا القلوب والأسرار

يقول ابن عطاء الله: إنما الأنوار مطايا القلوب والأسرار، النور جند القلب، كما أن الظلمة جند النفس، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمدّه بجنود الأنوار، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار، النور له الكشف والبصيرة لها الحكم، والقلب له الإقبال والإدبار، الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة، فالنفس تنظر إلى غرتها والقلب ينظر إلى باطن عبرتها.

هذه إحدى الحكم العطائية بلفظ مغاير وهو: «مطالع الأنوار القلوب والأسرار».

ومعنى هذا⁽¹⁾: أن نجوم المعرفة والعلم وشموس التوحيد مطالعها وموضع شروقها قلوب العارفين وأسرارهم، هذه هي الأنوار الحقيقية بخلاف الأنوار الحسية. فإذا تولى الله سبحانه عبداً صان قلبه من الأغيار، وحرسه بدوام الأنوار.

أما الأسرار فهي هذه الروح التي تشرفت بخطاب الله لها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: 172]. والتي نسبها الله عز وجل إلى ذاته العلية في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29].

غدت بذلك معيناً للأسرار من بعضها أسرار المعارف والعلوم، وأسرار المكاشفات العلوية، وأسرار الشفافية الوجدانية وإنما مصدرها جميعاً تجليات الله عز وجل. هذا هو المراد بالأسرار التي تعد مطلعاً أو مشرقاً للأنوار⁽²⁾.

والنور نكتة تقع في قلب العبد حتى يبصر الحق والباطل، والمطايا، جمع مطية وهي: الناقة المهيأة للركوب، فإذا أراد الله أن يوصل عبده إلى حضرة قدسه ويحمله إلى محل أنسه أمدّه بواردات الأنوار كالمطايا، فترحل الروح من عوالم البشرية إلى عوالم الروحانية حتى تصير سراً من أسرار الله. ثم بين ابن عطاء الله كيفية السير على هذه المطايا وما يعوقها عن السير فقال:

(1) إيقاظ المهمل، ابن عجيبة، ص: 87 وما بعدها.

(2) شرح الحكم، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 4 / 76.

«النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمدّه بجنود الأنوار وقطع عنه مدد الظلم والأغيار».

فالظلمة نكتة تقع من الهوى في النفس فتوجب العمى عن الحق فيأتي العبد ويذر على غير بصيرة.

وإمداد الظلم ثلاثة:

أولها: ضعف اليقين، بسبب ضعف الثقة بما عند الله والاعتماد على العمل والأسباب.

الثاني: غلبة الجهل على النفس.

الثالث: الشفقة على النفس وذلك كله أصل الرضا عن النفس.

ثم قال: «النور له الكشف، والبصيرة لها الحكم، والقلب له الإقبال والإدبار».

فالنور يكشف الأمور ويوضحها حتى يظهر حسناتها من قبيحها، ومن شأن البصيرة المفتوحة أن تحكم على الحسن بحسنه وعلى القبيح بقبحه، والقلب يقبل ما ثبت حسنه ويدبر عما يثبت قبحه.

ومثال ذلك: رجل دخل بيتاً مظلماً فيه عقارب وحيات وفيه سبائك ذهب وفضة، فلا يدري ما يأخذ ولا يذر ولا ما فيه نفع ولا ضرر، فإذا أدخل فيه مصباحاً رأى ما ينفعه وما يضره وما يأمنه وما يحذره، كذلك قلب المؤمن العاصي لا يفرق بين مراة المعصية وحلاوة الطاعة، فإذا استضاء بنور التقوى عرف ما يضره وما ينفعه وفرق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَها الذِّكْرُ آمَنُوا إِنَّ تَنقُؤا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29] أي نوراً يفرق بين الحق والباطل. وقال سبحانه: ﴿أَوْمَنَ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: 22].

ثم قال: «الأكوان ظاهرها غرة، وباطنًا عبرة، فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها».

الأكوان هي متاع الحياة الدنيا وزينتها، فالنفس تنظر إلى زينتها الظاهرة فتغتر بها، فتهلك صاحبها، والقلب ينظر إلى قبائحها الباطنية فيعتبر بها فيسلم من شرها.

والمراد بالنفس هنا الغريزة الحيوانية التي نلتقي نحن وسائر الحيوانات العجماوات على جامع مشترك فيها. . والمراد بالقلب مهبط الأنوار العلوية، ومهبط التجليات الربانية، وربما تمثل ذلك في العقل الذي هو من أثر تجليات الله على الدماغ، وربما تمثل في العضلة التي وراء الصدر، والتي هي معين العواطف والوجدان.

والدنيا التي تتحدث عنها هذه الحكمة، هي ما تجاوز حاجة المسلم في طريقه إلى الله، فهذا القدر الزائد الذي ليس له أي دور في تقريبك إلى الله لا بد أن يكون له دور كبير في شغلك عنه.

والخلاصة أن كل ما شغلك بالله أو أعانك في التقرب منه، فهو من الدين أو من ملحقاته، وكل ما شغلك عن الله أو حجبك عنه فهو من الدنيا أو ملحقاتها.

وهذا الذي يشغل عن الله من الدنيا أشار إليه ﷺ بقوله: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ولبست فأبليت وتصدقت فأبقيت»⁽¹⁾.

فلا تجعل من الدنيا أثقلاً على ظهرك، تقطعك عن بلوغ الغاية بدلاً من أن توصلك إليها، وتعاني الأتعاب الجسمية من حملها بدلاً من التمتع بها. واذكر أن مالك بعد طول المعاناة بحملها أن تضعها أرضاً وترحل إلى الله حاملاً تبعاتها مثقلاً بذيوها وعقابيلها. لا أنت بها في دنياك تتمتع. ولا من أثقالها وأكدارها تخلصت»⁽²⁾.

(1) مسلم في الزهد والرقائق، رقم (5258).

(2) شرح الحكم العطائية، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 3 / 48 وما بعدها.

أنوار أذن لها في الدخول إلى القلب وأنوار أذن لها في الوصول

يقول ابن عطاء الله: أنوار أذن لها في الدخول، وأنوار أذن لها في الوصول. ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشواً بصور الآثار، فارتحلت من حيث نزلت، فرغ قلبك من الأغيار يملأه بالمعارف والأسرار.

هذه إحدى الحكم العطائية:

النور محله القلب حتى يبصر الحق والباطل، فالأنوار الواردة من تجليات الله على قلب المؤمن تنقسم إلى قسمين:

أنوار أذن لها في الدخول إلى صميم القلب وسويدائه لا يظهر فيها إلا وجود الله عز وجل، فلذلك لا يحب سواه، ولا يعبد إلا إياه.

وأنوار أذن لها في الوصول إلى ظاهر القلب دون الدخول إلى سويدائه فيشاهد العبد معها نفسه وربّه، ودنياه وآخرته، فيكون تارة مع نفسه وتارة مع ربّه، وطوراً يسعى في العمل لآخرته، وطوراً يعمل في أمور دنياه^(١).

ثم قال ابن عطاء الله: «ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشواً بصور الآثار، فارتحلت من حيث نزلت فرغ قلبك من الأغيار يملأه بالمعارف والأسرار».

فالأنوار الإلهية قد ترد على القلب فلا تجد فيه موضعاً لاستقرارها، لما غلب عليه من رعونات البشرية واستحكم فيه من صور الآثار الكونية، فترتحل من حيث تنزل لأنها مقدسة

(١) غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، الرندي: 2 / 91، 92.

مطهرة، فإذا أردت حلول الأنوار فيه وتجلي المعارف والأسرار له ففرّغه من الأغيار، وامنع عنه صور الآثار^(١).

إن كثرة الهفوات هي السبب في الوقوع في الغفلات والاستغراق في الغفلات هو السبب في الاستسلام لأسر الشهوات، والاستسلام لأسر الشهوات هو السبب في هيمنة صور الأكوان على القلب وانتشار الران عليه.

فإذا تحرر القلب من الغفلة التي كان مكبلاً بها، فقد آن له أن يدخل حضرة الله تعالى، ويتحقق بقول الرسول ﷺ عندما عرف الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

إن فراغ القلب من الأغيار يملؤه بالمعارف والأسرار التي لا يتأتى للعقل إدراكها عن طريق التعلم ومعاناته الفكرية. وإنما يتأتى الوصول إليها عن طريق العواطف القلبية، إذ تتمخض لله عز وجل وحده، فيكون هو المخصوص دون غيره بالتعظيم وبالمهابة والحب.

ولعلك تسأل: فمن أين استقى ابن عطاء الله هذا الذي يقول عن ورود الأنوار، ودخولها أو رجوعها؟.

والجواب: إنه استقاء مما دل عليه قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125].

وقد فصل ذلك رسول الله ﷺ، وبين أثر النور الرباني المتوجه إلى القلب، في الحديث الذي يرويه عبد الله بن مسعود، قال: تلا رسول الله ﷺ قول الله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ

(١) المرجع السابق: 2 / 92.

صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ. قالوا: يا رسول الله، فهل لذلك من أمانة تعرف؟ . قال: «التجاني عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل الموت»^(١).

فانشراح الصدر إنما يكون ثمرة لدخول الأنوار العلوية الآتية من تجليات الله على عباده في سويداء القلب، ودخول هذه الأنوار رهن باستعداد الأفتدة لها.

وضيق الصدر إنما يكون ثمرة للأسباب التي حالت دون دخول هذه الأنوار إلى القلب، وإنها تتمثل هذه الأسباب في أن يكون محشواً كما قال ابن عطاء الله بصور الآثار، أي بزخارف الدنيا وأهوائها وكل ما من شأن النفس الأمانة أن تتعلق به.

ومن أراد أن يعود بقلبه إلى سابق نقائه وطهره من صور الآثار فعليه بصدق الالتحاء إلى الله بأن تسأله أن يطهر قلبك من الشوائب، وأن يفتح نوافذه أمام الأنوار القدسية الهابطة إليك من علياء ربوبيته. واجعل من هذا الدعاء الذي كان رسول الله ﷺ يدعو به ربه كلما خرج إلى المسجد للصلاة، ورداً تداوم عليه دون انقطاع: «اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً وفي بصري نوراً، واجعل من خلفي نوراً ومن أمامي نوراً، واجعل من فوقني نوراً ومن تحتي نوراً، اللهم أعطني نوراً»^(٢)^(٣).

* * *

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه، رقم (7863): 4 / 346. وابن أبي شيبة، رقم (34314): 7 / 77.

(٢) البخاري في الدعوات، باب: الدعاء إذا انتبه بالليل، رقم (5841)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه. رقم (1279).

(٣) شرح الحكم العطائية، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 4 / 392.

القلب السليم وحقيقته

يقول ابن عطاء الله: وافهم ها هنا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88 - 89]. والقلب السليم هو الذي لا تعلق له بشيء غير الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُنتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: 94] يفهم منه أنه لا يصح مجيئك إلى الله ولا الوصول إليه إلا إذا كنت فرداً مما سواء، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: 6]. يفهم من أنه لا يأويك الله إلا إذا صح يتمك مما سواء، وقوله: «إن الله وتر يحب الوتر»^(١). أي يحب القلب الذي لا يشفع بمشنيات الآثار، فكانت هذه القلوب لله، وبالله فهم أهل الحضرة المخاطبون بعين المنّة، فكيف يمكنهم أن يكونوا لسواء مستندين؟ وهم لوجود الأحدية مشاهدون؟!

القلوب السليمة هي التي تقطع يأسها من الخلق وتتعلق بالخالق سبحانه، القلوب السليمة تعتقد أن كل وجود غير الله هباء في الهواء، فترك الخلق وانس مدحهم وذمهم ولا ترجو النفع منهم ولا تخف من الضرر منهم، فبمقدار ما تقبل على الله تدبر عن الخلق والعكس صحيح.

فالعطاء لا يكون إلا لله، لا ليقول الناس عني كريم، والمنع لا يكون إلا لله، لا لأشيع انتقامي وحقدي وبخلي. والحب لا يكون إلا لله لا لمصلحة دنيوية رخيصة، والبغض لا يكون إلا لله، لا حسداً وغلاً، قال ﷺ: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»^(٢).

(١) الترمذي، الصلاة، ما جاء في أن الوتر ليس بحتم، رقم (415).

(٢) أبو داود في السنة، كتاب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (4061).

فرغ قلبك من كل ما سواه من المغريات والشهوات والمال والمنصب تجد رحمة الله وتوفيقه ومعونته ترعاك وتحرسك كل لحظة ﴿ إِنَّ وَلِىَّ اللَّهِ الَّذِى نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف: 196].

فالقلب يفسد إذا كان فيه معبود غير الله، كما أن السموات والأرض لو كان فيهما آلهة غيره سبحانه لفسدنا كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: 22]. فكذا القلب إذا كان فيه معبود غير الله تعالى فسد فساداً لا يُرجى صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبود منه ويكون الله تعالى وحده إلهه ومعبوده الذي يحبه ويرجوه ويخافه ويتوكل عليه وينيب إليه.

* * *

الحكمة من الابتلاءات
في الدنيا

مجاهدة النفس

يقول ابن عطاء الله: أتريد أن تجاهد نفسك وأنت تقويها بالشهوات حتى تغلبك؟!.

لا تكن كالعليل يقول: لا أتناوى حتى أجد الشفاء، فيقال له لا تجد الشفاء حتى تتداوى. فالجهاد ليس معه حلاوة، وما معه إلا رؤوس الأسنة، فجاهد نفسك هذا هو الجهاد الأكبر، واعلم أن الثكلى لا عيد لها، بل العيد لمن قهر نفسه، لا عيد إلا لمن جمع شمله.

تعريف النفس:

النفس: هي المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان، فيقولون: لا بد من مجاهدة النفس وكسرها^(١).

معنى جهاد النفس:

عندما يمرض الإنسان فعليه أن يطلب الدواء، ولا يجوز أن ينتظر حتى يجد الشفاء، لأن الشفاء متعلق على تناول الدواء.

وكذلك حال الإنسان مع نفسه دواؤها هو المجاهدة وتضييق السبل عليها ويكون ذلك بتركها بطاعة الله سبحانه.

لكن الملاحظ عند أهل زماننا أنهم راضون عن أنفسهم مسارعون في أهوائها، ومجاهدة النفس أمر صعب، كيف والجهاد هو تحمل الأمر الشاق.

فالصلاة مثلاً عمل ينبغي له قهر كل عذر، وترك كل شغل، وهذا أمر شاق على عشاق الحياة فالصلاة تنتزعهم مما يأنسون به بين الحين والآخر، ولذلك قال الله في وصفها:

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي: 3 / 5.

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 45 - 46].

إن المغريات والشهوات الدنيوية تحتاج إلى ضبط ورقابة وهذا يحتاج إلى صبر ومجاهدة.
«فهنالك حب النفس، وحب النساء، وحب المال، وحب الظهور، هذه مثلاً غرائز ما يخلو
البشر من مبادئها.

وقد تجد البعض في حبه لنفسه لا يبصر غيرها، ولا يتحرك إلا بهواجس الأثرة وحدها.
وقد تجد آخر مفتوناً بالشراء، يدأب ليله ونهاره في جمع المال، يعشقه لذاته دون رغبة في
بذلك مهما تطلبت الحقوق.

ومن الناس من يهيم وراء الغيد كأنه ظمآن لا يجد الري أبداً.
ومن طيش هذه الغرائز تفسد الأرض، ويتنشر- المهرج والمرج وتصاب الأعراض،
وتُسفك الدماء. . .

وعلى طول الخط الطويل الممتد من المهد إلى اللحد يواجه الإنسان أموراً شتى تحتاج إلى
فؤاد صاح وبصيرة نيرة، فإن اشتباك النفس بهموم الرزق، وفتون الناس وتلقيها ألوان
الوساوس، وتأرجحها بين جواذب اليمين واليسار، وفقرها إلى استجماع قوى كثيرة كي تحقق
الخير، وكي تصد الشر، ذلك كله يستدعي جهاداً جاداً متصل الحلقات.

ولن ينجح الإنسان في هذا الجهاد إلا إذا مرّن على عصيان هواه ومضى قدماً على الصراط
المستقيم جلدأ مثابراً لا يقعه إعياء ولا يرده استرخاء^(١).

وجهاد النفس يحتاج إلى نية صادقة وهدف واحد وهو مرضاة الله سبحانه، ولا ينظر إلى
مقدار ما يبذل من تعب إلا بشرط النية الصحيحة.

(١) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 106 وما بعدها.

إن اللص يسهر الليل ليختل النائمين، والشرطي يسهر الليل يحرس الأمن لقاء راتب معهود، والمتهجد يهجر فراشه ويدع لذيق الرقاد لا لشيء إلا ليعبد ربه في هدوء وصفاء، ويتدبر آياته في خشوع ورجاء.

إن سهر هؤلاء الثلاثة واحد والفرق بينهم شاسع.

فأما الأول فمجرم يستحق العقوبة، بما بيت من إثم.

وأما الثاني فأجير يؤدي واجبه بثمن لو تأخر عنه قليلاً لسخط وترك ما كُلف به، وأما الأخير فرجل مؤمن بالغيب والشهادة، يعرف ما يعمل، ولن يعمل؟...

إنك تسمع عن فقراء الهنود، وعن ساستهم، قصص الصيام الطويل المضني وهذا من غير شك إرهاب للبدن تسانده عزيمة شديدة، وإرادة غالبية ومع تقديرنا المجرد لقوة العزم وتماسك الإرادة لا نرى في هذا المسلك ما يستحق التنويه والحمد.

ولو أن أحدهم دفن نفسه في الرغام شهوراً - كما يروون - ما أبهنا كثيراً ولا قليلاً لهذه الحكايات.

وهي عندنا تساوي استعراض العضلات الذي يقوم به فتیان الرياضة البدنية غاية ما هناك من فرق أن هذا بالزائد، وذاك بالناقص...

وهذا وذاك ليسا الجهاد النفسي الذي أقره الإسلام^(١).

كلام ابن الجوزي حول جهاد النفس:

ومن المعاني الدقيقة لجهاد النفس وكيفية التعامل معها بدقة وحكمة ما ذكره ابن الجوزي في «صيد الخاطر» فقال: «تأملت جهاد النفس، فرأيت أعظم الجهاد، ورأيت خلقاً من العلماء

(١) المرجع السابق، ص: ١١٠، ١١١.

والزهاد لا يفهمون معناه، لأنه فيهم من منعها حظوظها على الإطلاق، وذلك غلط من وجهين:

أحدهما: أنه رب مانع لها شهوةً أعطاها بالمنع أوفى منها، مثل أن يمنعها مباحاً، فيشتهر بمنعه إياها ذلك، فيرضي النفس بالمنع، لأنها قد استبدلت به المدح. وأخفى من ذلك أن يرى بمنعه إياها ما منع أنه قد فضل عن سواه ممن لم يمنعها ذلك، وهذه دقائق تحتاج إلى مناقش^(١). فهم يخلصها.

الوجه الثاني: أننا قد كلفنا حفظها، ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التي تقيمها، فلا بد من إعطائها ما يقيمها، وأكثر ذلك أوكله ما تشتهيه، ونحن كالوكلاء في حفظها، لأنها ليست لنا، بل هي وديعة عندنا، فمنعها حقوقها على الإطلاق خطر، ثم رب شد أوجب استرخاء، ورب مضيق على نفسه فرت منه فصعب عليه تلافيها، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملها على مكروهاها في تناول ما ترجو به العافية، ويذوب في المראה قليلاً من الحلاوة، ويتناول من الأغذية مقدار ما يصفه الطبيب، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جر جوعاً، ومن لقمة ربما حرمت لقبات، فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها، ولا يُهمل مقودها، بل يرخي لها في وقت الطول^(٢). بيده، فما دامت على الجادة لم يضايقها في التضييق عليها، فإذا رآها قد مالت ردها بلطف، فإن ونت^(٣). وأبت، وإلا فبالعنف، ويحبسها في مقام المداراة، كالزوجة التي مبنى عقلها على الضعف والقلّة، فهي تداري عند نشوزها بالوعظ، فإن لم تصلح فبالهجر، فإن لم تستقم فبالضرب^(٤).

(١) مناقش: ما ينقش به أي: تحتاج إلى تعب في استخراج تلك الدقائق.

(٢) الطول: الحبل الطويل يربط إلى وتد ونحوه، ويطول للدابة فترعى مقيدة به. المعجم الوسيط، ص 593.

(٣) ونت: ضعفت وتعبت.

(٤) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 102، 103.

ثم يقول ابن عطاء الله: «واعلم أن الثكلى لا عيد لها، بل العيد لمن قهر نفسه، لا عيد إلا لمن جمع شمله».

الثكلى هي المرأة التي فقدت ولدها أو عزيزاً عليها، وهذه الحزن يملأ قلبها فهي لا تفرح بالعيد، وهذا مثال من يمشي مع هوى نفسه فيطيعها فيما تأمره به، إنه يسير إلى الهاوية إلى حتفه الذي ينتظره ثم إلى نار جهنم في الآخرة، فيبقى دائم الحزن مما أصابه كالثكلى التي لا عيد لها.

أما الذي يقهر نفسه بالمجاهدة فهو من جُمع شمله وحاز على رضا الله في الدنيا والجنة في الآخرة كما في الآية السابقة، فهذا هو الذي يفرح بالعيد.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ۖ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ۖ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 37: 41].

وعن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «من كانت الدنيا همُّه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له»^(١).

* * *

(١) الترمذي في صفة القيامة والورع عن رسول الله، رقم (2389). وابن ماجه في الزهد، كتاب: المهم بالدنيا، رقم (4095). وأحمد، مسند الأنصار، حديث زيد ابن ثابت، رقم (20608).

مثالك مع نفسك

يقول ابن عطاء الله: ما مثالك مع نفسك إلا كمن وجد زوجته في حانة خمار، فأتاها بالملابس الحسنة والمآكل الطيبة، وإذا تركت الصلاة أصبحت تطعمها الهرائس والألوان.

أي من وجد نفسه تطلب الشهوات وتنغمس فيها فعليه أن يجاهدها لتضعف. والمجاهدة تكون بالطاعات وتنفيذ أوامر الله سبحانه، والأحق من يوافق هوى نفسه فيقويها على المعصية ويكون ذلك بترك العبادة وشغل النفس بالدنيا وأهوائها فمثاله كمن وجد زوجته (أي نفسه) في حانة خمار، فبدل أن يزجرها ويخرجها من تلك الحانة ويغار عليها فإذا هو يأتيها بالملابس الحسنة والمآكل الطيبة فبدل أن يكفها كافأها وتركها على حالها.

وهذا مثال من يهتم بإشباع شهواته من الطعام وملذات الدنيا إنه ينسى عبادة الخالق سبحانه فينسى الصلاة، لأن عقله وقلبه شغلا بالدنيا قال تعالى: ﴿قَوِيلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝۴ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝۵ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝۶ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: 4 - 7].

وانظر كيف يصف النبي ﷺ متع الدنيا وأهمها المال، فعن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله ﷺ عن هذا المال، فقال: «ما أكثر مسألتك يا حكيم، إن هذا المال خضرةٌ حلوةٌ وإنما هو مع ذلك أوساخ في أيدي الناس ويد الله فوق يد المعطي، ويد المعطي فوق يد المعطى وأسفل الأيدي يد المعطى»^(١).

* * *

(١) أحمد، مسند المكين، مسند حكيم بن حزام، رقم (14782).

خيانتة بالنفس

يقول ابن عطاء الله: من وكل وكيلاً واطلع على خيانتة عزله، كذلك نفسك قد اطلعت على خيانتها فاعزلها وضيق عليها المسالك.

إذا اطلعت على زوجتك بخيانة فإنك تغضب عليها، فكذلك نفسك قد خانتك في عمرك وأجمع العقلاء على أن الزوجة إذا خانت لا يؤويها زوجها بل يطلقها، فطلق نفسك.

وتطبيقها يكون بمخالفتها وتضييق المسالك عليها فإن دعتك إلى لذة المعصية، فخالفها بحلاوة الطاعة، وإن دعتك إلى رفقة السوء فاختر من المعصية، فخالفها بحلاوة الطاعة، وإن دعتك إلى رفقة السوء فاختر من الأصدقاء من ينهضك حاله ويدلك على الله تعالى. وإن دعتك إلى الغيبة فاشغل لسانك بذكر الله وبالتقليل من الكلام ما أمكن. . . الخ.

والمقصود بالنفس هنا أي الأمانة بالسوء فاحذر هذه النفس فإن الله حذرنا منها بآيات كثيرة منها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: 53].

وقال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 30].

وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: 16].

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26].

* * *

الرجل من صاح على نفسه وردّها إلى الله تعالى

يقول ابن عطاء الله، ليس الرجل من صاح بين الناس في المجلس، وإنما الرجل من صاح على نفسه وردّها إلى الله تعالى.

تحذير آخر من خطر النفس إن شردت عن صراط الله فإن نهاية صاحبها وخيمة، فاعرف حقيقتها وردّها إلى الله قبل فوات الأوان وقبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه عض الأنامل من الندم. فلا يغرنك صياح الرجل بين الناس موهماً إياهم بصلاحه وتقواه، بل الرجل من عرف حقيقة نفسه وعرف شرودها عن الله فردّها إليه سبحانه وألزمها بطاعته وتنفيذ منهجه في هذه الحياة الدنيا.

يقول الحارث المحاسبي مبيناً كيف يقهر الإنسان نفسه على طلب الآخرة: «فإذا قطع عليها العبد الطمع من أسباب الدنيا، وغلب بعقله هواها، رجعت بطمعها إلى أسباب الآخرة لا محالة، لأنها بنيت على الطمع.

فإذا تجردت من أسباب الدنيا، وأقبلت على نفسه بالإيثار من المخلوقين رجعت برغبتها وطمعها إلى أسباب الآخرة، فجدت في طلبها واجتهدت، وعزفت عن الدنيا، وباينت الهوى، وخالفت العدو، وتبعت العلم، وكانت مطية العقل، صابرة على مر ما يدل عليه الحق، فنجت وأنجت»^(١).

* * *

(١) آداب النفوس، ص: 39.

اجعل نفسك كدابتك

يقول ابن عطاء الله: يا هذا اجعل نفسك كدابتك، كلما عدلت عن الطريق ضربتها فرجعت إلى الطريق، ولو فعلت مع نفسك مثل ما تفعل بجبتك كلما توسخت غسلتها، وكلما تقطع منها شيء رقعته، وجددته، كانت لك السعادة، فرب رجل ابيضت لحيته وما جلس مع الله جلسة يحاسب نفسه فيها.

ما أجهل أن يعيد الإنسان تنظيم نفسه بين الحين والحين، وأن يرسل نظرات نافذة في جوانبها ليتعرف عيوبها وآفاتهما . . .

وأن يرسم السياسات القصيرة المدى، والطويلة المدى، ليتخلص من هذه الهنات التي تزرى به . . .

في البيت إن غرفه وصالاته تصبح مشعثة مرتبكة عقب أعمال يوم كامل، فإذا الأيدي الدائبة تجول هنا وهنا لتنظف الأثاث المغبر وتطرد القمامة الزائدة وتعيد إلى كل شيء رواءه^(١). ونظامه.

ألا تستحق حياة الإنسان مثل هذا الجهد؟ ألا تستحق نفسك أن تتعهد شؤونها بين الحين والحين لترى ما عراها من اضطراب فتزيله، وما لحقها من إثم فتغنيه عنها مثلما تنفي القمامة من الساحات الطهور؟ . . .

إن الإنسان أحوج الخلائق إلى التنقيب في أرجاء نفسه، وتعهد حياته الخاصة والعامة بما يصونها من العلل والتفكك.

ذلك أن الكيان العاطفي والعقلي للإنسان قلما يبقى متماسك اللبنة مع حدة الاحتكاك بصنوف الشهوات وضروب المغريات . . . فإذا ترك لعوامل الهدم تنال منه فهي آتية عليه لا

(١) الرواء: المنظر الحسن. المعجم الوسيط، ص 397.

محالة، وعندئذ تنفرط المشاعر العاطفية والعقلية كما تنفرط حبات العقد إذا انقطع سلكه... وهذا شأن من قال الله عنه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28].

فالنفس الإنسانية إذا تقطعت أواصرها ولم يربطها نظام ينسق شؤونها، ويركز قواها أصبحت مشاعرها وأفكارها كهذه الحبات المنفرطة السائبة لا خير فيها ولا حركة لها^(١).

* * *

(١) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 157، 158.

مخاطر صحبة النفس

يقول ابن عطاء الله: من صحبك يوماً أو يومين، ولم ير منك نفعاً تركك وصحب غيرك، وأنت تصحب نفسك أربعين سنة ولم تر منها نفعاً فقل لها: ارجعي يا نفس إلى رضا ربك، طالما وافقتك في الشهوات، فتبدلي بعد البطالة بالاشتغال بالله، وبعد الكلام بالصمت، وبعد قراء السوء: معاشرة أهل الخير والصلاح.

اجعل أحوالك على ضد ما كنت عليه، اجعل بدل السهر في معصية الله السهر في طاعة الله، وبعد الإقبال على أهل الدنيا الإعراض عنهم والإقبال على الله، وبعد الإصغاء لكلامهم: الإصغاء والاستماع لكلام الله عز وجل وذكره، بعد الأكل بالشره والشهوة، الأكل القليل الذي يعينك على الطاعة.

والعجب كل العجب من عبد يقبل على صحبة نفسه ولا يأتيه الشر إلا منها، ويترك الله ولا يأتيه الخير إلا منه.

هذه حال التائب إلى الله والصادق بتوبته، إن من علامات قبول التوبة تغير الحال وإعادة تنظيم الحياة من حياة ليس لها هدف إلا مُتَع الدنيا، إلى حياة تكون وسيلة إلى غاية وهي الآخرة ورضا الله سبحانه وتعالى، يقول لك ابن عطاء الله: بما أنك عرفت حقيقة نفسك وأنها تجرّك إلى غضب الله وعقابه فينبغي أن تستعملها في طاعة الله بعد كل تلك السنين التي عصيت الله فيها بسببها.

وفي المجتمع كثير من الناس التائهيين المنحرفين عندما يصحو عقلهم ويصرّوا الحقيقة تتبدل حياتهم فتراهم على ما وصفهم ابن عطاء الله كانوا ينفقون الساعات على اللهو الفارغ ولغلو الكلام وبذاءة اللسان لا يتورعون عن معصية. تراهم بعد توبتهم يقرؤون القرآن ويذكرون الله ويسبحونه بصدق وكانوا يأنسون بالخلق ويرجون نفعهم ويخافون أذاهم فتراهم الآن لا يأنسون إلا بربهم ولا يطلبون إلا منه ولا يخافون إلا الله سبحانه. كانوا يجالسون أسوأ الناس فتراهم يبحثون عن أهل الخير عن أهل التقوى فيتخذونهم أصحاباً،

كانوا يسهرون في معصية الله فتراهم يقبلون على الله ويستغفرون بالأسحار، وكانوا يتفنون في أصناف الطعام لا يبدوونه بالبسملة ولا يختمونه بالحمد. فتراهم قد قل أكلهم ورافق ذكر الله كل لقمة.

وصدق رسول الله ﷺ: «الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معي واحد»^(١).

* * *

(١) البخاري في الأطعمة، باب: المؤمن يأكل في معي واحد، رقم (4974).

الحكمة من وجود القلب والروح والنفس والهوى

يقول ابن عطاء الله: إذا أعطيت نفسك كل ما تشتهي وتطلب من الشهوات كنت كمن في بيته حية يسمنها كل يوم حتى تقتله!

ولو جعل فيك الروح من غير نفس لأطعت وما عصيت، ولو جعل فيك النفس من غير روح لعصيت وما أطعت، فلذلك جعل فيك القلب، والروح، والنفس والهوى. كالنحلة جعل فيها اللسعة والعسل فلذلك تلتون، فالعسل ببره واللسع بقهره، فأراد الله أن يكسر- دعوة النفس بوجود القلب، ودعوة القلب بوجود النفس.

الروح هي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، وهو الذي أراده الله تعالى بقوله: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85].

وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن إدراك حقيقته.

وأرجع لشرح هذه الفقرة فأقول: احذر نفسك فإنها أضّر الأعداء، إنها عدو من داخل الجسد، واللص إذا كان من داخل البيت عزت الحيلة فيه وعظم الضرر، فإذا استحسن الإنسان من نفسه كل قبيح، ولا يكاد يطلع على عيب لها وهي في عداوتها وأضرارها، فما أوشك ما توقعه في كل فضيحة وهلاك وهو لا يشعر، إلا أن يحفظه الله تعالى بفضله ويعينه عليها برحمته⁽¹⁾.

ثم قال ابن عطاء الله: «لو جعل فيك الروح من غير نفس لأطعت وما عصيت» فروحنا من روح الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29].

وهذه الروح مشتاقة إلى المكان الذي أهبطت منه يوم كانت بقرب بارئها. وتنتظر الساعة التي تخرج من هذا الجسد الذي حبست فيه إلى ذلك المكان؟!

(1) منهاج العابدين، الغزالي، ص: 60.

فالروح تطيع خالقها وتلتذ بعبادته على الدوام.

ثم قال: «ولو جعل فيك النفس من غير روح لعصيت وما أطعت».

لأن النفس محل الشهوات والأهواء المحرمة وهذه قد نهانا الله عن اقترافها وأمرنا بالابتعاد عنها، فلو تركت النفس تتصرف كما تريد لعصت دائماً وما أطاعت أبداً.

والعبد في حال المجاهدة بين أن يقوي روحه بالطاعات ويمنع نفسه من الشهوات، وهذا ما قصده ابن عطاء الله حين قال: «العسل بیره واللّسع بقهره، فأراد الله أن يكسر دعوة النفس بوجود القلب، ودعوة القلب بوجود النفس».

إذ من أسائه سبحانه وتعالى اللطيف الرحيم، فإذا أعطى العباد وبسطهم أشهدهم بیره وإحسانه فعرفوا أنه سبحانه بارٌّ بعباده لطيف بخلقه رحيم كريم جواد، فيعظم محبتهم فيه ويكثر شوقهم إليه ويكثر شكرهم فيزداد نعيمهم.

وإن منعهم أو قبضهم ومن ذلك المصائب والمحن أشهدهم قهره وكبرياءه لعلموا أنه تعالى قهار كبير عظيم جليل فخافوا من سطوته وذابوا من خشيته وخضعوا تحت قهره فدامت عبادتهم وقلت ذنوبهم ولذلك قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «متى أعطاك أشهدك بیره، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجود لطفه عليك»^(١).

فما وافق الهوى والطبع يسمى «عطاءً ومنحاً» وما خالفهما يسمى «منعاً» وذلك لاختبار العبد في صدق عبوديته لله سبحانه فإن كان عاقلاً علم أن العطاء والمنع هو لمصلحته فإن العطاء سبب للشكر وإن المنع للصبر ورجوع العبد إلى ربه بعد غفلته.

* * *

(١) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 140.

احذر نفسك التي بين جنبيك

يقول ابن عطاء الله: إياك أن تتهاون في أعمالك وتختار الطيبات لمراحضك، واحذر نفسك التي بين جنبيك فهي التي تحطب عليك، ثم لا تفارق صاحبها إلى الممات، والشيطان يفارق في رمضان لأنه تغل فيه الشياطين، وربما تجد من يقتل فيه ويسرق، فهذا من النفس، فإذا مالت إلى المعصية فذكرها بعذاب الله، والقطيعة عن الله بسببه، والعسل المسموم يترك مع العلم بحلاوته، لما فيه من وجود الأذى، لقوله ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة»⁽¹⁾. ويروى أيضاً: «جيفة قذرة»⁽²⁾. حلوة خضرة عند أهل الغفلة، وجيفة قذرة عند العقلاء، حلوة خضرة عند النفوس، وجيفة قذرة عند مرآيا القلوب، حلوة خضرة للتحذير، وجيفة قذرة للتنفير، فلا تتخذ عنكم بحلاوتها، فإن عاقبتها مرة.

إياك أن يكون همك إشباع شهواتك ورغبات نفسك على حساب أوامر دينك وواجباتك تجاه الله سبحانه، إن ذلك من تدبير النفس التي بين جنبيك والتي تحب الركون إلى الدنيا ونسيان الآخرة، وإذا أردت معرفة خطر النفس فراقبها في شهر رمضان الذي تغل فيه الشياطين كما قال ﷺ؟.

فكل المعاصي والذنوب هي من النفس بسبب ميلها إلى المعصية. إن النفس بهذا تجر صاحبها إلى عذاب الله وسخطه فذكرها بعذاب الله لعلها ترجع وتهتدي إلى الصواب. وذكرها بأن لذة الدنيا نهايتها مرة وخيمة، فالعسل المسموم يترك مع لذته كذلك لذة الدنيا تترك لأنها لذة زائلة تكون وبالأعلى صاحبها يوم القيامة؟!

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، كتاب: أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، رقم (4925).

(2) لم يوجد بهذا اللفظ ولكن روي عن علي قال: «الدنيا جيفة فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب». فيض القدير، المناوي: 6 / 63.

إن هذه الدنيا جيفة قذرة للعقلاء، حلوة خضرة عند العقلاء إنها متاع الغرور كما قال سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185].

وأمر الله نبيه ﷺ بالإعراض عن أهل الدنيا بقوله تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِدُّ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: 29].

* * *

النفس كالمرآة كلما أكثرت خصامها

أكثرت خصامك

يقول ابن عطاء الله: كنت مرة عند الشيخ أبي العباس المرسى رحمته الله، فقلت في نفسي أشياء، فقال الشيخ: إن كانت النفس لك فاصنع بها ما شئت، ولن تستطيع ذلك.

ثم قال: النفس كالمرآة، كلما أكثرت خصامها أكثرت خصامك، فسلمها إلى ربها يفعل بها ما يشاء، فربما تعبت في تربيتها فلا تنقاد لك. فالمسلم من أسلم نفسه إلى الله، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111].

أنت تعمل وتكسب رزقك، ولكن هذا الكسب لا يكفي طموحاتك، فتخاطبك نفسك قائلة: زد ساعات العمل وضاعف الجهد والنشاط تكسب أكثر. في اليوم التالي يزيد نشاطك فإن لم تكسب عاتبتك نفسك وشككتك في رزقك وما قسم لك، وإن كسبت أكثر طلبت منك تزويدها بالمتع واللذات من تحسين الطعام واللباس والمسكن... الخ.

«فالنفس كالمرآة كلما أكثرت خصامها أكثرت خصامك. فسلمها إلى ربها يفعل بها ما يشاء فربما تعبت في تربيتها فلا تنقاد لك».

والتسليم هو الانقياد والإذعان لرب العالمين، ومنه جاءت كلمة «الإسلام».

معنى تسليم النفس لله:

وتسليم النفس إلى الله يعني: الرضا بقضاء الله سبحانه والرضا بحكم الله عز وجل قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

والرضا بقضاء الله هو ثمرة التوكل على الله، وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن

هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصر فني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني (رضني به) ﴿١١﴾.

إن تسليم النفس لله يتحقق بتخليصها من الشهوة التي تعارض الأمر الإلهي، ومن إرادة النفس التي تعارض الإخلاص لله، ومن الاعتراض على أحكام الشرع، فإذا تخلص العبد من ذلك بلغ أجل مقامات الإيمان.

فتطمئن النفس إلى أن ما يصيبها من الله وأن رزقها على الله فلا تعد لخصام صاحبها إذ وثقت بما عند الله سبحانه؟!.

فاللهم اجعلنا ممن يسلمون أنفسهم لك يا رب العالمين كما أسلم سيدنا إبراهيم عليه السلام نفسه لله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿البقرة: 130﴾ [131] وكما أسلم سيدنا يوسف عليه السلام لله بقوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

فالمسلم من أسلم نفسه إلى الله، فكان ظاهراً بامتثال أمره وباطناً بالاستسلام لحكمه وقهره.

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

إذا أصبحت عندي قوت يومي	فخل الهم عني يا سعيد
ولا تخطر هموم غدٍ بيالي	فإن غداً له رزقٌ جديد
أسلم إن أراد الله أمراً	فأترك ما أريد لما يريد
وما لإرادتي وجهٌ إذا ما	أراد الله ما لا أريد

* * *

(1) البخاري في الجمعة، باب: ما جاء في التطوع مثنى مثنى، رقم (1096).

إنما تحتاج إلى معالجة نفسك في الابتداء

يقول ابن عطاء الله: إنما تحتاج إلى معالجة نفسك في الابتداء، فإذا ذقت المنّة جاءت اختياراً، فالحلاوة التي كانت تجدها في المعصية ترجع تجدها في الطاعة.

عندما تمرض النفس تحتاج إلى معالجة، ومرض النفس سببه لذة المعاصي والشهوات التي سببت بعد العيد عن ربه سبحانه وتعالى. هذا الداء يحتاج إلى دواء فإذا عولجت النفس بتطهيرها من الذنوب والأهواء وأحست بقربها من الله ولطف الله بها إذ ستر معاصيها عن الخلق وأحست برحمة الله ولطفه إذ قبل توبتها فإنها تحيء اختياراً لطاعة ربه فقد أحست أن حلاوة الطاعة ألد من حلاوة المعصية.

وهذا هو الفلاح الحقيقي، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۚ ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۚ ۙ﴾ ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿[الشمس: 7 - 10]﴾.

* * *

خطر اتباع هوى النفس

يقول ابن عطاء الله: ما أهون الغرابة التي فيها هوى نفسك عليك، وما أثقل ما ليس فيه هوى، مثاله أن تحج نفلاً، فإن قيل لك: تصدق بذلك شق عليك، لأن أمر الحج يُرى فللنفس فيه حظ والصدقة تُطوى وتنسى، وكذلك درسك العلم لغير الله، فإنك تدرس الليل كله ونفسك طيبة بذلك، فإذا قيل لك: صل بالليل ركعتين شق ذلك عليك، لأن الركعتين بينك وبين الله، ليس فيها للنفس حظ، والقراءة والدرس للنفس فيها حظ مشاركة الناس، فلاجل ذلك خف عليها.

وهذا من علامات اتباع الهوى الذي أكدّه ابن عطاء الله في حكمه بقوله: «من علامة اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات، والتكاسل عن القيام بالواجبات».

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في شرح هذه الحكمة: «الفروض التي يجب أدائها كثيرة متنوعة، وهي في العبادات محدودة كمّاً وكيفاً ولكنها في العادات مفتوحة الدائرة متطورة الأداء، والمسلم مطالب بكل الواجبات التي ارتبطت بعنفه، ولا يجوز أن يوجه نشاطه إلى نافلة ما قبل أن يستكمل هذه الواجبات أولاً».

إن الواجبات والنوافل أشبه بالضرورات والمرفّهات، والمرء لا يشتري لنفسه عدة زجاجات من العطور وهو وأهله بحاجة إلى أرغفة من الخبز، سد الجوع أولى من هذه الزينات^(١).

إن كثيراً من الناس يذهلون عن هذه الحقيقة، فتراهم يحجون عدة مرات ويعتَمرون كل سنة وهذا خطأ، إن في المجتمع ثغرات يجب سدها هي أولى وأقرب لمرضاة الله من حج النفل وعمره النفل.

(١) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 138.

إن نفقة واحدة من هذه النوافل تكفي لأداء دين عن مدين معسر، وتكفي لدفع نفقات الدراسة لطلاب فقراء، وتكفي لسد رمق عائلة فقيرة.

وهناك الكثير من المسلمين يصومون يومي الاثنين والخميس، ويجتهدون في التقرب إلى الله بهذا العمل الكريم. ولكن إذا كان الصيام سيوهن القوى عن العمل في المدرسة إن مدرساً، أو العمل في الديوان إن كان موظفاً، فالفطر أولى به.

إن تعليم المعلم للطلاب، والقيام بمصالح الجمهور فرض وصوم غير رمضان نفل. إن فقه الأولويات يجب أن يأخذ دوره في مجتمعنا حتى لا تضيع الحقوق وتختل الموازين وحتى لا يضطرب المجتمع بسبب الاهتمام بنوافل الطاعات وترك الأهم وهي الفرائض.

* * *

النفس في وقت الرضا كالبعير المعقول

يقول ابن عطاء الله: ما شأن نفسك وقت الرضا إلا كالبعير المعقول، فإذا سيّته انطلق، قال رسول الله ﷺ: «لقلب ابن آدم أشدّ تقلباً من القدر على النار إذا غلت»^(١).

لعلك تقول: كيف يتحدّ ابن عطاء الله عن شأن النفس ثم يأتي بالحديث الذي يتكلم عن شأن القلب؟.

الجواب: النفس تجتمع مع القلب في معنى واحد وهو: اللطيفة الربانية الروحانية وهي حقيقة الإنسان، وهي المخاطبة والمعاقبة والمعانة والمطالبة. فهذه اللطيفة تطلق على القلب والنفس معاً^(٢).

إذاً شأن النفس وقت الرضا عنها والمراقبة لتصرفاتها كالبعير المعقول، يمسك صاحبها بعقالها كيلا تقع في المعصية، فإذا غفل الإنسان عن نفسه ونسي-العقال فإن النفس تنطلق وتحرر فيما لا يرضي الله سبحانه، لأن من شأن النفس محبة اللذات والتقلب فيها، فإياك أن تترك عقالها. بل أجمها بلجام الطاعة.

* * *

(١) أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث المقداد بن الأسود، رقم (22699). ورجاله ثقات وإسناده صحيح.

مجمع الزوائد: 4 / 211.

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي: 3 / 6.

حب الدنيا من عيوب النفس

يقول ابن عطاء الله: ما يطلع على الأسرار إلا أمين، وأنت تعطي نفسك حظها من المآكل والمشارب، حتى تملأ بيت الخلاء، أو يكفيك حب الدنيا؟! ومن أحب الدنيا فقد خان، ومن خان فهل يطلعه الملك على أسرارته؟!.

حب الدنيا من عيوب النفس، فاتهم نفسك ولا تستحسن شيئاً من أحوالها، فإنك إذا رضيت عنها واستحسنْتَ أحوالها لدغتك وأنت لا تشعر، وحجبتك عن حضرة الله وأنت لا تنظر^(١).

وقد علمت أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، فكيف تكتفي بحب الدنيا وهي ظل زائل هي إلا أنفاس معدودة ستنتهي وتنتقل إلى حياة برزخية في قبرك ثم تكون القيامة لتعرف مصيرك الذي ينتظرك!.

فمن شغله حب الدنيا عن الآخرة فقد خان الأمانة التي تكفل بها الله سبحانه، وهي أن لا ينسى الآخرة والقدوم على الله عز وجل، والخائن للأمانة لا يعلم شيئاً من الأسرار التي أودعها الله في هذه المكونات وكيف يفهم سر الإيجاد في هذه الدار؟. إن الاستسلام لأسر الشهوات هو الذي يحجبه عن فهم أن المكونات تدل على المكون من ثم تهيمن على العبد حالة من الشهود وهو يعني شهود صفات الله، وآلائه ومظاهر فضله ورحمته. فهو لا يستقبل نعمة إلا ويربطها بالمنعم المتفضل وهو الله عز وجل، وأن لا محسن في هذا الوجود إلا الله فيتجه القلب إلى محبة الله وحده لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها.

* * *

(١) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 66.

لولا هوان نفسك عليك ما عرضتها لعذاب الله تعالى

يقول إن عطاء الله: تكون في وسط النهر وأنت عطشان، تكون معه في الحضرة وأنت تطلب الاتصال، كأن العباد لم يتواصلوا للآخرة إلا بكثرة المأكّل والمشرب، أو قيل لهم هذه توصلكم إلى الآخرة، ولكن ما أرخص نفسك عليك! لولا هوانها عليك ما عرضتها لعذاب الله تعالى، وما غلاها في طلب الدنيا وجمعها، والعجب كل العجب فيمن يسأل المنجّم^(١). ولا يسأل كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

إن العبد إذا أطاع ربه فإنه يقربه ويدخله حضرته، فالصلاة والذكر والدعاء وقراءة القرآن كلها دخول في حضرة الله، فكيف تغفل عن هذا؟.

إن الغافل عن هذا قد حُرّم لذة القرب والمناجاة مثاله مثال من هو في وسط النهر لكنه عطشان!؟.

وإن من شأن من يهتم بشهواته من المأكّل والمشرب أن تحجبه هذه عن حضرة الله سبحانه. إنه بذلك يعرض نفسه لعذاب الله وسخطه.

إن من شأن العبد الطائع أن يفهم كلام الله ويلتزم بسنة رسول الله ولكن الذي يعطي نفسه هواها في طلب الدنيا فهو لا يدري ماذا يفعل وماذا يفعل له. إن شأنه شأن من يسأل المنجّم عن حاله والمنجّم من عاداته أن يكذب مئة كذبة حتى يصدق مرة واحدة.

فارجع بنفسك إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ واتبع أوامر الله وابتعد عما نهى عنه فهذا هو الصواب.

* * *

(١) المنجّم: هو الكاهن وهو الذي يتعلم النجوم للحكم بها وعليها، وينسب التأثيرات من الخير والشر إليها.
انظر: المعجم الوسيط، ص ٩٤١.

من لم يلزم نفسه لزمته

يقول ابن عطاء الله: من لم يلزم نفسه لزمته، ومن لم يطالبها طالبته، فلو جعلت عليها الأثقال بالطاعة لما طالبتك بالمعصية، ولما كانت تتفرع لها، هل رأيت الصالحين والعباد يتفرجون في الأعياد؟. من شغل نفسه بالفرح^(١). والمباحات شُغل عن قيام الليل، فيقال له: شغلت نفسك عنا فشغلناك عن عبادتنا.

هذا تأكيد على ضرورة مجاهدة النفس حتى يستطيع صاحبها السيطرة عليها والإمساك بعقالها، فإذا شغلتها بالطاعات ابتعدت عن المعاصي، وإذا ألهيتها بحب الآخرة التفت عن التعلق بالدنيا وملذاتها.

أما التفرج على المباحات فليس بحرام، لأن الله تعالى أحل لنا ذلك، ولكن عندما يزداد الانشغال بالمباحات حتى تؤخر الصلاة عن وقتها عندئذ ينبغي للإنسان أن يبتعد عن ذلك أو يقلل منه ما أمكن.

وهذا ما أشار إليه ابن عطاء الله حين قال: «من شغل نفسه بالفرح والمباحات شغل عن قيام الليل».

وهذا الأمر أشار إليه ابن عطاء الله في إحدى حكمه حين قال: «ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك».

أي ربما أعطاك ما تشتهي النفوس فمنعك بذلك حضرة القدوس، وربما منعك ما تشتهي نفسك فيتم بذلك حضورك وأنسك، وربما أعطاك متعة الدنيا وزهرتها فمنعك جمال الحضرة وبهجتها^(٢).

* * *

(١) في المطبوع: بالفرح.

(٢) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 128.

أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس

يقول ابن عطاء الله: أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها.

لا يبحث عن الشفاء إلا من أحس المرض، أما من أصيب بعلّة فلم يشعر بها ولم يستشف منها، فإن جرائمها تستشري في أوصاله حتى تأتي عليه، وكذلك النفس الإنسانية لا يطلب لها العافية إلا من أدرك ما بها من أدواء، والشعور بالنقص أول مراحل الكمال.

فإذا وجدت أمراً راضياً عن نفسه فافقد منه الأمل، لأنه ينطوي على ركام من العيوب والنقائص وهو لا يلتمس الخلاص منها، بل إنه فاقد الشعور بوضاعتها وهيئات لمثل هذا اكتمال أو نجاة^(١).

إذاً: «أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس» لأن من رضى عن نفسه استحسن أحوالها وغطى مساوئها ولذلك قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليله
.....
.....
.....

«وأصل كل طاعة ويقظة وعفة، عدم الرضا عنها» لأن من اتهم نفسه وأساء الظن بها ونظر إليها بعين السخط بحث عن عيوبها واستخرج مساوئها، قال الشاعر: تنمة للبيت السابق:

ولكن عين السخط تبدي المساويا
.....
.....
.....

(١) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 122، 123.098

ولذلك قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «لأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه».

لأن من لا يرضى عن نفسه فقد تحقق بالإخلاص لله تعالى. ثم قال ابن عطاء الله «فأي علم لعالم يرضى عن نفسه».

لأن الرضا عن النفس أصبح حجاباً له عن ربه، ثم قال: «وأي جهل لجاهل ولا يرضى عن نفسه» إذ بعدم الرضا عن نفسه بحث عنها وتخلص من رقها فصار عبداً حقيقة الله فحينئذ أحبه سيده واصطفاه لحضرته واجتباها لمحبتة وأطلعه على مكنون علمه فكان أعلم خلقه؟^(١).

ومصدر هذا الذي يقول ابن عطاء الله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْيَلًا﴾ [النساء: 49].

والاستفهام هنا استنكاري، أي ألا ترى إلى قباحة شأنهم، إذ يمدحون أنفسهم ويعبرون عن إعجابهم بها ورضاهم عنها!!.

وأصرح من هذا التعبير ذاته قول الله عز وجل: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: 32].

أي لا تحكموا لها بالصلاح والسمو عن الزغل والشوائب، ولا تمدحوها وتثنوا عليها بما قد تتوهمون؛ فإن الله أعلم بما في نفوسكم منكم.

وتعبيراً عن هذا المعنى ذاته يقول رسول الله ﷺ: «إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك^(٢)»^(١).

(1) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 67.

(2) الترمذي في تفسير القرآن، باب: ومن سورة المائدة، رقم (2984). وأبو داود في الملاحم، باب: الأمر والنهي، رقم (3778). وابن ماجه في الفتن، باب: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، رقم (4004).

وإليك عدداً من آيات القرآن تحذر من طاعة النفس والرضا عنها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ [يوسف: 53].

وقال: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: 96].

وقال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 30].

وقال: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: 83].

وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْثُوسٍ بِهِ، نَفْسُهُ﴾ [ق: 16].

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26].

* * *

(1) الحكم العطائية، شرح د. محمد سعيد رمضان البوطي: 2 / 68، 69.

أجهل الناس من ترك يقيين ما عنده لظن ما عند الناس

يقول ابن عطاء الله: الناس يمدحونك بما يظنون فيك، فكن أنت دائماً لنفسك لما تعلمه منها^(١)، فإن أجهل الناس من ترك يقيين ما عنده لظن ما عند الناس.

هذه إحدى الحكم العطائية وتعني:

هل أغش نفسي لأن الله سترني فانطلقت ألسنة الناس تمدحني؟

ما يعمل هذا عاقل... فإذا قال الناس: هو كامل، فلا أنخدع بمقالتهم عن حقيقة ما أعرف من نفسي: «فإن أجهل الناس من ترك يقيين ما عنده لظن ما عند الناس». والعجب أن أناساً يكذبون ثم يصدقون هم أنفسهم ما اختلقوه على الناس، كما روي عن أشعب أن الأطفال تبعوه يوماً بزياطهم^(٢)، فأراد أن يصرفهم عنه فزعم لهم أن عرساً بمكان كذا توزع فيه الحلوى!! فلما جروا إلى العرس المزعوم تبعهم أشعب هو الآخر يجري!!.

إن ذلك مثل من يسمع المدائح فيه فيصدقها، وهو يدري من باطن أمره أنه غير ما قيل فيه^(٣).

إن المرائي نيته في أول عمله وآخره: طلب الثناء والمحمدة، والرفعة عند الناس، وعلامة من لا يركن إلى المدح أن يزداد تواضعاً، وخوفاً من الاستدراج وما يخفى من عمله فهو أحب مما يظهره، مع ما يلزمه من الخوف من الفتنة مما يلزم أهل الثناء والمحمدة إذا أثني عليهم أو

(١) في المطبوع: لما تعلم منها.

(٢) زياتهم: الزياط هو الجلجل، وهو الجرس الصغيرة. المعجم الوسيط، ص 424.

(٣) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 141.

مدحوا مثل قول سيدنا عمر رضي الله عنه لمن مدح آخر في وجهه: «عقرت الرجل»^(١)، وقوله: «قطعت عنق أخيك»^(٢).

وعلاوة من يركن إلى المدح ويحبه، أنه إذا سمع الثناء أحب ذلك، وازداد عزة وإعجاباً بنفسه، وغفلة عن الاستدراج، وغداً وغنى وطمع أن ما ظهر عليه من أعماله كان أحب إليه مما خفي، ولم يخاف من فتنة ولا من آفة.

وكذلك إذا كره المذمة، إنها كرهها لأنه أحب أن يكون مكانها مكانها مدحة وثناء، لينال بذلك الجاه والقدر، والمنزلة والرفعة عند الناس، فهي كراهية سقيمة مذمومة وصاحبها مغرور ومخدوع^(٣).

ولذلك كان بعضهم يقول: «اللهم اجعلني خيراً مما يظنون ولا تؤاخذني بما يقولون واغفر لي ما لا يعلمون».

فمن مدح بشيء نظر فإذا كان فيه علم أنه تنبيه له على مقام الشكر. وإن لم يجده فيه علم أنه تنبيه له على تحصيل ذلك المقام؛ ولهذا لما سمع أبو حنيفة قوماً يمدحوا بما لم يفعلوا فقال: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَازِعٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾^(٤) [آل عمران: 188].

ثم إن ذمك لنفسك إذا توجه الخلق إليك بالمدح إنها هو حياء من ربك حيث ستر عيوبك وأظهر محاسنك.

(1) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم (335): 1 / 133.

(2) البخاري، الشهادات، إذا زكى رجل رجلاً كفاه، رقم (2468). ومسلم في الزهد والرقائق، باب: النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة، رقم (5319).

(3) آداب النفوس، الحارث المحاسبى، ص: 73، 74.

(1) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 211.

ثم يقول ابن عطاء الله: «فإن أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس». فاليقين هو علمه بمساويه وخفايا عيوبه وما انطوت عليه سرائره من النقائص والتقصير. وظن ما عند الناس هو ما يرون على ظاهره من الكمالات وأنوار الطاعات التي تصحبها العلل الباطنية والحظوظ النفسانية فيتوجهون إليك بالمدح والثناء، فإذا قنع بذلك وفرح بما هنالك فهو أجهل الناس وأحق الناس والمطلوب عكس هذا وهو أن ينقبض عند المدح وينبسط عند الذم حتى يستويا عنده.

ويقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «إذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل له فأئن عليه بما هو أهله». أي من مدح بما لا يعلمه من نفسه وليس أهلاً له، فعليه أن يثني على الله بما يستحقه من التعظيم ليكون ذلك شكراً لنعمة إطلاق الألسنة بالثناء عليك وأيضاً فإنه هو الذي ستر عنهم مساوئك وأظهر لهم محاسنك ولو أظهر لهم ذرة من مساوئك لمقتوك وأبغضوك^(١).

لذلك قال الشاعر:

إذا المرء لم يمدحه حسن فعاله فمادحه يهذي وإن كان مفصلاً

* * *

(١) المرجع السابق، ص: 213.

المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكراً

يقول ابن عطاء الله: المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكراً، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكراً.

لو كنت كيساً فطناً لكانت حقوق الله عندك أحظى من حظوظ نفسك.

هذه إحدى الحكم العطائية ومعناها:

ما قيمة حظوظ النفس أمام نعم الله سبحانه وتوفيقه، فالذي يوفق لشكر الله وحمده على نعمه ماذا يبقى لنفسه من حظوظ؟!.

إذ كل نعمة تتقلب فيها منه سبحانه وقيامك بحقوق الله ينسيك نفسك التي بين جنبيك.

إن النعم تحتاج إلى شكر واعتراف بالجميل، فالكل من نعمه سبحانه خلقنا ورزقنا وصحتنا وعقلنا وكل ما نتمتع به من نعم هي من إحسان الله ورحمته بنا وتكريمه إيانا، فماذا يبقى للنفس من حظوظ؟!.

ولكن عندما تغيب هذه الحقيقة عن النفس، تنسى أن المنعم هو الله سبحانه، فتستخدم الصحة في معصية الله، والرزق لإنفاقه في الحرام وكسبه من الحرام؟!.

فأف لعبد ينعم الله عليه بالصحة فيستعملها في معصيته؟!.

* * *



الغفلة عن الله

الغفلة عن الله

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 14 - 15].

يقول ابن عطاء الله: «طالما تمرغت في مواطن المحن. . .» فعصيت الله سبحانه وأعطيت نفسك ما تشتهي، لقد فشلت في الامتحان، لأن هذه الدنيا دار بلاء وامتحان.

والفوز بالامتحان يعني التغلب على الشهوات والتوجه بالطاعة لله وحده سبحانه.

إن من مات قلبه من الغفلة لن ترده المحن والمصائب لأن الميت لا يتألم ولو قُطع بالسيوف، فترى الغافل شاردًا عن صراط الله لا يقوم الليل ولا يصوم النهار ولا يشعر بالخوف من الله عز وجل.

فحتى تتطهر من تلك الغفلة ابحث عن مجلس علم، كل يقول ابن عطاء الله لعالم صادق عليك تأخذ نفحة من نفحات الإيمان تردك إلى الله سبحانه.

وربما لم تستفد من الجلسة الأولى بسبب سماكة الران على قلبك فتحتاج إلى تكرار الجلوس حتى تكون لكل جلسة صقلة.

* * *

من علامات الغفلة انشغال القلب بالدنيا

يقول ابن عطاء الله: أهل الغفلة إذا أصبحوا يتفقدون أمواهم، وأهل الزهد والعبادة يتفقدون أحوالهم، وأهل المعرفة يتفقدون قلوبهم مع الله عز وجل.

من لم يترك المحرمات لم ينفعه القيام بالواجبات، من لم يحتسب لم ينفعه الدواء، ما أقل بركة مال وقعت فيه أيدي الناهبين، فهذا والله عمر الغافلين منهوب.

من علامة الغفلة انشغال القلب بالدنيا، فينام ويستيقظ الغافل وهمه جمع المال بأي طريق وحساب ربحه من خسارته، ألهذا خلق الإنسان؟.

أما أهل الزهد فيتفقدون أحوالهم مع الله ويتداركون التقصير.

أما أهل المعرفة بالله فيتفقدون قلوبهم مع الله عز وجل. فينفون عنها الأغيار ويملئونها بحب الله وطاعته.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «الغافل إذا أصبح نظر في ماذا يفعل والعامل ينظر ماذا يفعل الله به».

فالجاهل إذا أصبح نظر ماذا يفعل بنفسه فيدبر شؤونه ومآربه بعقله وحده فهو ناظر لفعله معتمد على حوله وقوته، فإذا قضى الله على غير ما يتوقعه من كسب مال أو غيره غضب وسخط وقنط وأساء أدبه مع ربه فلا جرم أنه يستحق من الله البعد.

وأما العاقل وهو العارف فقد تحققت في قلبه عظمة ربه وانجمع إليه بكلية قلبه فأشرقت في قلبه شمس العرفان وطوى من نظره وجوه الأكوان فليس له عن نفسه أخبار ولا مع غير الله قرار، تصرفه بالله ومن الله وإلى الله فقد فني بنفسه وبقي بربه فلم ير لها تركاً ولا فعلاً ولا قوة ولا حولاً فإذا أصبح نظر ماذا يفعل الله به فيتلقى كل ما يرد عليه بالفرح والسرور والبهجة والحبور لما هجم عليه من حق اليقين والغنى برب العالمين^(١).

* * *

(١) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 164، 165.

علاج الغفلة

يقول ابن عطاء الله: للظاهر جنابةٌ تمنعك من دخول بيته، وتلاوة كتابه، وللباطن جنابةٌ تمنعك من دخول حضرته، وفهم كلامه، وهي الغفلة، فإذا طلبت النفس الشهوات فألجمها بلجام الشرع، فمثالها كالدابة إذا مالت لزرع غيرك، فغض الأبصار من ميلها إلى المستحسنات والقلوب عن ميلها إلى الشهوات، وليكن قلبك معموراً على الدوام، والحق سبحانه وتعالى اختار لحضرته من يصلح لها ومن لا يصلح رماه للكائنات، فمثالهم كالعبيد يعرضون على الملك، فمن أخذه الملك عز ومن لا يصلح بقي للرعية.

يقول الإمام المحاسبي رحمه الله: «أما أنا فلا أعرف خصلة أكثر في الناس، ولا أغلب عليهم، ولا أكثر ضرراً، ولا أشد عليهم تركاً، على الخاص والعام، والعالم والمتعلم والجاهل، من الغفلة»^(١).

إن من شأن الغفلة أن تمنعك من دخول حضرته سبحانه، وبالتالي أن تفهم كلامه ولن تفلح بالدعاء له، فعليك أن تلجم نفسك بلجام الشرع حتى تتطهر من غفلاتها وحبها للشهوات.

وميل النفس للشهوات فيه لذة ولكن ذلك غالباً ما يترافق مع الغفلة عن الله سبحانه، فاترك تلك اللذة وادخل حضرة الله منيباً إليه فإنه لذة لا تضاهي وتفوق لذة الشهود بكثير، فإن من وفقه الله للطاعة فقد اجتبه وأحبه وأعزه، ومن لم يوفق وكل إلى نفسه وشغل بالكائنات عن المكون، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13].

* * *

(١) آداب النفوس، ص 85.

الغفلة والشهوة والإعراض من صفات النفس

يقول ابن عطاء الله: إذا رأيت فيك الإعراض والشهوة والغفلة فهذا وصفك، وإذا رأيت فيك الإنابة والخشية والزهد فهذا من صنائع الله، مثال ذلك: إذا رأيت ببلدك الحلفاء^(١) والشوك والعوسج^(٢). فهذا نبات أرض بلدك، وإذا رأيت بها العود الرطب والمسك والعنبر فاعلم أنه مجلوب من صنائع الله ليس من نبات أرضك، فالمسك من غزلان عراقها، والعنبر من بحر عندها.

الشهوة والغفلة من صفات الجسد التراخي فيطلب الطعام والشراب واللذة، ويطلب الراحة من الطاعة ولا يجب الالتزام بها بل يبقى غافلاً عن ربه سبحانه وتعالى.

ثم قال: «أما إذا رأيت فيك الإنابة والخشية والزهد فهذا من صنائع الله» فهذا تفضل من الله سبحانه أن صان عبده عما يغضبه، وتأمل في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29].

فقد جعل لهم فرقاناً يفرقون به بين الحق والباطل وبين طاعته ومعصيته. وهذا الفرقان هو للمتقين الذين يراقبون الله في السر والعلن والذين ينفذون أوامر الله ويتعدون عن نواهيه. فالشوك والعوسج والحلفاء مثال للشهوة والغفلة وهذه تنشأ في النفس، والمسك والعنبر هي من صنائع الله وتوفيقه لعبده سبحانه وهي فضل من الله ذي الرحمة الواسعة.

* * *

(1) الحلفاء: الواحدة حليفة وهي: نبت من الفصيلة النجيلية، أطرافه محددة كأطراف سعف النخل، تُصنع من أوراقه الحصر والخبال. المعجم الوسيط، ص: 199.

(2) العوسج: نبات شائك من الفصيلة الباذنجية، له ثمر مدور كأنه خرز العقيق. المعجم الوسيط، ص:



حقيقة المؤمن

المؤمن والمخدول

يقول ابن عطاء الله: إذا قيل لك من المؤمن؟ فقل: الذي اطلع على عيب نفسه ولم ينسب أحداً من العباد إلى عيب، وإذا قيل لك: من المخدول؟ فقل: الذي ينسب العباد إلى العيب ويرى نفسه منه.

كفى بك جهلاً نظرك إلى صغير إساءة غيرك، وتعاميك عن كبير إساءة لك. إن من لطف الله بك أن يكشف لك عن عيوب نفسك، ويسترها عن الناس.

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

عجبت لمن يبكي على عيب غيره دُموعاً ولا يبكي على عيبه دماً
وأعجب من هذا يرى عيب غيره صغيراً وفي عينيه من عيبه عمى

إن العاقل هو الذي يهتم بعيوب نفسه ويتعد عن مراقبة غيره.

والمؤمن هو الذي يخجل من الله عز وجل بسبب عيوبه ويسأله دائماً أن يعينه على نفسه بإصلاحها، هذا هو التواضع لله عز وجل. أما المخدول المتكبر فهو الذي لا يرى عيوب نفسه ويرى عيب غيره.

وكان الأحرى به أن يراقب نفسه فيعرف مواطن ضعفها وتقصيرها ويحمد الله أن سترها عن الناس، ثم إنه يلتمس الأعذار للغير فلا ينسب أحداً إلى عيب، إذ كيف ينسب غيره إلى عيب وهو مليء بالعيوب؟!.

يقول الحارث المحاسبي: «إن المخدوع يشغل بعيوب غيره عن عيوب نفسه، والخداع النفسي لا يمكن أن ينكشف لصاحبه إلا إذا نظر إلى غيره، أما أن يكتشفه في ذاته دون أن يكتشفه في غيره فهو عسير. إن الإنسان عند معرفة عيبه أبله وعند معرفة عيب غيره جهبذ. وعند التماس العذر لغيره أبله وعند التماس العذر لنفسه جهبذ وينبه إلى أن الإنسان حين

يكتشف عشرة من غيره يجب عليه أن يعود إلى نفسه على الفور ليكتشف نفس العشرة في نفسه^(١).

* * *

(١) آداب النفوس، المحاسبي، ص: 97.

كيفية التعامل
مع العصاة والمذنبين

خطر مباسطة وموانسة العاصين

يقول ابن عطاء الله: ومما تهادى عليه أهل الزمان، مباسطتهم وموانستهم للعاصين، ولو أنهم عبسوا في وجوههم لكان ذلك زجراً لهم عن المعصية.

إذا عصى ولدك فأدبه بالشرع ولا تقطعه بل قابله بالعبوسة ليكف عن المعصية، وأكثر ما يدخل على المؤمن من الدخل^(١). إذا كان عاصياً، فإما أن يفضحوه وإما أن يستهزئوا به، فإذا فعلوا ذلك فقد أخطأوا الطريق.

إذا عصى المؤمن فقد وقع في ورطة عظيمة، وطريقه أن تفعل معه كما فعلت مع ولدك عند عصيانه، تعرض عنه في الظاهر، وتكون له راحماً في الباطن وتطلب له الدعاء بالغيب.

لقد ضرب الله لنا مثلاً في القرآن عن بني إسرائيل أنهم لعنوا بسبب كفرهم وبسبب رؤيتهم للمنكر وعدم الاعتراض عليه، وجلسهم مع العصاة على مائدة واحدة فقال سبحانه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 78 - 79].

والحديث الآتي يبين كيف حدث ذلك فيقول ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»^(٢).

(١) الدخل: العيب والغش والفساد، ويعني أن إيمانه كان متزلزلاً فيه نفاق.

(٢) أبو داود في الملاحم، باب: الأمر والنهي، رقم (3774)، والترمذي، تفسير القرآن عن رسول الله، ومن

سورة المائدة، رقم (2973) وقال: حسن غريب ومرسل. وابن ماجه في الفتنة، باب: الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، رقم (3996).

وعلى هذا لا يجوز مباسطة العاصين ومؤانستهم، بل يجب العبوس في وجههم لعل ذلك يكون زجراً لهم عن المعصية كما تفعل مع ولدك.

إن الاستهزاء بالعصاة والمذنبين والسخرية منهم قد يزلزل إيمانهم فلا ينبغي للمسلم أن يكون السبب في ذلك؛ لأن العاصي قد وقع في ورطة فعليك بتخليصه منها لا أن تكون عوناً للشيطان على أخيك ولذلك لما شتم رجل صاحب فاحشة أمام النبي ﷺ زجره وقال: «لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك»^(١).

وطريق ذلك أن تعرض عن العاصي في الظاهر دو استهزاء وسخرية، وتكون له راحاً في قلبك وتطلب له الدعاء بالغيب أن يهديه الله إلى الصراط المستقيم، لأن دعاء المؤمن لأخيه في الغيب مستجاب، قال ﷺ: «دعوة المرء المسلم لأخيه في ظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل»^(٢).

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه وسبباً لجر الوبال عليه».

فالمطلع على أسرار العباد التي تقتضي وجود العيب، إذا لم يتخلق صاحبه بالرحمة الإلهية فيرحم المذنبين ويحلم على الظالمين ويصفح عن الجاهلين، ويحسن إلى المسيئين، فإنه يكون ذلك الاطلاع فتنة عليه، لأن ذلك يؤديه إلى رؤية نفسه واستعظام أمرها، والعجب بعمله والتكبر على غيره، وهذا هو أعظم الفتنة ويكون ذلك سبباً لجر الوبال إليه، قال ﷺ: «ما نُرعت الرحمة إلا من قلب شقي»^(٣).

(١) البخاري في الحدود، باب: ما يكره من لعن شارب الخمر... ، رقم (6283).

(٢) مسلم، الذكر والدعاء، فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، رقم (4914).

(٣) الحاكم في المستدرک وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، 4 / 277.

وقال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(١).

قال الشاعر:

وأغفر عوراء الكريم ادّخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرماً

والفقرة الآتية هي تكرار لهذا المعنى.

* * *

(١) الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في رحمة الناس، رقم (1847).

الرحمة بالعصاة

يقول ابن عطاء الله: شتان بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، فأهل السعادة إذا رأوا إنساناً على معصية أنكروا عليه في الظاهر ودعوا له في الباطن، وأهل الشقاوة ينكرون عليه تشفياً فيه، وربما للموا^(١). عليه عرضه، فالمؤمن من كان ناصحاً لأخيه في الخلوة. سائراً له في الجلوة، وأهل الشقاوة بالعكس: إذا رأوا إنساناً على معصية أغلقوا عليه الباب وفضحوه فيها، فهؤلاء لا تنور بصائرهم، وهم عند الله مبعدون.

من ذا الذي ما ساء قسط ومن الذي يملك الحسن فقط

فالبعيد عن الله هو الذي يعير أخاه بالمعصية ناسياً أنه ربما وقع في الذنب نفسه؟! لذلك قالوا: «كل معصية عيرت بها أخاك فهي إليك».

أي صائرة إليك ولا بد أن تعملها، وهي مأخوذة من الحديث الذي رواه الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله»^(٢).

وفي التعبير ضرب خفي من الشتمة بالمعير، وفي الترمذي أيضاً مرفوعاً: «لا تظهر الشتمة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك»^(٣).

إن الله سبحانه أمر بالستر على العاصين وأمر العاصين بالتوبة الصادقة وبذلك ينتهي الأمر وكأن شيئاً لم يكن، أما الفضيحة فلا تجر إلا المصائب، لأن الناس لا يرحمون المخطئ، ومع أن الله قد قبل توبة العاصي فإن الناس يعرضون عنه ولا يصفحون عن خطئه، خذ مثلاً على ذلك البنت إذا فعلت فاحشة وتابت إلى الله توبة نصوحاً؛ فإن أهلها لا يقبلون توبتها ولا

(١) في نسخة ثلبوا من باب ثلب يثلبه ثلباً: أي لومه وعابه وصرح بالعيب وقال فيه وتنقصه. المعجم الوسيط،

ص: 103.

(٢) الترمذي في صفة القيامة والرقائق، رقم (2429).

(٣) التخريج السابق، رقم (2430).

يكفرون عن ذلك العار إلا بقتلها؟! إنهم ارتكبوا جريمة أعظم من جريمة الزنى !!! في الوقت نفسه إذا زنى الشاب وتاب غفر له أهله ذلك الذنب والتمسوا له الأعذار. أما البنت فليس لها أي عذر على ما يظنونته خطأ.

المؤمن عندما يعصي قد وقع في ورطة يريد من يخلصه منها لا من يؤجج نارها، يريد من يأخذ بيده إلى الطريق المستقيم الذي حاد عنه. فهلا مددت يدك إلى العاصي بكل رحمة وشفقة لترده إلى حظيرة الإسلام وتكون سبباً في هدايته ولك الأجر العظيم على ذلك.

* * *

الإعراض عن العصاة والدعوة لهم في الغيبة

يقول ابن عطاء الله: كما أمرت أن تُعرض عن المعصية، أمرت أن تعرض عمن عصى، وتدعوه في الغيبة، والناس اليوم على العكس، وما عسى أن ينفعك صومك وصلاتك وأنت تقع في عرض أخيك المسلم.

هناك جهلة من المسلمين يشتمون بالعصاة، ويرون أنهم أفضل حالاً منهم، وربما أسأؤوا إليهم بألسنتهم وفضحوهم أمام الناس، وهذا خطأ فادح.

إن المسلم يستر أخاه، ولا يظهر الشتمات له. وفي الهدي النبوي يقول ﷺ: «لا تظهر الشتمات لأخيك فيرحمه الله ويتليك»^(١).

ويقول ﷺ: «من ستر مسلماً - أي في الدنيا - ستره الله يوم القيامة»^(٢).

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله حلیم رحيم يحب الستر»^(٣).

إذا ما من إنسان إلا ويخطئ ويذنب ولا عصمة إلا للأنبياء والرسل. فكلنا معرضون للخطأ، فكن عوناً لأخيك العاصي، بأن تنصحه وتدعوه له في غيبته بالهداية رحمة به.

يقول ﷺ: «دعوة المرء المسلم لأخيه في ظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل»^(٤).

(١) سبق تخريجه، ص 278.

(٢) البخاري في المظالم والغصب، باب، لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم (2262). ومسلم في البر والصلة، باب: تحريم الظلم، رقم (4677).

(٣) أبو داود في الأدب، باب: الاستئذان في العورات الثلاث، رقم (4518).

(٤) سبق تخريجه ص 276.

وانظر إلى النبي ﷺ حين انتهى من غزوة حنين وحاصر ثقيفاً في الطائف بضعة عشر- يوماً. ثم أمر أصحابه بالعودة إلى ديارهم دون أن تُفتح الطائف، فقال بعض الصحابة: يا رسول الله ادع الله على ثقيف فقال: «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم»^(١). وتحقق ذلك وهدى الله ثقيفاً بعد ذلك بقليل، فقد جاء وفدهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة لإعلان إسلامهم.

إن نبينا محمداً ﷺ ينهانا عن تتبع عورات المسلمين بقوله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه! لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنهم من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته ومن تتبع عورته يفضحه في بيته»^(٢).

فإياك أن تفضح العاصي أو تتبع عورته، ولو كنت تصلي وتصوم فإن صلاتك ينبغي أن تنهاك عن الفحشاء والمنكر، ومن المنكر أن تفضح أخاك الذي تورط في معصية وزلت قدمه. أما أن تصلي وتصوم وتقع في عرض أخيك المسلم بالشتمات والفضيحة والتعير، فاعلم أنه ليس لك من صلاتك إلا التعب ومن صومك إلا الجوع والعطش.

* * *

(١) الترمذي في المناقب، باب: في ثقيف وبني حنيفة، رقم (3877)*.

(٢) أبو داود، في الأدب، باب: في الغيبة، رقم (4236). وأحمد، أول مسند البصريين، حديث أبي برزة الأسلمي، رقم (18940). قال في مجمع الزوائد: رجاله ثقات وإسناده حسن.

لا تنتقد على الناس بظاهر الشرع ولا تنكر عليهم

يقول ابن عطاء الله: لا تنتقد على الناس بظاهر الشرع ولا تنكر عليهم، فلو خاطبوا اليوم بما كانت عليه الصحابة والسلف الصالح، لم يستطيعوا لأن أولئك حجج الله على خلقه. فالداعي إلى الله يجب أن يكون رحيماً بالخلق، حكيماً في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

إننا في عصر شغل الناس فيه بحياتهم الدنيا، وغلبت عليهم النزعة المادية البغيضة، وللشيطان في الناس سوق نافقة، وبضاعة رائجة وعملاء مدربون وعلى معلمي الدين والدعاة إلى الله أن يشحذوا أسلحتهم لجهاد الشيطان ومطاردته، وتنفير أتباعه من بضاعته، وإغرائهم ببضاعتهم وجذبهم إلى سوقهم، ولن يكون ذلك أبداً بالتعنت والتزمت، والإحراج والتشديد، والتعسير والتنفير، وليس معنى ذلك ابتكار دين سهل خالص سائغ للشاربين، وإنما دين الله نفسه يسر لا عسر فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]. وحين بعث النبي ﷺ أبا موسى ومعاذاً إلى اليمن أوصاهما بقوله: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا»^(١).

* * *

(١) البخاري في الجهاد والسير، باب: ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، رقم (2811). ومسلم في

الجهاد والسير، باب: في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (3263).

لا تقنط الناس من رحمة الله

يقول ابن عطاء الله: إياك أن تقول: ذهب الخير وانطوى بساطه، فلسنا نريد من يُقنط الناس من رحمة الله، ويؤيسهم منه تعالى، ففي زبور داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: أرحم ما أكون بعبدٍ إذا أعرض عني. قرب مطيع هلك بالعجب، ورب مذنب غفر له بسبب كسر قلبه.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم»^(١).
وقال ﷺ: «يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا»^(٢).

فمن يملك الحق أن يقنط الناس من رحمة الله ويؤيسهم منه تعالى بعد ما أعلن سبحانه أنه يغفر الذنوب جميعاً، قال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53].

ومن يجروا أن يدعي أنه أحسن حالاً من ذلك المذنب، ألا يخشى أن تكون طاعته سبب لهلاكه إذا أعجب فيها، وأن يكون الذنب سبب لمغفرة الله بسبب كسر قلبه!!.

ولذلك قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «معصية أورثت ذلاً انكساراً خيراً من طاعة أورثت عزاً واستكباراً».

وقال ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان! فقال الله عز وجل من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحببت عملك»^(٣).

* * *

(1) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: النهي عن قول: هلك الناس، رقم (4755).

(2) البخاري في الأدب، باب: قول النبي: يسروا ولا تعسروا، رقم (5660).

(3) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى، رقم (4753).

كيف تكون
الطاعة لله وحده

ليتك لو أطعت مولاك كما يطيعك عبدك

يقول ابن عطاء الله: ليتك لو أطعت مولاك كما يطيعك عبدك، فإنك تحبه ناهضاً في خدمتك دائماً، وأنت تحب الطاعة وتطلب أن تفرغ منها مسرعاً، كأنك تنقر بالمناقير، فيا ليت بصراً نظرت به محاسن غيره عوضت عنه العمى.

انظر إلى الناس من حولك تجدهم يجلسون الساعات والساعات مستأنسين لحديث ويجعلون الغيبة والنميمة فاكهة المجلس، فإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى متناقلين همهم أن ينقضي وقت الصلاة. لذلك تراهم ينقرون نقر الديك ليعودوا بعدها لما كانوا عليه، هذه طبيعة النفس الإنسانية، فكيف تحب الطاعة وتطلب أن تفرغ منها مسرعاً؟.

ثم يقول: «يا ليت بصراً نظرت به محاسن غيره عوضت عنه العمى».

أي لو أنك تعلم حقيقة العبادة لما أسرعت في الهروب منها، فالصلاة هي لحظات يقضيها المسلم كل يوم في رحاب الله الواسعة، وهي توجه النفس الوجهة الصحيحة نحو خالقها وبارئها، فتجدد في النفس نشاطها الروحاني، وتقوي إيمانها، وتهدئها إلى الصراط المستقيم بعد أن تاهت في فجاج الدنيا مدة طويلة قبل الصلاة.

ومع ذلك نُصَلِّي بلا خشوع، نُصَلِّي ولا نعلم كم نُصَلِّي، ثلاثاً أم أربعاً وسجود السهو كثيراً ما يرافق صلاتنا لنجبر الشرود والنسيان، جسدنا في الصلاة وخيالنا يسرح في متاهات الدنيا اللامتناهية^(١).

إن لذة الدنيا فانية وإن كانت مستحسنة فما ينبغي أن تصرف بصرك إلى المتع والشهوات وتنسى عبادة الله التي من أجلها خلقت؟!.

* * *

(١) الخشوع في الصلاة، المؤلف، ص: ٩٠٨.

إفراد الله بالعبادة

يقول ابن عطاء الله: إقبالك على الله إفرادك له بالعبادة، فكيف يرضى لك أن تعبد غيره؟! فلو أتيتنا تطلب العطاء منا ما أنصفتنا، فكيف يرضى إذا أقبلت على سوانا.

العبادة والطاعة لا تكون إلا لله وحده، قال سبحانه: ﴿وَأَنذَرُكُمْ فَأَعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92]. وقال: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].

إن الله وتر يحب الوتر^(١)، أي يجب أن تكون العبادة والسؤال له وحده سبحانه وتعالى، يجب أن لا يتعلق قلب العبد إلا به وينسى ما سواه!.

ويأبى الإنسان إلا أن يشرك بالله ويعبد الأصنام؟! وإن عبد الله وحده تراه يلتفت إلى شهواته وأهوائه فيتخذها إلهاً، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلِيرٍ﴾ [الجن: 23].

وقال ﷺ واصفاً من يكون عبداً لبعض المتع الدنياوية التافهة: «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي وإن لم يُعط لم يرض»^(٢).

* * *

(١) الترمذي في الصلاة، باب: ما جاء أن الوتر ليس بحتم، رقم (415) وقال: حديث حسن.

(٢) البخاري في الجهاد والسير، باب: الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (2673).

قصة سيدنا إبراهيم الخليل مع النمرود

من التزم بطاعة الله واجتناب نواهيه رغبة في الحصول على نعيم الجنة الخالد الذي أخبرنا الله عنه. بحيث لو علم العبد أن طاعته ستذهب هدرًا ولن ينال من ورائها ما يحلم به فلن يلقي بالألها، ول يستجيب لأوامر الله.

إن هذا دليل على قلة حياء العبد من الله عز وجل بل دليل على جرأته عليه!

إذ العبادة تكون لله وحده طلباً لرضاء ولأنه ربنا ونحن عبيده، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: 5].

وهذا المعنى كانت رابعة العدوية تناجي به ربها قائلة: «اللهم إني ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكنني علمت أنك رب تستحق العبادة فعبدتك»⁽¹⁾.

* * *

(1) المرجع السابق، ص: 308 وما بعدها.

التقرب إلى الله

يقول ابن عطاء الله: لو تقربت إلى الله لسمعت مخاطبته على الدوام في سوقك وبيتك، ولكن من استيقظ شهد، ومن نام لم تسمع أذنا قلبه، ولم تشهد بصيرته، ولكن الحجاب مرخي.

التقرب إلى الله يكون بالالتزام بفرائض الله ثم بالنوافل، إن من يفعل ذلك يحس بقربه من الله عز وجل ويشعر بعنايته وحفظه له في سوقه وفي بيته وفي كل مكان، يقول الله تعالى في الحديث القدسي: «ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه، ولأن استعاذني لأعيذنه»^(١).

وقد يلتبس على البعض كيف يكون الباري جل وعلا سمع العبد وبصره إلى آخر الحديث.

والجواب: إن الذي يتقرب إلى الله بالفرائض ثم بالنوافل ينال محبة الله عز وجل له. ومن شأن محبة الله العناية والحفظ لهذا العبد فيوفق الله تعالى عبده في الأعمال التي يباشرها بأعضائه المذكورة في الحديث السابق. فيحفظ الله له جوارحه ويعصمه عن مواجهة ما يكرهه الله تعالى من الإصغاء إلى اللهو بسمعه ومن النظر إلى ما نهى عنه تعالى ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله.

أما الذي يتعد عن الله ويقترف الذنوب والمعاصي فهذا معرض عن حب الله له والعياذ بالله. كثرت ذنوبه حتى أصبحت حجاباً يحجب قلبه وبصيرته عن معرفة الحقيقة فكيف يسمع مخاطبة الله له على الدوام؟!.

* * *

(١) البخاري في الرقاق، باب: التواضع، رقم (6021).

جوارحك غنمك وقلبك الراعي والله هو المالك

يقول ابن عطاء الله: جوارحك غنمك وقلبك الراعي، والله هو المالك، فإن رعيته في المرعى الخصب حتى أرضيت المالك، استوجبت الرضا، وإن رعيته في المرعى الوخيم حتى أعجف^(١). أكثرها، ثم جاء الذئب فأخذ بعضها استوجبت العقوبة من المالك، فإن شاء انتقم منك، وإن شاء منك عفا عنك، فجوارحك إما أبواب إلى الجنة، وإما أبواب إلى النار، فإن صرفتها فيما يرضاه كنت ساعياً في طريق الجنة، وإلا كنت ساعياً في طريق النار، فهذه موازين الحكمة، فزن بها عقلك، كما تزن بها الأشياء المحسوسات.

وقد مر سابقاً عند الكلام عن أحوال القلب أن القلب ملك مُتَّبِع، والجوارح تبع له وهو الحاكم عليها^(٢)، فإن استعملت جوارحك في طاعة الله فقد حزت على رضا الله سبحانه ودخلت جنته، وإن استعملت جوارحك في معصية الله فقد حق عليك غضب الله وعقابه ودخول ناره فإن شاء عاقبك وإن شاء عفا عنك.



(١) أعجف: صار هزياً ونحياً.

(٢) انظر، ص: 164.

صنائع الله للعبد

يقول ابن عطاء الله: كم يرسل لك المولى الصنائع وأنت عبد شرود^(١)، فمثالك كالطفل في المهذ: كلما حرك نام. ولو أرسل لك الملك خلعة^(٢)، ما أصبحت إلا على بابه، فاغتنم أوقات الطاعات واصطبر عليها.

إن الله يتحجب إلى عباده لطيعوه وهو غني عنهم، ويغدق عليهم النعم ليشكروه، وابتليهم ليرجعوا إليه.

لكن المسلم شارد عن كل هذا لا يحس بالنعمة ولا بعظمة المنعم ولا يتوجه بالدعاء إليه عند المصائب. إنه كالطفل كلما حرك نام.

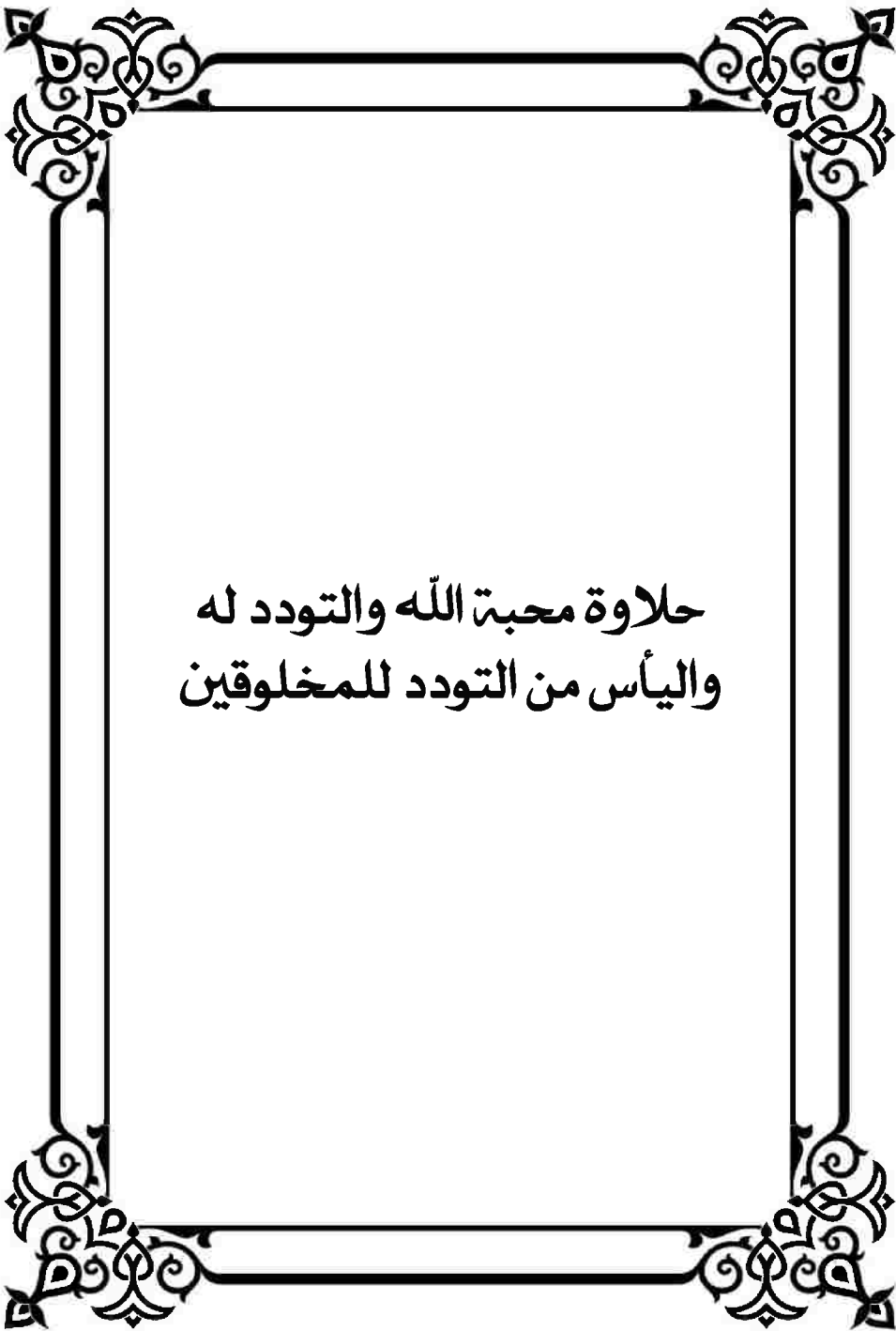
وكان الأولى به عندما يرسل له الله العطايا أو يبتليه بالمحن أن يتحرك لسانه بشكره ويتوجه قلبه له وحده سبحانه، وأن يقف على بابه متصفاً بذل العبودية له.

ولو أن غنياً أو ملكاً أرسل لك عطية لكنت عبد إحسانه واقفاً على بابه ساعياً لمرضاته، وأنت تعلم أن المحسن الأوحده هو الله والضار والنافع هو الباري سبحانه، استمع لسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وهو يجادل قومه وأباه في مسألة الأصنام التي يعبدونها: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: 77: 82].

* * *

(١) شرود: يقال شرد البعير أي: نفر، وشرود: كثير النفور والفرار.

(٢) الخلعة: العطية.



حلاوة محبة الله والتودد له
والياس من التودد للمخلوقين

حلاوة محبة الله

يقول ابن عطاء الله: من عاملته بالدنيا وعاملك بالمنن، كيف لا تحبه؟! من عاملك بالكرم وعاملته باللؤم كيف لا تحبه؟.

إِيَّاكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ وَمَا ذُقْتَ حَلَاوَةَ حَبِّهِ، لَيْسَ حَلَاوَةَ حَبِّهِ فِي الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ، لِأَنَّهُ يَشَارِكُ فِيهَا الْكَافِرَ وَالِدَابَّةَ، بَلْ شَارَكَ الْمَلَائِكَةَ فِي حَلَاوَةِ الذِّكْرِ وَالْجَمْعِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّ الْأَرْوَاحَ لَا تَحْمِلُ رِشَاشَ النُّفُوسِ.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه من سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا الله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يُلقى في النار»^(١).

كلما أوغلت المفهوم في معرفة الخالق، فشاهدت عظمته، ولطفه ورفعته، تاهت في محبته فخرجت عن حد الثبوت.

محبة الله فرض على كل مخلوق، لأن النفس الإنسانية إما أن تحب محسناً والمحسن الأوحد هو الله عز وجل، وإما أن تحب عظيماً وليس شيء أعظم من الله سبحانه، وإما أن تحب جميلاً أسرها جماله والجميل الأوحد في هذا الكون هو الله سبحانه.

كيف لا أحب من وهب لي ملذوذات حسي، وعرفني ملذوذات علمي. فإن التذاذي بالعمل وإدراك العلوم أولى من جميع اللذات الحسية، فهو الذي علمني، وخلق لي إدراكاً، وهداني لما أدركته.

كيف لا أحب من أنا به وبقائي منه، وتدبيري بيده، ورجوعي إليه، وكل مستحسن محبوب هو صنعة وحسنه، وزينه، وعطف النفوس إليه. . . .

(١) البخاري في الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، رقم (١٥). ومسلم في الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم (٦٠).

وعلى قدر رؤية الصانع في المصنوع يقع الحب له، فإن قوي أوجب قلقاً، وشوقاً، وإن مال بالعارف إلى مقام الهيبة أوجب خوفاً، وإن انحرف به إلى تلمح الكرم أوجب رجاء قوياً، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ^(١)﴾ [البقرة: 60].

فمن أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة؟! وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته، ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عن الخوض في غير حديثه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناحاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره، ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه، وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه، وأنت أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض، وفيما يبعدك عنه راغب^(٢).

إن الله سبحانه أهل لكل حب، وأولى بتعلق القلب من حب المرء لوالده وولده ونفسه التي بين جنبيه.

ثم قال ابن عطاء الله: «إياك أن تخرج من هذه الدار وما ذقت حلاوة حبه، ليس حلاوة حبه في المآكل والمشارب، لأنه يشاركك فيها الكافر والدابة، بل شارك الملائكة في حلاوة الذكر والجمع على الله تعالى، لأن الأرواح لا تحمل رشاش النفوس».

إن حلاوة حب الله هي حظ من آمن بالله رباً وتحقق بذل عبوديته له سبحانه، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره فعلامته المحبة كثرة ذكر الله بالقلب واللسان لا بالمآكل والمشارب فإنها حظ الكافر والدابة.

(١) صيد الخاطر، ص: 78.

(٢) الفوائد، ابن القيم، ص: 67.

بل شارك الملائكة في حلاوة الذكر والجمع على الله تعالى بأن تجعل قلبك لله لا يشاركه فيها حب شيء آخر من ملذات الدنيا وأهوائها، قال تعالى واصفاً الملائكة: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١١) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿[الأنبياء: 19 - 20].

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: 75].

استمع لهذه الآيات لتعجب كيف لا نحب الله:

أنت الذي صورتني وخلقته	وهديتني لشرائع الإيمان
أنت الذي علمتني ورحمتني	وجعلت صدري واعياً القرآن
أنت الذي أطعمتني وسقيتني	من غير كسب ولا دكان
وجبرتني وسترته ونصرته	وغمرتني بالفضل والإحسان
أنت الذي آويتني وجوتني	وهديتني من حيرة الخذلان
وزرعت لي بين القلوب مودة	والعطف منك برحمة وحنان
ونشرت لي في العالمين محاسناً	وسرت عن أبصارهم عصياني
وجعلت مثلي في البرية شائعاً	حتى جعلت جميعهم إخواني
والله لو علموا قبيح سريري	لأبي علي السلام من يلقياني
ولأعرضوا عني وملوا صحبتي	ولبؤت بعد كرامة بهوان
لكن سترت معايبي ومثالي	وحلمت عن سخطي وعن طغياني
فلك المحامد والمدائح كلها	بخواطري وجوارحي ولساني

* * *

التودد للخلق والتودد للحق سبحانه

يقول ابن عطاء الله: ما أكثر توددك^(١). للخلق وما أقل توددك للحق، لو فتح لك باب التودد لرأيت العجائب، ركعتان في جوف الليل: تودد، عبادتك للمرضى تودد، صلاتك على الجنائز تودد، الصدقة على المساكين تودد، إعانتك لأخيك المسلم: تودد، إماطتك الأذى عن الطريق: تودد، ولكن السيف المطروح يحتاج إلى ساعد.

إن التودد والتحبب للخلق سببه قلة الثقة بما عند الله، والاعتماد على ما في أيدي الناس من عرض دنيوي بسيط، فترى كثيراً من الناس يصاحبون الأغنياء طمعاً في مالهم، ويتقربون لذوي الجاه والسلطان طمعاً في سلطانهم، وفي المقابل يتبعدون عن الفقراء ويهربون منهم.

يا هذا ماذا يملك المخلوق أمام قدرة الخالق؟ . بدل أن تتودد إلى الخلق الذين لا يملكون شيئاً، تودد إلى الله المعطي والمانع والضار والنافع، قال تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: 2].

ثم يدلنا ابن عطاء الله على بعض الأفعال التي توجب محبة الله للعبد، وبها يتقرب العبد إلى خالقه:

أ. ركعتان في جوف الليل: تقف بها بين يدي الله سبحانه تناجيه وتدعوه بكل صدق وإخلاص إذ لا مجال للرياء هنا لأن الناس نيام!.

قال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه في جوف الليل»^(٢).

(١) الود والوداد: الحب، وتودد إليه: تحبب.

(٢) الترمذي في الدعوات عن رسول الله، باب: في دعاء الضيف، رقم (3503) وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. والنسائي في المواقيت، باب: النهي عن الصلاة بعد العصر، رقم (568).

قالوا: قيام الليل يحط الذنوب كما تحط الريح العاصفة الورق اليابس من الشجرة. ينور القلب، ويحسن الوجه. موضعه تراه الملائكة من السماء، إذ يترأى مثل الكوكب الدري لأهل الأرض، ونفحة من نفحات القيام تعود على صاحبها بالبركات والأنوار التي يعجز عنها الوصف.

بـ عيادة المريض: يقول الله تعالى في حديث قدسي يرغبنا في زيارة المرضى: «عبي مرضت فلم تعدني، قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أن عبي فلاناً مرض فلم تعده، أما إنك لو عدته لوجدتني عنده. . . .»⁽¹⁾.

جـ الصلاة على الجنائز: قال ﷺ: «حق المسلم على المسلم خمسٌ رد السلام»⁽²⁾. وعبادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس»⁽³⁾.

دـ الصدقة على المساكين: الصدقة برهان على صحة الإيمان والثقة بها في يد الله عز وجل لذلك كان جزاء الصدقة عظيماً، قال ﷺ: «الصلاة نور والصدقة برهان»⁽⁴⁾. وقال ﷺ: «إن الصدقة لتطفئ غضب الرب وتدفع عن ميتة السوء»⁽⁵⁾.

هـ إعانتك لأخيك المسلم: فإنه نوع من أنواع الصدقة التي تقرب العبد من خالقه، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «على كل مسلم صدقة». قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: «يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق». قال: أرأيت إن لم يستطع. قال: «يعين

(1) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: فضل عيادة المريض، رقم (4661).

(2) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: فضل عيادة المريض، رقم (4661).

(3) البخاري في الجنائز، باب: الأمر باتباع الجنائز، رقم (1164).

(4) مسلم في الطهارة، باب: فضل الوضوء، رقم (328).

(5) الترمذي في الزكاة عن رسول الله، باب: ما جاء في فضل الصدقة، رقم (600). وقال: حسن غريب من

هذا الوجه.

ذا الحاجة الملهوف». قال: أرأيت إن لم يستطع. قال: «يأمر بالمعروف أو الخير». قال: قيل: أرأيت إن لم يفعل؟. قال: «يمسك عن الشر فإنها صدقة»^(١).

فالصدقة لا تقتصر على المال فقط بل تتعداه إلى كل أعمال الخير.

و- إماتتك الأذى عن الطريق: وهذا أيضاً من أنواع الصدقة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وستون شعبة: فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة»^(٢). الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»^(٣).

فإمطة الأذى عن الطريق عمل بسيط لا يلتفت لأهميته لكنه في الحقيقة خصلة مهمة لأنها تدل على سمو الخلق وحب الخير.

ثم يقول ابن عطاء الله: «ولكن السيف المطروح يحتاج إلى ساعد».

فلا يكفي علمك بالخير ولا قربة منك ولا حبك له، حتى يكون فيك وتكون من أهله، إن الجائع يحب الخبز، وإن العطشان يحب الماء، ولو جعل الخبز والماء بين أيديهما على مائدة، أو علق في أعناقهما، ما نفعهما علمهما بأن الخبز والماء معهما، حتى يأكلا من الطعام ويشربا من الشراب لأن «السيف المطروح يحتاج إلى ساعد».

* * *

(١) البخاري في الزكاة، باب: على كل مسلم صدقة...، رقم (1353). ومسلم في الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (1676).

(٢) الإمطة: الإزالة.

(٣) البخاري في الإيمان، باب: أمور الإيمان، رقم (8). ومسلم في الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان...، رقم (50) بلفظ «بضع وسبعون شعبة».

اقطع يأسك من المخلوقين

يقول ابن عطاء الله: كم حصل لك الهوان بالوقوف على أبواب المخلوقين، وكم أهانوك وأنت لا ترجع إلى مولاك!!.

إذا أحبك مولاك أعرض عنك أصحابك حتى لا تشتغل بهم عنه، وقطع علاقتك من المخلوقين حتى ترجع إليه.

لو فتح لك باب الأئس بينك وبينه ما طلبت من تأنس به، ولو اختارك لربوبيته ما قطعك عنه، ولو كرمت ما رماك لغيره، إذا عزل عنك محبة مخلوق فافرح فهذا من عنايته بك.

إن المسلم يقبل على الله وحده الذي بيده كل شيء، ويترك الخلق لأنهم مثله يشعرون بما يشعر ويذنبون كما يذنب.

إن من ينظر حوله يرى الذل والهوان من الخلق لبعضهم. إن من يستدين مبلغاً بسيطاً من المال من غني موسر يشعر بذله أمامه ويهرب من الطريق الذي يمشي عليه. فقد حان موعد السداد ولم يستطع الدائن بسبب إعساره تأمين المبلغ فتراه مهموماً مغموماً وكما قالوا: «الدين ذل بالنهار وهم بالليل». والغني لا يرحمه وربما أودعه السجن؟!

والعكس قد يحدث إذ المدين قادر على السداد ويماطل في دفع الدين لصاحبه. وهكذا علاقات الناس ببعضهم كلها ذل وهوان وبغض وحسد وكره. فمتى تقطع يأسك من الخلق وترجع إلى خالقك؟!

ويا أيتها النفس قد اطلعت على نعم الله وبعض حكمه وتدبيره، قبيح بك والله الإقبال على غيره! ثم العجب كيف تقبلين على فقير مثلك، ينادي لسان حاله: بي مثل ما بك،

فارجعي إلى الأصل الأول واطلبي من المسبب، ويا طوبى لك إن عرفتيه، فإن عرفانه ملك الدنيا والآخرة^(١).

ثم يقول ابن عطاء الله: «إذا أحببك مولاك أعرض عنك أصحابك حتى لا تشتغل بهم وقطع علاقتك من المخلوقين حتى ترجع إليه».

فيا من يشكو إلى الخالق مصائبه ماذا ينفعك شكواك إلى الخلق إنهم لا ينفعونك ولا يضررونك، وإذا اعتمدت عليهم وقعت في سخط الله عليك وكانوا حجاباً عنه سبحانه.

وبعبارة أخرى قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «إذا أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به».

ولذلك قيل: «الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس».

فالغالب من الأصحاب أن صحبتهم لغرض دنيوي أو للتسلية وإمضاء الساعات في اللغو في الكلام وإظهار المقدرة والمعرفة العلمية والتغلب على الخصوم، فمن أحب الله انشغل بحبه عن كل هذا اللغو فتراه يعرض عن تلك الجلسات كريماً كما قال سبحانه: ﴿وَلِذَٰمِرُوا بِاللَّغْوِ مَرُوءًا كَرَامًا﴾ [الفرقان: 72].

إنه لا يحب الغيبة ولا السب ولا الشتم والنميمة والكلام الفارغ، والأصحاب والأهل والأقارب لا يمكن إلا أن يتعرضوا لهذه الخصال السيئة، فتراه يقلل من تلك المجالس أو ينقطع عنها بالمرّة، علاقته مع أصحابه تقوم على الصدق والإخلاص لكن كثيراً من الأصحاب يكذب ويغش ويخلف الموعد.

إذاً من أحبه الله أعرض عن أصحابه لماذا؟! حتى لا ينشغل بالأصحاب عن حب الله، يريد الله أن يفرغ قلبه وعقله عن كل الشواغل لتهيئاً لقبول ما تحمله من الأسرار والمواهب.

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 116.

فاقطع بأسك مما في أيدي الناس كما قال ﷺ لذلك الرجل: «إذا قمت إلى صلاتك فصل صلاة مودع ولا تكلم بكلام تعتذر منه واجمع الإياس مما في أيدي الناس»^(١).

وقوله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك»^(٢).

إن الله وحده هو المشتكي إليه، عليه التوكل وبه الثقة واليقين.

وإذا عرفت بلية فاصبر لها صبر الكريم فإنه بك أرحم

وإذا شكوت إلى ابن آدم فإنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

ألم نسمع عن أناس كانوا يشكون إلى الله حتى انقطع شسع نعلهم. نعم حتى سير النعل كانوا يشكون إلى الله. بل كانوا يسألون الله حتى الملح.

فيا أيها المرضى يا أصحاب الحاجات أيها المدينون أيها المكروب والمظلوم أيها المعسر- والمهموم أيها الفقير والمحروم يا من يبحث عن السعادة الزوجية، يا من يشكو العقم ويبحث عن الذرية يا من يريد التوفيق في الدراسة والوظيفة يا من يهتم لأمر المسلمين يا كل محتاج يا من ضاقت عليه الأرض بما رحبت لماذا لا نشكو إلى الله أمرنا، وهو القائل: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]. لماذا لا نرفع أكف الضراعة إلى الله وهو القائل: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]. لماذا هذا الضعف في الصلة بالله والقلّة في الاعتماد عليه وهو القائل: ﴿قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: 77] ألم نقرأ قوله تعالى: ﴿فَاخْذَنَّهُمْ بِالْبَاسِ وَالْضُرَاءِ﴾ لماذا ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [الأنعام: 42] فأين نحن من الشكوى لله أين نحن من الإلحاح والتضرع لله سبحانه ألسنا بحاجة إلى ربنا؟ أنعتمد على قوتنا وحولنا والله لا حول لنا ولا قوة إلا بالله، ولا شفاء إلا بيد الله ولا كاشف للبلوى إلا الله ولا توفيق ولا فلاح ولا سعادة ولا نجاح إلا من الله، العجيب أن كل مسلم يعلم هذا ويعترف بهذا بل ويقسم على

(1) مسند الإمام أحمد، حديث أبي أيوب الأنصاري، رقم (23545): 5 / 412.

(2) سبق تحريجه، ص: 154.

هذا فلماذا إذاً تتعلق القلوب بالضعفاء والعاجزين ولماذا نشكو إلى الناس ونلجأ إلى المخلوقين؟!.

كان ﷺ يري أصحابه على الاعتماد واللبجاء إلى الله، فهذا عثمان بن أبي العاص يشكو لرسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم فقال له ﷺ: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: بسم الله بسم الله بسم الله ثم قل سبعاً: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»^(١).

فقد أرشده للتعلق بالله أولاً ولم يرشده أولاً لطبيب حاذق ولا بأس بهذا ولكن التعلق بالله أولاً.

* * *

(١) مسلم في الإسلام، باب: استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء، رقم (4082).

قد هان كل الهوان من احتاج إلى الخلق

يقول ابن عطاء الله: كفى بك جهلاً أن تتردد إلى مخلوق، وتترك باب الخالق، فقد ارتكبت المعاصي من كل جانب، أفلا تكون محزوناً على نفسك.

متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس؟ لو انقطعت عن الخلق لفتح لك باب الأنس به تعالى، لأن الأولياء قهروا أنفسهم بالخلوة والعزلة، فسمعوا من الله وأنسوا به. فإن أردت أن تستخرج مرآة قلبك من الأكدار، فافرض ما رفضوا، وهو الأنس بالخلق، فمن استعد استمد، فإذا هيا لك الاستعداد، فتح لك باب الاستعداد، ومن أحسن قرع الباب يفتح له، فرب طالب أساء قرع الباب، فرد لسوء أدبه ولم يفتح له.

قول ابن عطاء الله: «متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به». هذه إحدى الحكم العطائية.

لا يمكن أن يجتمع الأنس بالناس مع الأنس بالله في حالة واحدة قط. كما لا يمكن أن تجتمع الوحشة من الناس مع الوحشة من الله في حالة واحدة قط. إنها كالكفتين إن رجحت إحداهما طاشت الأخرى.

والمراد بكلمة خلقه في قوله: «متى أوحشك من خلقه» عوام الناس بسائر فئاتهم وأخلاقهم. فلا جرم أن الاستئناس بالنخبة الصالحة من الناس، لا يدخل في عموم هذا الحكم.

ثم إن الشأن بالنسبة لأكثر الناس، هم الاستئناس بأمثالهم، بأبناء جلدتهم، وسبب ذلك أن الإنسان مفطور على الشعور بما هو محتاج إليه من مقومات عيشه وأسباب رزقه. وتحقيق هذه الاحتياجات يتطلب التعرف على الآخرين، والاستعانة بهم.

وليس في أمر التعارف والتلاقي والتعاون أي إشكال. ألم يقل الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَنَّ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: 13]. ألم يقول رسول الله

ﷺ: «أقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يآلفون ويؤلفون»^(١).

ولكن الاستئناس بالناس ما ينبغي أن يبعث على الوحشة من ربه عز وجل؟ . إن المسلم حق، حتى وهو في غمرة التعارف والتعاون والتآلف مع أخوانه، إنما يكون أنسه بالله. فالمؤمن مهما تعامل مع الأسباب. في غدوه ورواحه وعلاقاته مع الناس، فإنه لا يبصر- فيها إلا يد الله، هي التي تحرك وتوجه وتخلق النتائج وتوصل إلى الغايات^(٢).

* * *

(١) المعجم الأوسط، الطبراني، رقم (4422): 4 / 357.

(٢) شرح الحكم، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 3 / 193، 194، 195 مع تصرف في العبارة.

عليك بالحوالة على مولاك

يقول ابن عطاء الله: عليك بالحوالة على مولاك، واترك من لا يستطيع أن ينفع غيره، اقطع يأسك من الخلق، ووجه رجاءك إلى الملك الحق، وانظر ماذا عملك وماذا عمل معك من أول نشأتك، ما صنع معك إلا جوداً وإحساناً، وانظر ماذا صنعت معه، فلا ترى إلا جفاء وعصياناً.

ما أكثر مولاتك للمخلوقين، وما أقل مولاتك لله.

كان ابن عباس خلق النبي ﷺ يوماً فقال له: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأئمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»^(١).

هذا يدل على أن الله سبحانه وحده القادر على الإعطاء والمنع ودفع الضرر وجلب النفع، وأن غيره لا يملك شيئاً، إذاً قد هان كل الهوان من احتاج إلى الخلق ثم يقول ابن عطاء الله: «وانظر ماذا عملك وماذا عمل معك من أول نشأتك ما صنع معك إلا جوداً وإحساناً، وانظر ماذا صنعت معه، فلا ترى إلا جفاء وعصياناً».

فهو سبحانه المنعم المتفضل الذي وهبنا كل هذه النعم فقابلناها بالكفر والعصيان توالي الخلق وتترك مولاة الله ترجو النفع من الناس وتنسى الله سبحانه.

لذلك أيها المسلم عليك باليأس مما في أيدي الناس وثق بما عند الله سبحانه، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أوصني وأوجز فقال: «عليك باليأس مما في

(١) سبق تخريجه، ص: 189.

أيدي الناس فإنه الغني، وإيّاك والطمع فإن الفقر الحاضر، وصلّ صلاتك وأنت مودع، وإيّاك وما يعتذر منه»^(١).

وقال الحسن البصري رحمه الله: «لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دنياهم فإذا فعل ذلك استخفوا به، وكرهوا حديثه، وأبغضوه».

وروي أن أعرابياً سأل أهل البصرة: من سيدكم؟ قالوا: الحسن. قال: بم سادكم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دنياهم. فقال: ما أحسن هذا.

وقال «علي بن عبد العزيز» رحمه الله تعالى:
يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
أرى الناس من دانا هم هان عندهم ومن أكرمه عزة النفس أكرما

إن الشجاعة هي في إيثار ما عند الله وترجيح جنابه على جبروت الجبارين، وعلى أعطية المغدقين، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 18].

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك فكيف يرفع غيره ما كان له واضعاً؟. من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعاً؟.

وقال في حكمة أخرى: «العطاء من الخلق حرمان والمنع من الله إحسان».

لأن عطاء الخلق فيه رؤية غير الله والوقوف مع الحظوظ والشهوات. ومنع الله للعبيد إحسان لأنه ألزمه الوقوف ببابه؟!.

* * *

(١) أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث أبي أيوب الأنصاري، رقم (22400). والحاكم في المستدرک وصح

إذا ظلمك الغوي فارجع إلى القوي

يقول ابن عطاء الله: إذا ظلمك الغوي فارجع إلى القوي، ولا تخف منه فيُسلط عليك. مثال من يشهد الضرر من المخلوقين كمن ضرب الكلب بحجر، فأقبل الكلب على الحجر يعضه، ولا يعرف أن الحجر ليس بفاعل، فيكون هو والكلب سواء.

مثال من يشهد الإحسان من المخلوقين: كالدابة إذا رأت سايسها بصبصت^(١)، ويدنو إليها مالکها فلا تلقي إليه بالاً، فإن كنت عاقلاً فاشهد الأشياء من الله عز وجل ولا تشهدها من غيره.

الخوف لا يكون إلا من الله سبحانه، والظلم عاقبته وخيمة، فإذا ظلمك ظالم فلا تخف منه فيسلط عليك بل التجأ إلى الله ليأخذ لك حقك منه.

وقد بين لنا رسول الله ﷺ أن الضرر الذي يُصيبك إنما كتبه الله عليك فلماذا تخاف من المخلوقين، استعن بالله واطلب منه وحده وخف منه وحده، لأن بيده كل شيء أما المخلوقون فلا يملكون شيئاً، قال ﷺ: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله. . .»^(٢).

فاشهد الأشياء من الله عز وجل لأنه النافع والضار والمعطي والمانع فإن فعلت ذلك عشت مرتاح البال عالماً بحقائق الأمور،

إن من يشهد الإحسان والنفعة والضرر من المخلوقين وينسى الخالق قد أخطأ الفهم. مثاله كالدابة التي تقبل على من يدر بها ولا تلقي بالاً لمالکها.

(١) بصبصت: حركت ذيلها، كناية عن إقبالها عليه.

(٢) سبق تخريجه، ص: 189.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «إنما أجرى الأذى على أيديهم كيلا تكون ساكناً إليهم، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء».

فوجود الأذى من الناس نعمة عظيمة للعبد، لا سيما من اعتاد منه الملاحظة والإكرام، لأن ذلك يفيد عدم السكون إليهم، وترك الاعتماد عليهم، وفقد الأُنس بهم، فتتحقق بذلك عبوديته لربه عز وجل.

* * *

من هو التائه

يقول ابن عطاء الله: ليس التائه من تاه في البرية، بل التائه من تاه عن سبيل الهدى. تطلب العز من الناس، ولا تطلبه من الله، فمن طلبه من الناس أخطأ الطريق، ومن أخطأ الطريق لم يزد سيره إلا بعداً، فهذا هو التائه حقاً.

ينبهنا ابن عطاء الله -رحمه الله- في هذه الفقرة ومثيلاً لها إلى حقيقة الأمور، فالمعروف عند الناس أن التائه هو الذي ضل طريقه في الصحراء ولم يعد يهتدي إليه. ولكن هناك تائه أشد من هذا، إنه الذي يتيه عن طريق الهدى. عن صراط الله عز وجل، فبدل أن يمشي -على النهج الذي أمره الله به تراه سلك الطريق الخطأ الذي عاقبته وخيمة. وبدل أن يشكر الله على نعمه تراه يكفر بها وصدق الله حين قال: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ [عبس: 17].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153] هذا والله هو المهتدي الذي اتبع الصراط المستقيم والذي كل صلاة نسأله سبحانه أن يهدينا إليه بقولنا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]. فمن حاد عن هذا الطريق فهو التائه حقاً!!

والذي يطلب العز من الناس ولا يطلبه من الله فهو تائه عن الطريق لا يزيده سيره إلا بعداً عن الله.

أما طلب العز من الناس فقد ذكر في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُوهُمْ عِنْدَهُمْ الْغُرَّةَ فَإِنَّ الْغُرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 139].

إن العزة هي القوة الكاملة والقدرة التامة وهذه لا يتكون إلا لله وحده وهو الذي ينصر -ويعين أوليائه، وهو الذي يمنع عنهم الضر والأذى إن شاء سبحانه.

* * *

غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك

يقول ابن عطاء الله: غيب نظر الخلق⁽¹⁾ إليك بنظر الله إليك، وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك. اعلم أن العباد يتشوقون إلا ظهور سر العناية، فقال تعالى: ﴿يَخْنُصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 105].

هذا جزء من إحدى الحكم العطائية وقامها: «وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل اعتماداً على الأزل فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56]».

إن وجود غير الله هباء في الهواء، فغيب عنك نظر الخلق إليك اكتفاء بنظر الحق إليه، إذ لا نظر لسواء، وغب عن إقبالهم عليك بالتعظيم والتكريم بشهود إقبال الملك الكريم، فأقبالك على الخلق إدبارك عن الحق وإدبارك عن الخلق إقبالك على الحق لا يجتمعان.

ثم يقول ابن عطاء الله: «اعلم أن العباد يتشوقون⁽²⁾ إلى سر العناية، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْنُصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 105].

أي من سبقت له العناية من الله سبحانه فاتجه الله إلى العبد ويُسمى طريق الاجتباء، يكون الإنسان مستغرقاً في شروده وبعده عن الله، منصرفاً إلى أهوائه وفجأة تدركه رحمة الله تعالى لسبب من الأسباب التي لا يعلمها إلا الله، ويتجلى الله عليه تجلي لطف وإيقاظ، فيجذب به إليه، وقد تم ذلك كله في لحظة واحدة.

وهذه الرحمة يختص بها الله من يشاء من عباده.

فالعباد كلهم تشوفوا إلى ظهور سر هذه العناية، إذ كل واحد يظن أنه من أهلها، فأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر إنما هو للبعض دون البعض فقال: ﴿وَاللَّهُ يَخْنُصُّ بِرَحْمَتِهِ

(1) في الحكم العطائية: غب عن نظر الخلق.

(2) يتشوقون: يتطلعون ويطمحون له. المعجم الوسيط، ص: 519.

مَنْ يَشَاءُ ﴿[البقرة: 105]﴾. فأسندها إلى مشيئته دون مشيئتهم، فعلموا أن ذلك إنما هو للبعض دون الكل، لأن كل واحد يطمع أنه من ذلك البعض فربما يترك العمل ويعتمدون على سابق الأزل، فأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر له علامات تدل على من هو من أهله ومختص به فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56] الذين أحسنوا عبادة ربهم وأخلصوا في عبوديتهم له.

* * *

رفع الهمّة عن الخلق

يقول ابن عطاء الله: سمعت الشيخ أبا العباس المرسى يقول: والله ما رأيت العز إلا في رفع الهمّة عن الخلق. واذكر رحمك الله ها هنا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]. فمن العز الذي أعز الله به المؤمن: رفع همته إلى مولاه وثقته به دون ما سواه. واستح من الله بعد أن يكون كساك حلة الإيمان، وزينك بزينة العرفان أن تستولي عليك الغفلة والنسيان، حتى تميل إلى الأكوان، أو تطلب من غيره وجود الإحسان.

الهمّة: فعلة من اهم. وهو مبدأ الإرادة. ولكن خصوها بنهاية الإرادة. فالهم مبدؤها والهمّة نهايتها^(١).

ومن علامات زهد القلب بالدنيا وأهلها أن تكون همّة العيد متعلقة بالحق سبحانه لا بأحد من خلقه، وقد فسر بعضهم قوله تعالى: ﴿مَازَاغَ الْبَصَرِ وَمَا طَعَى﴾ [النجم: 17] بأن همّة النبي ﷺ ما تعلقت في ذلك المقام وفي تلك الحضرة إلا بشهود الله وعظمته. ولو تجاوزت الهمّة ذلك لتبعها البصر.

إذا العز يكون - كما يقول ابن عطاء الله - في رفع الهمّة عن الخلق.. والطمع في إحسان الخلق والرجاء في نفعهم وتعلق القلب بها في أيدي الخلق هو أصل الذل، لأن صاحب الطمع ترك رباً عزيزاً وتعلق بعبد حقير مثله.

وهذا هو معنى قوله قوله ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]. والعز يكون أيضاً بالثقة بها عند الله وبما قضاء الله في الأزل من الرزق والصحة والمرض والنفع والضرر... الخ.

فالعاقل من يميل إلى المكون وينسى الأكوان، ويطلب الإحسان من المحسن الأوحد سبحانه وتعالى لا من غيره ممن لا يملك شيئاً؟!.

* * *

(١) المعجم الوسيط: ص: 1036.

لا ترفع حوائجك إلا إليه سبحانه

يقول ابن عطاء الله: وقبّح بالمؤمن أن ينزل حاجته بغير مولاه، مع علمه بوحدانيتيه وانفراده بربوبيته، وهو يسمع قول الله تعالى: ﴿الَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: 36]. وليذكر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]. ومن العقود التي عاقدته عليها أن لا ترفع حوائجك إلا إليه، ولا تتوكل إلا عليه. ورفع الهمة عن الخلق هو ميزان الفقراء ﴿وَأَقِمْوْا لِّلْوِزْنِ بِالْقِسْطِ﴾ [الرحمن: 9]. فيظهر الصادق بصدقه والمدعي بكذبه.

من علم أن الله هو وحده الرازق والضار والنافع، وهو وحده الذي يستجيب الدعاء وأن سبحانه كافٍ عبده، من علم ذلك كيف يتجه بالسؤال إلى الخلق وينسى الخالق، أليس ذلك قلة أدب؟!.

اترك من لا يملك شيئاً واتجه إلى الذي بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير.

وارفع همتك عن الخلق وتعلق بالخالق سبحانه فإن التعلق بالخلق ضرر عليك في دينك، أما التعلق بالحق سبحانه فهو الربح الحقيقي وهو الميزان القسط الذي قال عنه سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمْوْا لِّلْوِزْنِ بِالْقِسْطِ﴾ [الرحمن: 9].

* * *

خطر التعلق بالزوجة والأولاد

يقول ابن عطاء الله: ما أحد يصحبك فينفعك، وكل من يصحبك إنما يصحبك لنفسه، وإنما تحبك الزوجة لتجتني منك مطايب العيش والملابس، وكذلك الولد يقول: أشد بك ظهري، فإذا كبرت ولم تبق فيك قوة ولا بغية، رفضوك!!.

قال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوَ لَكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ﴾ [الأنفال: 28]. وقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عُدُوَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: 14].

كثير من النساء تحترم زوجها وتطيعه طالما هو في قوته وينفق عليها من ماله، ولكن عندما يكبر ويضعف فإنهن يتركنه وهذا هو كفران العشير.

فالزوجة والأولاد إذا مال الزوج لهما واشتغل القلب بهما ربما كانوا حاجزاً يحجزه عن طاعة ربه وربما منعه من الجهاد في سبيل الله إذا رق قلبه إليهم.

ومع ذلك عندما يكبر تتركه الزوجة ويعامله أولاده بالجفاء، فيكون قد فسر بدينه عندما انشغل بهم.

وربما كسب الزوج الحرام إرضاء لزوجته وأولاده وربما أطاع زوجته فلم يخرج زكاة ماله، فينبغي أن لا يطيعها في معصية الله.

إن حب الله وحب رسوله يجب أن يطغى فوق كل حب، قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. . .»⁽¹⁾.

(1) البخاري في الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، رقم (15) ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم (60).

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(١).

ويظهر ذلك جلياً عندما يصطدم في نفس المرء شعوران متناقضان فقد تجيش في قلبه رغبة القعود في بيته مع ولده وأهله، وقد يسمع المؤذن أو يهتف به نداء الواجب أن يدع ذلك كله، وينطلق إلى المسجد أو إلى ميدان الجهاد.

ومصير الإيوان مرتبط بنتيجة هذا الصراع العاطفي، فإن غلبت محبة الله ورجحت كفة أمره فيها ونعمت، وإلا فالهزيمة فسق عن أمر الله ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِمَّنْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 24].

* * *

(١) البخاري في الإيمان، باب: حب الرسول من الإيمان، رقم (14). ومسلم في الإيمان، باب: وجوب محبة رسول الله أكثر من الأهل والولد والوالد. رقم (63).

استفت قلبك

يقول ابن عطاء الله: لو أن العباد فطنوا لم يقبلوا إلا على الله، ولم يجلسوا إلا بين يديه، ولم يستفتوا غيره، لقوله ﷺ: «استفت قلبك، وإن أفتاك الناس وأفتوك»^(١). لأن الخواطر الإلهية تأتي من الله تعالى فهي موافقة، وربما أخطأ المفتي، والقلب يخطئ. وهذا مخصوص بالقلوب الطاهرة، وإنما يستفتي عالم ولا علم لمن غفل عن الله تعالى.

قال ﷺ: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه»^(٢).

وقال ﷺ لأحد أصحابه في الحديث: «استفت نفسك البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك».

فهذا الإثم طالما يتردد في صدرك وتحس بضيق بسببه فلماذا تسأل عن حكمه؟.

وطالما أن القلب يضيق وينفر ويكره هذا الأمر، فهل يزول ذلك بفتيا العلماء؟!.

فإذا وجد قابض مال مثلاً في نفسه شيئاً فيه وأحس بشبهة الحرام، فليتنق الله ولا يترخص بالفتوى من العالم الذي يحكم بالظاهر والله سبحانه مطلع على السرائر، إن سالكي طريق الآخرة يستفتون قلوبهم لأنهم لا تخطئ وربما أخطأ المفتي لعدم درايته أو لجهله بحقائق الأمور.



(١) أحمد، مسند الشاميين، حديث واصبة بن معبد الأسدي، رقم (١٧٣١٥) بلفظ «استفت نفسك». وأبو

يعلى، رقم (١٥٨٦): ٣ / ١٦١. والدارمي، رقم (٢٥٣٣): ٢ / ٣٢٠. وإسناده حسن. جامع العلوم

والحكم، ابن رجب، ص: ٩٤٢.

(٢) البخاري في الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٠). ومسلم في المساقاة، باب: أخذ الحلال

وترك الشبهات، رقم (٢٩٩٦).

الحسد المحمود والمذموم

يقول ابن عطاء الله: كفى بك جهلاً أن تحسد أهل الدنيا على ما أعطوا، وتُشغل قلبك بما عندهم، فتكون أجهل منهم، لأنهم اشتغلوا بما أعطوا واشتغلت أنت بما لم تعط.

الحسد مذموم ومحمود.

فالمذموم هو: كراهة النعمة -سواء كانت نعمة دين أو دنيا - على المحسود وتمني زوالها عنه، وهي من نتائج النفس الخبيثة التي لا تثق بالله أبداً. والمحمود: هو حسد الغبطة ويعني: تمني أن أكون مثل فلان في التقوى وعمل الخير. وليس فيه كراهة النعمة.

طبيعة الإنسان أنه لا يحب أن يرتفع عليه أحد، فإذا رأى صديقه قد علا وتميز عليه تأثر بذلك، ولم يحب أن يرتفع عليه، بل ود أن لم ينل صديقه ما ينال، أو ينال هو ما نال ذاك، لئلا يرتفع عليه وهذا معجون في طينة الإنسان ولا لوم على ذلك، إنما اللوم أن يعمل بمقتضاه بقول أو فعل.

إن من الجهل أن تشغل قلبك وتمضي الساعات والليالي تفكر بشيء رزقه الله لغيرك؟!...، هم اشتغلوا بما أعطوا فلم تشتغل بما أعطوا ولم تعط.

إن من يتأمل أحوال الفضلاء يجد أن أغلبهم قد بخشوا من حظوظ الدنيا، وأن الدنيا - غالباً- في أيدي أهل النقائص، وقد يتأسف الفضلاء على ما فاتهم مما ناله أولو النقص وهذا غلط من وجهين:

أحدهما: إن كانت لك همة في طلب الدنيا، فاجتهد في طلبها تريح التأسف على فوتها، فإن قعودك متأسفاً على ما ناله غيرك مع قصور اجتهادك غاية العجز.

والثاني: إن الدنيا إنما تراد لتعبر لا لتعمر، وهذا الذي يدلك عليه علمك وبلغه فهمك، وما يناله أهل النقص من فضولها يؤذي أبدانهم وأديانهم^(١).

إذا ما رزقك الله من علم أو مال أو حكمة هو الخير لك في حياتك ومماتك فاشغل نفسك به ولا تلفت إلى غيرك أبداً فمن راقب الناس مات هماً. من أجل ذلك كان النهي في القرآن والسنة عن الحسد والتحاسد بين الناس.

فقد تعود الله من شر الحاسد وقرنه مع السحر بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: 1 - 5] فالنفاثات في العقد هي السحر. ولا يأمر الله نبيه بالاستعاذة إلا من أمر خطير جداً. ويقول سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: 54].

يقول هشام الأصم: إني رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً، ويغتاب بعضهم بعضاً فوجدت ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم، فتأملت قوله تعالى: ﴿أَهْمُرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: 32]. فعلمت أن القسمة من الله تعالى في الأزل وأن الضيق بها حق فما حسدت أحداً ورضيت بقسمة الله تعالى.

ولا يمكن أن يجتمع إيمان بالله وحسد في قلب المؤمن، كما أن الحسد يأكل الحسنات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يَأْكُمُ وَالْحَسَدُ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»^(٢).

(1) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 54، 55.

(2) أبو داود في الأدب، باب: في الحسد، رقم (4903): 4 / 276.

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا،
وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»^(١).

قال أبو تمام الطائي موضحاً أن الحاسد إذا عمل بمقتضى حسده فإنه ينبه الناس إلى فضل
المحسود ومكانته ويبوء هو بالنقص والخسران:

وإذا أراد الله نشر — فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيب عرف العود

وقال شاعر موضحاً أن الحسد فيه إساءة أدب لأن المسلم يجب عليه الرضا بقضاء الله
وقدره:

ألا قلت لم بات حاسداً أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في فعله كأنك لم ترض لي ما قد وهب

ويقول الإمام الشافعي — رحمه الله — مبيناً أن الحاسد همه زوال النعمة عن المحسود:

وداريت كل الناس لكن حاسدي مداراته عزت وعز منالها
وكيف يداري المرء حاسد نعمة إذا كان لا يرضيه إلا زوالها

* * *

(١) البخاري في الأدب، باب: ما ينهى عن التحاسد والتدابير، رقم (5718): 5 / 2253. ومسلم في البر
والصلة، باب: تحريم التحاسد والتباغض، رقم (2559): 4 / 1983.

لا تحسد إلا عبداً قد لف في ملابس التقوى

يقول ابن عطاء الله: لا تحسد إلا عبداً قد لف في ملابس التقوى.

بعد بيان خطر الحسد على الإيمان، يبين لنا ابن عطاء الله أن من الحسد ما هو محمود ويسمى «حسد الغبطة» الذي يعني: أن أتمنى أن أكون مثل فلان في العلم أو التقوى وعمل الخير. وهذا من التنافس المحمود الذي أشار إليه الباري سبحانه بقوله: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾ [المطففين: 26].

وأشار إليه نبينا محمد ﷺ بقوله: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته بالحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»^(١).

رجل آتاه الله مالا: إنه الغني الشاكر الذي ينفق في الخير، أما الرجل الثاني فهو «آتاه الله الحكمة» التي تمنع من الجهل وسوء التصرف، وهي تشمل الحكمة القرآنية، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269].

فإن قيل: إذا لم سمي حسداً وإنما أحب أن يُنعم الله عليه؟

الجواب: مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وكراهته أن يفضل عليه، ولولا ذلك لم يحب ذلك، فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يفضل عليه الغير كان حسداً، لأنه كراهة تتبعها محبة^(٢).

* * *

(١) البخاري في الأحكام، باب: أجر من قضى بالحكمة، رقم (6608). ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها،

باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، رقم (1352).

(٢) أمراض القلوب، ابن تيمية، ص: 43.

ضياع العمر واستدراك ما فات منه

يقول ابن عطاء الله: ترمد عينك فتعالجها، وما سبب ذلك إلا أنك ذقت بها لذة الدنيا، فتعالجها حتى لا يفوتك النظر إلى مستحسناتها، وترمد بصيرتك أربعين سنة فلا تعالجها، واعلم أن عمراً ضيع أوله حري أن تحفظ آخره. كامراً كان لها عشرة أولاد مات منهم تسعة وبقي واحد، أليست ترد وجدها على ذلك الواحد؟! وأنت قد ضيعت أكثر عمرك فاحفظ بقيته وهي صباغة يسيرة. والله ما عمرك من أول يوم ولدت بل عمرك من أول يوم عرفت الله تعالى.

العاقل هو من يعرف قيمة الوقت والجاهل هو من ضيع عمره في أشياء لا تنفعه في آخرته، وإن الملاحظ - وللأسف - أن الناس جميعاً يمضون الساعات الطوال إما بالنوم العميق أو بحديث لا ينفع أو بالأسواق أو بالكلام عن الطعام وأصنافه وكيفية تحضيره فيمضي العمر هكذا وكأنهم يتحدثون في سفينة وهي تجري بهم وما عندهم خبر.

يقول ابن الجوزي - رحمه الله - : « تأملت أحوال الناس في حالة علو شأنهم، فرأيت أكثر الخلق تبين خسارهم حينئذٍ، فمنهم من بالغ في المعاصي من الشباب، ومنهم من فرط في اكتساب العلم، ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات، حينئذٍ فكلهم نادم في حالة الكبر حين فوات الاستدراك لذنوب سلفت، أو قوى ضعفت، أو فضيلة فاتت، فيمضي زمان الكبر في حسرات، فإن كانت للشيخ إفاقة من ذنوب قد سلفت وقال:

وا أسفاً على ما جنيت ! وإن لم يكن له إفاقة صار متأسفاً على فوات ما كان يلتذ به، فأما من أنفق عصر الشباب في العلم، فإنه في زمن الشيخوخة يحمد جنى ما غرس، ويلتذ بتصنيف ما جمع . . . »^(١)

(١) صيد الخاطر، ص: 267.

فيا من ضاع أكثر عمره هباء، ولم يتعرف على الله عز وجل، استدرك ما فاتك وتب إلى الله منيباً إليه، واعلم أن عمرك يبدأ من أول يوم عرفت الله تعالى.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

خبت نار نفسي باشتعال مفارقي	وأظلم ليلي إذ أضاء شهابها
أيا بومة قد عششت فوق هامتي	على الرغم مني حين طار غرابها
رأيت خراب العمر مني فرزتني	ومأواك من كل الديار خرابها
أنعم عيشاً بعد ما كل عارضي	طلائع شيب ليس يغني خضابها
وعزة عمر المرء قبل مشييه	وقد فنيت نفسٌ تولى شبابها
وكيف يداري المرء حاسد نعمةٍ	إذا كان لا يرضيه إلا زواها
إذا أصفر لون المرء وأبيض شعره	تنغص من أيامه مستطابها
فدع عنك سوءات الأمور فإنها	حرامٌ على نفس التقى ارتكابها

* * *

فوائد الأذكار الجامعة

يقول ابن عطاء الله: من قارب فراغ عمره يريد أن يستدرك ما فاتته، فليذكر بالأذكار الجامعة، فإنه إذا فعل ذلك صار العمر القصير طويلاً، كقوله: «سبحان الله العظيم وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرضه ومداد كلماته»^(١). وكذلك من فاتته كثرة الصيام والقيام، أن يشغل نفسه بالصلاة على رسول الله، فإنك لو فعلت في جميع عمرك كل طاعة ثم صلى الله عليك صلاة واحدة، رجحت تلك الصلاة الواحدة على كل ما عملته في عمرك كله من جميع الطاعات، لأنك تصلي على قدر وسعك، وهو يصلي على حسب ربوبيته، هذا إذا كانت صلاة واحدة، فكيف إذا صلى عليك عشراً بكل صلاة؟! كما جاء في الحديث الصحيح^(٢)، فما أحسن العيش إذا أطعت الله فيه بذكر الله تعالى أو الصلاة على رسول الله ﷺ، يُروى أنه ما من صيد يصاد ولا شجرة تقطع إلا بغفلتها عن ذكر الله تعالى، لأن السارق لا يسرق بيتاً وأهله أيقاظ بل على غفلة أو نوم.

كثير من المسلمين يمضون فترة الشباب والكهولة بأشياء لا تقرهم إلى الله سبحانه، يهدرون السنين في الغفلة، ربما أفطروا في رمضان بعض الأيام، وتركوا الصلاة كلها أو بعضها، وسعوا في الأرض فساداً فأذوا الناس وهجموا على المحرمات، كل ذلك عندما كانوا أقوياء استخدموا جوارحهم في معصية الله، ثم لما ضعفوا، ولما خارت قواهم، واستسلموا للشيب والمرض والهم. وردوا إلى أرذل العمر، تفتح ذهنهم على الحقيقة المرة. لقد ضاع عمرهم سدى. ما العمل؟! فتراهم يذهبون للحج ويرتادون المساجد التي نسوها طيلة فترة الشباب وعندئذ يفطنون لقراءة القرآن.

هنا ينصحهم ابن عطاء الله بالالتزام بالأذكار الجامعة التي تتصف بالعدة اللامتناهي وبالصلاة على النبي ﷺ، وطبعاً لا يكون ذلك إلا بعد التوبة الصادقة الخالصة لله سبحانه.

(١) هذا حديث أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم (4905).

(٢) مسلم في الصلاة، باب: الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (408): 1 / 206.

أما الأذكار فإنها علاج ودواء وعلاج للهموم والأحزان، لأنها إعلان بالرجوع إلى الله الحي القيوم والشعور بالاتصال الدائم لله سبحانه وتعالى.

إن الذاكر بلسانه وقلبه يلجأ إلى كهف الله الحصين، فيشعر بالقوة والأمان، وينزل ضيفاً على مائدة الله الكريم، فيحسن وفادته وضيافته، ويجزل له في العطاء فيزول فقره، ويتلاشى ضعفه، ويصبح غنياً عزيزاً، لا يهاب ظلماً، ولا يخشى فقراً، أليس الله جل شأنه هو القائل: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

ولن يتأتى للمؤمن هذا إلا إذا كان على اتصال دائم مع باريه والمنعم عليه، لا يغفل عن ذكره طرفه عين، ولا يسأم من الثناء عليه، والاعتراف بجوده وفضله، وهو القائل: ﴿وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].^(١)

ومن أمثلة الأذكار الجامعة ما روي عن جويرية رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال ﷺ: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟ أي: تسبحين الله تعالى وتحمدينه.

قالت: نعم. فقال ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن قلت: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»^(٢).

وغير ذلك من الأذكار الجامعة المروية عن المصطفى ﷺ.

(١) الأذكار: النووي، ص: 4.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم (4905).

فضل الصلاة على النبي ﷺ :

أما الصلاة على النبي ﷺ فهي أيضاً علاج للهموم والأحزان الفردية والجماعية وعلاج لمغفرة الذنوب.

فقد ندبنا الله لهذا الأمر بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

وعن جزاء من يصلي على النبي ﷺ قال ﷺ: «من صَلَّى علي واحدة صَلَّى الله عليه عشرة»^(١).

وصلاة الله على العبد هي الرحمة والمغفرة، فإذا علمت أن معنى ذلك أن الله عز وجل يرحمك ثم لا يزال يرحمك أضعافاً مضاعفة ويغفر لك ذنبك فتعلم أن من آثار هذه الرحمة زوال الهموم والغموم.

وعن عبد الرحمن بن عوف قال: «كنت أتبع رسول الله ﷺ يوماً فرأيتُه دخل حائطاً - بستاناً - فيه نخيل، فتبعته فإذا هو سجد وانتظرت فأطال السجود وأطاله حتى خشيت أنه قد قُبِضَ، فجثت أنظر إليه، فرفع رأسه ثم قال لي: ما بك يا عبد الرحمن؟ قلت: يا رسول الله وضعت رأسك هنا وأطلت خشيت أنك قد قبضت، وقلت في نفسي: لن أرى رسول الله بعد اليوم أبداً، قال: لقد أتاني آتٍ من ربي فقال: ألا أبشرك؟ إن الله يقول لك من صَلَّى عليك مرة صلى الله عليه بها عشرة»^(٢).

فكان ذلك سبباً لسجوده ﷺ، ووضع جبهته الشريفة على الأرض المتربة ليس بينها وبين جبهته حجاب، لماذا فعل ذلك ولماذا كل هذه الفرحه لرسول الله ﷺ؟!.

(١) سبق تخريجه ص 335.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، مسند العشرة المبشرين بالجنة، حديث عبد الرحمن بن عوف، رقم (1574).

ليست الفرحة فرحة الصلاة عليه، ولكنها فرحة الجزاء، فرحة صلاة الله عز وجل بذلك علينا، ولو كانت هذه الصلاة أمراً مستهناً يُستخف به كما هي الصورة عند كثير من المسلمين اليوم. أفكان يحفل رسول الله ﷺ بذلك إلى هذا الحد؟ . .

ويروي أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام مرة من نصف فقال: «أيها الناس جاءت الراجفة^(١). تتبعها الرادفة^(٢)، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه، ينهض رسول الله ﷺ بذلك الناس إلى القيام من جوف الليل للإقبال على الله عز وجل بما يستطيعون من ذكر وصلاة ودعاء واستغفار، قال فقلت له: يا رسول الله إني أكثر من الصلاة عليك، فكم أجعل من الصلاة عليك، قال: ما شئت، قلت: الربع. قال: ما شئت وإن زدت فخیر. قلت: فالثالث. قال: ما شئت وإن زدت فخیر. قلت: فالنصف. قال: ما شئت وإن زدت فخیر. قلت: أجعل لك صلاتي كلها. قال: إذا تكفى همك ويغفر ذنبك^(٣)».

فهل من إنسان وقرت حقائق الإيمان في قلبه وأيقن بنبوة رسول الله ﷺ ثم لا يستعين بهذا العلاج الذي يذكره لنا رسول الله. وهذا ليس علاجاً للفرد فقط بل هو علاج اجتماعي أيضاً.

فالفرد الذي عالج نفسه بهذا الذي ذكره رسول الله ﷺ ستجلى عنه همومه وسيحقق الله سبحانه وتعالى له الخير الذي يريد. والمجتمع الذي يأخذ نفسه أيضاً بهذا العلاج عندما تدلهم المصائب وتكثر الخطوب فإن الله عز وجل لينجي هذا المجتمع من مصائبه.

ورب قائل: ما فائدة الإكثار من الصلاة على رسول الله ﷺ؟. ونحن نعلم أن الله عز وجل قد أكرم رسوله بالدرجات العلى، ولسوف يكرمه يوم القيامة بالمقام المحمود صلينا عليه أو لم نصل، وما مصدر هذه الخطورة التي تجعل للصلاة عليه هذه الأهمية؟.

(١) الراجفة: النفخة الأولى في الصور التي يموت بها الخلائق.

(٢) الرادفة: النفخة الثانية في الصور التي يحيا بها الناس.

(٣) الترمذي في صفة القيامة، باب: منه، رقم (2381). وقال: حديث حسن صحيح.

الجواب: صلاتنا على رسول الله ﷺ لا تزيده رفعة عند ربه، ولكن هو الوفاء ينبغي أن نتحلى به تجاه من كانت هدايتنا على يده، تجاه من كان رشدنا ومعرفتنا لله بواسطته، فعندما يصلي عز وجل علينا صلاة الرحمة والمغفرة إنما يكون ذلك لأننا بصلاتنا عبرنا عن وفائنا لرسول الله ﷺ وكأننا نقول: جزى الله عنا محمداً ﷺ ما هو أهله.

بعد هذا كله أليس من الغريب أن يزهد الناس اليوم بالصلاة على رسول الله ﷺ؟!.

* * *

تحصيل الزاد للرحيل للآخرة

يقول ابن عطاء الله: من علم قرب رحيله أسرع في تحصيل الزاد، ومن علم أن إحسان غيره لا ينفعه جد في الإحسان، ومن أخرج ولم يحسب خسر ولم يدر.

فالواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله، لأنه لا يعرف متى يفجؤه الموت، فكم من شاب غره شبابه، وألهاه طول الأمل جاءه الموت فجأة مع غير استعداد له، فيا حسرتة وندمه، فالعاقل من أعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه فلا يؤخر توبته، ويتحاشى الغيبة أو سماعها ويبتعد دائماً عن الكسب الحرام أو الشبهة فيه، فإن فاجأه الموت وُجد مستعداً وإن نال الأمل ازدادت خيراته.

وانظر كيف يأمرنا الله باغتنام الوقت وبإنفاق المال في سبيل الله في حال الصحة والقوة قبل أن يأتي الموت الذي ينتهي مع العمل فيقول سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: 10 - 11].

* * *

ترقيع العبادة بالبكاء والتضرع لمن كبرت سنه

يقو ابن عطاء الله: يا أيها الشيخ: قد أفنيت عمرك، فاستدرك ما فاتك، قد لبست البياض وهو الشيب، والبياض لا يحمل الدنس.

إذا ضعفت عن العبادة، فرقع عبادتك بالبكاء والتضرع، إن قيل لك: من يُبكي عليه؟ فقل: عبد عوفي فأنفق عافيته في معصية الله.

إنها دعوة لمن كبرت سنه أن يستدرك ما فاتته، ويكون ذلك بالندم على ما فات والبكاء والتضرع لله سبحانه أن يعفو عما مضى، فقد ظهرت شمس الحقيقة ووضح قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾ [فاطر: 37].

وقوله: ﷺ: «أعذر الله إلى امرئ آخر أجله حتى بلغه ستين سنة»⁽¹⁾.

أي ليس له عذر عند الله إن لم يتب ويصلح حاله مع الله بعد أن بلغ ستين سنة، بعد ذلك ليس له إلا العذاب في نار جهنم.

فابك على نفسك أيها الشيخ ورقع عبادتك بالبكاء فإن أظلم الناس من عافاه الله فاستعمل عافيته في معصية الله.

ولكن لا تيأس فإن الله يقبل توبتك ويمحو ما فات من عمرك الذي أمضيته في الغفلة والبعد عنه سبحانه.

لا تيأس فإن الترحاب عامر من الله لمن يتوب إليه، بل يبسط يديه كما قال ﷺ: «إن الله يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار حتى تطلع الشمس من مغربها»⁽²⁾.

(1) البخاري في الرقاق، باب: من بلغ سنين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، رقم (5940).

(2) مسلم في التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب، رقم (4954).

روي أنه لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال: أقعدوني فأقعدوه، فجعل يذكر الله تعالى ويسبحه ويقدسه، ثم قال مخلصاً نفسه: الآن تذكر ربك يا معاوية بعد الانحطام والانهدام، ألا كان ذلك وغصن الشباب نضر ريان، وبكى حتى علا بكاءؤه ثم قال: هو الموت لا منجى من الموت والذي أحاذر منه الموت أدهى وأفظع، ثم قال: يا رب ارحم الشيخ العصي ذا القلب القاسي، اللهم أقل العثرة واغفر الزلة، وجد بحلمك على من لم يرج غيرك ولا وثق بأحد سواك^(١).

* * *

(١) تنبيه الغافلين، ص: 32.

من بلغ أربعين سنة فقد اقترب من لقاء الله

يقول ابن عطاء الله: أنشد إنسان:

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار فقد ضاق الزمان على الصغار

ومعناه عنده: إذا مضت العشرون من شعبان، فقد قرب رمضان، يقطع علينا الشراب.

ومعناه عند أهل الطريق: إذا خلفت أربعين سنة وراء ظهرك فواصل العمل الصالح بالليل والنهار، لأن الوقت قد قرب إلى لقاء الله عز وجل، فليس عملك كعمل من كان شاباً ولم يضع شبابه ونشاطه، وأنت قد ضيعت شبابك ونشاطك.

إن من اقترب رحيله، تزود لهذه الرحلة. ومن مضى- عليه أربعون سنة^(١). وقد ضاع شبابه باللهو والشهوات عليه أن يحس بفداحة ما هو مقدم عليه، إذ إنه قد قرب إلى لقاء الله عز وجل فليتب مما هو فيه من التقصير، وليشمر ساعد الجد للعمل الصالح بالليل والنهار لعله يستدرك ما فاتته ويلقى الله وهو عنه راضي.

* * *

(١) ذكرت الحكمة من اختيار سن الأربعين سابقاً، انظر، ص: 79.

فائدة ذكر الله تعالى

يقول ابن عطاء الله: هب أنك تريد الجد ولكن لا تساعدك القوى، فاعمل على قدر حالك ورقع الباقي بالذكر، فإنه لا شيء أسهل منه، يمكنك في حال القيام والقعود والمرض والاضطجاع، فهذا أسهل العبادات وهي التي قال فيها رسول الله ﷺ: «وليكن لسانك رطباً بذكر الله»^(١). وأي دعاء أو ذكر سهل عليك فواظب عليه، فإن مدده من الله عز وجل. فما ذكرته إلا ببره، وما أعرضت عنه إلا بسطوته وقهره، فاعمل واجتهد، فالغفلة في العمل خير من الغفلة عنه، ترى حالك حال الزاهدين في الفضل، لأن الطالب لا ينقطع عن الأبواب بل تجده واقفاً عليها فمثاله كالثكلي التي مات ولدها، أتراها تحضر الأعراس والأفراح والولائم؟! بل هي مشغولة بفقد ولدها.

فائدة أخرى لذكر الله تعالى وهي: أنه يمكنك أن تذكر الله في كل أوقاتك وحالاتك كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 191]. وهي العبادة التي يمكنك المواظبة عليها عندما تضعف عن باقي العبادات لسن أو مرض.

والمواظبة على الذكر سبب لمدد الله سبحانه لعبده الذاكر، كما قال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152]. وذكر الله يعني: الرحمة والمغفرة والمعونة والنصرة لعبده الذاكر في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ومعنى قوله: «فما ذكرته إلا ببره، وما أعرضت عنه إلا بسطوته وقهره».

إذ كل شيء في الكون دال على عظيم صنع الله ولا يوجد شيء يصلح أن يقوم حاجز أيقصيك عن شهود الله لأن كل ما هو موجود مستنير بنور الله ودال على عظيم صنع الله كل شيء يدعو لذكر الله، فمن هداه الله لذلك فقد حاز نعمة عظيمة وهذا هو البر المقصود

(١) الترمذي في الدعوات، باب: ما جاء في فضل الذكر، رقم (3297) وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الأدب، باب: فضل الذكر، رقم: (3783).

بالعبارة السابقة، ولكن الأعراض عنه سبحانه يكون بقهره، إذ إن قاهرة الله عز وجل تجعل من اللاشيء شيئاً، وتريك حال كثيرين من الناس وقد حجبوا عن الله عز وجل فأعرضوا عنه بما ليس له وجود حقيقي أي بما ليست له كثافة ذاتية تغالب النور الإلهي الساري في كل شيء، فتغلبه وتغيبه عن البصائر والعقول. وهذا ما يعنيه ابن عطاء الله بقوله في حكمه: «مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس موجوداً معه»

تأمل في حال الملاحدة والمعاندين والمستكبرين تجد أنهم محجوبون فعلاً عن شهود الله ولكن بأي شيء حجبوا عنه؟ . . إنها حجبوا عنه بقهره وبطشه. وقاهرة الله لا تحتاج إلى أداة يستعان بها للستر أو الحجب. وإنما يتوقف الأمر على القرار الإلهي فقط، الدال عليه قول الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 24]. وقول الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِذٍ مُّحْجَبُونَ﴾ [المطففين: 15].

ولكن من هم أولئك الذين قهرهم الله بحجبهم عنه دون حاجب؟.

هم الذين حاق عليهم غضب الله ومقته. وإنما يحق مقته وغضبه بالمعاندين والمستكبرين عليه فقط، دون بقية الناس جميعاً.

في الناس من يستبد بهم الكبر والفساد، فيتجاهلون النور الإلهي الذي تفيض به المكونات كلها، والذي يشع مرآه في أبصارهم وبصائرهم، ثم إنهم يصرون إصرارهم المستكبر على تجاهلهم الكاذب، فيحقيق بهم غضب الله العاجل في الدنيا، ويحجبهم عن شهود ذاته العلية دونما حجاب! فهو لاء هم الذين قال الله عنهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179] (1).

ثم يقول ابن عطاء الله: «فاعمل واجتهد فالغفلة في العمل خير من الغفلة عنه».

(1) شرح الحكم العطائية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 215، 216.

فمن يصلي وعقله شارد عن بعض صلاته أو عن كلها أفضل ممن لا يصلي، والذي يزكي وزكاته مشوبة بشيء من الرياء أفضل ممن لا يزكي إذ الغفلة في العمل خير من الغفلة عنه.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه، فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة.

ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور.

ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز».

ثم قال ابن عطاء الله - رحمه الله - : «تري حالك حال الزاهدين في الفضل، لأن الطالب لا ينقطع عن الأبواب بل تجده واقفاً عليها مثاله كالثكلى التي مات ولدها، أتراها تحضر- الأعراس والأفراح والولائم؟! بل هي مشغولة بفقد ولدها».

أي من الغفلة أنك لا تفرح باب التوبة والإنابة لله عز وجل وترى أنك مستغن عن ذلك كله، وهذا خطأ فادح؟!

فنحن في كل لحظة محتاجون لرحمة الله ولفضله وإنعامه وتوفيقه ونصره، ونحن في كل لحظة يجب أن نتوب إلى الله ونقرع الباب لأننا مقصرون في حق ربنا عز وجل، ذنوبنا كثيرة ولم نؤد شكر النعم التي أنعمها علينا سبحانه.

أما الناس اليوم فقد ظنوا - بسبب غفلتهم - أنهم مستغنون عن رحمة الله حالهم حال الذي زهد في فضل الله عليه ورحمته به، لذلك جاء الخطاب الإلهي: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: 13] أي الذي يؤدي حق الشكر على حقيقته.

فالعاقل هو الذي يقف على باب الله سبحانه راجياً رحمته ومغفرته، وهو مشغول البال هل قبلت توبته أم لا؟! هل هو من الأشقياء أم الأتقياء؟! هل عمله كان خالصاً لله أم تشوبه شوائب الدنيا من السمعة والرياء والكبر والعجب؟!!

هذا حاله كحال الثكلى التي مات ولدها لا تذهب إلى الأعراس بل هي مشغولة بفقد ولدها، كذلك المؤمن التقي ترك زينة الحياة الدنيا فلم تشغله لذاتها وأهواؤها وإنما له هم واحد وهو أن يكون ربه راضياً عنه؟!!

* * *

التماس الأعذار

يقول ابن عطاء الله: إذا أردت أن تختبر عقل الرجل فانظر إليه: إذا ذكرت له شخصاً فإن وجدته يطوف على محمل سوء حتى يقول لك: خلنا منه، ذاك فعل كذا وكذا، فاعلم أن باطنه خراب وليس له معرفة، وإذا رأيته يذكره بخير أو يذكر له ما يوصف بالذم ويحمّله على محمل حسن، ويقول: لعله سهأ، أو له عذر أو ما أشبه ذلك، فاعلم أن باطنه معمور، فإن المؤمن يعمل على سلامة عرض أخيه المسلم.

التماس الأعذار معناه: رفق الإنسان بالمخطئ، وعدم مقابلة سيئته بمثلها، بل يلتمس عذراً.

والتماس الأعذار أمر مهم جداً إذ إنه يدل على سلامة الصدر من الحقد والحسد ويدل أيضاً على المحبة المتبادلة. فالمسلم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والمسلم يعمل على سلامة عرض أخيه المسلم ولا يطعن به ولا يفضحه، وعندما يطوف المسلم على محمل سوء لينتقص من أخيه ويظهر للناس نقصه أو عيبه فهذا يدل على آفات خطيرة استولت على القلب جعلته يفرح لمصيبة غيره وهذا أيضاً من الحسد الذميم المنافي للإيمان.

هذا الرجل باطنه خراب لأنه تجرأ على انتقاص أخيه بغيبة ذميمة فهذا دليل على بعد هذا الرجل عن الخوف من ربه عز وجل.

أما الذي يلتمس العذر لأخيه ويعمل على سلامة عرض أخيه المسلم من الانتقاص والغيبة فاعلم أن باطنه عامر بالتقوى والخوف من الله والحب له سبحانه.

قيل: ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذراً، فإن لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك، فتقول لقلبك: ما أقساك! يعتذر إليك أخوك سبعين عذراً فلا تقبله، فأنت المعيب لا أخوك.

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذباً أو صادقاً فاقبل عذره.

قال الشاعر:

ولست بمستيقٍ أخاً لا تلمه على شعثٍ أي الرجال المهذب^(١)؟

* * *

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي: 2 / 257، 258.

خطر التكبر

يقول ابن عطاء الله: لا يدفع المدد الهابط مثل الكبر، لأن الغيث لا يقر إلا على الأرض المنخفضة لا فوق رؤوس الجبال، فكذلك قلوب المتكبرين تنقل عنها الرحمة وتنزل إلى قلوب المتواضعين، والمراد بالمتكبرين: من يرد الحق، لا من يكون ثوبه حسناً، ولكن الكبر: بطل الحق، يعني: دمه واحتقار الناس، ولا تعتقد أن الكبر لا يكون إلا في وزير أو صاحب دنيا بل قد يكون فيمن لا يملك عشاء ليلة، وهو يفسد ولا يصلح لأنه تكبر على خلق الله تعالى.

قال الشاعر:

من عظم الناس عظموه وفاز بالفضل والرئاسة
ومزدرهم لو كان مسكاً ل قيل في أصله نجاسه

والتكبر هو: بطل الحق وغمط الخلق.

إذا التكبر هو التعالي على الناس واحتقارهم، فتعالوا نرى هل يحق للإنسان أن يتكبر؟.

يقول ابن الجوزي: «عجبت لمن يعجب بصورته، ويختال في مشيته، وينسى مبدأ أمره، إنما أوله لقمة ضمت إليها جرعة ماء، فإن شئت، كسرة خبز، معها تمرات، وقطعة من لحم، ومذقة من لبن وجرعة من ماء، ونحو ذلك طبخته الكبد، فأخرجت منه قطرات مني، فاستقر في الأنثيين، فحركتها الشهوة، فصبت في بطن الأم مدة حتى تكاملت صورتها، فخرجت طفلاً تتقلب في خرق البول.

وأما آخره فإنه يلقى في التراب، فيأكله الدود، ويصير رفاتاً تسفيهه السواقي، وكم يخرج تراب بدنه من مكانه إلى آخر، ويقلب في أحوال إلى أن يعود فيُجمع، هذا خبر البدن.

إنما الروح عليها العمل، فإن تجوهرت بالأدب، وتقومت بالعلم، وعرفت الصانع، وقامت بحقه، فما يضرها نقض المركب، وإن هي بقيت على صفتها من الجهالة شابهت الطين، بل صارت إلى أخس حالة منه^(١).

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص 386.

إن الله يكره التكبر ويحب التواضع، لأن المتكبر هو الله سبحانه ولا يريد لأحد أن يشاركه في هذه الصفة، لذلك يقول ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبت»⁽¹⁾.

لذلك كانت عقوبة المتكبر أن تنقل الرحمة عنه وتنزل إلى قلوب المتواضعين لأن الغيث (الرحمة) لا تقر إلا على الأرض المنخفضة لا فوق رؤوس الجبال، قال الشاعر:

ملأى السنابل تنحني بتواضع والفارغات رؤوسهن شوامخ

إن المتكبر صرف عن آيات الله بقرار من الله سبحانه إذ يقول: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الرَّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَكْرُوا سَبِيلَ اللَّهِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 146].

فإذا عوفي الإنسان من حجاب كبره وعناده والركون إلى عصبيته، لم يجد بينه وبين الله أي حجاب يصدّه عن معرفته وشهوده، بل إنه لا يرى المكونات على اختلافها إلا سطوراً هادية إلى الله، وآيات تنطق بباهر صفات الله⁽²⁾.

وانظر إلى الكبر كيف كان سبباً لغضب النبي ﷺ ودعائه على صاحبه مع أنه نبي الرحمة ﷺ، إذ جلس معه رجل على الطعام فأكل بشاله فقال له النبي ﷺ: «كل بيمينك، قال: لا أستطيع، قال: لا استطعت ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه»⁽³⁾.

وكان النبي ﷺ يقول: إن كنت كاذباً فيما تقول فأدعوا الله أن يحقق ما تقول. فشلت يمينه —والعياذ بالله—.

(1) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: تحريم الكبر، رقم (4752).

(2) الحكم العطائية، شر وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 251، 252.

(3) مسلم في الأشربة، آداب الطعام والشراب، رقم (3766).

التكبر هو رد الحق، وهو داء خطير وممرض من أمراض القلب كالكفر والشرك والنفاق، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَرِهَ إِلَهُ وَحْدَهُ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: 22].

ثم يقول ابن عطاء الله: «والمراد بالمتكبرين: من يرد الحق، لا من يكون ثوبه حسناً، ولكن الكبر: بطر الحق...».

وهذا الكلام أصله حديث نبوي شريف أخرجه الإمام مسلم رحمه الله فعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». قال رجل: «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً؟» قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر ⁽¹⁾ الحق وغمط الناس ⁽²⁾⁽³⁾».

وفي رواية للبخاري ومسلم: «قالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين» ⁽⁴⁾.

فالتكبر سبب للحرمان من دخول الجنة لماذا؟ لأن اغترار المرء بنفسه وحببه للتعاضم يجعله يرى في التزام الحق والإقرار به غضاضة تنقص من قدره العظيم في زعمه وتحط من مكانته في وهمه ! حتى إنه قد يؤدي ذلك إلى التعالي على كبرى الحقائق العقلية التي تشهد بها بداهة العقول، حقيقة الإيمان بخالق الأكوان، مع هذه الشواهد القاطعة التي بثها الخالق في كل ذرة من هذا الكون تشهد بوجوده وعظمته؟... ومن قبل كان الكبر رائداً لأسلاف هؤلاء، فكذبوا الأنبياء مع يقينهم بصدقهم، علواً واستكباراً، فقالوا: ليس عندنا دليل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14].

(1) بطر الحق: دفعه وإنكاره بالتعالي عليه.

(2) غمط الناس: احتقارهم وازدرأؤهم.

(3) مسلم في الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانها، رقم (132).

(4) البخاري في تفسير القرآن، باب: قوله وتقول هل من مزيد، رقم (4472). ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (5082).

والحديث السابق جاء في غاية التحذير من الكبر، إذ جعل الكبر شيئاً مادياً يوزن وعبر عن ذلك بقوله: «مثال ذرة». لأن الجنة لا يدخلها إلا الطاهرون ظاهراً وباطناً، وكان من الحكمة الله تعالى في إنزال البشر إلى الدنيا لتكون غربالاً يصفى الناس، فيجعل كل شخص في مكانه، لذلك كان القليل من الكبر مضراً⁽¹⁾.

ثم إن الحديث قد بين الكبر المذموم وجلاه جلاء واضحاً، فعندما سأل السائل «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه ونعله حسناً» بين النبي ﷺ أن هذا ليس من الكبر بل على العكس إنه شيء يحض عليه الإسلام لذلك قال: «إن الله جميل يحب الجمال».

فما معنى «الله جميل». قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] فكل صفة من صفاته ليست كمثال المخلوقات، ولا تشابهها أبداً. ووصفه بأنه جميل معناه أنه متصف بالكمال، والجمال بالنسبة للإنسان معناه أنه لا ينقصه شيء، أما بالنسبة إلى الله فمعنى الجمال أنه كامل، ولكونه كاملاً فهو يحب ظهور النعمة والكمال على عبده. فحسن مظهر المؤمن وعنايته بنفسه ليست من المحظورات ما دامت لا تحمل أي إسراف أو كبرياء أو افتخار على خلق الله، وهذا مما حض عليه النبي ﷺ صراحة في أحاديث أخرى، لأن المسلم يجب أن يكون معبراً عن ذوق الإسلام، حتى في الملابس والهندام، لذلك قال النبي ﷺ لأصحابه وقد عادوا من السفر: «أصلحوا رحالهم وأصلحوا ثيابكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس» والشامة هي رمز للزينة، وكذلك نجد أن الكثير من العلماء من سلف هذه الأمة كانوا يعتنون بمظهرهم ويعتبرون ذلك من إظهار نعم الله عليهم، وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يلبس الحلة ببائة ألف درهم ولا يرد سائلاً، والمعنى في هذا أن يلاحظ الإنسان صفاء قلبه من الكبر أو الإعجاب بنفسه⁽²⁾.

(1) في ظلال الحديث النبوي، د. نور الدين عتر، ص: 247 وما بعدها.

(2) المرجع السابق: ص: 250، 251.

إن عقاب المتكبر في الآخرة عظيم، إنه يحرم من دخول الجنة ويعاقب بعكس ما كان يفعل في الدنيا من احتقار الناس وازدراءهم، إنه يوم القيامة حقير ومن حقارته: أن يدوسه الناس بأقدامهم، قال ﷺ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ. فِي صُورِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمْ الذَّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ»^(١).

ثم إن الكبر ليس صفة صاحب السلطة أو صفة الغني، إنما قد يتصف به الفقير الذي لا يملك عشاء ليلة، وقد يرفض الفقير زكاة المال أو الصدقة بسبب تكبره، وهذا يدل على خطورة هذه الآفة وأنها صفة لا تظهر إلا بالتعامل مع الناس وهل رأيت من تكبر على نفسه؟!.

من أجل ذلك جاء الخطاب من الله بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]. أي سكوناً ووقاراً متواضعين غير متكبرين ولا مرحين.

وفي صحيح مسلم قال الله تبارك وتعالى: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»^(٢).

وقد طبق النبي ﷺ ذلك في حياته كلها فكان ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم^(٣). وكانت الأمة تأخذ بيده ﷺ فتنتلق به حيث شاءت^(٤).

(١) الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، رقم (2416).

(٢) مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، رقم (5109).

(٣) البخاري في الاستئذان، باب: التسليم على الصبيان، رقم (5778).

ومسلم في السلام، باب: استحباب التسليم على الصبيان، رقم (4031).

(٤) البخاري في الأدب، باب: الكبر، رقم (5610).

وكان ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاث^(١). وسألته عائشة رضي الله عنها ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله. تعني: خدمة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة^(٢).

وكان ﷺ يخفض نعله ويرقع ثوبه ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام ويحيب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيء.

وكان ﷺ هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً متواضعاً من غير ذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين لين الجانب لهم.

وكان يقول ﷺ: «لو دُعيت إلى ذراع - أو كراع^(٣) - لأجبت، ولو أهدي إلى ذراع - أو كراع - لقبلت»^(٤).

وكان ﷺ يوم قريظة على حمار مخطوم^(٥). بحبل من ليف عليه إكاف^(٦). من ليف^(٧).

* * *

(١) مسلم في الأشربة، باب: استحباب لعق الأصابع، رقم (3795).

(٢) البخاري في الأذان، باب: من كان في حاجة أهله، رقم (635).

(٣) الكراع من البقر والغنم ما دون الركبة من الساق.

(٤) البخاري في النكاح، باب: من أجاب إلى كراع، رقم (4780).

(٥) الخطام: حبل تقاد به الدابة.

(٦) الإكاف: ما يوضع على ظهر الحمار كالبرذعة.

(٧) الترمذي في الجنايز، رقم (938). وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث مسلم عن أنس ومسلم

الأعور يُضعف وهو مسلم بن كيسان تكلم فيه. وابن ماجه في الزهد، البراءة من الكبر، رقم (4168).

الإعجاب بالطاعة

يقول ابن عطاء الله: يصلي الرجل ركعتين فيعتمد عليهما، ويركن إليهما، ويعجب بهما، فهذه حسنة أحاطت بها سيئات، وآخر يفعل المعصية فتكسبه الذلة والانكسار ويديم المسكنة والافتقار، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات.

إن ابن عطاء الله يشرح هذه الحقيقة في إحدى حكمه بقوله: «ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك بالذنوب فكان سبب الوصول، معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً».

فكثير من المسلمين -للأسف- يصلون وصلاتهم تدعو عليهم بالضياح، قال ﷺ: «من صلى الصلوات لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها خرجت بيضاء مسفرة، تقول: حفظك الله كما حفظني. ومن صلى لغير وقتها ولم يسبغ لها وضوءها ولم يتم لها خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها خرجت وهي سوداء مظلمة تقول: ضيعك الله كما ضيعتني حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق ثم ضرب بها وجهه»⁽¹⁾. ويصومون فما قيمة صيامهم؟ قال ﷺ: «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر»⁽²⁾.

إن العبادة جسم وروح والقبول الإلهي يكون لمن قدمها حية لا ميتة كذلك الطاعات التي يؤديها بعض الناس بهذا الأسلوب ربما استكملت المظاهر الشكلية، ولكنها فقدت حقيقتها وثمرتها، ومن ثم لا تحظى بشيء طائل عند الله.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «كما لا يقبل العمل المشترك لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يُقبل عليه».

(1) الترمذي في المعجم الأوسط، رقم (3095): 3 / 263. وفيه عباد بن كثير وقد أجمعوا على ضعفه. مجمع الزوائد: 1 / 302.

(2) ابن ماجه في الصيام، باب: ما جاء في الغيبة والرفث في الصائم، رقم (1690). 1 / 539.

فالعمل المشترك هو الذي تضمن الحظوظ النفسانية من رياء وعجب، والقلب المشترك هو الذي يكون فيه حب السوي.

وكمثال على العمل المشترك والقلب المشترك ما قاله ﷺ: «ثلاث مهلكات شح مُطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه»⁽¹⁾.

إن الأساس في الطاعة أنها تجعل الإنسان يتحقق بأوصاف عبوديته بين يدي ربه، ومع صنوف الخلق. والعبودية تنافي الصلف والغطرسة والخبرة، لأنها تواضع ولين جانب وسهولة خلق.

وقد تجد أناساً من الموسومين بالعبادة بما يؤدون من طاعات للاستعلاء على الخلق، والغض من الآخرين، على حين تجد ناساً ليسوا على غرارهم أسلس قياداً وألين عريكة.

وربما ارتكب أحدهم الذنب فيفزع لارتكابه، وينكسر فؤاده مع الله لما فرط في جنبه.

ولعل استشعاره الخزي على فعلته، وإكناحه الألم في أوبته يجعلانه أدنى إلى الحق وأقرب إلى مثوية الله - بهذا الذنب - من أولئك الذين لم يستفيدوا من طاعتهم إلا الجلافة والقسوة.

إن تهيب هذا العاصي أفضل من كبرياء ذلكم العابد⁽²⁾.

وعلى ضوء هذا الكلام تفهم ما حدث به رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان! فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان؟. إني قد غفرت له وأحببت عملك»⁽³⁾.

* * *

(1) الطبراني بسند ضعيف، رقم (5452): 5 / 328. انظر: كشف الخفاء: 1 / 386.

(2) انظر: الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 125.

(3) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى رقم (4753).

آفات التكبر

يقول ابن عطاء الله: ما لبس أحد لباساً أُنْتَن من لباس الدعوى بأن يقول في المخاصمة أنت مثلي، وأنت يصلح لك أن تكلمني، ومن أنت حتى أكلمك، فأول من هلك بذلك إبليس، فإياك وهذا ولو كان أعرج أجذم^(١). فلا تحقره، حرمة لا إله إلا الله في قلبه، وحسن ظنك بكل أحد تفلح.

قسم العلماء آفة الكبر على ثلاث درجات^(٢):

الأولى: أن يكون مستقراً في قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها.

الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه، فترى العالم يصغر خده للناس، كأنه معرض عنهم، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه ﷺ، حين قال: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 214].

الدرجة الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعوى والمفاخر، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره.

قال ابن عباس: يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

ثم إن التكبر يظهر في شئائل الإنسان كصعر وجهه، ونظيره شزراً، وإطراق رأسه، وجلسه متربعاً ومتكئاً، وفي أقواله، حتى في صورته ونغمته، وصيغة إيراده الكلام، ويظهر ذلك أيضاً في مشيه وتبخره، وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته.

(١) الجذام: داء يصيب الجلد والأعصاب الطرفية، يسبب فقداً بقعياً، وقد تتساقط منه الأطراف. المعجم

الوسيط، ص 118.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة، ص: 254، 255.

وأول من هلك بالدعوى إبليس عندما أمره الله بالسجود لآدم فاعتذر تكبراً قائلاً: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: 61] وفي آية أخرى قال إبليس: ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: 12].

ثم يطلب ابن عطاء من هؤلاء المتكبرين أن يحترموا كل الناس مهما كان شكلهم وعملهم ونسبهم، حرمة لا إله إلا الله في قلوبهم، فالإسلام لا يهتم بالمظهر ولا يعطيه أي قيمة، بدليل الأحاديث الآتية:

أ- قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»⁽¹⁾.

ب- قوله ﷺ: «كم من أشعث»⁽²⁾. أغبر ذي طمرين⁽³⁾. لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك»⁽⁴⁾.

ج- مر رجل أمام النبي ﷺ فقال لأصحابه: «ما تقولون في هذا؟ قالوا: حريٌّ إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع وإن قال أن يستمع. قال: ثم سكت. فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حري أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال أن لا يستمع فقال رسول الله ﷺ: هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا»⁽⁵⁾.

* * *

(1) سبق تخريجه، ص: 168.

(2) أشعث الشعر: ملبد مغير الشعر غير ممشط.

(3) ذي طمرين: صاحب ثوبين باليين.

(4) الترمذي في المناقب عن رسول الله، باب: مناقب البراء بن مالك، رقم (3789).

(5) البخاري في النكاح، باب: الأكفاء في الدين، رقم (4701).



حقيقة الدنيا والآخرة

مثل من عال هم الدنيا وترك هم الآخرة

يقول ابن عطاء الله: من عام هم الدنيا وترك هم الآخرة كان كمن جاءه أسدٌ يفتريه ثم قرصه برغوث، فاشتغل به عن الأسد، فإن من غفل عن الله اشتغل بالحقير، ومن لم يغفل لم يشتغل إلا به، فأحسن أحوالك، أن تفوتك الدنيا لتحصيل الآخرة، يا طالما فاتتك الآخرة لتحصيل الدنيا، وما أقبح الخوف بالجندي، وما أقبح اللحن بالنحوي⁽¹⁾. وما أقبح طلب الدنيا لمن يُظهر الزهد فيها.

لا تكن كأرباب الدنيا الذين طلقتهم الدنيا، بل كن من الذين طلقوها وفارقوها قبل افتراقهم، فمثالك إذا أثرت الدنيا على الآخرة كمن له زوجتان، أحدهما عجوز خائنة، والأخرى شابة وفيه، فإذا أثرت العجوز الخائنة على الشابة الوفية أفما تكون أحق؟!.

قال الشاعر:

هب الدنيا تساق إليك عفواً أليس مصير ذاك إلى زوال
فما ترجو بعيش ليس يبقى وشيكاً قد تغيره الليالي
وما دنيائك إلا مثل ظل أظلك ثم آذن بارتحال

الدنيا مليئة بالمغريات والملهيات والمنسيات التي من شأنها أن تقطع العبد من الله عز وجل. وصدق الله جل جلاله إذ يقول: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: 14]، ومهما حاول الإنسان أن ينتقي لنفسه حياة صافية نظيفة من هذه الشواغل فلن يعثر عليها، ما دام يتقلب في فجاج هذه الحياة الدنيا⁽²⁾.

(1) النحوي: العالم بالنحو وحركات الإعراب.

(2) الحكم العطائية: شرح وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 327.

إن هذه الشواغل هي بمثابة امتحان لهذا الإنسان فإذا ترفع عنها وتغلب على آفاتهما كان له المثوبة والأجر عند الله، وإن ركن إليها أنسته طاعة الله وتنفيذ أوامره قضى - الله عليه بشقاء عظيم لا نهاية له.

ولا يعني الحذر من الدنيا بغضها وتركها بالمرة، بل المطلوب من الإنسان أن يعمل ليصلح حاله وحال أولاده، وأن يكسب المال لأنه سبب بقائه دليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: 5] أي: قواماً لمعاشكم.

وقال: ﷺ: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»⁽¹⁾.

وقال: «ما نفعني مال كمال أبي بكر»⁽²⁾. وكان أبو بكر ﷺ يخرج إلى التجارة ويترك رسول الله ﷺ، فلا ينهاه عن ذلك.

وكان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يتجرون، ومن سادات التابعين سعيد بن المسيب مات وخلف مالا، وكان يبيع الزيت.

وقد تعرض نواب كالمريض يحتاج فيها إلى شيء من المال، وللنفس قوة بدنية عند وجود المال، ولذلك قال ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا هي المنفقة»⁽³⁾.

فدعوى بغض الدنيا وتركها والعيش عالة على المجتمع وعلى فئات الناس، أمر مناقض لمبادئ الإسلام.

(1) أحمد، مسند الشاميين، حديث عمرو بن العاص، رقم (17096).

(2) الترمذي في المناقب: باب: مناقب أبي بكر الصديق، رقم (3594) وقال: حسن غريب من هذا الوجه. وابن ماجه في المقدمة، باب: فضل أبي بكر الصديق، رقم (91)، وأحمد، باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة، رقم (7134).

(3) البخاري في الزكاة، باب: لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم (1339). ومسلم في الزكاة، باب: بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى. . . ، رقم (1715).

وإنما التحذير أن تستولي الدنيا على القلب فينسى الآخرة هذا هو الخطر قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: 5].

ثم يقول ابن عطاء الله: «وما أقبح طلب الدنيا لمن يظهر الزهد فيها».

إن هؤلاء يخادعون الله ويخادعون الناس يظهرون الزهد في الدنيا فإذا لاح لهم شيء من مغرياتهم ركضوا وراءه، ويدخل في ذلك الدعاة إلى الله ممن يظهرون للناس زهدهم في الدنيا ومن ثم يكون همهم حب المال وحب الجاه وحب الرياسة.

يقول الأديب مصطفى صادق الرافعي واصفاً هذه الفئة: «والفقيه الذي يتعلق بالمال وشهوات النفس، ولا يجعل همهم إلا زيادة الرزق وحظ الدنيا هو الفقيه الفاسد الصورة في خيال الناس، يفهمهم أول شيء ألا يفهموا عنه، إذ حرصه فوق بصيرته، وله في النفوس رائحة الخبز، وله معنى خمس وخمس عشرة. . . وكأن دنياه وضعت فيه شيئاً فاسداً غريباً يفسد الحقيقة التي يتكلم بها، ولست أدري ما هو هذا الشيء، ولكنني رأيت فقهاء يعظون ويتكلمون على الناس في الحرام والحلال وفي نص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم لم أجد لكلامهم نفعاً ولا رداً، إذا يُلهمون الناس بأرواحهم غير المعنى الذي يتكلمون فيه، وتسخر الحقيقة منهم، على خطرهم وجلال شأنهم وبذات الأسلوب الذي تسخر به من لص يعظ لصاً آخر»^(١).

والفقرة الآتية تكملة لهذه الفقرة ومتشابهة معها في اللفظ.

* * *

(١) وحي القلم: 2 / 186.

الدنيا أحقر من أن يُعال همها

يقول ابن عطاء الله: الدنيا أحقر من أن يُعال ^(١). همها، صغرت الهمم فعالت صغيراً، فلو كنت كبيراً لعلت الكبير. من عال الهم الصغير وترك الهم الكبير استقللنا عقله.

قم أنت بما يلزمك من وظائف العبودية، وهو يقوم بما التزمه. أيرزق الجعل والوزع وبنات وردان ^(٢). وينسى أن يرزقك؟! قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: 132].

قال ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله» ^(٣).

وقال ﷺ: «مالي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» ^(٤).

فالدنيا إذا لم تكن مطية للأخرة فلا خير فيها، إن الكافر والغافل الذي يطلب الدنيا لذاتها ويعتبرها الفرصة التي إن ضاعت ضاع كل شيء. إنه لا يصدق أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أعظم منها، أما المؤمن فإن الدنيا عنده وسيلة لا غاية، وسيلة لما بعدها، هنا الغرس وهناك الحصاد، هنا العمل وهناك الجزاء، هنا الامتحان وهناك النتيجة.

(١) يعال: يحمل.

(٢) الجعل والوزع وبنات وردان: أنواع من الحشرات.

(٣) الترمذي في الزهد، رقم (2244). وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد، باب: مثل الدنيا، رقم (4102).

(٤) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء في أخذ المال بحقه، رقم (2299). وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الزهد، باب: مثل الدنيا، رقم (4099).

إن الإسلام يلح في إفهام الناس أن الدنيا لا تطلب لذاتها ولا تستحق كل هذا التنافس عليها بل يريد الإسلام أن تجعل الدنيا وسيلة للآخرة، وسيلة لرضوان الله سبحانه، وهذا لا ينافي التملك والتمتع بما فيها، بل امتلك الدنيا كلها إن استطعت لكن على هذا الأساس!!.

إن الله سبحانه لم يقل لقارون صاحب الكنوز الهائلة: انخلع من مالك كي أرضى عنك، لا، ابق فيه ولكن: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 77] إن الإسلام يحتقر الدنيا هدفاً، ولكنه يحتفي بها وسيلة. وعلى هذا جاءت آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدِرًا﴾ [الكهف: 45] فالدنيا تبخر بين أيدي عبادها، كما يتبخر الماء من الهشيم، فإذا هم يقبضون أيديهم على وهم.

ماذا كسب خزان المال، وماذا ربحوا من نسيان رازقه ورفض وصاياه فيه؟.

ماذا نال عباد الأثرة والجاه والاستعلاء عندما يُسلون من الحياة الدنيا سلاً، مخلفين بعدهم أملاكاً، ذهب اسمهم عنها، وأثاراً كحركة الريح في صفحة الماء لا استقرار لها ولا بقاء.

ماذا يكون موقفهم عندما يقول الله لهم: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُكُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: 94].

ثم جاءت الأحاديث الكثيرة تبين حقارة الدنيا لمن ينشد الحياة للحياة فعن ابن عباس رضي الله عنهما: مر رسول الله ﷺ بشاة ميتة قد ألقاها أهلها، فقال: «والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»⁽¹⁾.

(1) أحمد، من مسند بني هاشم، باقي المسند السابق، رقم (2890).

وعن الضحاك بن سفيان أن رسول الله ﷺ قال له: «يا ضحاك ما طعامك؟ قال: يا رسول الله اللحم واللبن، قال: لم يصير إلى ماذا؟. قال: إلى ما قد علمت قال: فإن الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا»⁽¹⁾.

وعلى هذا لا يجوز شغل القلب بالدنيا بحجة الرزق وهم العيال، فالله سبحانه طلب منك القيام بوظائف العبودية وهي: طاعة الله في نفسك وزوجتك وعيالك، والتزام أوامره وتنفيذ وصاياه، وبالمقابل فإنه سبحانه قد تكفل برزقك فقال سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: 132].

وفي هذا المعنى يقول ﷺ: «يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى وأملأ يديك رزقاً، يا ابن آدم لا تباعد مني أملأ قلبك فقراً، وأملأ يديك شغلاً»⁽²⁾.

وهذا الحديث ليس دعوة للعطل والبطالة، إنما هو دعوة لتغليب الله على هموم الرزق ومتاعب العيش.

والكد في الدنيا للاستعفاف والغنى من حقائق العبادة، ومن معاني الجهاد⁽³⁾. والفقرة الآتية تحمل المعنى نفسه فنذكرها اكتفاء بالشرح الموجود هنا.

يقول ابن عطاء الله: من فرح بالدنيا إذا جاءته فلقد ثبت حمقه، وأحق منه من إذا فاتته حزن عليها. فمثالك كمن جاءته حية لتلدغه، ثم مضت وسلمه الله منها فحزن عليها أن لم تضره.

(1) أحمد، مسند المكين، حديث الضحاك بن سفيان، رقم (15187).

(2) الترمذي في صفة القيامة، رقم (2390). وقال: حديث . حسن غريب. والحاكم في مستدركه، رقم

(3657): 2 / 481. وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(3) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 182 وما بعدها.

من علامات الغفلة، وصغر العقل، أن تعول همّاً هل يقع أم لا وتترك أن تعول همّاً لا بد من وقوعه، وتصبح وتقول: كيف يكون السعر غداً وكيف يكون الحال في هذه السنة، والطف الله تأتي من حيث لا تعلم، والشك في الرزق شك في الرازق، وما سرق السارق، وما غضب الغاصب إلا رزقه، فما دمت حياً لا ينقص من رزقك شيء.
وهذه الفقرة متممة للسابقة وبالمعنى نفسه كما ذكرت.

* * *

كفاك من الإِدبار أن تفتح عينيك في هذه الدار

يقول ابن عطاء الله: كفاك من الإِدبار أن تفتح عينيك في هذه الدار، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَكَ إِلَى مِمَّا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: 131].

جواذب الطبع إلى الدنيا كثيرة، مثالها كالماء الجاري فإنه يطلب الهبوط وإنما رفعه إلى فوق يحتاج إلى التكلف، ورفعته يكون بالترفع عن زهرة الدنيا ومجاهدة النفس التي تجر صاحبها إلى الانغماس في شهوات الدنيا.

إن زهرة الدنيا هي فتنة تلبس لباساً جميلاً والفتنة يراد منها بيان صدق الإنسان في تعامله مع الدنيا والآخرة، فمن غلب عليه حب الدنيا خاب وخسر ومن غلب عليه حب الآخرة فاز ونجا، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: 20].

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 134].

لذلك قال العلماء: الدنيا تسحرك وتكتمك فتنتها فتدعوك إلى الحرص عليها والتنافس فيها والجمع لها والمنع حتى تفرق بينك وبين طاعة الله تعالى. وتفرق بينك وبين رؤية الحق ورعايته، فالدنيا أسحر من هاروت وماروت تأخذ بقلبك عن الله وعن القيام بحقوقه وعن وعده ووعيده، وسحر الدنيا محبتها وتلد ذلك بشهواتها وتمنيك بأمانيتها الكاذبة حتى تأخذ بقلبك إذ حب الشيء يعمي ويصم⁽¹⁾.

هكذا فهم الصحابة رضوان الله عليهم الدنيا على حقيقتها.

(1) تفسير القرطبي: 2 / 53.

يقول ضرار بن ضمرة واصفاً علياً عليه السلام: وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه^(١). وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيتهن يتململ تلمل السليم^(٢)، ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا، أبي تعرضت؟ أم لي تشوقت؟ هيهات هيهات، غري غري، قد بتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، وخطرك كبير، آه من قلة الزاد وبعد السفر، ووحشة الطريق^(٣).

* * *

(١) سجوفه، ستره.

(٢) اللذيع أو الجريح المشرف على الموت، سموه به تفاؤلاً بالسلامة.

(٣) صفة الصفوة، ابن الجوزي.

إنما تأكل لتعيش ولا تعيش لتأكل

يقول ابن عطاء الله: إنما تأكل لتعيش، ولا تعيش لتأكل، فإن فعلت ذلك فمثالك على المداود^(١). كثير، ومثلك في الدواب كثير، فإن فعلت ذلك فإن أسبق الخيل ما ضم^(٢). تقول: هذه الليلة أقلل الأكل، فإذا حضر الطعام فكأنه حبيب مفارق، ومن لم يرد الله صلاحه تعبت فيه الأقاويل، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: 41].

يا عبد الله تنتخب لنفسك الطيبات، بل تنتخب لدابتك العلف، وتعامل الله بالمجازفة!! وربما قلبت عشرين بطيخة حتى تصلح لك واحدةً لدهليز مرحاض، وتقعّد عند الأكل متربّعاً، وربما طوّلت في الأكل، وإذا جئت إلى الصلاة فقرتها نقر الديك، والوساوس والخواطر الرديئة تأتيك في صلاتك، مثال من هذه حاله كمن نصب نفسه للهدف وقعد والرماح والسهم تقصده من كل جانب، أفما هذا أحق؟!.

هل الغاية من خلق الإنسان فوق الثرى أكل الطعام وسماع الأغاني وطلب المتع واستخدام آخر ما أنتجته الحضارة من أدوات الترويح والنعم؟.

أما إعدادهم للدار الآخرة فصفر، أو قليل لا يُذكر، لأنهم بين مراتب فيها، أو مكذب لها، أو غافل!! إن انتهاء العالم إلى هذا المصير في تفكيره وشعوره، وإلى هذا الوضع في يقظته ومنامه، معناه أن العالم صرعه الإلحاد وغطته غواشي الكفر والعصيان.

وهذا لا يمكن أن يهادنه الدين أو يعيش بجواره هادئاً.

(١) المداود: مكان الدود.

(٢) ضم: هزل وقل لحمه. المعجم الوسيط، ص 564.

وهذه السكرة الزائفة عن الحق وتبعاته، هذه الدنيا التي اشتهت لذاتها ولم يحسب فيها حسب الآخرة ولم يُعرف فيها حق الله، هي التي لعنها الإسلام وصب عليها جام غضبه وحقرها وحقر أصحابها معها.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طِبْيَنَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْنَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: 20].

إن طلاب الدنيا الذين حصروا نشاطهم وعقلهم للتلذذ بالماكل والملبس والمسكن والتنافس مع غيرهم في ذلك قال الله عنهم: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: 15 - 16].

وقال عنهم: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٦) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٧) كَلَّا تُمَدِّدُهُمْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 18 - 20].

والقرآن الكريم يتناول عشاق الحياة من هذا القليل، فيقرر أن مصيرهم إلى سقر، ويندد بما كانوا عليه في الدنيا من تشبع وطيش... ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كُتُبُهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ﴾ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ [الانشقاق: 10 - 14] والإسلام إنسا يستنكر السرور الجاحد المستغرق في العاجلة دون سواها.

وهو إذا كان قد نص في الآية السابقة على الكافرين إذهابهم طيباتهم في حياتهم الدنيا فليس معنى هذا أنه حرم الطيبات على المؤمنين.

كيف؟ وهو ما أحل لهم إلا هذه الطيبات!! ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ﴾ (١) [المائدة: 4].

* * *

(1) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 190، 191.

قيمتك قيمة ما أنت مشغول به

يقول ابن عطاء الله: ألا فقد حصل النداء على سلعتنا فهل من مشتر؟ قيمتك قيمة ما أنت مشغول به، فإن اشتغلت في الدنيا فلا قيمة لك لأن الدنيا كالجيفة لا قيمة لها. ووقفت الدنيا في طريق الآخرة، فصرفت الوصول إليها. ووقفت الآخرة في طريق الحق، فمنعت الوصول إليه.

إذا أعطيت الدنيا ومنعت الشكر فيها فهي محنة في حقك، قال رسول الله ﷺ: «قليل الدنيا يُلهي عن طريق الآخرة»^(١).

من طلب الدنيا بطريق الآخرة، كان كمن أخذ ملعقة ياقوت يغرف بها القدر، أفما يعد هذا أحق.

وهذا تأكيد لما سبق من أن الدنيا لا ينبغي أن تلهي عن الآخرة، وإنما الدنيا يجب أن تكون مطية للوصول إلى نعيم الآخرة.

فالدنيا لا قيمة لها لأنها سريعة الفناء قريبة الانقضاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة، وهي سائرة سيراً عنيفاً ومرحلة ارتحالاً سريعاً، ومثالها الظل فإنه متحرك ساكن، متحرك في الحقيقة ساكن الظاهر، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر، بل بالبصيرة الباطنة.

إذاً الدنيا لا يجوز أن تلهي عن الآخرة والآخرة أيضاً ما ينبغي أن تنسيك الله سبحانه فليكن همك الوصول إلى مرضاة الله سبحانه فقط !!.

وهذا معنى قول ابن عطاء الله: «وقفت الدنيا في طريق الآخرة، فصرفت الوصول إليها، ووقفت الآخرة في طريق الحق، فمنعت الوصول إليه».

* * *

(١) لم أجده في ما رجعت إليه من المصادر.

العاقل بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفتنى

يقول ابن عطاء الله: العاقل بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفتنى، قد أشرق نوره وظهرت تباشيره، فصد عن هذه الدار مولياً، وأعرض عنها مغضياً، فلم يتخذها موطناً، ولا جعلها سكناً، بل أنهض فيها الهمة إلى الله تعالى، وسار إليه مستعيناً به في القدوم عليه، فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها، دائماً تسيرها إلى أن أناخت بحضرة القدس^(١). وبساط الأنس، محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة، والمحادثة والمشاهدة والملاطفة، وصارت الحضرة معشش^(٢). قلوبهم إليها يأوون، وفيها يستوطنون، فإن نزلوا إلى سماء الحقوق، وأرض الخطوط فبالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، ولا إلى الخطوط بالشهوة والمتعة، بل دخلوا في ذلك كله بالله، ومن الله، فإياك يا أخي أن تصغي إلى الواقعين في هذه الطائفة، لئلا تسقط من عين الله، وتستوجب المقت^(٣). من الله، فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصدق وإخلاص الوفاء، ومراقبة الأنفاس مع الله، قد سلموا قيادهم إليه، وألقوا أنفسهم سلماً بين يديه، وتركوا الانتصار لأنفسهم حياة من ربهم، فكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم.

ولقد ابتلى الله هذه الطائفة بالخلق خصوصاً، ولا سيما أهل العلم، فقل أن تجد منهم من شرح صدره للتصديق بولي معين بل يقول لك: نعم إن الأولياء موجودون ولكن أين هم؟ فلا يذكر له أحد إلا وأخذ يدفع خصوصية الله فيه، طلق اللسان بالاحتجاج، عارياً من التصديق، فاحذر من هذا وصفه، وفر منه فرارك من الأسد.

(١) القدس: الطهر.

(٢) معشش قلوبهم: مكان تعيشها.

(٣) المقت: الغضب.

هذه إحدى الحكم العطائية ومعناها: أن فرح العبد بالأشياء الفانية موجب للزيادة في همه وغمه إذا فقدها. فالعاقل لا يفرح بذلك ولا يحبه، وإنما يكون فرحه بالأمور الباقية التي لا تفنى، قد أشرق نور ذلك في قلبه وظهرت تباشيره على وجهه.

«فصدف عن هذه الدار مولياً، وأعرض عنها مغضباً، فلم يتخذها موطناً، ولا جعلها سكناً».

فمن فرح بالأمور الباقية أعرض عن هذه الدنيا مغضباً جفنه عن أقداتها معرضاً عنها بوجه قلبه، فلم يتوطنها بظاهره على سبيل الخلود فيها بل نزلها منزلة السجن قال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(١).

ثم يقول ابن عطاء الله: «بل أنهض فيها الهمة إلى الله تعالى، وسار إليه مستعيناً به في القدوم عليه فما زالت مطية عزمه... وفيها يستوطنون».

هذه هي قصة سفر القلب إلى حضرة الباري سبحانه والأنس به وهما موضع محط الرحال، وبلوغ الآمال، فلما وصل العبد هذه الحضرة العلية، قوبل بأنواع الكرامات والألطف، ولا تعرف إلا بالذوق.

ثم قال: «فإذا نزلوا إلى سماء الحقوق... بل دخلوا في ذلك بالله».

هذا ما يسمى بسفر التلي والنزول، وبه يتحقق العبد بمقام الصحو فإن نزلوا من ذلك القرب من الحضرة الإلهية إلى سماء الحقوق، وهي حقوق الله عليهم مما أمرهم به أو نهاهم عنه، ليقوموا بذلك فعلاً أو تركاً أو إلى أرض الخطوط، وهي: حظوظ نفوسهم التي تلابسهم، ويحصل لهم الارتفاع بها، فإنما يكون نزولهم إلى ذلك بالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين.

ومعنى ذلك: أن يدخلوا في الأشياء بمراد الله، لا بمراد أنفسهم^(٢).

* * *

(١) مسلم في الزهد والرقائق، رقم (5256).

(٢) غيث المواهب العلية، الرندي: 2 / 203.

كفى بك جهلاً أن تعول الهم الصغير وتترك الهم الكبير

يقول ابن عطاء الله: كفى بك جهلاً أن تعول الهم الصغير، وتترك الهم الكبير، عل هم هل تموت مسلماً أو كافراً، عل هم: أنت شقي أو سعيد؟، عل هم النار الموصوفة بالأبدية التي لا انتهاء لها، عل هم أخذ الكتاب باليمين أو بالشمال، هذا هو الهم الذي يُعال، لا تعل هم لقمة تأكلها، أو شربة تشربها، أيستخدمك الملك ولا يطعمك؟! أ تكون في دار الضيافة وتضيع؟! إن أحب ما يطاع الله به: الثقة به. لأن تكون خاملاً⁽¹⁾ في الدنيا خير لك من أن تكون خاملاً يوم القيامة.

قال الحارث المحاسبي: «من علم ما بين يديه، هان عليه ما في يديه»⁽²⁾. أي من علم ما ينتظره من الحساب يوم القيامة وأنواع العذاب التي أعدها الله للطغاة المستكبرين هانت عليه الدنيا وزينتها.

فبدل شغل النفس بهم الرزق الذي ضمنه لك ربك بقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنَقِبَةُ لِلنَّفَقَى﴾ [طه: 132].

بدل هذا فكر في حياتك وموتك، فكر في الجنة والنار، فكر في الحساب والعرض على الله عز وجل.

ذلك هو الهم. قال تعالى: ﴿فَمَنْ ذُحِّجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185] وارجع إلى ما كتبه الحارث المحاسبي في كتابه «التوهم» لتزداد معرفة بنفسك وبحقيقة ما أنت قادم عليه.

وإليك بعض ما جاء فيه: «توهم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها إلا إلى الحشر إلى ربك، فتوهم نفسك في نزع الموت وكربه وغصصه وسكراته وغمه وقلقه...»

(1) الخمول: الخفاء هو الذي لا يعرف ولا يذكر، وأخمله الله تعالى فهو خامل أي: ساقط لا نباهة له.

(2) آداب النفوس، المحاسبي، ص: 130.

وتوهم أصوات الملكين حين يناديانك لتجلس لسؤالهما إياك ليقفناك على مساء لتهما، فتوهم جلستك في ضيق لحدك. . . ثم شخوصك ببصرك إلى صورتها وعظم أجسامها، فإن رأيتها بحسن الصورة أيقن قلبك بالفوز والنجاة، وإن رأيتها بقبح الصورة أيقن قلبك بالهلاك والعطب. . .» الخ ما يذكره من مواقف الحساب والجنة والنار^(١).

ثم يقول ابن عطاء الله: «لا تعل هم لقمة تأكلها، أو شربة تشربها، أستخدمك الملك ولا يطعمك؟! أكون في دار الضيافة وتضيع؟! إن أحب ما يطاع الله به: الثقة به». ثق أن رزقك على الله ولا تعل هم الرزق، فإن الذي خلقك كفل لك رزقك، أخلقك ويتركك تموت جوعاً؟!.

ويسوق القرآن إلينا نموذجاً رائعاً للثقة في قصة أم موسى حيث يقول سبحانه. . . ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ إِذْ أَخَفَّتْ عَلَيْهِ فَكَأَلَيْهِ فِي أَلَمٍ وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَىٰكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

ثم يقول ابن عطاء الله: «لأن تكون خاملاً في الدنيا خير لك من أن تكون خاملاً يوم القيامة».

الخمول هنا يعني الابتعاد عن الأضواء وعن أسباب الشهرة فمن ابتعد عن مسرح الأحداث متوارياً عن الأضواء، وكان همه في ذلك السعي إلى تربية نفسه وتصفية سريرته من الشوائب ومن ثم الاجتهاد في عبادة ربه والسعي لمرضاته فهذا أفضل له من أن يأتي خاملاً ذليلاً يوم القيامة وقد أحاطت به ذنوبه وشهواته.

ولننه هذه الفقرة بهذه الأبيات الرائعة للإمام الشافعي يصف فيها حال الدنيا وأنه لا راحة فيها فيقول:

من ذا الذي قد نال راحة سره في عسرته إن كان أو في يسره

(١) آداب النفوس، المحاسبي، ص: 153 وما بعدها.

أضعاف ما يلقي الفقير بفقره	فلربما يلقي الغني بهاله
مما يلاقي من خسارة أمره	فأخو التجارة خائفٌ مترقب
ألفاً من الأعوام مالك أمره	تا الله لو عاش الفتى في دهره
متنعماً فيها بنعمى عصره	متلذذاً فيها بكل مليحة
لا تنطق الأصوات عند مقره	وصفت له الأيام حتى إنه
بمبيت أول ليلةٍ في قبره	ما كان ذلك كله مما يفي

* * *

مثال الدنيا كعجوز جذماء برصاء

يقول ابن عطاء الله: مثال الدنيا كعجوز جذماء^(١) برصاء^(٢)، سترت بثوب حرير، فالمؤمن نافرٌ ومنفرٌ عنها، لانكشافها له.

من أحب الدنيا بقلبه كان كمن بنى بناءً حسناً فوقه مرحاض فرشح عليه، فلا يزال كذلك حتى يرى ظاهره كباطنه، ومنهم من ينقيه فلا يزال قلبه أبيض، وتنقيته بالتوبة والأذكار، والندم والاستغفار.

الدنيا خداعة مزينة الظواهر قبيحة السرائر كالعجوز التي سترت بثوب حرير. فالمؤمن ينفر من الدنيا لأنه عرف حقيقتها، إنها جميلة في الظاهر سترت بثوب حرير تجذب أصحابها، لكن وراء ثوب الحرير عجوز جذماء برصاء، والمؤمن يعرف ذلك فلا يغتر بها بعد أن حذره الله من ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [فاطر: 5].

فمن أحب الدنيا بقلبه تراكمت عليه أوساخ الذنوب والمعاصي والغفلة عن الله عز وجل، فاجهد على تنقية هذا القلب من تلك الأقدار وتنقيته تكون بتوبة صادقة إلى الله وبالإكثار من ذكره تعالى والندم على ما فات من عمره في الغفلة واستغفار مما اقترفته الجوارح من الذنوب والمعاصي.

قال الإمام الغزالي: «اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر وهي شبه عجوز متزينة تخدع الناس بظواهرها، فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظواهرها. قال أبو بكر بن عياش:

(١) الجذام هو: داء يصيب الجلد والأعصاب الطرفية، يسبب فقداً بقعياً، وقد تتساقط منه الأطراف. المعجم الوسيط، ص 118.

(٢) برصاء: أي مصابة بداء البرص وهو بياض يصيب الجلد. المعجم الوسيط، ص 51.

رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوهة شمطاء تصفق يديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون...»^(١).

وبذلك ينتهي الكلام عن أحوال الدنيا والآخرة.

* * *

(١) إحياء علوم الدين: 3 / 310، 311.

وحدانية الله سبحانه وتعالى

يقول ابن عطاء الله: إياك وذهول القلب عن وحدانية الله تعالى، فأول درجات الذاكرين استحضار وحدانيته تعالى، وما ذكره الذاكرون، وفتح عليهم إلا باستحضارهم ذلك، وما طردوا إلا بذكرهم مع غلبة الذهول عليهم.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ كُذِّبَ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ [البقرة: 163].

الوحدانية هي قولنا: لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحمد وهو على كل شيء قدير، الواحد في صفاته والواحد في أفعاله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

هذا هو المعنى العام، أما المعنى المقصود في كلام ابن عطاء الله فهو: أن يرى العبد أن لا فاعل سوى الله، فلم ينظر إلى غيره، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل. واستحضار وحدانية الله تعني كذلك اعتقاد أنه هو الرزاق فلا خوف ولا قلق من الفقر، وأنه سبحانه هو المعطي وهو المانع وهو الحي وهو المميت والشافي والممرض كل شيء بيده وهو على كل شيء قدير.

فإياك وذهول القلب عن معاني وحدانية الله سبحانه.

قال الشاعر:

الله قل وذو الوجود وما حوى	إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالكـل دون الله إن حققته	عدم على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها	لولاها في محو وفي اضمحلال

فإن أردت أن يفتح الله عليك بالفهم والمعرفة والمواهب فاستحضر- وحدانيته عندما تذكره، وإلا ربها طردت عن بابه ومنعت من الدخول إلى حضرة-ته إن كنت ذاكرًا بلسانك ذاهلاً عن وحدانيته؟!.

* * *

التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين

يقول ابن عطاء الله: إياك أن تعتقد أن لا يتوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين، فإنهم وسيلة جعلها الله إليه. لأن كل كرامة للولي هي شهادة بصدق النبي ﷺ لأنها جرت على أيدي الأولياء. مثل: خرق العادات، والمشي على الماء، والطيران في الهواء، وأخبار المغيبات، ونبع الماء، ونحو ذلك، لأنهم لم يعطوا ذلك إلا لأجلهم.

ما هي حقيقة التوسل؟

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35]
والمراد بالوسيلة ثلاثة أمور:

الأمر الأول: القربة كما فسرها ابن جرير الطبري رحمه الله عند شرحه لهذه الآية ^(١). أي: تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه!

الأمر الثاني: الوسيلة هي أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة سيدنا محمد ﷺ والدليل على ذلك قوله: «وسلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له شفاعتي» ^(٢).

الأمر الثالث: الوسيلة هي: ما يتوصل به إلى تحصيل المقصود، أي كل ما هو محبوب عند الله ومشروع بكتابه وسنة نبيه ﷺ يجوز التوسل به ولا حرج. ويدخل تحت هذا التوسل بالأنبياء المرسلين والأولياء الصالحين رضوان الله عليهم، وكذلك التوسل بالأعمال الصالحة.

(1) جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري: 15 / 104.

(2) مسلم في الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن، رقم (577).

الأدلة:

عن عثمان بن حنيف أن رجلاً أعمى أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يكشف لي عن بصري، قال: أو تصبر، قال: «يا رسول الله إنه شق علي ذهاب بصري، قال: فانطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليه بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضي، اللهم شفعه في. فرجع وقد كشف الله عن بصره»^(١).

وقد يظن من هذا أنه لا يجوز التوسل بالأموات بل بالأحياء فقط! وهذا غير صحيح.

فقد روى البيهقي وابن أبي شيبة بإسناد صحيح: «أن الناس أصابهم قحط في خلافة عمر رضي الله عنه فجاء بلال بن الحارث رضي الله عنه إلى قبر رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم هلكوا فأتاه رسول الله في المنام فقال له: أئت عمر فأقرته السلام وأخبره أنكم مسقيون وقل له: عليك الكيس عليك الكيس، فأتى عمر فأخبره فبكى عمر، ثم استشار صحابته فأشاروا عليه أن يستسقي بالعباس عم النبي فاستسقى به فسقوا»^(٢).

وروى البخاري رحمه الله هذا الحديث بلفظ «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فستقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاستقنا. قال: فيسقون»^(٣). ولم يذكر البخاري مرور بلال بن الحارث إلى قبر النبي

(١) الترمذي في الدعوات عن رسول الله، باب: في دعاء الضيف، رقم (3502) وقال: حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب: ما جاء في صلاة الحاجة، رقم (1375). وأحمد في مسند الشاميين، حديث عثمان بن عفان، رقم (16604).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، رقم (32002): 6 / 356. انظر: فتح الباري لابن حجر: 2 / 594.

(٣) البخاري في الجمعة، باب: سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم (954).

ﷺ لكن ابن حجر في فتح الباري ذكر تلك الزيادة وعلق عليها بجواز التوسل بالأَمْوات والأَحْيَاء»^(١).

ومن الأدلة على عموم التوسل توسله هو نفسه ﷺ بالأنبياء من قبله في قصة فاطمة بنت أسد رضي الله عنها التي رواها الطبراني في «الكبير والأوسط» والحاكم وغيرهما وصححه عن أنبس بن مالك ﷺ قال: «لما ماتت فاطمة بنت أسد رضي الله عنها - وكانت ربت النبي ﷺ وهي أم علي بن أبي طالب ﷺ - دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها، فقال: رحمك الله يا أمي بعد أمي وذكر ثناءه عليها وتكفينها ببرده وأمره بحفر قبرها، قال فلما بلغوا اللحد حفره ﷺ بيده وأخرج ترابه بيده فاضطجع فيه ثم قال: الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين»^(٢).

وأما التوسل بالأولياء والصالحين فهو جائز بمثل جوازه بالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد بين الله عز وجل ذلك وأوضحه غاية الوضوح على يد عمر ﷺ في توسله بالعباس رضي الله عنهم النبي ﷺ إذ قال في الاستسقاء: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فتنسقنا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال: فيسقون»^(٣).

وإنما استسقى عمر ﷺ بالعباس ولم يستسق بالنبي ﷺ ليين للناس أن التوسل بغير النبي ﷺ جائز ولا حرج فيه، لأن الاستسقاء بالنبي ﷺ كان معلوماً عندهم.

(١) فتح الباري: 2 / 495.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم (189): 1 / 67. والحاكم في المستدرک رقم (4574): 3 / 116.

(٣) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

قال الشيخ يوسف النبهاني: «والحاصل أن مذهب أهل السنة والجماعة على صحة التوسل وجوازه بالنبي ﷺ في حياته وبعد وفاته، وكذا بغيره من الأنبياء والمرسلين والأولياء الصالحين كما دلت عليه الأحاديث السابقة لأننا معاشر أهل السنة لا نعتقد تأثيراً ولا خلقاً ولا إيجاداً ولا إعداماً ولا نفعاً ولا ضرراً إلا الله وحده لا شريك له: فلا نعتقد تأثيراً ولا نفعاً ولا ضرراً للنبي ﷺ ولا لغيره من الأحياء والأموات... وإنما يتبرك بهم لكونهم أحبباء الله تعالى والخلق والتأثير لله وحده لا شريك له».

ومن الأدلة على صحة التوسل منه ﷺ بعد وفاته ما رواه الدارمي في مسنده عن أبي الجوزاء قال: «قحط أهل المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلى عائشة - رضي الله عنها - فقالت: انظروا إلى قبر رسول الله ﷺ فاجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمي عام الفتق»⁽¹⁾.

ومن أدلة التوسل ما ذكره ابن حجر في كتابه المسمى «الصواعق المحرقة لأهل الضلال والزندقة» أن الإمام الشافعي رحمه الله توسل بأهل البيت حيث قال:

آل البيت ذريعتي وهم إليهم وسيلتي
أرجو بهم أعطى غداً بيد اليمين صحتي

التوسل بالعمل الصالح:

وهذا جائز وقد ثبت العمل به وتحقق نفعه وفائدته فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بيننا ثلاثة نفر يمشون أخذهم المطر، فأووا إلى غار في جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت

(1) أخرجه الدارمي في مسنده، باب: ما أكرم الله تعالى نبيه ﷺ، (93): 1 / 227.

عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله بها لعله يفرجها عنكم، قال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران ولي صبية صغار، كنت أرعى عليهم، فإذا رحلت عليهم حلبت، فبدأت بوالدي أسقيهما قبل بني، وإني استأخرت ذات يوم، فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فقامت عند رؤوسهما، أكره أو أوقظهما، وأكره أن أسقي الصبية، والصبية يتضاغون عند قدمي حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنني فعلته ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله فرأوا السماء... إلخ الحديث^(١).

ثم يقول ابن عطاء الله: «لأن كل كرامة للولي هي شهادة بصدق النبي ﷺ...».

فقد اتفق العلماء على أن كل معجزة لنبي هي كرامة لولي.

أما الفرق بين المعجزة والكرامة، فالمعجزة لا تجري إلا على يد الأنبياء ويقصد بها تحدي الكافرين وإفحامهم بالمعجزة.

أما الكرامة فتجري على يد الأولياء والصالحين، ولا يقصد بها التحدي بالمعجزة.

أما الحكمة من إجراء الكرامات على يد الأولياء. فإن حكمة الله اقتضت أن يكرم أحبابه وأوليائه بأنواع من خوارق العادات، تكريماً لهم على إيمانهم وإخلاصهم، وتأييداً لهم في جهادهم ونصرتهم لدين الله، وإظهاراً لقدرة الله تعالى، ليزداد الذين آمنوا إيماناً، وبياناً للناس أن القوانين الطبيعية والنواميس الكونية إنما هي من صنع الله وتقديره وأن الأسباب لا تؤثر بذاتها، بل الله تعالى يخلق النتائج عند الأسباب لا بها، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

وقد يقول معترض: إن تأييد الحق ونشر دين الله لا يكون بخوارق العادات، بل يكون بإقامة الدليل المنطقي والبرهان العقلي.

(١) انظر: البخاري في المزارعة، باب: إذا زرع بمال قوم بغير إذنهم، وكان في ذلك صلاح لهم، رقم (2208).

فنقول: نعم لابد من نشر تعاليم الإسلام بتأييد العقل السليم والمنطق الصحيح والحجة الدامغة، ولكن التعصب والعناد يدعو إلى أن تحرق العادات بالكرامات كما اقتضت حكمة الله أن يؤيد أنبياءه، ورسله بالمعجزات إظهاراً لصدقهم وتأييداً لهم في دعوتهم، وحلاً للعقول المتحجرة والقلوب المقفلة أن تخرج من جمودها، وتحرر من تعصبها، فتفكر تفكيراً سليماً مستقيماً يوصلها إلى الإيمان الراسخ، واليقين الجازم^(١).

* * *

(١) حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى، ص: 460، 461.



أسرار الصلاة

من أراد أن يعرف حقيقته فلي نظر إلى صلاته

يقول ابن عطاء الله: عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمه الله أنه قال: كل نفسك وزنها بالصلاة، فإن انتهت عن الحظوظ فاعمل أنك سعدت، وإلا فابك على نفسك إذا جررت رجلك إلى الصلاة جرأً، فهل رأيت حبيباً لا يريد لقاء حبيبه؟! قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: 45] فمن أراد أن يعرف حقيقته عند الله، وينظر حاله مع الله فلي نظر إلى صلاته، إما بالسكون والخشوع وإما بالغفلة والعجلة فإن لم تكن بالوصفين السابقين، فاحث التراب على رأسك، فإن من جالس صاحب المسك عبق عليه من ريحه، فإن الصلاة مجالسة الله تعالى، فإذا جالسته ولم يحصل لك منه شيء، دل ذلك على مرض فيك، وهو إما كبر، أو عجب، أم عدم أدب، قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146] فلا ينبغي لمن صلى أن يسرع الخروج، بل يذكر الله تعالى، ويستغفره من تقصيره فيها، قرب صلاة لا تصلح للقبول، فإن استغفرت الله بعدها قبلت، كان النبي ﷺ إذا صلى استغفر الله ثلاث مرات⁽¹⁾.

يؤكد ابن عطاء الله هنا وفي حكمه العطائية على أهمية الصلاة في الإسلام وأن لها أسراراً عظيمة خفيت عن المسلمين مما يجعلهم يتهاونون في أدائها، ويتمنون انقضاءها حتى يرجعوا مسرعين إلى دنياهم فتراهم ينقرونها نقر الديك أو الغراب لا يستغفرون الله بعد انتهائها... إلخ.

إن إقامة الصلاة هو القيام بأركانها وسننها ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يصلي له. فليس المهم وجود الصلاة في الظاهر وقيام الجوارح فيها، وإنما المهم إقامة الصلاة على حقيقتها⁽²⁾.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «الصلاة مطهرة للقلوب واستفتاح لباب الغيوب» تطهرها من المساوئ والعيوب لما فيها من الخضوع والانكسار والذل والافتقار، واستفتاح

(1) سيأتي تخرجه، ص 350.

(2) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 170.

لباب الغيوب لما اشتملت عليه من تطهير الظاهر والباطن فيستحق المصلي الدخول إلى الحضرة القدسية.

إن الصلاة مناجاة العبد ربه بقلبه ولسانه، أما تحريك اللسان بالقراءة والدعاء، والقلب ساء فهذه هي الغفلة بعينها.

ومع الزمن تصبح القراءة اعتيادية كأني عمل نقوم به دون أن نتأثر بما نقرأ وهذه - للأسف - صلاة الكثيرين منا.

والركوع والسجود المقصود بهما تعظيم الله، وإذا خرج عن كونه تعظيماً لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به.

إذاً كما يقول لك ابن عطاء الله: كل نفسك وزنها بالصلاة، فإن انتهت عن الحظوظ وعن الفحشاء والمنكر فقد تحقق المطلوب وكنت من السعداء يوم القيامة. وإلا فابك على نفسك.

ثم يقول ابن عطاء الله: «إذا جررت رجلك إلى الصلاة جرّاً فهل رأيت حبيباً لا يريد لقاء حبيبه؟!».

فإذا تناقلت عن الصلاة فاعلم أنك لا تريد لقاء الله؛ لأن الصلاة وقوف بين يدي الله وكلها مناجاة لله سبحانه، مناجاة الحاضر للحاضر، لأنك عندما تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5] فإن الكاف هنا لمخاطب حاضر لا غائب.

لذلك جاء في الحديث الصحيح أن الله سبحانه وتعالى إذا قال العبد ذلك قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبي ما سألت⁽¹⁾.

ثم يقول ابن عطاء الله: «فمن أراد أن يعرف حقيقته عند الله، وينظر حاله مع الله، فلينظر إلى صلاته، إما بالسكون والخشوع وإما بالغفلة والعجلة».

الخشوع في الصلاة يعني⁽²⁾: شغل القلب واللسان والجوارح بها، وهيمنة شعور المصلي أنه يقف بين يدي الله سبحانه وتعالى.

(1) أخرجه مسلم، كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (395): 1 / 296.

(2) انظر: الخشوع في الصلاة، للمؤلف، ص: 93.

والداخل في الصلاة يجب أن يعلم ما يقول في صلاته، ولا يتلهى بمشاغل الدنيا الكثيرة، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرٍ﴾ [طه: 14] والغفلة تضاد الذكر.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: 43].

قل سكارى من كثرة الهم وقيل يحتمل المعنيين الظاهر والباطن، وكم من مصل لم يشرب خمرًا وهو لا يعلم ما يقول في صلاته.

وخشوع القلب يأتي من المعرفة، فكلمنا كان القلب أوفر حظاً من العلم بالله والمعرفة بآلائه كان أخشع، وكلمنا كان القلب غافلاً كان أبعد ما يكون عن الخشوع.

أخي المصلي إن اليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة، والحق سبحانه يتركك أكثر من ثلاث وعشرين ساعة في اليوم، ولا يأخذ منك وقت الصلوات الخمس أكثر من نصف ساعة، ففي هذا الوقت القصير الذي يستحضرك الله فيه لصالحك حتى تكون في خلوة معه، لتأخذ طاقة الإمداد والمعونة وإشراقات النور أتستكثر هذا الوقت القصير، وتنشغل فيه عن ربك؟! فلماذا كل هذه العجلة في الصلاة التي هي كما يقول ابن عطاء الله:

«فإن الصلاة مجالسة الله تعالى، فإذا جالسته ولم يحصل لك منه شيء، دل ذلك على مرض فيك، وهو إما كبر، أو عجب، أو عدم أدب، قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146].

فلا ينبغي للمصلي أن يسرع الخروج، بل عليه أن يجلس بعدها يستغفر من تقصيره فيها عل الله أن يقبل صلاته، كان النبي ﷺ إذا صلى استغفر الله ثلاث مرات⁽¹⁾.

* * *

(1) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم

(591): 1/ 414.

كل صلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر لا تسمى صلاة

يقول ابن عطاء الله: واعلم أن كل صلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء المنكر لا تسمى صلاة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: 45]. وأنت تخرج من الصلاة ومن مناجاة الحق سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]. ومناجاة الرسول ﷺ بقولك: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وهذا في كل صلاة، ثم تخرج إلى الذنوب بعد هذه النعم التي أنعم الله بها عليك؟!.

ألا فليعلم المصلي أن صلاته إن لم تنهه عن الفحشاء والمنكر فإنها غير مقبولة عند الله وإن سقط الفرض بها، إذ كيف يقع في الذنوب بعد كل المعاني العظيمة التي واجهته في الصلاة إنه يسأل الله الهداية ويسلم على النبي ﷺ ولو شعر بلذة هذه المناجاة لما اقترف الذنوب والمعاصي بعد الصلاة.

* * *

من فوائد الصلاة

يقول ابن عطاء الله: عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمه الله، أنه كان يحضر - عند فقهاء الإسكندرية، فجاءوا مرة مختبرين للشيخ، فتفرس فيهم، وقال: يا فقهاء هل صليتم قط، فقالوا: يا شيخ وهل يترك أحدنا الصلاة؟ فقال لهم: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿[المعارج: 19 - 22].

فهل أنتم كذلك؟ إذا مسكم الشر لا تجزعوا، وإذا مسكم الخير لا تمنعوا؟ قال: فسكتوا جميعاً، فقال الشيخ: فما صليتم هذه الصلاة قط.

هذه من فوائد الصلاة أيضاً لأن قلب المصلي مرتبط بربه جل وعلا لا يسأل غيره ولا يخاف غير ويحمد الله في السراء والضراء.

فإذا أصابته مصيبة قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 156] ففوض الأمر إليه سبحانه إذ كل شيء بيده، وإذا أنعم الله عليه لم يحرم المساكين والفقراء حقهم بل أدى زكاة المال وأنفق في سبيل الله من الصدقات كل ذلك ليحظى بمرضاة الله سبحانه وتعالى.

* * *

مثال الصلاة بغير حضور قلب

يقول ابن عطاء الله: مثل من صلى الصلاة بغير حضور قل: كان كمن أهدى للملك مائة صندوق فارغة فيستحق العقوبة من الملك، ومن صلاها بحضور القلب كان كمن أهدى له ياقوتة تساوي ألف دينار. فإن الملك يذكره عليها دائماً.

إذا دخلت في الصلاة فإنك تناجي الله سبحانه وتعالى، وتكون رسول الله ﷺ، لأنك تقول: السلام عليك أيها النبي رحمة الله وبركاته ولا يقال أيها الرجل عند العرب إلا لمن يكون حاضراً.

شتان بين من يصلي بحضور قلب وبين من يصلي وقلبه لاهٍ ساهٍ فإن لا يقبل دعاءه قال ﷺ: «إن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ»^(١).

إن الذي يصلي بغير حضور قلب صلاته فارغة، يستحق عليها الذي بدل الثواب فيها حسرته تَوْضُأً وصلى وتعب ثم استحق العقاب أليس أحمق؟.

وهل حضور القلب شرطاً في صحة الصلاة أم شرطاً عنده فقط، يقول الإمام الغزالي: فإن قلت: إن حكمت ببطلان وجعلت حضور القلب شرطاً في صحتها خالفت إجماع الفقهاء، يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير؟. فاعلم أنه قد تقدم العلم، أن الفقهاء لا يتصرفون بالباطن ولا يشقون عن القلوب طريق الآخرة، بل يبنون أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح... على أنه لا يمكن أن يدعى الإجماع. فقد نقل عن بشر بن الحارث فيما رواه عنه أبو طالب المكي عن سفيان الثوري أنه قال: «من لم يخشع فسدت صلاته». وروي عن الحسن البصري أنه قال: «كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع».

(١) الترمذي في الدعوات، باب: ما جاء في جامع الدعوات عن النبي رضي الله عنه وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وروي أيضاً مسنداً قال رسول الله ﷺ «إن العبد ليصلي لا يكتب له سدسها ولا عشرها، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها»^(١)... إلا أننا لا نفتي بهذا الشرط، ولا يشترط الفقهاء إحضار القلب في جميع الصلاة، فإن ذلك يعجز عنه كل البشر إلا الأقلين، وإذا لم يكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مرد له إلا أن يشترط منه ما يطلق عليه الاسم ولو في اللحظة الواحدة، وأولى اللحظات بها لحظة التكبير، فاقصرنا على التكليف بذلك، ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية فإنه على الجملة أقدم على العمل ظاهراً وأحضر القلب لحظة^(٢).

أما الدواء النافع في إحضار القلب^(٣):

فهو دفع الخواطر، وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمراً خارجاً أو أمراً في ذاته باطناً.

1- الأسباب الخارجية: وهي ما يقرع السمع أو يظهر للبصر، وعلاجه ما يلي:

- 1- أن يغض بصره.
- 2- يصلي في بيت مظلم.
- 3- لا يترك بين يديه ما يشغل حسه.
- 4- يقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره.

(1) أخرجه النسائي، كتاب: الصلاة، باب: تطفيف الصلاة، رقم (611): 1 / 211. وابن حبان، كتاب: الصلاة، باب: ذكر البيان بأن المرء يكتب له بعض صلاته إذا قصر - في البعض الآخر. رقم (1889): 5 / 211. بلفظ: «إن الرجل ليصلي ولعله أن لا يكون له من صلاته إلا عشرها أو تسعها أو سبعها، حتى انتهى إلى آخر العدد». وأما عبارة: «يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها». فهي من كلام سفيان الثوري رحمه الله كما سبق.

(2) إحياء علوم الدين، الغزالي: 1 / 190، 191.

(3) انظر كتاب: الخشوع في الصلاة للمؤلف ص: 104 وما بعدها.

5- يجتريز من الصلاة على الشوارع وفي المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة.

2- الأسباب الباطنة: وهي أشد وعلاجه:

1- أن يرد النفس قهراً إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة، ويشغلها به عن غيره، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم بأن يحدد على نفسه ذكر الآخرة، وموقف المناجاة، وخطر المقام بين يدي الله سبحانه وهو المطمع عليه، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهيمه، فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره.

2- فإن كان لا يسكن هوائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه إلا المسهل الذي يجمع مادة الداء من أعماق العروق.

وهو: أن ينظر في الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب، ولا شك أنها تعود إلى ما يهتم به، فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق.

فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه، فإمساكه أضر عليه من إخراجه فيتخلص منه بإخراجه، كما روي أنه ﷺ: «لما ليس الخميصة»⁽¹⁾. التي أتاه بها أبو جهم، وعليها علم⁽²⁾، وصلى بها، نزاعها بعد صلاته، وقال ﷺ: «اذهبوا بها إلى أبي جهم فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي وأئتوني بأنيجانية»⁽³⁾ أبي جهم⁽⁴⁾.

(1) الخميصة: ثوب مخطط من حرير أو صوف.

(2) العلم: النقوش والزخارف.

(3) أنيجانية: كساء غليظ لا زخارف فيه ولا تطريز.

(4) البخاري في الصلاة، باب: إذا صلى في ثوب له أعلام، رقم (366): 1 / 146. ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب: كراهية الصلاة في ثوب له أعلام، رقم (566): 1 / 391.

ثم إن الداخل في صلاته يناجي ربه سبحانه، ويكلم رسوله ﷺ لأنك بقولك في دعاء التحيات: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» فكلمة «أيها» لا يقال إلا لمن يكون حاضراً فكأن النبي ﷺ حاضر معك وأنت تكلمه، فاستح أن تخاطبه وقلبك منشغل عنه شارد في ملذات الدنيا، إنك تخاطب الله ملك الملوك وتخاطب رسوله فكن مخاطباً بجسدك وقلبك وروحك. وانظر لنفسك إذا قابلت وزيراً أو رئيس عملك كيف تستعد لهذه المقابلة بزيك وثيابك وتهتم بها بفكرك وقلبك، وأنت تستعد لذلك أكثر مما تستعد للصلاة؟..

واعلم أن حركات الأعضاء كالجسد من الصلاة، وحضور القلب مع الله والخشوع في الصلاة هو الروح، فكيف تصعد صلاتنا إلى الله وهي جسد بلا روح؟ وهل تطير جثة لا حياة فيها؟!..

* * *

ركعتان بالليل خير من ألف بالنهار

يقول ابن عطاء الله: «ركعتان بالليل خير من ألف بالنهار، وأنت لا تصلي فيه ركعتين إلا لتجد ذلك ميزانك، وهل تشتري عبداً إلا للخدمة».

هل رأيت عبداً يشتري ليأكل وينام، ما أنت إلا عبدٌ اشتريت، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: 111].

هاذ حضٌ على قيام الليل، إذ إن الصلاة في الليل أبعد ما تكون عن الرياء والعجب، إنه يصلي وحده صلاة خاشعة راجياً من الله أن يثقل بها ميزانه، وأن يكون ممن وصفهم الله بقوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿٧﴾ وَلَا يَسْأَلُونَ لَّهُمْ مِّنْ غَفْوَنَ﴾ [الذاريات: 17-18] وممن قال عنهم سبحانه: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجد: 16].

وقد حض النبي ﷺ على قيام الليل، كيف وقد قام هو من الليل حتى تفطرت قدماه الشريفتان^(١).

عن علي عليه السلام أن النبي ﷺ طرقه وفاطمة ليلاً، فقال: «ألا تصليان»^(٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل» فكان عبد الله بن عمر بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً^(٣).

(١) البخاري في الجمعة، باب: قيام النبي الليل حتى ترم قدماه. ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم (5046).

(٢) البخاري في الجمعة، باب: تحريض النبي على صلاة الليل والنوافل، رقم (1059). ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب: ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، رقم (1294).

(٣) البخاري في الجمعة، باب: فضل قيام الليل، رقم (1054) ومسلم في فضائل الصحابة، باب: قصة فضائل عبد الله بن عمر، رقم (4528).

وقال ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله الحرام، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»^(١).

فلماذا نسهر أول الليل نلهو ونمرح وننسى الله، ولا نستيقظ منتصف الليل أو آخره لنكون مع الله؟!.

* * *

(١) مسلم في الصيام، باب: فضل صوم المحرم، رقم (1982).

الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة

يقول ابن عطاء الله: الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة، تتسع فيها ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار، علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها، وعلم احتياجك إلى فضله فكثر أمدادها.

هذه إحدى الحكم العطائية.

فالصلاة محل المناجاة: والمناجاة هي المكاملة، فمناجاة العبد ربه بالتلاوة والأذكار ومناجاة الرب لعبده بالتفهم والفتح ورفع الأستار، وفي الحديث الصحيح: «المُصَلِّي يَنَاجِي رَبَّهُ»^(١).

وقال أيضاً رحمه الله: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، ولعبدني ما سألت، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قال الله تعالى حمدي عبدي. وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال الله تعالى: أثني علي عبدي. وإذا قال: ﴿إِنَّا نَعْبُدُكَ وَإِنَّا نَسْتَعِينُكَ﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدني ما سألت، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ».

قال تعالى: هذا لعبدي ولعبدني ما سألت^(٢).

ومعدن المصافاة: تصفي الأرواح من لوث الأشباح، وتصفي المناجاة من تشويش الحس وكدر الهواجس. ويمكن أن يقال: مصافاة مأخوذة في تصفية وتستعمل عادة في التعبير عن تصفية حساب بين اثنين.

(١) البخاري في الصلاة، باب: حك البزاق باليد من المسجد، رقم (390).

(٢) مسلم في الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (395).

وإنما استعير هذا المعنى للطلب الذي يتجه به العبد في الصلاة أن يصفح عنه فيتجاوز عما تورط فيه من سيئات، معلناً له توبته عنها، وعزمه على عدم الرجوع إليها، فيستجيب الله طلبه ويصفح عنه ويمحو ما قد ثبتته الملائكة على صحائفه من سيئات.

الخاصة الثالثة: يتسع فيها ميادين الأسرار العلوية تهبط إلى قلبه وتشرق فيها شوارق الأنوار الربانية تسري في كيان المصلي وتمتزع بروحه.

فالمصلي إذ يكون خارج الصلاة معرض لأنواع الغفلات والكثير من أسباب اللهو والنسيان. ولكن إذا أقبل يلبي النداء إلى الصلاة، واتجه إلى القبلة ودخل حضرة الله مكبراً فإن الله يقبل عليه ويتجلى على قلبه ومشاعره الروحية، باللطف والرحمة والقبول. وعندئذ تنزل من الأسرار العلوية ما لا يعلمه إلا الله على قلب المصلي وتفيض مشاعره بأنوار التجليات الإلهية، المتمثلة في الخشوع والمهابة والتعظيم والحب^(١).

«علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها». فهي خمس صلوات بعد أن كانت خمسين.

«وعلم احتياجك لفضله فكثر أمدادها». إذ جعل كل صلاة بعشر - فهي خمس وهي خمسون، خمس في الحس وخمسون في المعنى والثواب وإذا فعلت في الجماعة كانت كل واحدة بخمس وعشرين وكل درجة بعشر فكان عدد صلاة الجماعة مئتين وخمسين في كل صلاة والله ذو الفضل العظيم.

وبذلك ينتهي الكلام عن أسرار الصلاة التي أشار إليها ابن عطاء الله رحمه الله.

* * *

(١) شرح الحكم، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 3 / 342.

الشك في الرزق

يقول ابن عطاء الله: كم فيك من الكوامن، فإذا أوردت عليها الواردات أظهرتها، وأعظمها ذنب الشك في الله، والشك في الرزق شك في الرازق.

إذا رأيت من يصبح مهموماً لأجل الرزق، فاعلم أنه بعيد من الله، فإنه لو قال لك مخلوق لا تشتغل غداً بسبب وأنا أعطيك خمسة دراهم وثقت به، وهو مخلوق فقير، فما تكتفي بالغني الكريم الذي ضمن رزقك مع أجلك؟!.

عن بعض النباشين أنه تاب إلى الله تعالى، فقال يوماً لشيخه: يا سيدي نبشت ألف قبر، فوجدت وجوههم محولة عن القبلة؟! فقال الشيخ: يا ولدي ذاك من شكهم في رزقهم.

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لِحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ نَطِقُونَ﴾ [الذاريات: 23].

فبعدما بين الله سبحانه أن الرزق مقسوم من عنده للعباد أقسم بذاته وأكد بمثال نعرفه جميعاً. فالشك في أن الرزق من عند الله كالشك في نطقك، هل يشك أحد بقدرته على الكلام؟! لكن الله علم أن العباد يشكون في الرزق، لذلك تراهم يلهثون وراء الخبز على حساب دينهم وواجباتهم تجاه خالقهم سبحانه وتعالى.

فالشك في الرزق من كوامن النفس وإن أظهرت عكسها ودليل ذلك حرصها على كسب العيش أكثر من حرصها على دينها، تنشط في أمر ضمنه الله سبحانه وتتقاعس عندما يحتاج الأمر لهمة ونشاط.

ثم يضرب ابن عطاء الله لنا مثلاً واقعياً، فلو قال لك إنسان غني: لا تشتغل غداً وأنا أعطيك خمسة دراهم وثقت به وتركت العمل، مع أنه مخلوق فقير، أما إذا أخبرك الله أنه متكفل برزقك شككت بذلك، أليس هذا دليلاً على انطماس البصيرة؟!.

هذا ما بينه ابن عطاء الله في إحدى حكمه حين قال: «اجتهادك فيها ضمن لك وتقصيرك فيها طلب منك، دليل على انطماس البصيرة».

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: «الناس وراء لقمة الخبز، يكاد يصيبهم مس، مع أن الله لو وكل رزق الخلائق إلى قواها لبادت إنه ضمن الأرزاق لعباده، وأجرى مصادرها بين أيديهم رخاء، ومع هذا فهم مكروبون في طلب العيش الذي كفل لهم، أما إحسان الصلة بالله وتوجيه الفكرة إليه، والتعاون مع الآخرين على إقامة دينه والتزام حدوده فهو ما يقصرون فيه، أو ينصرفون عنه.

إن الله أرواحهم من هموم الرزق، وكلفهم بشؤون العبادة، فتكلفوا هم هموم الرزق، واستراحوا من شؤون العبادة.

الله يقول: ﴿وَأَمْرًا هَلَكًا بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرَ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنَقِبَةُ لِلنَّقْوَى﴾ [طه: 132]. وهؤلاء يصيحون، وأهلوهم معهم: الخبز الخبز!!، ناسين الله وناسين وعده بالإغناء والتيسير، لا شغل لهم إلا طلب الدنيا.

وهذه الدنيا نفسها لا تنجي إلا من لدن الله الذي تركوه!!.

ما تقول في امرئ يتقاعس عندما يحتاج الأمر إلى همة ونشاط، ويهتم ونشط عندما يكون الأمر قريباً من أصابعه؟ إن هذا المسلك مع الله دليل انطباع البصيرة»⁽¹⁾.

* * *

(1) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 115، 116.

فوائد الذكر

لا عبادة أنفع لك من الذكر، لأنه يمكن الشيخ الكبير والمريض الذي لا يستطيع القيام والركوع والسجود.

فاصقل مرآة قلبك بالخلوة والذكر، حتى تلقى الله تعالى، وليكن قلبك ذاكرةً^(١). فتنبع لك الأنوار، ولا تكن كمن يريد أن يحفر بئراً فيحفر ذراعاً هنا وذراعاً هنا، فلا ينبغ له ماء أبداً، بل احفر في مكان واحد فينبغ لك الماء.

يا عبد الله: دينك هو رأس مالك، فإن ضيعت رأس مالك فاشغل لسانك بذكره، وقلبك بمحبته، وجوارحك بخدمته، واحرث وجودك بالمحارث، حتى يجيء البذر فينبت، ومن فعل بقلبه كما يفعل الفلاح بأرضه أنار قلبه.

اهتم القرآن كثيراً بذكر الله وهذه بعض الآيات: قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: 45]. أي أفضل من كل شيء.

وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152]. أذكركم أي: بالرحمة والمغفرة والمعونة والنصرة.

وقال سبحانه: ﴿وَأَذْكُرْكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 205].

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45].

وقال سبحانه: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2].

وقال عز وجل: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

أما الأحاديث فكثيرة أيضاً اختار منها ما يأتي:

(1) الترمذي في صفة القيامة، باب: منه، رقم (2381). وقال: حديث حسن صحيح.

أ- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده» ⁽¹⁾.

ب- وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس» ⁽²⁾.

ج- وعنه رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم ولهم فضل من أموال: يحجون، ويعتصرون، ويجاهدون، ويتصدقون. فقال: «ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون من بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «تُسَبِّحُونَ، وتُحْمَدُونَ وتُكَبَّرُونَ خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» ⁽³⁾.

ما أكثر اليوم من يعرض عن ذكر الله، يصحو وينام على شهواته وغفلته، ذلك لأنه لم يعرف أهمية ذكر الله، بل ربما لأنه رأى الذين يذكرون الله بطريقة معينة يقعون في المخالفات، فيصده ذلك عن ذكر الله ويزهد فيه، وهذه حال أغلب الناس وهذا خطأ فادح، ألم يقل الله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: 15]. وإليك بيان لأهمية ذكر الله تعالى حتى تلتزم به صباح مساء.

(1) البخاري في الدعوات، باب: فضل التسيب، رقم (5927). ومسلم في الذكر والدعاء، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (4860).

(2) مسلم في الذكر والدعاء، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (4861).

(3) البخاري في الأذان، باب: الذكر بعد الصلاة، رقم (798). ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (936).

عندما كان النبي ﷺ يقع في ضائقة وتتابه شدة، تنزل الآيات يواسي الله عز وجل فيها رسوله ويدعوه إلى علاج هو ذكر الله تعالى:

اسمع لقوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: 130] وقوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ۖ ﴾ (٢٤) وأذكر اسم ربك بكرةً وأصيلاً ﴿ [الإنسان: 24 - 25].

وعندما يلتقي جيش المسلمين وجيش المشركين الوسيلة التي تثبت المؤمنين وتقوي عزيمتهم هي: ذكر الله. قال تعالى: ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُيِّرَتْكُمْ فِئَةٌ فَأَنْتَبِهُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: 45].

ثم إن الله سبحانه يأمر عباده بالمداومة على ذكره حتى يتخلصوا من الغفلة عنه سبحانه فيقول عز وجل: ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: 205].

ذكر الله نوع من التربية للنفوس وبيان ذلك أن الإنسان مكون من عقل وعاطفة وغالباً ما ينقاد الإنسان لعواطفه الإنسانية أكثر مما ينقاد لقراراته العقلية، ولو وقف أحدنا على مفترق طرق بين يقين عقلي يدعوه إلى اتباع صراط الله عز وجل، وبين أهواء وعواطف وشهوات تجنح به عن ذلك الصراط فما السبيل إلى أن يتحرر من عواطفه، لينقاد إلى قرار عقله؟.

السبيل هو: ذكر الله عز وجل!.

وليس المقصود بذكر الله تعالى كلمة يردها الإنسان، وإن كان ذلك يسمى ذكراً ويشاب الإنسان عليه. وعلى هذا يحمل قوله ﷺ: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله» (١).

(1) سبق تخريجه، ص: 162.

ولكن تحريك اللسان بالذكر إنما هو سبيل إلى غاية، والغاية هي يقظة العقل والقلب وتوجه كل منهما إلى التأمل في عظمة الله عز وجل، وامتلاء وجدانه بصفات الربوبية في ذاته عز وجل^(١).

هذه الحقيقة يبينها الباري سبحانه عندما جعل للذكر ثمرتين قد تبدوان متناقضتين وهما: الاطمئنان والخوف.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]. ويقول في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2].

أما الاطمئنان فإن الإكثار من ذكر الله تعالى يجعل الإنسان مطمئناً بالنسبة لحياته الدنيوية التي يعيشها، لا يقلق فيها من أجل رزق، على الرغم من أنه يسعى للحصول عليه. ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: 132].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97].

أما الخوف والقلق فإن ذكر الله يفجر في كيانه القلق من المآل والخوف من العقابة التي هو آيل إليها. وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآءَاتًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 60].

إنهم يقدمون الطاعات والمبرات لكنهم خائفون من أن تكون شائبة رياء أو هوى قد تسربت إلى عمل أحدهم فأحبطته.

(١) هذا ما قلته أمام الرؤساء والملوك، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 152.

إن شغل اللسان بذكر الله تزيين جارحة بطاعة الله وفي فقدته تعرض لاشتغالها بالمعصية وابن عطاء الله يغري بالذكر، ويطمع رجاله في مقام الإحسان فيقول في إحدى حكمه: «لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه، فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور. ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز».

ثم يقول ابن عطاء الله: «لأنه - أي الذكر - يمكن الشيخ والمريض الذي لا يستطيع القيام والركوع والسجود».

أي بالذكر يستدرك الشيخ ما فاتته من سنوات الغفلة والتقصير، فيبقى قلبه حاضراً مع الله سبحانه فيمده الله بالعون والمغفرة والرحمة، جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله كثرت علي شعائر الإسلام فأوصني بأمر أدرك به ما فاتني وأوجز فقال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»^(١).

ثم يقول ابن عطاء الله: «فاصقل مرآة قلبك بالخلوة والذكر، حتى تلقى الله تعالى».

أما الخلوة فقد تكلمت عنها سابقاً^(٢).

إن الخلوة والذكر والدوام عليهما يخلصان القلب من أوساخ الذنوب والمعاصي بسبب هيمنة الخوف من الله عليه، فيراقب العبد ربه فإن كان هناك ذنب أو تقصير أو غفلة تاب من ذلك واستغفر، وإن كانت هناك طاعة أخلص فيها وأبعدتها عن السمعة والرياء، فيبقى القلب نيراً مصقولاً.

(١) سبق تخريجه، ص: 162.

(٢) انظر ص: 25، 204.

يقول ابن قيم الجوزية: «لا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلأؤه بالذكر فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك صدئ، فإذا ذكر جلاه. وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة، والذنب، وجلأؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر»^(١).

ثم يقول ابن عطاء الله: «وليكن قلبك ذاكرة فتنبع لك الأنوار، ولا تكن كمن يريد أن يحفر بئراً فيحفر ذراعاً هنا وذراعاً هنا، فلا ينبع له ماء أبداً، بل أحفر في مكان واحد فينبع لك الماء».

ومعنى هذا: إذا أردت أن تجني ثمار الذكر فعليك بالمداومة عليه لا أن تذكره يوماً وتنساه أيام !! إذا أردت أن تنبع لك الأنوار في قلبك فعليك بالمداومة على ذكره سبحانه وهذا ما قصده النبي ﷺ بقوله: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»^(٢).

ثم يقول ابن عطاء الله: «دينك هو رأس مالك، فإن ضيعت رأس مالك فاشغل لسانك بذكره، وقلبك بمحبته وجوارحك بخدمته».

وهذا تأكيد لمن فاته العمر بالغفلة أن يستدرك ذلك بهذه الأشياء الثلاثة.

ويختتم ابن عطاء الله هذه الفقرة بقوله: «واحرث وجودك بالمحارث، حتى يجيء البذر فينبت، ومن فعل بقلبه كما يفعل الفلاح بأرضه أنار قلبه».

أي أثبت على ذكر واحد بصيغة واحدة ولا تتشتت في صيغ كثيرة فيتشتت ذهنك بل أثبت على ذكر واحد حتى تنبع لك أنوار هذا الذكر ثم انتقل إلى صيغة أخرى. فقد ورد في نسخة أخرى أن ابن عطاء الله قال: «وليكن ذكرك واحداً فتنبع لك الأنوار. . .».

(١) الوابل الصيب، ص: 52.

(٢) سبق تخريجه، ص: 162.

وحراثة القلب تعني: تنقيته من الأمراض والشبهات والأهواء. فهذه ظلمات تحيط
بالقلب فتمنع نوره، وعلاجها يكون بالمداومة على ذكر الله واستغفاره فيشعر القلب بعظمة
الخالق فيتجه إليه بالعبادة ويترك ما سواه فيتنور القلب بذلك.

* * *

مهمة الشيخ المربي

يقول ابن عطاء الله: واعلم أن العلماء والحكماء يعرفونك كيف تدخل إلى الله تعالى. هل رأيت مملوكاً أول ما يشتري يصلح للخدمة؟،

بل يعطى لمن يربيه ويعلمه الأدب، فإن صلح وعرف الأدب قدمه للملك، كذلك الأولياء رضي الله عنهم، يصحبهم المريدون حتى يترقوا بهم إلى الحضرة، كالعوام إذا أراد أن يعلم الصبي العوم يحاذيه إلى أن يصلح للعوام وحده، فإذا صلح زجه في اللجنة وتركه.

إذا مهمة الشيخ المربي الصادق مع الله هي أن يكشف للمريد عن عيوب نفسه ويكشف له عن حقيقة حاله ويسير به إلى حضرة الله سبحانه، ولكن لا يمكن للشيخ أن ينجح في ذلك حتى يكون أحسن حالاً من التلميذ وأصدق مع الله وأقوم خلقاً وأقوى إيماناً إذ «لن تكون مكماً حتى تكون كاملاً» والكمال لله لكن فاقد الشيء لا يعطيه، فمن لم يزك نفسه كيف يزكي غيره، ومن لم يحسن خلقه كيف يحسن خلق غيره؟!.

ولهذا قال ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن»^(١). فكما أن المرء لا يرى عيوب وجهه إلا بمرآة صافية مستوية فكذلك لا بد للمؤمن من أخ مؤمن مخلص وصادق.

إن مهمة المربي كالزارع الذي يربي الزرع، فكلما رأى حجراً أو نباتاً مضرّاً بالزرع قلعه وطرحه خارجاً، ويسقي الزرع مراراً إلى أن ينمو ويتربى، ليكون أحسن من غيره؟!.

إن الشيخ الكامل يربي بحاله مع الله أكثر من مقاله ولذلك قالوا: حال رجل في ألف رجل أنفع من وعظ ألف رجل في رجل.

(١) أبو داود في الأدب، باب: في النصيحة والحياطة، رقم (4272). والبخاري في الأدب المفرد، باب: المسلم مرآة أخيه، رقم (239)، ص 93.

صفات المرابي والمرشد:

والمرابي والمرشد الذي هو مرشد حقاً، ذاك الذي تبصر بعلوم الشريعة الإسلامية بحيث أُتيح له أن يجعل منها ضابطاً لسلوكه وتصرفاته، ثم إنه فرغ قلبه من حب الدنيا والتعلق بها، فزهّد فيها، وترفع فوق متعها وأهوائها ولم يكن همه كسب المال والمكانة والشهرة بين الناس لا، كل ذلك لا يخطر في باله بل لا يبتغي في شيء من أعماله إلا مرضاة ربه.

المرشد هو الذي تساوى لديه ثناء الناس عليه، مع انتقاصهم له. إذ كانت معاملته مع الله لا مع الناس، وكانت قرة عينه متمثلة في رضا الله، لا في مديح الناس.

إذا صادفك هذا المرشد، عليك به وتشبث بأذياله، إذ ما من شك أنه سيسر - لك سبيل القرب إلى الله. وأسباب الابتعاد عن مزالق الشيطان.

سيحجب إليك اتباع السنة ويجنبك الوقوع في البدع.

ولكن لا تجعل سيرك إلى الله متوقفاً على عثورك عليه، إن صادفته سرت وإن لم تجده أعرضت وتوقفت. يغنيك عن المرشد الحقيقي الذي قد لا تعثر عليه الإخوة الصالحون والناصحون، وما أكثرهم بحمد الله في كل مدينة وصقع.

ثم أين أنت من المرشد الأعظم رسول الله ﷺ؟ اقرأ سيرته بتدبر، وداوم على الصلاة عليه، يقبض الله لك منه مرشداً يدلك إن ضللت ويقومك إن اعوججت ويجب إليك الإيمان، بفضل من الله ويزينه في قلبك ويكره إليك الفسوق والعصيان^(١).

وإن الأتقياء يحسون بآثار هذه التربية تمام الإحساس، إن الصلاة على النبي ﷺ هي الموصلة إلى الله تعالى عند فقد المرشد الكامل.

(١) الحكم العطائية، شرح وتحليل د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 1/ 177، 178.

وينبغي أن يعلم المريد أن الشيخ المرشد ليس معصوماً، لأن العصمة لا تكون لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن هنا تكون صحبة الشيخ المرشد شاقة، لأن المرشد قد يجري عليه على غيره من القضاء والقدر فإن كان الشيخ صادقاً مع ربه فإنه سريع التوبة إلى الله سبحانه.

إن المطلوب من المريد أن يبتعد عن الغلو في شخص الشيخ حتى لا يحره ذلك إلى خلل في العقيدة.

* * *

ليس الرجل من يربيك لفظه إنما الرجل من يربيك لحظه

يقول ابن عطاء الله: ليس الرجل من يربيك لفظه، إنما الرجل من يربيك لحظه. عن الشيخ أبي العباس المرسى عليه السلام، أنه قال: إذا كانت السلحفاة تربي أفراسها بالنظر، كذلك الشيخ يربي مريده بالنظر، لأن السلحفاة تبيض في البر، وتتوجه إلى جانب النهر، وتنظر إلى بيضها، فيربيهم الله لها بنظرها إليهم^(١).

إن المرشد والمربي الذي زكى نفسه والتزم الكتاب والسنة يربي بحاله مع الله أكثر من مقاله، لذلك قالوا: حال رجل في ألف رجل أنفع من وعظ ألف رجل في رجل.

فالحال هو ما عبر عنه ابن عطاء الله باللحظ. فما هو الحال؟

إنه وضع يتلبس كيان الإنسان من جراء ما انتهى إليه باطنه من تزكية النفس، وطهارة القلب، وتحوله إلى وعاء يفيض بمراقبة الله وتعظيمه والخوف منه والحب له، وبالجملة فالحال المعني بها هنا هي تخلص الإنسان مما ساء الله باطن الإثم.

صاحب هذه الحال، ينبعث تأثير من كيانه، من نظراته، من قسّمات وجهه، من سر ينبعث من عموم وضعه، إلى جلسه القريب منه والمقابل له، دون حاجة إلى أن يتكلم وينصح ويناقش. . وإذ إن هذا السر تنبعث آثاره من باطن الكيان إلى ظاهره، ويترك في نفس الجليس من النتائج ما لا تستطيع المواعظ الكلامية أن تحققه. وما أكثر الأعراب الذين انتقلوا خلال دقائق معدودة، من أقصى أودية التيه إلى أعلى درجات الهداية، عندما ضمهم مجلس فيه رسول الله ﷺ وصافحت أعينهم قسّمات وجهه، فسرى من حاله القلبية مع الله عز وجل إلى نفوسهم،

(١) جاء في حياة الحيوان الكبرى للدميري، عند كلامه عن السلحفاة البحرية التي تبيض على الشاطئ: «وهي

إذا باضت صرفت همتها إلى بيضها بالنظر إليه ولا تزال كذلك حتى يخلق الله تعالى الولد منها، إذ ليس

لها أن تحضنه حتى يكمل بحرارها، لأن أسفلها صلب لا حرارة فيه»: 2 / 33.

ما أيقظ فيها كوامن الفطرة، وألهم فيها مشاعر الحنين إلى الحق وأسقط منها ركام الأهواء والعصبيات.

وأما المقال فيتمثل في أن يكون هذا الذي تصحبه وتجالسه، ممن لا يألو جهداً في نصيحتك، يأمرك بالمعروف إن نسيته أو أعرضت عنه، وينهاك عن المنكر الذي تلبست به، متقيداً بالحكمة الحسنة.

فلا يكفي في الصاحب الذي تركز إليه أن يكون ذا حال صامته، لا يذكر بأخطائك ولا ينهاك عن عثرتك. كما لا يكفي أن يكون ذا منطق متوهج بالنصح والموعظة والإرشاد، إن لم يكن قبل ذلك أو مع ذلك ذا حال مما قد وصفت لك ^(١).

والقصة الآتية تؤكد أن التربية تكون بالحال وأنها تنقل الإنسان من الغفلة والشرود إلى اليقظة، ومن حال المعصية إلى حال التوبة.

قصة الشيخ محمد الحامد مع شيخه أبي النصر خلف:

كان الشيخ محمد الحامد رحمه الله وهو من علماء حماة وكان يدرس العلم في مدينة حلب، وكان الشيخ أبو النصر خلف رحمه الله متربعاً فيها على عرش قلوب أكثر علمائها وجمهرة عامتها، وكان يتردد عليها كثيراً، وكان الشيخ محمد الحامد على معرفة بالشيخ وثيقة، وقد سبق أن تلقى الذكر منه، إلا أن أفكار خاله الشيخ سعيد الجابي الذي كان يخالف أهل الذكر والطرق وشن عليهم حملات عنيفة، لم تقف عند البدع، بل كان فيها إفراط وتحامل كبيران من الشيخ رحمه الله تعالى.

هذه الأفكار كانت لا تزال متمكنة من قلب الشيخ محمد الحامد... وفي إحدى الليالي العامة بالذكر، التي كانت تشهدها حلب حين مجيء الشيخ إليها، ذهب الشيخ محمد الحامد

(١) شرح الحكم، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 2 / 156 وما بعدها.

مع رفيق دراسته الشيخ أحمد الحصري رحمه الله لرؤية الشيخ أبي النصر- والسلام عليه، ولما دخل الدار، خشي رفاقه في المدرسة من أتباع الشيخ أن يسبب لهم بعض المشاكل، لكن الشيخ أبا النصر ما إن وقع بصره عليه حتى استدعاه، وأجلسه أمامه مع صاحبه، وأمر المنشد بالإنشاد، وبدأ المنشد بقصيدة مطلعها:

كان لي ظل رسوم	فاستوت شمسي- فزالا
عشت بالمحجوب حقاً	بعد ما كنت خيلاً
وتخفى عن عياني	بي عزاً وكـمـالاً
لست بعد اليوم أخشى	منه والله انفضالاً
أنا مقعد صدق	أجتنبي منه وصالاً
كل أوقاتي منه	فرحات تتوالى
هكذا العشق وإلا	كان والله انفعالاً

وأخذ الشيخ يتوجه بقلبه إلى الشيخ محمد الحامد، وما مرت فترة حتى اشتعل القلب بالذكر وطغت عليه حال عجيبة وقام مأخوذاً هو ورفيقه يصيحان ثم أكبا على حجر الشيخ، فتلقاهما بهدوء وسرور كما تتلقى الأم أطفالها وكان الشيخ محمد الحامد بعد ذلك اليوم يقول: «إنه الذي أخرجني الله تعالى به من ظلمات الغفلة والقسوة والشرود، إلى نور الذكر والرقعة والوقوف بباب الله سبحانه في ذلة وضراعة لهذا الرب الكريم، إنه الذي ملأني بتوجهات قلبه الشريف...»⁽¹⁾.

وفي هذا المعنى يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيثما صار التنوير وصل التعبير».

(1) الشيخ المجاهد، محمد الحامد، عبد الحميد طهراز، ص: 198، 199، 200.

والحكيم هو الذي أصاب الحق في العمل والقول.

فهؤلاء الحكماء يسري من أفئدتهم نور إلى أفئدة من يتوجهون إليهم بالخطاب، فتبعث فيها تأثيراً يعرفه جيداً أصحاب تلك القلوب التي تتلقى هذا التأثير وهذا النور يفتح طريقاً للكلام الذي ينطقون به، ولقد ظلت العرب تقول، دون وجود أي مناقش أو معارض: «ليست النائحة كالثكلى». فول مضت النائحة - التي تمتهن من النياحة - تصيح من الصباح إلى المساء لن يصل من نواحها إلى آذان الناس ونفوسهم إلا الضجيج، ولو زفرت الثكلى زفرة واحدة على وليدها الذي فقدته، ألهبت أفئدة السامعين بضرام الحزن والأسى.

فمثل النائحة مثل كل من يمتهن النصيح وأحاديث الدعوة إلى الله وتحبيب دينه إلى قلوب الناس، ابتغاء مغنم من المال أو الشهرة أو القيادة والرئاسة أو مصلحة ما من مصالح الدنيا. . . ومثل الثكلى مثل الحكماء الذين هيمن وجود الحق سبحانه وتعالى على أفئدتهم ومشاعرهم، بعد أن استقر يقيناً في عقولهم، فأورثهم ذلك نوراً تجلى به الله على قلوبهم، فانتشر منه سر أخاذ إلى وجوههم ونظراتهم، وامتزج في أحاديثهم وأقوالهم⁽¹⁾.

* * *

(1) شرح الحكم العطائية، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 4 / 246، 247.



أبناء الدنيا وأبناء الآخرة

عليك بأبناء الآخرة

يقول ابن عطاء الله: كما أن للدنيا أبناء، من استند إليهم كفوه، فكذلك إن للآخرة أبناء، من استند إليهم أغنوه. ولا تقل: طلبنا فلم نجد، فلو طلبت بصدق لوجدت، وسبب عدم وجدانك عدم استعدادك، فإن العروس لا تحلى على فاجر، فلو طلبت رؤية العروس لتركت الفجور، ولو تركت الفجور لرأيت الأولياء، والأولياء كثيرون، لا ينقص عددهم ولا مددهم، ولو نقص واحد منهم لنقص نور النبوة.

قال الشاعر:

انت في الناس تقاس بالذي اخترت خليلاً
فاصحب الأخيار تلعو وتنل ذكراً جميلاً

فالإنسان مدني بطبعه لا بد أن يختلط مع الناس ويقيم علاقات معهم، ولا بد للمسلم أن يجعل هذه العلاقات مع الأخيار من الناس حتى يُعان على الخير.

وقد اختار الله سبحانه لنبيه ﷺ صحابته رضوان الله عليهم، واختار النبي ﷺ أن يكون معهم ويترك أهل الدنيا من الشرفاء والعظماء لأنه قد أمر بذلك بقوله سبحانه: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 28].

وقد حثنا النبي ﷺ على مصاحبة الأخيار بقوله: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»^(١). والله سبحانه وتعالى قد جعل لنا شعاراً دائماً في هذه الحياة ينبغي أن نجعله ديدناً وهو قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119].

(١) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء في صحبة المؤمن، رقم (2318). وقال: حديث إنما نعرفه من هذا الوجه، وأبو داود في الأدب، باب: من يؤمن أن يجالس، رقم (4192).

إن الصحبة الصالحة يمتد أثرها إلى اليوم الآخر، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67].

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم يعرفون أهمية الأخ في الله، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «لولا ثلاث لكان بطن الأرض خير وأحب إلي من ظهرها، وذكر منها مجالسته إخوانه ينتقون أطايب الكلام، كما ينتقى أطايب الثمر».

وهذا فقه عظيم لأن الصديق والأخ في الله سبحانه له منافع كثيرة منها: أن يذكرك إذا نسيت أمراً من أمور الخير. أو يذكرك بالخوف من الله إذا نسيت وراك على معصية.

والأخ في الله يكسبك سمعة حسنة بين الناس، وتستزيد علماً دائماً فإن أهل الخير كلامهم مرتبط بكلام الله عز وجل ومواعظهم متصلة بهدي رسول الله ﷺ وأخبارهم تجول في سير الصحابة والعلماء والأئمة، فأنت لا تسمع إلا خيراً يزيدك علماً وإيماناً بالله سبحانه.

ومن حقوق الأخوة في الله أن يستر المسلم على أخيه المسلم فإن الإنسان لا يسلم من هفوة وقد تمر به بعض الظروف فيذنّب ويخطئ، فهذا يجب أن يقابل بالستر من أخيه المسلم مع النصح والتقويم بالحسنى «والمؤمن مرآة المؤمن»^(١). كما ورد لأنه يرى فيه عيوبه ويصير فيه تقصيره فيقع التكامل بين المسلم وأخيه المسلم، والمسلم للمسلم كاليدين تغسل إحداها الأخرى.

فيا أخي المسلم أنت في هذا العصر الذي اختلطت فيه الأمور، ووقع الناس فيه بالشرور، وأصبح اختلاط الناس صالحاً وطالحاً يحير الإنسان فيمن يصحب، وكذلك لأنك تجتمع بكثير من الناس في عملك وفي دراستك فليكن عندك دائماً نبراس تهتدي به وتقويم تلجأ إليه وهو التقويم الذي ذكره الله في قرآنه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

(١) أبو داود في الأدب، باب: في النصيحة والحيطة، رقم (4272). والترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، رقم (1852).

فلا تغتر بكثرة ما عند بعض الناس من الجاه، أو ما عندهم من الأموال، أو ما عندهم من أمور يخطفون بها الأبصار من بعض العلوم وغير ذلك فإن هذا كله ليس وراء شيء.

فاحرص يا أخي المسلم على هذا الاختيار واحرص على الانتفاع واعلم أن مثل هذا الأمر يغفل عنه كثير من الناس ويجعلون للمجاملات وبعض الأساليب التي قد لا ترضي الله عز وجل مدخلاً في مثل هذا، فاحذر كل ما حرم الله عز وجل من صحبة أهل الفساد أو أهل الكفر فإن هذا دين تحرص عليه وخلق تحافظ عليه فاجعل له صيانة وحياطاً من أولئك الأخيار.

ولا تقل: طلبنا فلم نجد، فما أكثر الأخيار، ولكن عدم وجدانك سببه عدم استعدادك بسبب كثرة معاصيك وذنوبك، إذ كيف ترى النور وأمام عينيك وحول قلبك حجاب سميك، اترك الفجور وأطع الله تر أولياء الله والأخيار من حولك وما أكثرهم.

* * *

صحبة أبناء الدنيا وأبناء الآخرة

يقول ابن عطاء الله: إذا صحبت أبناء الدنيا جذبوك إليها، وإذا صحبت أبناء الآخرة جذبوك إلى الله، قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ المرء على دين خليله، فليُنْظَر أحدكم من يخال»^(١). كما نختار لنفسك المآكل الطيبة التي لا ضرر فيها والزوجة الحسنة لتزوجها، وكذلك لا توادد إلا من يعرفك الطريق إلى الله سبحانه وتعالى.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «لا تصحب إلا من ينهضك حاله ويدلك على الله مقاله».

وقد بين الله لنا أهمية الصحبة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119].

ويحذرننا من أبناء الدنيا الذين يُضِلُّون عن طاعة الله سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾^(٢٧) يَتَوَلَّى لِيَتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانَا خَلِيلًا^(٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: 27 - 29].

أما الأحاديث فكثيرة منها ما ذكره ابن عطاء الله في الفقرة أعلاه، ومنها ما يأتي:

عن أبي ذر رضي الله عنه قلت: يا رسول الله، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم؟ قال: «أنت يا أبا ذر مع من أحببت»^(٢).

(1) الترمذي في الزهدي، باب: ما جاء في أخذ المال بحقه، رقم (2300) وقال: حديث حسن غريب. وأبو داود في الأدب، باب: من يؤمر أن يجالس، رقم (4193) وأحمد، باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة، رقم (7685).

(2) أبو داود في الأدب، باب: إخبار الرجل بمحبته إياه، رقم (4461).

إن هذه الآيات والأحاديث السابقة الذكر وغيرها كثير تبين بمجموعها أهمية صحة الأخيار، وترك صحة الأشرار وأن صحة الأخيار من أبناء الآخرة هي السبيل العملي للإصلاح والتربية وتزكية النفوس لأنهم يجذبون إلى الآخرة على عكس أبناء الدنيا فإنهم منغمسون في لذاتها ويجذبون كل من يصاحبهم إلى الانغماس في تلك اللذات.

المرء على دين خليله كما قال ﷺ، هذا الاهتمام من النبي ﷺ في اختيار الصديق لأن الصحبة يتبعها المحبة والموافقة، فإن صحبت الأشرار فإنك قد تودهم وتحبهم ثم تندفع إلى موافقتهم فيؤول الأمر إلى الوقوع في المعاصي وإلى الغفلة التي تصد القلب عن ذكر الله سبحانه وتعالى. وهذا معنى قول ابن عطاء الله: «إذا صحبت أبناء الدنيا جذبوك إليها».

وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً رائعاً للجلس الصالح وجليس السوء، فقال ﷺ: «مثل المجلس الصالح والجلس السوء كمثل حامل المسك ونافخ الكير، فأما الأول إما أن يحذيك - يعطيك - أو تبتاع منه أو تجد منه ريحاً طيبة، وأما الآخر إما أن يحرقك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»^(١).

وقد أخبرنا عز وجل على لسان نبيه ﷺ ما ادخره لأولئك الذين تحابوا في الله وتآلفوا عليه أنه جعلهم على منابر من نور يغبطهم الأنبياء والشهداء وليسوا بأنبياء ولا شهداء، إنهم المتحابون في الله إنهم المتزاورون في الله^(٢).

* * *

(١) البخاري في البيوع، باب: في العطاء وبيع المسك، رقم (١٩٥٩) ومسلم في البر والصلة، باب: استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٤٧٦٢).

(٢) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء في الحب في الله، رقم (٢٣٢١) وقال: حديث حسن صحيح. وأحمد، مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل، رقم (٢٠٩٩٥). ومالك في الموطأ، باب: ما جاء في المتحابين في الله، رقم (١٥٠٣).

إذا خلّبت من يدلك على الله ويعرفك بعيوب نفسك لم تجد إلا قليلاً

يقول ابن عطاء الله: إذا طلبت قارئاً وجدت ما لا يحصى، وإذا طلبت طبيباً وجدت كثيراً، وإذا طلبت فقيهاً وجدت مثل ذلك، وإن طلبت من يدلك على الله ويعرفك بعيوب نفسك لم تجد إلا قليلاً، فإن ظفرت به فأمسكه بكلتا يديك: يبين ابن عطاء الله رحمه الله أن العلماء على قسمين: علماء الدنيا، وعلماء الآخرة أما علماء الدنيا فكثيرون جداً، وأما علماء الآخرة فقليلون جداً.

والأمر الفارق بين الفئتين: أن علماء الدنيا، ينظرون في الرياسة فيها، ويحبون كثرة الجمع والثناء، وعلماء الآخرة بمعزل من إثارة ذلك، وقد كانوا يتخفون، ويرحمون من يلي به، فكانوا يتدافعون الفتوى ويحبون الخمول أي -الخفاء وعدم الذكر- ومثلهم كمثلي ركب البحر وقد خب^(١)، فعنده شغل إلى أن يوقن بالنجاة وكان بعضهم يدعو لبعض، ويستفيد منه، لأنهم ركب^٢ تصاحبوا فتوادوا فالأيام والليالي مراحلهم إلى سفر الجنة^(٣).

وقد حذر النبي ﷺ من علماء الدنيا بقوله ﷺ: «يخرج في آخر الزمان رجال يختلون^(٤) الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من الدين ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله عز وجل: أي يغترون أم علي يجترئون، فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيراناً»^(٥).

(١) خل: أسرع.

(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 49.

(٣) يختلون: يطلبون.

(٤) الترمذي في الزهد عن رسول الله، باب: ما جاء في ذهاب البصر، رقم (2328).

فإن ظفرت بمرشد همه الخوف من الله والعمل لآخرته فاعلم أن هذا هو من يدلك على
الله ويعرفك بعيوب نفسك، فإن ظفرت به فأمسكه بكلتا يديك واستفد منه وخذ من تجربته
وتحقق بعلو همته.

* * *

من أكثر من مجالسة أهل هذا الزمان فقد تعرض لمعصية الله

يقول ابن عطاء الله: ليس الشأن فيمن يرفق بك إذا وافقته، بل الشأن فيمن يرفق بك إذا خالفته.

من أكثر من مجالسة أهل هذا الزمان فقد تعرض لمعصية الله تعالى، مثاله: كمن جعل الخطب اليابس في النار، ويريد أن لا تتقد، فقد أراد محالاً، لأنه قد ورد خص بالبلاء من عرف الناس وعاش فيهم ليس كمن لم يعرفهم، فربما جالست غير متقٍ وكنت أنت متقياً فجرك إلى الغيبة، وقهرك في نفسك.

هفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية أو في حقك بتقصيره في الأخوة، أما ما يكون في الدين من ارتكاب المعصية فعليك التلطف في نصحه حتى يعود إلى الصلاح وأبغض عمله من حيث تحبه، وادع له بالعود إلى ما كان عليه من الطاعة. أما زلته في حقه بما يوجب إيجاشه فالأولى العفو والاحتفال والتماس العذر له^(١).

كثيراً ما نرى أشخاصاً يوافقون غيرهم وإن كانوا على خطأ وهذا يسبب التهادي في المعصية وقلب الخطأ إلى الصواب، فاحرص على تجنب هؤلاء، واختر من الأصحاب من يصبر عليك إذا خالفته، ويحتمل المكروه ويقبل العثرة. هذا هو الصديق الذي يحبك الله، وذاك منافق سرعان ما يتركك حين تنتهي المصلحة التي رافقتك لأجلها.

ثم قال ابن عطاء الله: «من أكثر من مجالسة أهل هذا الزمان فقد تعرض لمعصية الله.». .».

فأبناء هذا الزمان قد اختلطت عليهم الأمور، فتراهم يقدسون أشياء بسيطة ويستهترون بأشياء عظيمة، وهم يقدمون العادة والإلف على أحكام الشرع. فهم يستوحشون من فعل الشيء لعدم جريان العادة، لا لنهي الشرع! اسمع لابن الجوزي يصف أهل زمانه -القرن

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي: 2 / 255 وما بعدها.

السادس الهجري - فكيف بأهل زماننا فيقول رحمه الله: «فكم من رجل يوصف بالخير يبيع ويشترى فإذا حصلت له القراضة^(١). باعها الصحيح من غير تقليد لإمامه، أو عمل برخصة عادة من القوم واستثقلاً للاستفتاء، ونرى خلقاً يحافظون على صلاة الرغائب^(٢)

ومنهم من يعلم أن أصل ماله حرام، ويصعب عليه فراقه للعادة، فتجلى لي من الأمر أن العادات غلبت من الناس، وأن الشرع أعرض عنه، وإن وقعت موافقة الشرع كيفما اتفق، أو لأجل العادة، فإن الإنسان لو ضرب بالسياط ما أفطر في رمضان عادة قد استمرت، ويأخذ أعراض الناس وأمواهم عادة^(٣) .

إذا مخالطة الناس غالباً ما تعرض لمعصية الله في هذا الزمان، وتوقع في الغيبة وهتك الأعراض والحقد والحسد، فكان اجتنابهم أولى حفاظاً على الدين.

أنشد الإمام الشافعي رحمه الله قائلاً:

ليت السباع لنا كانت مجاورةً وليتنا لا نرى مما نرى أحداً

إن السباع لتهدي في مرابضها^(٤) والناس ليس بهادٍ شرهم أبداً

فاهرب بنفسك واستأنس بوحدتها تعش سليماً إذا ما كنت منفرداً

(١) القراضة: بيع الدراهم المكسرة بالصحيحة مع عدم التساوي، وهذا فيه شبهة الربا.

(٢) تصلى أول ليلة جمعة من شهر رجب. وهذه الصلاة بدعة عند جمهور العلماء والأحاديث المروية في فضلها باطلة.

(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص: 263 ، 264 .

(٤) المربض: مكان مأوى الغنم.

وقال رحمه الله:

الناس داءٌ وداء الناس قريهم وفي اعتزالهم قطع المودات
ولست أسلمُ من خل يخالطني فكيف أسلم من أهل العداوات

* * *



أحوال النفس

البلاء اختبار للعبد

يقول ابن عطاء الله: قدر لك الصحة والمرض والغناء والفقر والفرح والحزن، حتى تعرفه بأوصافه. ما من نفس يبيده الله تعالى فيك من طاعة أو مرض أو فاقة، إلا وهو يريد أن يختبرك بذلك.

إذا أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾^(١) [التوبة: 60].

قال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^(٢).

لماذا قضى الله أن تكون الدنيا مشوبة بالأكدار:

قضى الله أن تكون الدنيا مشوبة بالأكدار، وأن يمزج نعيمها بالغصص، فما الحكمة من ذلك؟.

إن الحكمة الباهرة تتجلى في حقيقتين اثنتين^(٣).

الحقيقة الأولى: أن الله عز وجل جعل من هذه الدنيا دار تكليف، بل جعل منها قاعة امتحان إن جاز التعبير. . . فإذا فرضنا أن الحياة التي أقام الله الإنسان فيها، ليس فيها إلا النعيم الصافي من الأكدار، فيها السرور الذي لا تشوبه منغصات، إذاً فمن خلال أي سلوك أو من خلال أي استجابة لأوامر الله تتجلى عبودية الإنسان لله بسلوكه الاختياري؟.

ممارسة العبودية ثمرة للتكليف، والتكليف لا يسمى تكليفاً إلا إن كان ملاحقاً للمكلف بما فيه كلفة أي مشقة.

(1) هذه العبارة إحدى الحكم العطائية.

(2) أحمد، في مسند الأنصار، حديث فاطمة عمة أبي عبيدة، رقم (25832).

(3) الحكم العطائية، شرح وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 334 وما بعدها بتصرف في العبارة.

ولقد علمت أن الدعاء هو العبادة، وأن الدعاء ثمرة الحاجة والفاقة والخوف من الآلام والمصائب، فمن لم يكن خائفاً على نفسه منها، يعيش في نعمة وسرور فهو أبعد ما يكون عن أن يمد يد فاقة أو ضراعة إلى الله.

ومن المعلوم أن سدى ولحمة التكليف الإلهية هما الصبر والشكر وإنما يكون الصبر أمام الشدائد والمصائب والآلام. في حين أن الشكر يكون باستخدام النعم. إذاً فحياة التكليف هذه ينبغي أن تكون مزيجاً من هذه وتلك.

وقد نبه البيان الإلهي الإنسان إلى هذا المزيج، ولفت نظره إلى الحكمة من ذلك كي لا يفاجأ منهما بما لم يتوقع.

من ذلك قوله جل جلاله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَرُوا وَتَفَتَّوْا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186].

الحقيقة الثانية: أن الشأن في هذه الحياة الدنيا، أن تكون محدودة بميقات معين، وهو ميقات الامتحان ومن ثم إلى مقر عاقبة وجزاء. والبوابة للانتقال هي الموت!.

أفترى إذاً أن من الحكمة أن يجعل الله من هذه الحياة الدنيا القصيرة أشبه باستراحة في طرق مسافر، مثابة نعم صافية عن الشوائب والكدورات.

تخيل أنك تتقلب متنعماً في حياة من هذا القبيل، إذاً فلسوف تزداد تعلقاً بها كلما امتد عمرك فيها، فكيف تكون حالك إن جاءك الموت ودعيت إلى الرحيل من هذه الحياة؟.

سيكون فراقك لها، أشبه ما يكون بكتلة من الحرير تعلقت من سائر أنحائها بنبات كثيف ذي رؤوس يابسة شائكة، جاء من اجتذبها بيده جذبة واحدة بشدة، فتقطع منها في يده ما تقطع، وتناثر منها ما تناثر بين الشوك.

فكان من لطف الله بعباده أن جعل نعيم الناس في دنياهم بمقدار احتياجهم إليه على طريق تحقيق المهام التي كلفوا بها، وجعل عافيتهم أداة يسخرونها في هذا المضمار.

ثم جعل سبحانه إقبالهم إلى الدنيا أشد ما يكون في زمن شبابهم، فإذا دخلوا في مرحلة الكهولة تناقص إقبالهم إلى متع الدنيا، تحت وطأة القوة المتراجعة والغرائز التي تميل إلى الملل أو البرود، فإذا دخلوا في مدارج الشيخوخة، ازداد ذلك الإقبال تراجعاً.

كل ذلك يهيئ نفسياً لساعة الرحيل، فإذا طرق الموت بابه فعلاً، بعد هذه المقدمات، لم يأسف على الدنيا التي يرحل منها.

ومن رحمة الله بعباده خفف عنهم ألم البلاء إذ أعلمهم بأنه سبحانه هو المبلي، فيقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «ليخفف ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار» فإذا أصابتك أيها الإنسان فاقة أي: مصيبة، أو نزلت بك بلية في بدن أو أهل أو مال فاذكر من أنزل ذلك عليك وما هو متصف به من الرحمة والرأفة بك والمحبة والعطف عليك، لعلك تفهم ما في طي ذلك من النعم وما يعقبه من سوايغ الفضل والكرم، ولو لم يكن إلا تطهيرك من الذنوب وتمحيصك من العيوب وتقريبك من حضرة علام الغيوب، فهل تعودت منه إلا الإحسان وهل رأيت منه إلا غاية المسرة والامتنان فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار.

وقد ورد في ثواب الأمراض والأوجاع أحاديث كثيرة وآيات قرآنية في مدح الصابرين منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفِ الصَّبْرُ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10] وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 155] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153].

وقوله ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يُشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها»⁽¹⁾.

(1) البخاري في المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرض، رقم (5210).

يقول ابن عطاء في حكمه: «لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت في هذه الدار فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها».

الأكدار هنا هي الصحة والمرض والفرح والحزن والموت والفتنة والهرج—وهو ما يسمى بالنوازل الجلالية أو القهرية—. فالمسلم لا يستغرب شيئاً من تجليات الحق ولا يتعجب من شيء منها كائنه ما كانت جلالية أو جمالية فإن نزلت به نوازل قهرية أو وقعت في هذه الدار أكدار وأغيار جلالية فلا يستغرب وقوع ذلك لأن تجليات هذه الدار جلها جلالية لأنها دار أهوال ومنزل فرقة وانتقال فلا تحزن فهذه صفة الدنيا ونعتها بل تعرف على الله في الجلال والجمال والحلوة والمرّة^(١).

ويقول في إحدى حكمه: «ربما وجدت من المزيد في الفاقات ما لا تجده في الصوم والصلاة».

لأن ورود الفاقات يصفى القلب ويظهر السريرة بر جوع العبد إلى ربه وقد لا يحصل له ذلك بالصوم والصلاة، لأن الصوم والصلاة قد يكون فيها شهوة وهوى فلا يؤمن عليه من دخول الآفات.

وقال في إحدى حكمه «الفاقات بسط المواهب».

لأن الفاقة تجعل العبد يحضر مع الحق سبحانه وتجلسه على بساط الصدق، وتخيل ما يحصل من تلك المحاضرة من المواهب الربانية والنفحات الرحمانية.

والمواهب جمع موهبة وهي: كل ما قد يتفضل به المولى عز وجل على عبده من النعم المادية والمعنوية، المتعلقة بشؤون الدنيا أو الآخرة وقال في إحدى حكمه: «من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها».

(١) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص 57.

لذلك قيل : «إنما يعرف قدر الماء من بلي بالعطش في البادية، لا من كان على شاطئ الأنهار الجارية».

ولأجل غلبة الجهل بالنعم إلا عند الفقد، أمرنا النبي ﷺ بالنظر إلى من هو أسفل منا لئلا نزدري نعمة الله علينا فقال ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق فليتنظر إلى من هو أسفل منه»^(١).

ويقول في إحدى حكمه: «إنما جعلها محلاً للأغيار ومعدناً للأكدار تزهيداً لك فيها».

فلأكدار الدنيوية نعمة على العبد تجعله يكره الدنيا ويزهد فيها ويحس بقربه من الله عز وجل فيتوجه بقلبه إلى الله طالباً رضاه وراجياً السعادة في الآخرة.

ولكن ضعف الإيمان يجعل النفس لا تصبر على البلاء مما جعل كثيراً من العلماء كالشيخ عبد القادر الجيلاني يقول في دعائه ونحن أولى أن ندعو بهذا: «اللهم لا تبتلينا، اللهم ارزقنا القرب منك بلا بلاء، اللهم قرباً ولطفاً، اللهم قرباً بلا بعد، لا طاقة لنا على البعد منك ولا على مقاساة البلاء فارزقنا القرب منك مع عدم نار الآفات، فإن كان ولا بد من الآفات فاجعلنا فيها كالسمندل^(٢). الذي يبيض ويفرخ في النار وهي لا تضره ولا تحرقه، اجعلها علينا كنار إبراهيم خليلك، أنبت حوالينا عشباً كما أنبت حواليه وأغننا عن جميع الأشياء كما أغنيته، وآنسنا وتولنا كما توليته، واحفظنا كما حفظته آمين»^(٣).

* * *

(١) البخاري في الرقاق، باب: لينظر إلى من هو أسفل منه (6009). ومسلم في الزهد والرقائق، (5263).

(٢) السمندل: حيوان من رتبة البرمائيات، صغير الجسم غالباً يشبه العظاءة في شكلها العام. ويطلق على طائر بالهند لا يحترق بالنار فيما زعموا. المعجم الوسيط، ص: 469.

(٣) الفتح الرباني، ص: 37.

الحكمة من الفاقة والغنى والفقر

يقول ابن عطاء الله: يا هادم الطاعات ما سلط الله عليك الفاقة إلا لترفع حالتك إليه ولتنجع^(١) عليه.

ربما كان الغنى دفعاً والفقر جمعاً، لأن الفاقة توجب أن تتضرع إلى الله، وفاقة تجمعك على الله خير من غناء يقطعك عنه.

ربما قضى عليك بالذنب ليخرج منك الكبر والعجب.

وهذا تأكيد لما سبق من الحكمة في الابتلاءات.

الفاقة والفقر من نعم الله - كما مر - وإن كان ظاهرها مؤلماً بل هي من النعم الباطنة التي قال عنها سبحانه: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20].

وإذا كان الفقر يجعل صاحبه يتضرع إلى الله ويلتجئ إليه فهو خير من غنى ينسيه ربه ويقطعه عنه.

ثم قال: «ربما كان الغنى دفعاً - عن الله - ، والفقر جمعاً - على الله - ».

فربما رزق الله العبد القليل الكافي ومنعه الكثير المطغي لمصلحته فإن المال يميل غالباً بالإنسان فيحيد بسببه عن الحق والصواب، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿٦﴾ أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى﴾ [العلق: 6 - 7]. أي عندما أصبح غنياً جاوز حدود الله في العصيان.

بل إن المال فتنة يصعب التخلص منها لقوله ﷺ: «لكل أمة فتنة وفتنة أمتي في المال»^(٢).

(1) نجع العقاب في المذنب: نفع وظهر أثره. المعجم الوسيط، ص: 940.

(2) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، رقم (2258) وقال: حسن صحيح غريب، إنما نعرفه من حديث معاوية بن صالح. وأحمد في مسند الشاميين، حديث كعب بن عياض، رقم

إذا فقر يجمعك على الله ويلجئك إليه خير من غنى يطغيك ويبعدك عن الله.

ثم إن الإنسان لا يعرف قدر النعم إلا عند فقدانها وفي ذلك يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها».

ويقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك، ويمنعك ما يطغيك، ليقل ما تفرح به ويقل ما تحزن عليه».

ذلك أن التمشي مع مغريات الحياة يفتح الشهية للمزيد ويعلق القلب بمطامع تشغله عما يجب أن يخلص له.

وترضية النفس بمستوى من العيش يضمن الكفاية، وينفي الفضول، أعون شيء على رفع الجبهة، وتوفير العزة وإرضاء الله.

ونحن لا نحرّم حلالاً، ولا نحجر واسعاً، وإنما نصف الطريق التي لا بد من سلوكها لأصحاب الرسالات وحملة الدعوات فإنه لا يتفق طمع الدنيا وانتصار للمثل العليا^(١).

ثم يقول ابن عطاء الله: «ربما قضى عليك بالذنب ليخرج منك الكبر والعجب».

فإن المذنب يشعر بالذل والانكسار فيهرب الكبر والعجب من نفسه، لذلك كانت المعصية التي توجب الانكسار، أفضل من الطاعة التي توجب الاستكبار.

وفي ذلك يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً».

ويقول في حكمة أخرى: «وقضى عليك بالذنب فكان سبباً في الوصول».

* * *

(١) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: ١٤٥.

ربما كان موت الولد ليتفرغ القلب لعبادة ربه

يقول ابن عطاء الله: الأحق من مات ولده وجعل يبكي عليه ولا يبكي على ما فاتته من الله عز وجل!! فكأنه يقول بلسان حاله: أنا أبكي على ما كان يشغلني عن ربي، بل كان ينبغي له الفرح بذلك، ويقبل على مولاه لأنه أخذ منه ما كان يشغله عنه، وقبيح بك أن تشيب وأنت طفل العقل صغيره، ولا تفهم مراد الله منك، فإن كنت عاقلاً فابك على نفسك قبل أن يبكي عليك، فإن الولد والزوجة والخادم والصدیق لا يكون عليك إذا مت، بل يكون على ما فاتهم منك، فسابقهم أنت بالبكاء، وقل: يحق لي أن أبكي على فوات حظي من ربي قبل أن يبكوا علي.

وهنا يذكر ابن عطاء الله الحكمة من الابتلاء بموت الولد، إذ قد يكون القلب قد شغل بحب الولد حتى أنساه ربه عز وجل. والأعمار مقدرة فإذا مات الولد تفرغ القلب لعبادة ربه فتنتقلب النعمة إلى نعمة والابتلاء إلى رحمة!!

فينبغي لمن أصيب بفقد ولده أن يفرح بدل أن يحزن. ويقبل على ربه لأنه أخذ منه ما كان يشغله عنه، وعندما ابتلى سيدنا إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بذبح ولده وقلدة كبده سيدنا إسماعيل الذي رزقه الله إياه بعد أن كبرت سنه، إنما أراد الله أنه يعلم هل شغل إبراهيم عليه السلام بهذا الولد عن ربه أم أنه بقي محافظاً على الخلقة بينه وبينه سبحانه وتعالى، فلما علم الله صدق إبراهيم في عبادته وعدم انشغال قلبه عنه سبحانه، عندئذ فدى إسماعيل بذبح عظيم. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا بَنِيَّ إِنِّي أَخَافُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَّبِعُكَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ۚ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّبِعْهُمَا ۖ فَدُودُكَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٥﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ۚ ﴾ [الصفافات: 102 - 107].

فإن كنت عاقلاً فابك على نفسك وعلى عمرك الذي ضاع بالغفلة عن الله سبحانه قبل أن يبكوا عليك عند موتك، وماذا يفيد البكاء عندئذ، لا يفيدك إلا ما قدمت من عمل صالح ينفعك في قبرك ويوم الحساب!؟. وبذلك ننهي الكلام عن الحكمة من الابتلاءات في هذه الدنيا.

* * *

إنفاق المال أم إنفاق الدمع؟

يقول ابن عطاء الله: كثير من أنفق الدنانير والدراهم ولكن من أنفق الدمع^(١) قليل.

الناس يتباهون ويتنافسون في متع الدنيا وإنفاق المال، ولكنهم لا يتنافسون أبداً بالسير إلى الله وبالبكاء خوفاً منه سبحانه وشوقاً إليه، إنهم مشغولون بالدنيا مع أنها ملعونة كما قال ﷺ: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله»^(٢).

إن من استولت على قلبه الذنوب والمعاصي يثمر ذلك جهود العين، فعين العاصي لا تسكب الدمع لأنها بعيدة كل البعد عن الشعور بعظمة الله والخوف منه.

إننا نعيش في عصر جعل قلوبنا قاسية وأعیننا جامدة، كل ما حولنا يجعلنا قساة القلوب، قل التراحم بين الناس وكثر الحقد والحسد، وملئت أفئدتنا وعيوننا بالنظر إلى الحرام، والاستماع إلى الحرام، نأكل وننام ولا نفطن أن نقوم الليل ولو بركعتين، أو نناجي الله عند السحر!!.

ألا تريد أن تكون ممن يظلمهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، قال ﷺ: «سبعة يظلمهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله ومنهم: رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه...»^(٣).

إنه رجل خلا بنفسه وتفكر في حاله مع ربه، فشعر بالتقصير وقلة الشكر على نعم الله، وأحس برحمة الله تغمره وإنعامه يعمه وعقد العزم على التوبة من كل ذلك، وعلى السير بجد على صراط الله المستقيم فما أحس إلا وعيناه قد هطلتا بالدموع.

(١) في المطبوع: الروح.

(٢) الترمذي في الزهد، رقم (2244) وقال: حديث حسن غريب. وابن ماجه في الزهد، باب: مثل الدنيا، رقم (4102).

(٣) البخاري، الجماعة والإمامة، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (629).

ورجل آخر خلا بنفسه فامتلاً قلبه بالخشية من ربه والخوف من عقابه ففاضت عيناه، قال ﷺ: «عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله»^(١).

* * *

(١) الترمذي في فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل الحرب في سبيل الله، رقم (1563). وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن زريق.

الأخلاء الثلاثة

يقول ابن عطاء الله: واعلم أن لك ثلاثة أخلاء:

أحدها: المال تفقده عند الموت.

والثاني: العيال يتركونك عند القبر.

والثالث: عملك لا يفارقك أبداً.

فاصحب من يدخل معك قبرك، وتأنس به، فالعاقل من عقل من الله أوامره ونواهيه.

يقول ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد: يرجع أهله وماله، ويبقى عمله»⁽¹⁾.

فإياك أن يقل عملك وتشغل بزوجتك وأولادك ومالك إذ من شأن الزوجة والأولاد والمال أن يتركوك عند الموت وتبقى أنت مرهوناً بعملك تحاسب عليه في قبرك ويوم القيامة.

إن المال فتنة فاحذر هذه الفتنة أن تنسيك الآخرة، وإن الزوجة والأولاد فتنة كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوَّكُمْ﴾ [التغابن: 14].

فاحذر أن تنسيك هذه الفتنة القبر وسؤال المملكين. واحرص على العمل الصالح الذي ترضي به ربك ومولاك في الدنيا ويكون أنيسك في قبرك ويوم القيامة. وإليك الحديث الآتي الذي يبين أن العمل الصالح وحده هو الذي يدفع عنك العذاب من قبرك ولا يفيدك في تلك الساعة ملايين الليرات ولا تؤنسك الزوجة ولا أحد من أولادك. فيقول ﷺ من حديث أبي هريرة: «إن الميت إذا وضع في قبره وإنه يسمع قرع نعالهم حين يُولون مدبرين، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل

(1) البخاري في الرقاق، باب: سكرات الموت، رقم (6033). ومسلم في الزهد والرفائق (5260).

الخيرات من الصدقة والصلاة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجله فيؤتى^(١). من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل.

ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل.

ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل.

ثم يؤتى من قبل رجله فيقول فعل الخيرات من الصدقة والأمر بالمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل. فيقال: اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد دنت للغروب، فيقال له: أرايتك هذا الذي كان قبلكم ما تقول فيه وماذا تشهد عليه، فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقولون: إنك ستفعل^(٢).

فمن قصر في صلاته أو تهاون فيها أو أسرع في أدائها أو لم يخلص لله فيها فإنها تغدو جندياً ضعيفاً لا يقوى على رد العذاب عن الجسد، وهكذا يقال في باقي الأعمال.

* * *

(١) أي: يأتيه العذاب.

(٢) ابن حبان في صحيحه، فصل: في أحوال الميت في قبره، رقم (3113): 381 / 7، والمستدرک للحاكم، رقم (1403): 1 / 535.

الاستقامة

أفضل ما يطلب العبد من الله أن يكون مستقيماً معه، قال الله تعالى: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: 6] فاطلب منه الهداية والاستقامة، وهو أن تكون مع الله في كل حال بالذي يرضاه لك، وهو ما جاء به النبي ﷺ عن الله سبحانه.

الاستقامة هي: درجة بها كمال الأمور وتماها، وبوجودها حصول الخيرات، ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ ﴾ [النحل: 92] وقد حثنا الباري سبحانه على الاستقامة بقوله تعالى: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾⁽¹⁾ [الفاتحة: 6].

أي وفقنا للسلوك على الصراط المستقيم، الذي هدانا إليه رسولك سيدنا محمد ﷺ، ودعانا إليه حيث قلت في كتابك مخاطباً له: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾⁽²⁾ صرط الله [الشورى: 52-53] وقلت: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المؤمنون: 73].

والصراط هنا هو دين الإسلام بدليل قوله ﷺ: «ضرب الله تعالى مثلاً، صراطاً مستقيماً... ثم قال: فالصراط الإسلام»⁽²⁾.

ومن الآيات التي نحث على الاستقامة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: 30].

(1) الرسالة القشيرية ص: 205.

(2) الترمذي في الأمثال عن رسول الله، باب: ما جاء في مثل الله لعباده، رقم (2786) وقال: حديث حسن

غريب. وأحمد في مسند الشاميين، حديث النواس بن سمعان، رقم (16976). انظر: حول تفسير

سورة الفاتحة، عبد الله سراج الدين، ص: 111.

وأكد هذا الأمر قوله ﷺ: «استقيموا ولن تحصلوا واعلموا أن خير دينكم الصلاة، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»⁽¹⁾. ومعنى قوله لن تحصوا: أي أن الاستقامة على الدين من الصعوبة بمكان لأنها الخروج عن المعهودات، ومفارقة العادات، والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق.

فالاستقامة هي الثبات على المنهج الذي أمرنا الله باتباعه والذي جاء به النبي ﷺ عن الله سبحانه.

ومن نتائج الاستقامة دوام الرزق والكرامة من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَالْوَاسِقُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَا سَقِينَ لَهُمْ مَاءٌ عَذَقًا﴾ [الجن: 16]. ولم يقل سقيناهم فهو يشير إلى الدوام.

وليست الكرامة شرطاً لوجود الاستقامة، إذ يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة».

إذ قد تظهر الخوارق على يد الفاسق والعاصي كالسحرة والكهان وهذا استدراج وليس كرامة.

إن الكرامة كرامتان كرامة الإيثار وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة لما جاء به النبي ﷺ عن ربه.

والخلاصة: الاستقامة هي أن تكون مع الله في كل أحوالك في السراء والضراء وفي القبض والبسط راضياً عنه في تدبيره، مستعيناً به وحده وخائفاً منه تاركاً كل شيء سواه.

* * *

(1) ابن ماجه في الطهارة، باب: المحافظة على الوضوء، رقم (273). وأحمد، باقي مسند الأنصار، ومن حديث ثوبان، رقم (21344). ومالك في الطهارة، باب: أن رسول الله ﷺ قال: استقيموا ولن تحصوا، رقم (66): 43 / 1.

السالك والمجذوب

يقول ابن عطاء الله: مثال السالك كمن يحفر على الماء قليلاً حتى يجد الثقب، فينزع له الماء بعد الطلب. ومثال المجذوب كمن أراد الماء فأمرت سحابة، فأخذ منها ما يحتاج إليه من غير تعب.

يمكن أن يرقى الإنسان من وحدة الضياع والضلal إلى صعيد الهداية ومعرفة الله من خلال طريقين لا ثالث لهما^(١):

أحدهما: يتجه الإنسان إلى الله، وهو طريق طويل وشاق، يبدو الإنسان بغرس حقائق الإيمان وأركانها في عقله، ثم يوجه قلبه إلى محبة الله وتعظيمه والخوف منه، ثم يقبل إلى أوامر الله عز وجل فيأتمر بها، وينتهي عن المنكرات التي حذر منها، ويستعين على ذلك بالأكثر من ذكر الله والإكثار من تلاوة القرآن. والنتيجة التي ينتهي إليها سالك هذا الطريق هي تضائل الدنيا شيئاً فشيئاً في نفسه وفؤاده، فيهتم لما هو مقبل إليه أكثر من اهتمامه للدنيا التي يعبرها ويمر بها. وهذا الطريق يسمى طريق الهداية والإنابة وصاحبه يسمى «سالكاً».

ثانيهما: طريق يتجه به الله إلى العبد... ويسمى طريق الاجتباء أو «الجدب» يكون الإنسان مستغرقاً في شروده وبعده عن الله منصرفاً إلى أهوائه ورغباته الدنيوية، وفجأة تدركه رحمة من الله تعالى لسبب من الأسباب التي قد لا يعلمها إلا الله، ويتجلى الله عليه تجلي لطف وإيقاظ، فيجذبه إليه، ويسمو به إلى صعيد معرفته فحبه وتعظيمه وقد تم ذلك كله في لحظة واحدة.

ويعبر البيان الإلهي عن هذين الطريقين للخروج من التيه والضلal، إلى الهداية والرشد بقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13].

(١) الحكم العطائية، شرح وتحليل د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 122. وما بعدها.

وهذا يدل على أن الإنسان ليس له أي دور في اختيار هذا الطريق، وإنما هو خصيصة واصطفاء من الله لمن يشاء. والطريق الثاني الذي سماه الله طريق الإنابة والهداية هو الذي أناطه الله بسلوك الناس واختيارهم، وتأتي الهداية في أعقاب ذلك ثمرة لجهادهم وجهودهم.

وفي التاريخ الإسلامي كثير ممن جذبهم الله بنقلة واحدة من التيه إلى الرشد، في أصحاب رسول الله ﷺ منهم كثير. . يفد الأعرابي الجلف من البادية إلى المدينة، فما تكاد عيناه تبصران رسول الله، وما تكاد أذناه تسمعان شيئاً من نصائحه وحديثه، حتى يتحول وهو في مجلسه ذاك من حال إلى أخرى، لا يخرج إلا وقد عزفت نفسه عن الدنيا، وفاض قلبه حباً ومهابة لله عز وجل.

وفي الناس الذين جاؤوا من بعد، من اجتذبهم الله إليه عن طريق الاجتباء فانتقلوا من الانحراف الشديد إلى الاستقامة التامة طفرة ودون توقع منهم الفضيل بن عياض الذي تحول خلال دقائق في جوف ليل مظلم من فتاك قاطع طريق إلى متنسك رباني فرغ قلبه من كل شيء إلا من تعظيم الله وحبه والخوف منه. ومنهم عبد الله بن المبارك الذي كان مولعاً بالطرب والسماع والعزف على الأوتار بعيداً عن الالتفات إلى أوامر الله وحقوقه، فما هو إلا أن تحول في سواد ليلة واحدة إلى نموذج عجيب نادر للعالم الرباني الذي جعل دنياه كلها فداء لرضا الله عنه وسبيلاً لقربه وقصة أكثر الفنانين والفنانات الذين تحولوا واللاتي تحولن إلى طريق جديدة من الحب، ولكنه حب الله وإلى جاذب جديد من الشوق ولكنه الشوق إلى الله، بل إلى سكر جديد من العشق ولكنه عشق الذات الإلهية.

* * *

الإخلاص في العمل وذم الرياء فيه

يقول ابن عطاء الله: من هيت له المنازل لم يرض له بالقعود على المزابيل، فاعمل الأعمال الصالحات بينك وبين الله سراً. ولا تطلع عليه أهلك، واجعله مدخراً عند الله تجده يوم القيامة، فإن النفس لها تمتع بذكر العمل. صام بعضهم أربعين سنة ولم يعلم به أهله.

هذه صفاوة العمر وغربلته. يأمن لا يأكل الخنطة إلا مغربلة لا بد لك أن تغربل عملك فلا يبقى لك إلا ما أخلصت فيه، وما عدا ذلك يُرمى.

هذا هو العيش وما أطيب عيش المحب مع الحبيب إذا لم يطلع عليه رقيب، فإن أحب أن يطلع عليه رقيب فما صدق في حبه، وكل من أراد أن يُعلم أحدٌ بحاله فقد خدع.

أفتصلح ظاهرك وتفسد باطنك، فمثالك كالمجذوم لبس ثياباً جديدة، ويخرج منه في الباطن القيح والصدید، فأنت تصلح ما ينظر إليه الناس، ولا تصلح قلبك الذي هو لربك؟.

الإخلاص روح الدين ولباب العبادة وأساس أي داع إلى الله، فما هو الإخلاص؟ إنه: أفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح لمخلوق أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى^(١).

هذا المعنى ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ. [الأنعام: 162 - 163].

والإخلاص من ثمار التوحيد الذي يعني: أفراد الله عز وجل بالعبادة والاستعانة، هذا المعنى الذي يعبر عنه الباري سبحانه بقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5].

(١) الرسالة القشيرية، ص 207.

هذه الآية التي جعلها الإمام الهروي محور رسالته: «منازل السائرين إلى مقامات إياك نعبد وإياك نستعين» والتي شرحها ابن القيم في «مدارج السالكين».

إن العمل للناس هو الرياء، وهو عكس الإخلاص وهو من معاصي القلوب الخطيرة على القلب والعمل ومن الكبائر الموبقة، لذلك كان التهديد والوعيد له شديداً في القرآن والسنة.

فالذي ينفق ماله رياء الناس ذهب عمله هباء وله عذاب شديد يوم القيامة قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَانُيْلُوا صَدَقْتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا
كَسَبُوا وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 264].

هذا إنفاق الكافرين، وحتى خروجهم للقتال والغزو كان رياء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا
كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ﴾ [الأنفال: 47] أما المنافقون
فصلاتهم أيضاً رياء الناس، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى
الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَءَوْنَ النَّاسَ وَلَا يُذَكِّرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 142].

وتوعد الله بالويل للمرائين بصلاتهم فقال عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ
عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَءَوْنَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: 4 - 7].

إذا الرياء بالعمل صفة الكافرين والمنافقين.

وأما الأحاديث في الترهيب من الرياء فكثيرة أكتفي بما يأتي: عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به، فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريءٌ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمته فعرفها قال: فما عملت فيها، قال: تعلمت العلم

وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذب ولكنك تعلمت العلم ليُقال عالمٌ وقرأت القرآن ليُقال هو قارئٌ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار..»^(١).

وعن أبي بن كعب قال، قال رسول الله ﷺ: «بشر- هذه الأمة بالسناء والرفعة بالدين والتمكن في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب»^(٢).

وعن محمود بن لبيد قال: خرج النبي عليه الصلاة والسلام فقال: «يا أيها الناس، إياكم وشرك السرائر. قالوا: يا رسول الله، وما شرك السرائر؟ قال: «يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر»^(٣).

وعن جندب بن عطاء الله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من سمع سمع الله به، ومن يراء يراء الله به»^(٤).

ومنه يتبين أن كتم العمل أفضل من إظهاره، هذا بالنسبة إلى النوافل والتطوعات، أما الفرائض والأركان فهذه يجب إظهارها تعظيماً لشعائر الإسلام وإبرازاً لقوة المسلمين وتمسكهم بدينهم، ومنعاً للتهمة.

(1) مسلم في الإمارة، باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، رقم (3527).

(2) أحمد، مسند الأنصار، حديث أبي العالية الرياحي، رقم (20273). وابن حبان، باب: ذكر وصف إشراك المرء بالله جل وعلا في عمله، رقم (405): 2 / 132.

(3) ابن خزيمة في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: التغليظ في المراءة بتزين الصلاة وتحسينها، رقم (937): 2 / 67. وابن أبي شيبه في الصلاة، باب: الرجل يحسن صلاته حيث يراه الناس، رقم (8403): 2 / 227.

(4) البخاري في الرقاق، باب: الرياء والسمعة، رقم (6134): 4 / 2250. ومسلم في الزهد والرفائق، باب: من أشرك في عمله غير الله، رقم (2986): 4 / 2289.

وانظر إلى أمثلة الرياء في الأعمال، يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: «في إحدى قرى الريف لوحظ أن إمام المسجد كان يصلي المغرب بآيتين من أواخر السور، فإذا حضر- العمدة الصلاة كان هذا الإمام يتحرى أن يصلي المغرب بسورتين كاملتين يجود قراءتهما في الركعتين الجهرتين، ولا شك أن هذا هو الرياء المحبط للأعمال.

ودلالته الصارخة أن الرجل يصطنع من أجل الناس صلاة أطول وأجود. وأن الأمر لو وكل إلى صلته الخاصة بالله، لكانت الصلاة أقل وزناً!!.

ومن يدري لعله لولا ضرورات العيش ما صلى قط. . . إن الداعية المرائي يقترف جريمة مزدوجة»⁽¹⁾.

من أجل هذا كان المخلصون قليلين، لأن أكثر الناس يحبون ظهور عبادتهم. إن من يقصد رؤية الخلق بعمله، فقد مضى العمل ضائعاً، لأنه غير مقبول عند الخالق، ولا عند الخلق، لأن قلوبهم قد التفتت عنه، فقد ضاع العمل، وذهب العمر.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب، ولا كوة لخرج للناس كائناً ما كان»⁽²⁾. فليقت الله العبد وليقصد من ينفعه فصده، ولا يتشاغل بمدح من عن قليلٍ بلي هو وهم.

إذاً ليس من السهل أن يكون العبد مخلصاً، لأن الإخلاص يتطلب استحضار النية وتحريرها من الشوائب وخاصة حظوظ النفس وهذا أمر صعب لذلك اشترط القرآن على المنافق حتى ينضم إلى قافلة المؤمنين: التوبة والإصلاح والاعتصام بالله والإخلاص لدين الله فقال الباري سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾^(١٤٥) إلا

(1) مع الله، محمد الغزالي، ص: 196.

(2) أحمد باقي مسند المكثرين، مسند أبي سعيد الخدري، رقم (10798). والحاكم في المستدرک، رقم (7877): 4 / 349. وقال: صحيح الإسناد. وابن حبان، رقم (5678): 12 / 491.

الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٥﴾ [النساء: 145 - 146].

وأكثر من يطلب منهم الإخلاص هم العلماء والدعاة إلى الله سبحانه، ولنستمع لما يقوله الإمام الغزالي رحمه الله في ذلك: «وأشد الخلق تعرضاً لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع، والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك، ويقول: غرضكم نشر دين الله، والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله ﷺ، وترى الواعظ يمين على الله بنصيحة الخلق، ووعظه للسلطين، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً، وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه، ولو كان باعثة الدين لشكر الله تعالى، إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه، ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك، إذ لو اتعظوا بقولك كنت أنت المثاب، واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أن انقياده للحق، وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثواباً، وأعود عليه في الآخرة من انفراده»⁽¹⁾.

وما ذكره الغزالي أشار إليه ابن عطاء الله في إحدى حكمه التي يقول فيها: «ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك «فالرياء يكون بمرآى من الناس ظاهراً، وهذا أي: الرياء الباطن حيث لا ينظر الخلق إليك لا يحتاج إلى أمانة عليه، بل هو أخفى من ديبب النمل، ومن أماراته: أن يلتمس بقلبه توقير الناس له وتعظيمه وتقديمه في المجالس، ومسارعتهم لقضاء حوائجه، وإذا حضر أحدهم في حقه الذي يستحق عند نفسه استبعد منه ذلك واستنكر»⁽²⁾.

(1) إحياء علوم الدين، الغزالي: 5 / 28.

(2) غيث المواهب العلية، الرندي: 2 / 13.

ويقول ابن عطاء الله في حكمة أخرى «إن الله لا يحب العمل المشترك، ولا القلب المشترك، فالعمل المشترك هو لا يقبله، والقلب المشترك هو لا يقبل عليه».

ويقول في حكمة أخرى: «الأعمال صورة قائمة وأرواحها سر الإخلاص فيها».

فالعمل الخالي من الإخلاص جسد بلا روح لا عبرة به، وروحه وجود الإخلاص فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: 5].

وقال سبحانه: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 2].

* * *

مثال الحكمة كالقيد

الحكمة كالقيد، إن قيدت بها نفسك امتنعت، وإن رميتها تسيت ويخاف عليك، مثال ذلك: كالمجنون في بيته، يخربه ويقطع الثياب، فإذا قيدته استرحت منه، وإذا طرحت القيد وخرجت فالضرر باق.

الحكمة هي: ما تمنع من الجهل وسوء التصرف والاتقان في الأعمال. وهي مجموعة من الفضائل وتجعل صاحبها يضع كل شيء في محله. بحيث يفعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي وعلى الشكل الذي ينبغي. إن الحكمة تقيد النفس الهوجاء من أن تقع في محذور أو تصرف مشين، إن من رزقه الله الحكمة في التصرف يشيع الخير منه للجميع فهو في تصرفاته يقضي بها، ويعمل بموجبه، ثم يعلمها غيره ليكثر في الناس أمثاله. وصدق الله تعالى حين قال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: 12].

إن الحكمة دائماً ما تترافق مع الأخلاق الحميدة والطاعة لله عز وجل، على عكس فاقده الحكمة فإن شره أكثر من خيره، لأنه يوقع نفسه في تصرفات هوجاء لا يحسب لتتائجها حساباً وربما عصي الله وتجراً عليه وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، فهذا مثاله كالمجنون في البيت، إذا قيدته استرحت من جنونه وضرره، وإذا تركته خرب البيت ومزق الثياب.

خذ مثلاً حالة الغضب، إنها حالة هيجان النفس وثوراتها، فتحمر العيون وتنتفخ الأوداج ويجد الشيطان الفرصة لو سوسته، فترى الغاضب يحطم ويسب ويشتم حتى أبويه، وربما قتل نفساً بريئة لذلك قال ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١).

(١) البخاري في الأدب، باب: الحذر من الغضب، رقم (5649). ومسلم في البر والصلة والآداب، باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب، رقم (4723).

وخذ مثلاً التكلم بكلمات لا يلقي المسلم لها بالاً لكنها تضره ضرراً عظيماً في دينه، هذا ما حذرنا منه المصطفى ﷺ: فعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات. وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»⁽¹⁾.

وكمثال على الكلمة الأولى: من يُذكر ذا سعة ومال بمعوز ذي فاقة، فتكون كلمة التذكير سبباً لإغاثة ذلك المعسر.

وربما فاه شاهد صدق بكلمة حق لا يتوقع لها كبير نفع، وإذا بها تكشف اللثام عن براءة متهم وإنصاف مظلوم، ونجاتها من مهلكة.

وأما الكلمة الثانية: فهذا رجل يدخل بيته متعباً، فيجد أولاده في المنزل في هرج وصرخ، وإذا به يثير النزاع شديداً مع زوجته المسكينة، فيُفسد تربية الأولاد بهذا الصنع القبيح. ثم أقبح منه أن يؤدي به تبرمه وانزعاجه من صخب الأولاد أن يقسم يمين الطلاق، بزعم أنها مقصرة في المحافظة على هدوء البيت، فيخرب بيته بيده، ويسوء بغضب الله، لأنه ملعون من حلف بالطلاق.

وهذا رجل يطلق لسانه بالكذب والافتراء أو يستفز الغضب فيسب الدين ليكون مثلاً في القحة وإساءة الأدب، وليخسر دنياه وآخره⁽²⁾.

* * *

(1) البخاري في كتاب: الرقاق، باب: حفظ اللسان، رقم (5997). ومسلم، كتاب: الزهد، باب: قلة الكلام، رقم (2241).

(2) في ظلال الحديث النبوي د. نور الدين عتر، ص: 298 - 300.

عقل الإنسان لأي شيء يستعمل

أول ما ينبغي لك أن تبكي على عقلك، فكما يقع القحط في الكلاً يقع في عقول الرجال، وبالعقل عاش الناس مع الناس، ومع الله تعالى. مع الناس بحسن الخلق، ومع الله باتباع مرضاته.

العقل يطلق على معنيين ^(١).

أحدهما: أنه يُطلق ويُراد به العلم بحقائق الأمور، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب.

والثاني: أنه يراد به المدرك للعلوم، فيكون القلب تلك اللطيفة التي هي مركز العواطف من حب وخوف وتعظيم.

العقل سمي بذلك لأنه يمسك صاحبه عن الوقوع في الأمور السيئة التي تضره، مأخوذ من عقل البعير وهو الحبل الذي يُربط رأس البعير به ويُتحكم به، ولو ترك البعير دون عقل لشرد وأذى الناس في أرواحهم وأرزاقهم.

وبالعقل يكون التفكير والاستدلال وبه يتميز الحسن من القبيح، والخير من الشر والحق من الباطل.

والعاقل مع الناس يُعرف بحسن خلقه متأسيماً بذلك برسول الله ﷺ الذي وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

وبقوله: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّكَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:

159].

(1) إحياء علوم الدين، الغزالي: 3 / 6.

وبحسن الخلق تنال محبة رسول الله ﷺ وقرب مجلسك منه ﷺ يوم القيامة، قال ﷺ: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً⁽¹⁾». الذين يألفون ويؤلفون⁽²⁾».

إذاً بالعقل عاش الناس مع الناس بحسن الخلق، ومع الله تعالى باتباع مرضاته، فبالعقل تميز الحق من الباطل فإن وقفت على مفترق طرق ونظرت فإذا أغلبها يؤدي بك إلى معصية الله وواحد منها نهايته مرضاة الله وجب أن يدلك عقلك على هذا الطريق وترك ما سواه، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10] أي طريق الخير والشر.. وقال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3].

يقول الإمام الغزالي -رحمه الله-: «مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه، فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروضاً وكلبه مؤدباً معلماً كان جديراً بالنجاح، ومتى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جموحاً والكلب عقوراً فلا فرس ينبعث تحته منقاداً ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعاً فهو خليق بأن يعطب فضلاً عن أن ينال ما طلب، وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته وكلال بصيرته، وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصاً شهوة البطن والفرج، وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه»⁽³⁾.

* * *

(1) الموطؤون أكنافاً: المتواضعون.

(2) الطبراني في الأوسط، رقم (7697): 7 / 350. وضعفه في مجمع الزوائد وقال: فيه صالح بن بشير وهو ضعيف: 8 / 21.

(3) الإحياء: 3 / 11.

مثالك في صغر عقلك كالمولود

ما مثالك في صغر عقلك، وكونك لا تعلم ما عليك من الملابس، إلا كالمولود تكسوه أمه أحسن الملابس، وأفخرها، وهو لا يشعر وربما دنسها ونجسها، فتسرع إليه أمه وتكسوه أخرى، لئلا يراه الناس كذلك وتغسل ما تنجس، وهو لا يعلم ما فعل به لصغر عقله.

هذا مثال من ينسى ما أنعم الله عليه إنه صغير العقل كالطفل لا يدري ماذا يجري من حوله.

إن الله وهبنا العقل وميزنا به عن سائر المخلوقات لنستعمله في التعرف على الخالق سبحانه، فننتقل به من المكونات إلى المكون عز وجل. هذه الحقيقة يؤكد عليها القرآن، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190].

وقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ [المؤمنون: 115 - 116].

وهبنا الله العقل لنحس ونشعر بعظمة النعم التي أسداها الله إلينا فنعلم مدى رحمته بنا. وعندما ننظر حولنا فلا نرى غير النعم التي لا تعد ولا تحصى يمتلئ القلب بمحبة المنعم عز وجل، إذ النفوس جُبلت على حب من أحسن إليها لذلك قال ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي بحبي»^(١).

هذا هو منهج المسلم في تعامله مع الله سبحانه، لكن الإنسان الظالم لنفسه دنس هذه الأرض الطاهرة بالمعاصي والذنوب. فاستحق غضب الله عليه وعقابه له، لكن الله الرحيم بعباده ستر على الإنسان معصيته وقبل توبته حتى لا يفضحه أمام الخلق.

(١) الترمذي في المناقب، باب: مناقب أهل البيت النبي، رقم (3722). وقال: حديث حسن غريب إننا نعرفه من هذا الوجه.

هذا هو الله الخالق المنعم الرحيم بنا، وهذا الإنسان القاسي القلب الذي عامله مولاه بالوفاء فعامله بالجفاء وكان الأولى أن يعامله بالإحسان كما قال سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: 60].

وما مثال العبد مع الله إلا كالأم مع ولدها فالولد تكسوه أمه أحسن الملابس وأفخرها وهو يدينسها وينجسها فتعود لتكسوه أخرى وتغسل عنه ما تنجس تبتغي بذلك المحافظة على نظافته وإظهاره بالمظهر الحسن أمام وأفخرها وهو يدينسها وينجسها فتعود لتكسوها أخرى وتغسل عنه ما تنجس تبتغي بذلك المحافظة على نظافته وإظهاره بالمظهر الحسن أمام الناس. كذلك العبد مع الله ينعم عليه النعم الكثير ويستر عليه معصيته ويقبل توبته ولكنه شارد عن كل هذا غافل القلب محجوب بحجاب المعاصي عن ربه سبحانه، ولو كشف له هذا الحجاب لعرف رحمة الله به تلك الرحمن التي لا تدانيها رحمة حتى رحمة الأم بولدها.

وعندما أراد النبي ﷺ أن يدرك صحابته مدى رحمة الله بخلقه كان ماشياً مع صحابته إذا مر أمامهم سبي فنظروا فإذا أم تبحث عن ولدها بين السبي بلهفة وحرقة، فلما وجدته ضمته إلى صدرها ضمة محب رحيم، فقال ﷺ لأصحابه: أترون هذه، أطارحة ولدها في النار؟ قالوا: لا وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال ﷺ: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(١).

ولكن الإنسان لصغر عقله لا يدري ما فعل به كالطفل الصغير الذي لا يعقل ما حوله.

* * *

(١) البخاري في الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم (5540) ومسلم في التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (4947).

النعم الثلاث

إن من عليك بثلاثة فقد من عليك بالنعمة الكبرى:

الوقوف على حدوده.

والثانية: الوفاء بعهوده.

والثالثة: الغرق في شهوده.

ثلاث نعم عظيمة إن وفق الله عبده للعمل بها فقد فاز ونجا يوم القيامة وعاش حياة طيبة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

أما النعمة الأولى: فهي الوقوف على حدود الله، قال ﷺ: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحرم حرمات فلا تنتهكوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وسكت عن أشياء رحمة غير نسيان فلا تبحثوا عنها»^(١).

وهذه الحدود هي حمى الله سبحانه وتعالى كما قال ﷺ في الحديث المتفق عليه: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقععه. ألا وإن لكل ملك حمى ألا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»^(٢).

(١) الدارقطني، رقم (42): 4 / 183. ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد: 1 / 171.

(٢) البخاري في الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، رقم (50). ومسلم في المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (2996).

فقد كانت الملوك يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الناس، ويمنعهم دخوله فمن دخله أوقع به في العقوبة، ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى خوفاً من الوقوع فيه، والله تعالى أيضاً حمى وهي محارمه، أي: المعاصي التي حرمها الله، كالقتل والزنى والسرقة والقذف والكذب والغيبة والنميمة، وأكل المال بالباطل وأشباه ذلك، فكل هذا حمى الله تعالى من دخله بارتكابه شيئاً من المعاصي استحق العقوبة، ومن قاربه يوشك أن يقع فيه، فمن احتاط لنفسه لم يقاربه، ولا يتعلق بشيء يقربه من المعصية، فلا يدخل في شيء من الشبهات⁽¹⁾.

أما النعمة الثانية: فهي الوفاء بعهوده فلله علينا عهداً أن نعبد ولا نشرك به شيئاً ووعد الله من يؤمن به ويعمل الصالحات بالاستخلاف والتمكين لدينهم في الأرض وتبديل خوفهم أمناً، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55].

وتأمل في حال فريق كبير من الناس، وإذا هم معرضون عن وعد الله بهذا الاستخلاف إن هم أنجزوا أوامره ونفذوا وصاياه وأحكامه، ويبحثون للوصول إلى هذا الاستخلاف والحكم في الأرض، عند كل ما يتخيلون من الوسائل والأسباب الأخرى، وربما وضعوا أنفسهم موضع المهانة في استجداء هذا الذي وعدهم الله به، من أعدائهم ومن الأمم أو الدول المتسلطة عليهم !!.

والغريب أن تجربة هذا الإعراض عن الوفاء بعهدهم، مقابل ما ألزم الله به ذاته العلية من الوفاء بعهدهم، يتجلى للعيان سوء نتائجها، وخيبة آمال أصحابها بها، ومع ذلك يمعنون في هذا الإعراض عما كلفهم الله به من الوظائف ويواصلون المضي في تجاربهم الفاشلة، التي

(1) شرح النووي لصحيح مسلم: 11 / 28.

تنقلهم من ذل إلى ذل، وتزيدهم بعداً عن الهدف الذي يطمحون إليه. فهل في التصرفات
التائهة ما هو أعجب من هذا التصرف^(١).

النعمة الثالثة: الغرق في شهوده: وهي مرتبة الإحسان الذي عرفه النبي ﷺ بأنه: «أن تعبد
الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢).

أي تنجذب بمشاعرك من الدنيا وأحوالها وآثارها، فتغيب عنك غيبة تامة ولا يبقى في
إحساسك إلا الشعور بأنك في حضرة الله وبين يديه تناجيه بما تخاطبه به من قرآن أو ذكر أو
دعاء كأنك تراه. . . .

إن شهود العبد لربه لا يعني أكثر من شهود صفاته، وآلائه، ومظاهر فضله ورحمته. فهو
لا يستقبل نعمة إلا ويربطها بالمنعم والمتفضل وهو الله عز وجل، ولا يتقلب متنقلاً من حال
إلى حال، إلا ويرى أن الله هو المتصرف به والمسير له، ومن شأن هذا الشعور إذا استمر، أن
يصرف القلب من محبة الأغيار إلى محبة الله عز وجل، إذ هو مصدر كل تفضل وعطاء، وأن
يغيب عنه تعظيم المخلوقات ليقف أمام عظمة الخالق عز وجل^(٣).

* * *

(١) الحكم العطائية، شرح وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 88، 89.

(٢) البخاري في الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (48). ومسلم في
الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رحم (274).

(٣) شرح الحكم العطائية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 190.

سبب استغراب أحوال العارفين

وما سبب استغرابك لأحوال العارفين إلا استغراقك في القطيعة، ولو شاركتهم في الأسفل لشاركتهم في الأخبار، ولو شاركتهم في العناء، لشاركتهم في الهناء.

العارف من المعرفة: وهو المختص بمعرفة الله ومعرفة عظمتة وحسن معاملته، وبهذا تكون المعرفة أعظم درجة من العلم، لأن العلم ربما يكون حجاباً يحجب العبد عن معرفة ربه. والعارف بالله هو أيضاً من أنس بالله فأوحشه من الخلق، وافتقر إلى الله فأغناه عنهم، وذل لله فأعزه منهم، وتواضع لله فرفعه بينهم، واستغنى بالله فأحوجهم إليه.

يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في بيان معنى «العارف»: «إنه من بلغ من توحيده لله، وثقته بالله، وتوكله على الله، وتفويضه إلى الله، درجة تفنى فيها إراداته وتنطوي فيما يريده الله، وتذوب أمامه الأسباب تحت سلطان الله، وتغيب فيها المشهودات الكونية في وهج من شهود الله»^(١).

إذاً العارف بالله هو من عرف الحق فاتبعه، وأبصر الهدى فتعلق به، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 83].

إن سبب استغراب أحوال العارفين هو كثرة المعاصي والذنوب، وبعد أغلب الناس عن إتياع أنفسهم بالطاعات وذكر الله ومراقبته، وانصرافهم عن مجاهدة نفوسهم المريضة، فلو جاهدوا أنفسهم وتعبوا في طاعة الله كما يفعل العارف بالله لذاقوا لذة طاعة الله سبحانه كما يشعر بها العارف وعندئذ لن يستغربوا أحوال العارفين؟!.

(١) المرجع السابق، 3 / 207.

إذا الذين يتأتى لهم أن يصلوا إلى معرفة الأولياء والعارفين، هم الذين تأتي لهم الوصول إلى معرفة الله وسلكوا السبيل إلى ذلك.

فالسبيل إلى معرفة العارفين بالله متفرع عن السبيل إلى معرفة الله عز وجل فكما أن حواجز الدنيا ومظاهرها لم تحجبه عن معرفة الله وشهوده، فكذلك البشرية وأعراضها ومعايها لم تحجبه عن شهود ما وراء ذلك من الأنوار المستودعة في قلوب من اجتباهم الله وميزهم بالولاية والمعرفة والعرب منه. هذا الكلام صاغه ابن عطاء الله في إحدى حكمه فقال: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصلهم إليه».

* * *

حق شهادة أن لا إله إلا الله

يقول ابن عطاء الله: إذا قلت لا إله إلا الله طالبك الله بها وبحقها، وهو: أن لا تنسب الأشياء إلا إليه.

لا إله إلا الله ليست كلمة ينطق بها اللسان، وإنما تتمثل فيها صفة الوجدانية له سبحانه فهو الواحد في صفاته وأفعاله وهو المتصرف في أمور المكونات جميعاً وهو «الصمد» أي الذي قام هذا الكون بأمره وهو لا يحتاج لأحد والكل محتاج إليه سبحانه.

شهادة أن «لا إله إلا الله» هي إقرار من العبد أنه الله هو الخالق وهو الرزاق وهو المحيي والمميت. إلخ الأسماء الحسنی.

ومن تتبع آيات القرآن وجد هذه الحقيقة. قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158].

فقد بين سبحانه أنه له وحده ملك السموات والأرض، يعني: أن له التصرف المطلق والتدبير الكامل للسموات، أي: وما فيها والأرض ومن عليها، لا مدبر لها غيره سبحانه، فهو الذي يدبر أمر السموات وسير كواكبها في أفلاكها بانتظام، وأمر ملائكة السموات، وأمر الشمس والأقمار، وأمر الليل والنهار، وأمر الجبال والبحار، وأمر الأنهار والأشجار، وأمر الصحاري والقفار. وكلاً يمدّه بما يحتاجه، ويسوق إلى كل رزقه وقوته، ما لغيره سبحانه شركة في ذلك، ولا تدخل له في شيء من ذلك، بإقرار العباد كلهم واعترافهم.

ثم قال سبحانه: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: فما خفي عليكم من أن الله تعالى له التصرف وله التدبير المطلق في السموات والأرض، فليس يخفى عليكم تصرفه سبحانه في إحيائكم وإماتتكم، فأنت يا معشر الناس تحيون وتموتون، فمن الذي يحييكم؟ ومن الذي يميتكم؟ .

فأنتم لا تملكون ذلك باعترافكم، إذأ أليس هذا مشهداً يشهدكم أنه لا إله إلا الله الذي يحيي ويميت، على مشهد منكم^(١).

ومن خصائص لا إله إلا الله أنها مشتملة على أصول الإيمان بالله تعالى، وهي خمسة أصول^(٢).

الأصل الأول: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى هو حق أي: واجب الوجود قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: 6].

وقال تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: 32].

وفي هذا الاعتقاد براءة من التعطيل والإلحاد الذي هو إنكار خالق الخليقة، وصانع العالم، وطابع الطبيعة.

الأصل الثاني: الاعتقاد بأن الله تعالى هو: وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ كُفُّهُ إِلَهٌُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1] وفي ذلك براءة من الشرك بأنواعه.

الأصل الثالث: الاعتقاد بأنه سبحانه متصف بالكمالات المطلقة، ومنزه عن النقائص والآفات.

الأصل الرابع: الاعتقاد بأنه لا مشابهة بينه وبين المخلوقات، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

الأصل الخامس: الاعتقاد بأن جميع ما سواه سبحانه إنما أوجده الله تعالى بقدرته واختياره ومشيئته وإرادته، والاعتقاد بأنه سبحانه هو وحده المؤثر الفعال، والمدبر للأمور،

(1) شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، عبد الله سراج الدين، ص: 71.

(2) المرجع السابق، ص: 95 وما بعدها..

والمُتَصَرِّفُ فِيهَا، فَلَهُ التَّدْبِيرُ الْمَطْلُوقُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُدِيرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يُونُسُ: 31] .
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ [يُونُسُ: 3] .

* * *

إيالك وظلم العباد

يقول ابن عطاء الله: إن أمكنك أن تُصبح وتُسي- وما ظلمت أحداً من العباد فأنت سعيد، فإن لم تظلم نفسك فيما بينك وبين الله، فقد تكملت لك السعادة، فأغلق عينيك، وسد أذنيك، وإيالك وإيالك وظلم العباد.

طبيعة الظلم موجودة في النفس البشرية، كما قال الشاعر:
ظلم القوي للضعيف جار في الأرض والهواء والبحار

وقال آخر:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفةٍ فلعلة لا يظلم

وهذا التحذير الشديد من ابن عطاء الله أن يتجنب الناس ظلم بعضهم سببه أن حياة الإنسان لا تستقر إلا بالابتعاد عن الظلم.

ونلمس هذا التحذير فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا». (1)

فقد ذكر الله تعالى أنه حرم الظلم على نفسه وتقدس سبحانه أن يكون ظالماً أبداً. وتنزه عن الظلم والظلم مستحيل في حقه سبحانه، وجعله بين الناس محرماً: «فلا تظالموا». أي لا يظلم بعضكم بعضاً، ولا تخفى الإثارة العاطفية هنا، فقد أراد أن ينهانا عن الظلم فنناه عن نفسه أولاً وهو القدير الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، فكيف بنا نحن العبيد. وإذا كان الظلم وضع الشيء في غير محله فإن يتنفي في الحكمة الإلهية ويأباه الله العادل على عباد (2).

(1) مسلم في البر والصلة، باب: تحريم الظلم، رقم (4674).

(2) في ظلال الحديث النبوي، د. نور الدين عتر، ص: 77.

ومن صور الظلم التي شاعت بين الناس اليوم: التعدي على حدود الأرض، فعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ظلم من الأرض شيئاً طوقه من سبع أرضين»⁽¹⁾.

فماذا يساوي الشبر من الأرض مثلاً، لكن عقوبته شديدة عند الله، مما يجعل الإنسان بخشى من الإقدام على هذا الفعل، فتتحسن العلاقة مع جاره في الأرض، وللأسف ما أكثر ما تقع الخصومات والعداوات بين الناس بسبب ظلم متر أو نصف متر من الأرض؟!

ومعنى طوقه: أنه يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين فتكون كل أرض في تلك الحالة طوقاً في عنقه، أو أنه يكلف نقل ما ظلم منها في القيامة إلى المحشر ويكون كالطوق في عنقه، لا أنه طوق حقيقة، أو أنه يكلف أن يجعله له طوقاً ولا يستطيع ذلك.

والطوق هنا هو طوق إثم الظلم، ومنه قوله تعالى: ﴿الْزَمْنَةُ طَوْقُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: 13].

ومن الآثار السيئة للظلم أنه يجعل صاحبه في ظلمات يوم القيام لا يهتدي إلى شيء بسبب ظلمه في الدنيا، فيقول ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»⁽²⁾. بعكس المؤمن الذي يسعى بنور بسبب إيمانه في الدنيا، قال تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: 12].

فيايك وإياك من ظلم العبد «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»⁽³⁾.

ومن كانت لأخيه عنده مظلمة فليتحللها قبل أن لا يفيد الندم يوم القيامة فيقول ﷺ: «من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحللها منها فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه»⁽⁴⁾.

(1) البخاري في المظالم والغصب، باب: إثم من ظلم شيئاً من الأرض، رقم (2272).

(2) البخاري في المظالم والغصب، باب: الظلم ظلمات يوم القيامة، رقم (2267).

(3) البخاري في الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم (9).

(4) البخاري في الرقائق، باب: القصاص يوم القيامة، رقم (6053).

واعلم أن الله يميل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته كما قال ﷺ^(١).

ثم يقول ابن عطاء الله «فإن لم تظلم نفسك فيما بينك وبين الله فقد تكملت لك السعادة».

وظلم النفس يكون بالغفلة عن الله والانغماس في مهاوي الردى والضلال. ظلم النفس هو انغماسها بالشهوات والأهواء وابتعادها عن الله سبحانه، فمن جاهد نفسه وألزمها طاعة خالقها ومولاها عز وجل فقد تكملت له السعادة.

* * *

(١) البخاري في تفسير القرآن، باب: قوله: «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْقَ وَهِيَ ظَلَمَةٌ»، رقم (318).

ومسلم في البر والصلة، باب: تحريم الظلم، رقم (4680).

لذة المناجاة

يقول ابن عطاء الله: يا من عاش وما عاش، تخرج من الدنيا وما ذقت ألذ شيء فيها، وهي مناجاة الحق سبحانه، ومخاطبته لك، فأنت ملقى جيفة بالليل، فإن دفعت عنه فاستغث بالله، وقل: يا ملائكة الله ويا رسول ربي، فاتني الغنيمة التي نالوها من لذة المناجاة، ووداد المصافاة.

المناجاة في اللغة تعني: إسرار الحديث، ومناجاة العبد لله سبحانه تعني: إسرار الدعاء والطلب من الله سبحانه وتعالى.

فالمناجاة لله سبحانه تكون في الدعاء وفي الصلاة، ومخاطبة الله لك تكون باستجابة الدعاء وبقبول الصلاة، يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186].

فهناك سائل وهو العبد وهناك مجيب هو الله سبحانه وتعالى.

إن الذي يحرم العبد من لذة المناجاة وقوعه في المعصية، فقد قال أحد علماء بني إسرائيل: إلهي كم أعصيك وأنت لا تعاقبني فقال الباري سبحانه: ألا يكفي أني حرمتك من لذة مناجاتي.

فلذة المناجاة لا يشعر بها ولا يذوق طعمها إلا من تحقق بشروطها، وهي: التوبة من المعاصي والاتصاف بذل العبودية والتواضع لله سبحانه.

ومن أمثلة المناجاة ما قاله ابن الجوزي رحمه الله مخاطباً ربه عز وجل: «سيدي كيف أقدر على شكرك؟. وبأي لسان أنطق بمدحك؟ إذا لم تؤاخذني على غفلاتي، ونبهتني من رقدتي، وأصلحت حالي على كره من طبعي، فما أربحني فيما سلب مني، إذ كانت ثمرته اللجأ إليك، وما أوفر جمعي إذ ثمرته إقبالي على الخلود بك، وما أغناني إذ أفقرتني إليك، وما أنسنني إذ أوحشتني بالتجارب لخلقك، آه من زمان ضاع في غير خدمتك! أسفاً لوقت مضى- في غير

طاعتك . . . فيا عظيم الإنعام تم لي العافية ! آه من سكر لم يعلم قدر عربدته إلا في وقت الإفاقة ! لقد فتقت ما يصعب رتقه، فوا أسفاه على بضاعة ضاعت !، وعلى ملاح تعب في موج الشمال مصاعداً مدة، ثم غلبه النوم فرد إلى مكانه الأول»^(١).

ومن المناجاة اللطيفة مناجاة ابن عطاء الله كما سأذكرها في آخر الكتاب إن شاء الله.

* * *

(١) صيد الخاطر: ١١٧.

معاملة الله كل يوم

يقول ابن عطاء الله: لا تظهر شمسك ^(١). حتى تعامل الله، فتصدق كل يوم ولو بربع درهم، حتى يكتبك الله في ديوان التالين، وصل ولو ركعتين، حتى يكتبك الله مع القائمين، وإياك تغلط وتقول: من عنده قوت يوم بيوم كيف يتصدق؟ قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ. وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: 7]. فمثال المسكين إذا تصدق عليه كالمطية تحمل زادك للآخرة.

أي لا يتبين صدقك مع الله والتزامك لأوامره حتى تعامل الله كل يوم، بما ذلك عليه ابن عطاء الله من الصدقة وتلاوة القرآن وصلاة ركعتين في الليل.

إن هذه الأعمال التي ذكرها ابن عطاء الله تظهر مدى حبك لله ومدى اصطباغك بأوصاف العبودية. أما إن كنت عن كل ذلك لاهياً ساهياً همك إرواء شهواتك من الدنيا فاعلم أنك لم تصدق مع الله. وأنتك شردت عن المنهج الذي أمرك الله به، وكيف ينجو من كانت هذه صفته يوم القيامة، إنه لم يتزود لذلك اليوم فمصيره هو الذي رسمه، كالفراس يرتمي على النار يظن أن بها النجاة!

* * *

(١) في نسخة: لا تظهر حتى تعامل الله.

شرط النصر والعطاء من الله

يقول ابن عطاء الله: إذا أردت أن تنصر فكن كلك ذلة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: 123]. إن أردت أن تعطي فكن كلك فقراً: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: 60].

لقد جعل الله النصر والفتح مقرونين بالفاقة والذل وتحقيق الضعف كما في غزوة بدر. وجعل الخذلان وعدم النصر - والمعونة في إظهار ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مَذْرِبِينَ﴾ [التوبة: 25].

فإذا أردت أن تحوطك حماية الله ونصرته ومعونته فتحقق بذل العبودية له، قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذلك يمدك بعزه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته».

* * *

معرفة أولياء الله والتأدب معهم

يقول ابن عطاء الله: إذا رأيت ولياً لله فلا يمنعك إجلاله، من أن تقعد بين يديه، متأدباً وتتبرك به.

واعلم أن السماء والأرض، لتأدب مع الولي، كما يتأدب معه بنو آدم.

الولي له معنيان:

المعنى الأول: فعيل بمعنى مفعول كقتيل وهو: من يتولى الله تعالى عنايته وحفظه فلا يكله إلى نفسه، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: 196].

المعنى الثاني: فعيل صيغة مبالغة ككريم وعليم وهو: الذي يتولى عبادة الله وطاعته فيأتي بها على التوالي من غير أن يتخللها عصيان أو فتور فيحبه الله ويتولاه بحفظه.

أما صفاتهم فيقول ابن الجوزي رحمه الله: «تأملت الذين يختارهم الحق عز وجل لولايته والقرب منه، فقد سمعنا أوصافهم ومن نظنه منهم مما رأيناه، فوجدته سبحانه لا يختار إلا شخصاً كامل الصورة، لا عيب في صورته، ولا نقص في خلقته، فتراه حسن الوجه، معتدل القامة، سليماً من آفة في بدنه»⁽¹⁾. ثم يكون كاملاً في باطنه، سخيّاً، جواداً، عاقلاً غير خب⁽²⁾، ولا خادع، ولا حقود ولا حسود، ولا فيه عيب من عيوب الباطن...»⁽³⁾.

(1) هذا رأي ابن الجوزي ولا أظن أن ذلك صحيحاً، فالمظهر ليس له أي قيمة في قرب العبد من ربه، والنقص في الخلقة بلاء من الله ليتمتحن العبد بصدقه في عبوديته له وكم من ناقص في خلقته أقرب من ربه بكثير ممن هو حسن الصورة كاملاً في جسده، والله أعلم.

(2) الخب: الخداع والغش.

(3) صيد الخاطر، ص: 389.

فمن كانت هذه صفته فاعلم أنه من أولياء الله، فيجب عليك احترامه والتأدب معه والتبرك به.

وإياك ثم إياك من سوء الأدب مع عباد الله الصالحين ومن هم مظنة الولاية، وسوء الأدب قد يكون في كلمة نابية أو نظرة استهزاء، أو إطالة اللسان، بالاعتراض والنقد، بقصد التجهيل والانتقاص. وهذا التصرف يندرج في معنى المعادة التي حذر منها الله عز وجل في الحديث القدسي بقوله: «ومن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»^(١). فإن رأيت منه ما يخالف حكماً شرعياً لا خلاف فيه، فذكره بالحكم الشرعي بعبارة متأدبة، دون أي انتقاص له، ودون أن يجرك ذلك إلى إساءة الظن به.

وإلى جانب هذا التحذير تكون البشارة لمن كان دأبه التقرب إلى الله عن طريق محبة الصالحين وتوقيرهم والتأدب معهم وحسن الظن بهم، بصلاح الحال، ومغفرة الذنوب، وحسن الخاتمة والمآل، وكم من تائه مسرف على نفسه شفع له عند الله حبه للصالحين وحسن ظنه بهم وتأدبه معهم.

ولا نقل: لعله دجالٌ يصطنع التقوى والصلاح فكيف أحبه وأركن إليه، فإنك من هذا الرجل في إحدى حالتين، إما أنك ترى فيه دلائل الصلاح والتقوى من خلال استقامته على أوامر الله وشرعه، إذاً فليس لك أن تفترض ما تراه من ظاهره، . . وإما أنك لا تعرف من حاله شيئاً فالزم حينئذٍ جانب الحيطة في الأمر وأنه ربما كان من الصالحين المغموين بغاشية من الخفاء عن أعين الناس، والزم النصيحة القائلة: كل ما رأيت فالخضر اعتقد، فإنك إن أصبت الحق في افتراضك كان حسن ظنك به وتأدبك معه ربح كبير وفائدة عظيمة في دينك، وإن لم يكن افتراضك، في الحقيقة صواباً، فإن حسن ظنك به لا يضرك بل المأمول أن ينفعك ويقربك

(١) البخاري في الرقاق، باب التواضع، رقم (6021).

إلى الله عز وجل، إذ إن محبتك لمن ترجو صلاحهم، ليست في حقيقتها إلا أثراً من آثار محبة الله^(١).

أما مشروعية التبرك بالأنبياء والصالحين فدلِيلها ما يأتي:

عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان يُؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحنكهم فأتي بصبي فبال عليه فدعا بباء فأتبعه بوله ولم يغسله»^(٢).

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: «فيه استحباب تحنيك المولود وفيه التبرك بأهل الصلاح والفضل وفيه استحباب حمل الأطفال إلى أهل الفضل للتبرك بهم»^(٣).

وعن جابر قال: «مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين فأغمي علي فتوضأ ﷺ ثم صب علي من وضوئه فأفقت»^(٤).

قال الإمام النووي رضي الله في شرحه لهذا الحديث: «وفيه التبرك بآثار الصالحين وفضل طعامهم وشرابهم ونحوهما وفضل مؤاكلتهم ومشاربتهم»^(٥).

وروى البخاري في صحيحه عن إسرائيل بن يوسف عن عثمان بن عبد الله بن موهب قال: «أرسلني أهلي إلى أم سلمة زوج النبي ﷺ بقدر من ماء - وقبض إسرائيل ثلاث أصابع

(١) شرح الحكم، د. محمد سعيد رمضان البوطي: 4 / 94، 59.

(٢) البخاري في الدعوات، باب: الدعاء للصبيان بالبركة ومسح رؤوسهم، (5878). ومسلم في الطهارة، باب: حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله، رقم (430).

(٣) شرح النووي على مسلم: 3 / 194.

(٤) البخاري، الوضوء، باب: صب النبي وضوءه على المغمي عليه، (187). ومسلم في الفرائض، باب: ميراث الكلاله، رقم (3031).

(٥) شرح النووي: 11 / 55.

— من فضة فيه شعر من شعر النبي ﷺ وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث إليها مخضبة فاطلعت في الجليل^(١) فرأيت شعرات حمراء^(٢).

يعني أنهم كانوا إذا أصاب أحدهم عين أو أصابه أي مرض أرسل إليها—أم سلمة—إناء فيه ماء فجعلت الشعرات في الماء ثم أخذوا الماء يشربونه أو يغسلون به توسلاً للاستشفاء والتبرك.

وقد تبرك الصحابة بشعره ﷺ وعرقه ونخامه ووضوئه وآثار أصابعه من الطعام بعد فراغه منه، كل ذلك في أحاديث صحيحة.

ثم قال ابن عطاء الله: «واعلم أن السماء والأرض، لتأدب مع الولي، كما يتأدب معه بنو آدم».

فعندما يشهد العبد المكون وينسى الأكوان ويستغني عنها ويتحرر من قيودها، فإنها تصبح خادمة له ومتبركة به ومتأدبة معه.

* * *

(١) الجليل: وعاء يشبه القارورة يحفظ فيه ما يراد صيانه.

(٢) البخاري في اللباس، باب: ما يذكر في الشيب، رقم (5446).

معرفّة أولياء الله

يقول ابن عطاء الله: فمنهم من يعرف الأولياء بالشّم، من غير وجود طيب، ومنهم من يعرفهم بالذوق إذا رأى ولياً ذاق طعم الحلاوة في فمه، وإذا رأى صاحب قطيعة، ذاق طعم المرارة في فمه.

أولياء الله عرائس، والعرائس لا يراها المجرمون.

من الناس من يسمع أخبار الأولياء دون اللقاء بهم فيتعرفون عليهم من صفاتهم.

ومنهم من يحصل له اللقاء به ومشاهدته والتنعم بعلائم ولايته فيعرفه إذا رآه، قال تعالى: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح: 29].

ومن الناس من يحس بمرارة المعصية على صاحبها فيحصل له الانقباض والنفور كما أحس سيدنا عثمان رضي الله عنه بأثر الزنى في عيني الرجل الذي دخل عليه ثم قال رضي الله عنه: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله»^(١).

فالذي يعرف الأولياء يجب أن يكون قلبه عامراً بالإيمان والتقوى وروحه صافية حتى يشعر بنور الطاعة على الولي، أما الذي على قلبه ران من الذنوب والمعاصي فأنى له أن يعرف الولي أو يحس به؟! وهذا مثال المجرم لا يُسمح له أن يرى العروس، إذ لا يراها إلا التقي الطاهر من الباطن الظاهر.

وقد ذكر الشوكاني في كتابه «قطر الولي» شخصية الولي التي بها يُعرف فقال: «إنه رجل مجاب الدعوة، راضياً عن الله عز وجل في كل حال، قائماً بفرائض الله سبحانه، تاركاً لمناهيه، زاهداً فيما يتكالب عليه الناس من طلب العلو في الدنيا، والحرص على رياستها، لا يكون لنفسه شغل بملاذ الدنيا ولا بالتكاثر منها ولا بتحصيل أسباب الغنى، وكثرة اكتساب

(١) سبق تخريجه، ص: 51.

الأموال والعروض، إذا وصل إليه القليل صبر، وإن وصل إليه الكثير شكر، يستوي عنده المدح والذم، والفقر والغنى، والظهور والخبول، غير معجب بما من الله به عليه من خصال الولاية، إذا زاده الله رفعة زاد في نفسه تواضعاً وخضوعاً، حسن الأخلاق كريم الصحبة عظيم الحلم كثير الاحتمال. فمن اتصف بهذه الصفات فهو ولي الله الأكبر الذي ينبغي لكل مؤمن أن يقر له بذلك، ويتبرك بالنظر إليه، والقرب منه. ومن كان منه بعض هذه الخصال فله من الولاية بقدر ما رزقه الله سبحانه منها، ووهب له من محاسنها»^(١).

* * *

(١) قطر الولي، الشوكاني، ص: 255، 256.

التخلف عن صلاة الجماعة

يقول ابن عطاء الله: كان بعضهم لا يخرج لصلاة الجماعة لما يعرض له في طريقه، منهم: مالك بن أنس رحمه الله، لأن الجماعة ربح والربح لا يحسب إلا بعد الإحاطة على رأس المال.

هذا تصرف فردي من الإمام مالك، والأصل في الحكم هو السنة النبوية التي حثت على صلاة الجماعة، وإنما ترك الإمام مالك - إن صح ذلك - بعض الصلوات لما يعرض له من المخالفات الشرعية في الطريق ولا يؤخذ بتصرفه وإنما الحكم يؤخذ من الكتاب والسنة الصحيحة، فالنبي صلى الله عليه وسلم حثنا على صلاة الجماعة بقوله صلى الله عليه وسلم: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»⁽¹⁾.

وقال صلى الله عليه وسلم: «لقد هممت أن أمر بحطبٍ فيحطب ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها ثم أمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجالٍ فأحرق عليهم بيوتهم والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً أو مرماتين⁽²⁾ حستين لشهد العشاء»⁽³⁾.

* * *

(1) البخاري في الأذان، باب: فضل صلاة الجماعة، رقم (609). ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب:

فضل صلاة الجماعة، رقم (1038).

(2) مرماتين: مفردها مرمأة وهي ما بين ظلفي الشاة من اللحم.

(3) البخاري في الأذان، باب: وجوب صلاة الجماعة، رقم (608)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة،

باب: فضل صلاة الجماعة، رقم (1040).

أحوال السلف الصالح
رضي الله عنهم

الصحة للنبي ﷺ أعظم كرامة

يقول ابن عطاء الله: كانوا رضي الله عنهم لا يدخلون في شيء بنفوسهم، ولكن من الله وبالله، وإن المسافة بعدت بين الأولياء والصحابة، فجعلت الكرامات جبراً لما فاتهم من قرب المتابعة التامة، فإن من الناس من يقول: إن الأولياء لهم الكرامات، والصحابة لم يكن لهم ذلك، بل كانت لهم الكرامات العظيمة، بصحبته لهم ﷺ، وأي كرامة أعظم منها؟!.

هذه هي أحوال السلف صدق وإخلاص لله عز وجل، وقد أماتوا نفوسهم وأحيوا قلوبهم بذكر الله ومحبته والخوف منه.

أما الكرامات لماذا لم تظهر على أيدي الصحابة وظهرت على أيدي من بعدهم؟
فسببه كما يقول ابن عطاء الله، الجبر لما فات الأولياء من قرب الصحابة الكرام لمتابعة النبي ﷺ التامة في حياته.

إذاً إن نعمة الصحة للمصطفى لا تعادلها ملايين الكرامات؟!.

وإنما احتاج الأولياء للكرامات تسكيناً لنفوسهم، وتثبيتاً لليقين في قلوبهم. ومنعها الصحابة لأنهم لا يحتاجون إليها لما هم من الرسوخ واليقين، والقوة والتمكين^(١).

* * *

(١) غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، الرندي: 1 / 276.

صدق الصحابة والسلف رضي الله عنهم مع ربهم

يقول ابن عطاء الله: وسمعت شيخنا أبا العباس المرسى رحمته الله يقول: العارف لا دنيا له ولا آخرة، لأن دنياه لآخرفته، وآخرفته لربه. وعلى هذا تحمل أحوال الصحابة والسلف رضي الله عنهم أجمعين، فكل ما دخلوا فيه من الأسباب فهم بذلك إلى الله متقربون ولرضاه منتسبون، لا قاصدون بذلك الدنيا وزينتها ووجود لذاتها، ولهذا وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29].

حين انتصر الصحابة الكرام على أنفسهم نصرهم الله على أعدائهم، حين جعلوا همهم مرضاة الله وامتلاأت قلوبهم بالمحبة له، ولم يخافوا أحداً سواه وجعلوا الدنيا وزينتها وراء ظهورهم، عند ذلك امتلاأت قلوبهم بالشجاعة ولم يعد يهمهم أوقع الموت عليهم أم وقعوا على الموت فكانوا أشداء على الكفار رحماء بينهم كما وصفهم ربهم، ونصروا بالرعب مسيرة شهر كما قال عليه السلام: «نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»⁽¹⁾.

* * *

(1) سبق تخريجه، ص: 87.

فضل الصحابة الكرام على المؤمنين إلى يوم القيامة

يقول ابن عطاء الله: وما ظنُّك بقوم يحبهم الله، واختارهم الله لصحبة رسول الله ﷺ، ولمواجهة خطابه في تنزيله، فما أحد من المؤمنين إلى يوم القيامة إلا وللصحابة في عنقه ممن لا تحصى، وأياد لا تنسى، لأنهم هم الذين حملوا إلينا عن النبي ﷺ الحكم والأحكام، وبينوا الحلال من الحرام، وفهموا الخاصة والعامة، وفتحوا الأقاليم والبلاد، وقهروا أهل الشرك والفساد، ويحق قوله ﷺ صلاة وسلاماً دائماً أبداً: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»⁽¹⁾. وقد وصفهم الله في الآية الكريمة بأوصاف إلى أن قال: ﴿يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَصْطُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الحشر: 8]. دل ذلك من قوله سبحانه وتعالى أنهم ما ابتغوا بما حملوه من الدنيا ولم يقصدوا بذلك إلا وجهه الكريم وفضله العظيم. وقال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: 36]. ولم ينف عنهم الأسباب ولا التجارة، ولا البيع ولا الشراء فلا يخرجهم عن المدحة غناهم إذا قاموا بحقوق مولا هم.

هذه صفة أصحاب النبي ﷺ، ونزيد في حقهم ما قاله أبو حمزة الخارجي: «وهل كان أصحاب محمد ﷺ إلا شباباً؟. شباب والله مكتهلون في شبابهم. عمية عن الشر أعينهم، بطيئة عن الباطل أرجلهم.

قد نظر الله إليهم في آناء الليل متشنية أصلابهم بمثاني القرآن. إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها.

(1) روي هذا الحديث عن نافع عن ابن عمر وهو حديث ضعيف جداً، وقال أبو بكر البزار هذا الكلام لم يصح عن النبي ﷺ وقال ابن حزم: هذا خبر مكذوب موضوع باطل. تلخيص الحبير، ابن حجر: 4/

وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم في أذنيه... قد وصلوا ليلهم بكمال نهارهم، أنضاء^(١). عبادة. قد أكلت الأرض جباههم وأبدانهم وركبهم من كثرة السجود. مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسادهم من كثرة الصيام وطول القيام. مستقلون لذلك في جنب الله، موفون بعهد الله، حتى إذا رأوا سهام العدو قد فوقت، ورماحه قد شرعت وسيوفه قد انتضيت، وبرقت الكتيبة بصواعق الموت، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله... فمضى- الشباب منهم قدماً حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه، قد زملت محاسن وجهه بالدماء... وعفر جبينه بالثرى...

وأسرع إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء... فكم من مقلّة في متقار طائر، طالما بكى صاحبها من خشية الله. وكم من كف بانة من معصمها، طالما اعتمد عليها صاحبها في سجوده؟. وكم من خد عتيق، وجبين رقيق قد فلق بعمد الحديد؟ رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها الجنان^(٢).

ومن الملاحظ أن العصابة المؤمنة التي تركزت في دار الأرقم، وعلى يديها تحقق نصر- الإسلام كانوا شباباً، فرسول الله ﷺ كان عمره أربعين سنة عند البعثة، وأبو بكر ﷺ أصغر منه بثلاث سنين، وعمر ﷺ كان عمره سبعاً وعشرين سنة، وعثمان ﷺ كان أصغر من رسول الله ﷺ وعلي ﷺ كان أصغر من الجميع... وهكذا كان عبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، والأرقم بن أبي الأرقم وسعيد بن زيد، ومصعب بن عمير، وبلال بن رباح، وعمار بن ياسر، وعشرات غيرهم... بل مئات كلهم كانوا شباباً^(٣).

هؤلاء الشباب هم الذين حملوا على كواهلهم أعباء الدعوة، وهم الذين استعذبوا في سبيلها أسمى آيات الصبر والعذاب والتضحية... وهم الذين واصلوا ليلهم بنهارهم حتى

(١) أي أجسامهم هزيلة ومتعبة من العبادة.

(٢) مع الله، محمد الغزالي، ص: 473، 474.

(٣) تربية الأولاد في الإسلام، عبد الله ناصح علوان: 2 / 775.

حققوا لهذا الإسلام انتشاره وكيانه، ولهذا الدين انتصاره وتمكينه. فما بين عشية وضحاها قامت للمسلمين دولة وسلطان، وتأسست لهم حكومة وقيادة. . وأخضعوا لحكمهم المملكتين العظيمتين: فارس والروم، وامتد سلطانهم إلى بلاد السند شرقاً، وإلى بلاد الروس وأرمينية شمالاً، ودخلت في عددهم بدلا الشام ومصر وطرابلس وبقية أفريقية. . . وذلك كله في خمس وثلاثين سنة.

وفي عهد بني أمية استبحر ملكهم وامتد سلطانهم إلى أن دخلوا بلاد السند، ومعظم بلاد الهند، وبلاد التركستان، ووصلوا إلى حدود الصين شرقاً، ودخلوا بلاد الأندلس غرباً.

* * *

الصحابة الكرام والدنيا

يقول ابن عطاء الله: قال عبد الله بن عتبة: كان لعثمان بن عفان ؓ عند خازنة يوم قتل مئة ألف وخمسمئة دينار، وألف ألف درهم، وترك ألف فرس، وألف مملوك، وخلف ضياعاً بئر أريس وخيبر ووادي القرى ما قيمته مئة ألف دينار. وخلف عمرو بن العاص ثلاثمائة ألف دينار، وبلغ ثمن مال الزبير بن العوام خمسين ألف دينار. وترك ألف فرس وألف مملوك. وغنى عبد الرحمن بن عوف ؓ، أشهر من أن يذكر. وكانت الدنيا في أكفهم لا في قلوبهم، وصبروا عنها حين فقدت، وشكروا الله حين وجدت، وإنما ابتلاههم الله بالفاقة في أول أمرهم، حتى تكملت أنوارهم، وتطهرت أسرارهم، فبذلها لهم حيثنذ، لأنهم لو أعطوا منها قبل ذلك لعلها كانت تأخذ منهم، فلما أعطوها بعد التمكين والرسوخ في اليقين، تصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين، وامتلوا فيها قول رب العالمين: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7].

هذا والله هو الزهد الحقيقي. وعندما تعارضت الدنيا مع الدين رمى الصحابة الدنيا وراء ظهورهم وتمسكوا بالدين، فماذا يفيد المال إن ذهب الدين؟!.

هؤلاء الصحابة الكرام صبروا على الدنيا وهم فقراء وشكروا الله وهم أغنياء، وإنما ابتلاههم الله بالفقر في أول أمرهم، قبل معركة بدر حتى يعرف صدقهم ويثبت إيمانهم، فلما صدقوا مع ربهم أتتهم الدنيا وهي صاغرة. فالآن مهما أعطوا من الدنيا فلن تطغيهم بل هم أمناء عليها ينفقونها في مرضاة الله سبحانه كما أمرهم بقوله: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7].

وأصدق مثال على ذلك غزوة بدر الكبرى.

غزوة بدر أول امتحان للصحابية الكرام مع الغنائم:

وكانت غزوة بدر أول تجربة للمسلمين في المواجهة القتالية مع الأعداء، وكانت أيضاً أول تجربة لهم في رؤية الغنائم والأموال وقد تراكمت أمامهم في أعقاب المعركة، وقد كانوا على ما قد علمت من الفقر والحاجة.

وقد كان لابد لهم وهذه هي حالهم، أمام أول تجربة انتصار في معركة قتالية وأمام أول تجربة لإقبال المال إليهم بهذه الصورة على غير توقع، أن يتأثروا نوعاً ما بهذه المفاجأة، وأن تهفو نفوسهم أو نفوس بعضهم إلى تلك الغنائم ويتساءلوا فيما بينهم عن سيأخذها ويستحقها وكيف ستم قسمتها بين الغانمين.

وتسابق بعض المسلمين فعلاً يسألون رسول الله عن كيفية اقتسام الغنائم بينهم، وكاد بعضهم يشتجر على ذلك، فأقبلوا يسألون عن ذلك رسول الله ليتولى هو القسمة بينهم.

ولكن فانظر إلى التربية الإلهية لعباده في هذه المناسبة، وتأمل في الآيات التي نزلت جواباً عن تسابقهم واستفساراتهم اللاهث من أجل تقسيم الغنائم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَقْصُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿[الأنفال: 1 - 2] فأنت ترى أن الآيتين لا تنطويان على جواب عن سؤالهم، وإنما فيهما صرف لهم عن الموضوع كله. . لأن الأنفال (الغنائم) ليست لأحد منهم، بل هي لله ورسوله، أما هم فعليهم أن يتركوا الأموال في مكانها وأن ينصرفوا إلى إصلاح هذا الشقاق الذي دب فيهم، وأن يتذكروا أنهم لم يقاتلوا ابتغاء مغنمة أو مال. وإنما انتصاراً لدين الله عز وجل . . . والله هو الذي يتولى رزقهم فليتكلموا عليه وحده، ولا يمددوا أعينهم إلى مثل هذه الغنائم بأي طمع، وليروضوا أنفسهم على التسامي فوقها، فهم مقبلون غداً على أضعاف هذه الأموال متمثلة في

كنوز الأكاسرة والقيصرة فماذا عسى أن يصيبهم من ذلك إن كان هذا ما ستفعل بهم رؤية الغنائم والأموال؟.

فلما تاب هؤلاء المسلمون إلى هدي هاتين الآيتين، وندموا، وصرفوا النظر عما اشتجروا فيه، واطمأنت نفوسهم متعلقة بما عند الله عز وجل راضية مستسلمة لحكمه، نزلت آيات أخرى تقرر كيفية تقسيم الغنائم بين المقاتلين على اختلافهم، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: 41]⁽¹⁾.

* * *

(1) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 199، 200.

الدنيا في أيدي الصحابة رضي الله عنهم لا في قلوبهم

يقول ابن عطاء الله: فكانت الدنيا في أيدي الصحابة لا في قلوبهم، وكيفيك في ذلك خروج عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عن نصف ماله، وخروج أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- عن ماله كله، وخروج عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- عن سبعمائة بعير موقور بالأحمال، وتجهيز عثمان بن عفان -رضي الله عنه- جيش العسرة، إلى غير ذلك من حسن أفعالهم وسني^(١). أحوالهم، رضي الله عنهم أجمعين، رضاء دائماً أبداً، فتضمنت الآيات التزكية لظواهرهم وسرائرهم وإثبات محامدهم ومفاخرهم، فقد تبين من هذا أن التدبير على قسمين: تدبير الدنيا للدنيا: كما هو حال أهل القطيعة اللثام الغافلين وتدبير الدنيا للآخرة: كحال الصحابة الأكرمين والسلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وجعلنا ممن اقتدى بهم، آمين بل ألف ألف آمين !!.

لو أن الصحابة الكرام جعلوا الدنيا في قلوبهم والدين في أيديهم، ولم ينفقوا تلك الأموال في المعارك ضد المشركين والكافرين لاستولى الأعداء على الأرض والأموال، لكنهم عندما جعلوا الدنيا في أيديهم والدين في قلوبهم تنازلوا عن الدنيا فانتصروا في معاركهم وحفظوا أرضهم ودينهم. هذا هو الدرس الذي يجب أن نتعلمه في كل زمان ومكان من بلاد المسلمين.

أما الآيات التي تتحدث عن الصحابة فكثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ حَمْدُ رَسُولٍ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 29].

ثم قال ابن عطاء الله: «فقد تبين من هذا أن التدبير على قسمين:

(١) أي: أحوالهم الرفيعة.

تدبير الدنيا للدنيا: كما هو حال أهل القطيعة اللثام الغافلين، وتدبير الدنيا للآخرة، كحال الصحابة الأكرمين والسلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين».

التدبير هو: النظر في الأمور وأواخرها، كأن يحدث الإنسان نفسه بأنه يتعامله مع الأسباب قد رتب لنفسه خطة الربح والنجاح وضمن لنفسه النتائج، أما المسلم فإنه يتعامل مع الأسباب أما نتائجها فعائد إلى تدبير الله.

فتدبير الدنيا للدنيا هو الذي يشغلك عن الله ويعطلك عن القيام بخدمة الله، فتلهث وراء الرزق ناسياً الصلاة وحق الزوجة والأولاد مثلاً.

وهذا تدبير مذموم. وهو حال أهل القطيعة والغفلة عن الله.

أما تدبير الدنيا للآخرة فهو الذي يقربك من الله ويوصلك إلى مرضاة الله، وهو حال الصحابة والسلف الصالح كانوا يتعاملون مع الأسباب كما أمرهم الله لكن النتائج كانت بيد الله، فبيده سبحانه الرزق والنجاح والنصر على الأعداء وما شابه ذلك.

وسياتي مزيد تفصيل عند الكلام عن التدبير في فقرة مستقلة إن شاء الله تعالى^(١).

وبذلك ينتهي الكلام عن أحوال الصحابة الكرام رضي الله عنهم وفضلهم على المؤمنين إلى يوم القيامة.

* * *

(١) انظر ص 587.

صحبة المشايخ وحقيقتها

يقول ابن عطاء الله: ليس كل من صحب الأكابر اهتدى بصحبته، فلا تجعل صحبة المشايخ علة في أمنك، فمن اغتر بالله فقد عصاه، لأنك أمنت عقوبته، كما يقول الجاهل: صحبت سيدي فلان، ورأيت سيدي فلاناً، ويدعون دعاوى كلها كاذبة باطلة، بل كان ينبغي لهم أن تزيدهم صحبة المشايخ خوفاً ووجلاً، فقد صحبت المشايخ رسول الله ﷺ، وكانوا أكثر وجلاً وخافة.

يقول ابن عطاء الله: ليس كل من صحب الأكابر اهتدى بصحبته، فلا تجعل صحبة المشايخ علة في أمنك، فمن اغتر بالله فقد عصاه، لأنك أمنت عقوبته، كما يقول الجاهل: صحبت سيدي فلان، ورأيت سيدي فلاناً، ويدعون دعاوى كلها كاذبة باطلة، بل كان ينبغي لهم أن تزيدهم صحبة المشايخ خوفاً ووجلاً، فقد صحبت المشايخ رسول الله ﷺ، وكانوا أكثر وجلاً وخافة.

فاصحبهم وتأدب في مجالسهم وخل حظك معها قدموك ورا

أي اصحب الفقراء وتأدب في مجالستهم فإن الصحبة شبح والأدب روحها فإذا اجتمع لك بين الشبح والروح حزت فائدة الصحبة.

أوصى لقمان الحكيم ابنه فقال: يا بني ما بلغت من حكمتك؟ قال: لا أتكلف ما لا يعنيني.

قال: يا بني، إنه قد بقي شيء آخر: جالس العلماء وزاحمهم بركبتك، فإن الله يحبي القلوب الميتة بنور الحكمة، كما يحبي الأرض الميتة بوابل السماء^(١).

أما من جعل صحبة المشايخ علة في أمنة فأقول له:

(١) غيث المواهب العلية، الرندي: ٢ / ٤٢.

هل الشيخ آمن على نفسه حتى يؤمن غيره، إن هذا لجهل عميق في مبادئ الإسلام، إن مهمة الشيخ هي الدلالة على الله سبحانه وتعليم المرید كيف يحب الله وكيفل يخافه ولماذا يخافه؟

وإليك نماذج من الخوف ترتعد منها فرائص المشايخ مهما كانوا أتقياء وقريبين من الله عز وجل:

إن الملائكة المقربين يخافون من الباري عز وجل، قال تعالى في صفتهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: 50].

وإن الأنبياء الكرام يخافون من ربهم. فهذا رسول الله ﷺ أكرم الخلق على الله تقول عنه السيدة عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت رسول الله ﷺ قط مستجمعاً ضاحكاً، حتى أرى منه لواته إنما كان يبتسم، وكان إذا رأى غيباً وريحاً عرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون المطر، وأراك إذا رأيته عرفت الكراهة في وجهك! فقال: «يا عائشة: ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»⁽¹⁾.

وخاف الصحابة الكرام حتى إن الصديق ﷺ كان يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وقال: يا ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يسمع آية من القرآن هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: 7] فيمرض فيعاد أياماً. وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال: يا ليتني كنت هذه التبنة، يا ليتني لم أك شيئاً مذكوراً، يا ليت أُمِّي لم تلدني. وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء.

(1) البخاري في تفسير القرآن قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدَيْنِهِمْ﴾، [4454]. ومسلم في صلاة الاستسقاء، باب: التعوذ عند رؤية الريح، رقم (1497).

فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والصحابة الكرام ونحن والمشايع أجدر بالخوف منهم ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ولكن بصفاء القلوب وكمال المعرفة، وإنما أمتنا لغلبة جهلنا وقوة مساوئنا، فالقلب الصافي تحركه أدنى مخافة، والقلب الجامد تنبوعه كل المواعظ^(١).

إن كل إنسان مرهون بعمله يوم القيامة قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: 38] فالشيخ مرهون بعمله ولا يدري هل ينجو يوم القيامة أم لا؟ .

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: 15] أي لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى. فكيف بعد هذا تكون صحة المشايخ علة في الأمن يوم القيامة؟ إن هذا لا يدعيه إلا أحمق.

* * *

(1) منهاج القاصدين، ابن قدامة، ص: 337 وما بعدها.

تكرار حضور مجالس العلماء

يقول ابن عطاء الله: يكون بك حب الرياسة والجاه وغيرهما، وتقول: الشيخ ما يجذب قلوبنا، قل: العائق مني، لو استعددت في أول يوم، لما احتجت إلى حضور مجلس ثان، وإنما احتجت إلى التكرار لقوة صداء قلبك، حتى تكون لكل جلسة صقلة.

فمن كان قصده تزكية نفسه من شيخه فعليه أن يكون مهياً لذلك بأن يتخلص من رعونات نفسه وأمراض قلبه فعند ذلك يستفيد من شيخه أو مرشده. ولكن لقوة صدى القلب بسبب تلك الرعونات يحتاج المريد لتكرار الجلوس حتى يتطهر قلبه من الصداً شيئاً فشيئاً.

* * *

أهمية حضور مجالس العلماء

يقول ابن عطاء الله: إذا حضرت المجلس وخرجت إلى المخالفات والغفلات، فيأياك أن تقول: ماذا يفيد الحضور؟ بل احضر. يكون بك مرض أربعين سنة، أفتريد أن يذهب عنك في ساعة واحدة، أو في يوم واحد، فمثاله كرمل رمى في موضع أربعين عاماً، أفتريد أن يزول في ساعة واحدة أو في يوم واحد، فمن فعل المعاصي وتقلب في الحرام لو انغمس في سبعة أبحر لم تطهره، حتى يعقد مع الله عقد التوبة.

لا يفتك مجلس الحكمة ولو كنت على معصية، فلا تقل: ما الفائدة في سماع المجلس، ولا أقدر على ترك المعصية، بل على الرامي أن يرمي فإن لم يأخذ اليوم يأخذ غداً.

وهذا تأكيد لما سبق من أن حضور مجالس العلماء يشترط لها التوبة من الذنوب والغفلة حتى يتطهر القلب، وتكون الإفادة العظيمة مما يسمعه من حقائق الإسلام، فإن بقي غافلاً على قلبه ران وحجاب من المعاصي فكيف يفهم القلب ما يسمع، شفاؤك بيدك أزل ذلك الحجاب، وانظر كيف يفيدك الحضور وسماع المواعظ.

عليك بحضور مجالس العلماء ولو كنت على معصية فإن لم تستفد اليوم ربما استفدت غداً. إذ جلسة واحدة من عالم صادق قد تحيلك من عبدٍ عاصٍ إلى عبد تائب خائف من الله وقد مر بك قول ابن عطاء الله: «ليس الرجل من يربيك لفظه بل الرجل من يربيك لحظه». وقد سمعت قصة الشيخ محمد الحامد رحمه مع شيخه أبي النصر فارجع إليها^(١). وتدبر فيها لتدرك أنك ما ينبغي أن يفتك مجلس الحكمة حتى ولو كنت على معصية.

* * *

(١) انظر، ص: 373.

تصحيح البدايات

يقول ابن عطاء الله: من أراد النهايات فعليه بتصحيح البدايات.

هذه العبارة جاءت في الحكم العطائية كالآتي: «من علامة النجاح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات».

والمعنى إذا أردت أيها العبد طلب شيء وأردت أن ينجح أمره وتبلغ مرادك فيه وتكون نهايته حسنة وعاقبته محمودة، فارجع إلى الله في بداية طلبه، وانسلخ من حولك وقوتك مفوضاً أمرك إلى الله تنظر ما سبق في علم الله، كان ذلك علامة نجاح نهايتك وحصول مطلبك قضيت في الحس أو لم تقض، وإن طلبت شيئاً بنفسك معتمداً على حولك وقوتك حريصاً على قضائها جاهدت في طلبها كان ذلك علامة على عدم قضائها وخيبة الرجاء فيها وعدم نجاح نهايتها وإن قضيت في الحس وكلت إليها فتعبت بسببها.

ثم كمل ابن عطاء هذه المسألة بقاعدة كلية بقوله: «من أشرقت بدايته أشرقت نهايته»⁽¹⁾.

إن خاتمة الإنسان لا تكون إلا ثمرة ونتيجة لما قبلها من البدايات والأحوال السابقة، إنها ليست إلا الصدى لما كانت عليه حال الإنسان من قبل معتقداً أو سلوكاً.

ألا فلتعلم أنه بمقدار ما تكون بداءات حياتك سليمة مستقيمة لا عوج فيها، تضمن لنفسك خاتمة حسنة إذا حان الرحيل وجاء الموت، وبمقدار ما تستسلم في البداءات السابقة من حياتك لعواصف الأهواء والشهوات ومحبة الأغيار، تغيب عنك هذه الخاتمة الحسنة⁽²⁾.

* * *

(1) إيقاظ المهمل، ابن عجيبة، ص: 59.

(2) الحكم العطائية، شرح وتحليل د. محمد سعيد رمضان البوطي: 1 / 363.

فوائد الصدق مع الله

يقول ابن عطاء الله: من صدق مع الله كفاه الله مضرة الأعداء، وحمل عنه مؤنة الأرداء^(١).

الصادق مع الله هو من باع نفسه وماله لله، إنها مسألة بيع وشراء فالله سبحانه اشترى منا أنفسنا وأموالنا وعوضنا بها الجنة، وفي الدنيا يجازيه الله بأن يجعل له ما يليق به في هذه الدار، ومن ذلك ما يدفع عنه المضار ويجلب له المنافع والمسرات، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: 196]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2-3] وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

ولذلك يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «جل ربنا أن يعامله العبد نقداً فيجازه نسيئة».

فالتقد ما كان معجلاً والنسيئة ما كان مؤخراً، ومن شأن الكريم إذا اشترى شيئاً أن ينجزه نقده ويزيد إحسانه وورفده، فالصادق مع الله جزاؤه الجنة أجلاً، وجزاؤه ما ذكرناه في الدنيا من التوفيق والهداية وأن يكفيه مضرة الأعداء ويحمل عنه مؤنة الأرداء^(٢). أي يتكفل سبحانه بعونه ونصرته ولا يكله إلى معين أو أو ناصر من الخلق.

* * *

(١) الأرداء جمع رداء: وهو المعين والناصر، قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَازْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُ﴾

[القصص: 34]. المعجم الوسيط، ص: 137.

(٢) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 137.

تقوى الله وحسن الخلق

يقول ابن عطاء الله: التقوى هي ترك معصية الله حتى لو كنت لا يراك أحد.

سئل رسول الله ﷺ: «ما أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال عليه الصلاة والسلام: تقوى الله وحسن الخلق» ف قيل له: فما أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال عليه الصلاة والسلام: الأجوفان: الفم، والفرج»^(١).

فاغسل قلبك بالندم على ما فاتك من الله عز وجل، غلطوا والله في النوائح على زوجة، أو زوج، أو والد، أو ولد، بل كان من حقهم أن يقيموا النوائح على فقدانهم تقوى الله من قلوبهم.

التقوى من الاتقاء والحماية، وهي تعني: اتقاء المعاصي والذنوب بطاعة الله عز وجل حتى لو كنت لا يراك أحد. وهذا يعني مقام المراقبة أو الإحسان الذي قال عنه ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢).

وقد جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق في الحديث الذي ذكره ابن عطاء الله، لأن تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته^(٣).

(١) ابن ماجه في الزهد، باب: ذكر الذنوب، رقم (4236). والترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في حسن الخلق، رقم (1927) وقال: صحيح غريب.

(٢) البخاري في الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (48). ومسلم في الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (274).

(٣) الفوائد، ابن القيم، ص: 79.

فتقوى الله وحسن الخلق إذا هي أكثر ما يدخل الناس الجنة؛ إذ إن الجنة أعدت للمتقين كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133].

وحسن الخلق سبب محبة الرسول ﷺ للعبد وسبب القرب منه ﷺ في الجنة لقوله ﷺ: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»^(١).

أما أكثر ما يدخل النار فهما الأجوفان: الفم والفرج كما قال ﷺ:

لأنه بالفم تكون الغيبة والنميمة والسب والشتم والكلام فيما لا يعني وذلك سبب لدخول النار كما قال ﷺ لمعاذ: «هل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم»^(٢).

وأما الفرج إذا لم يحفظه صاحبه فإنه سبب لجريمة الزنى، قال ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه أي اللسان - وما بين رجله - أي الفرج - أضمن له الجنة»^(٣). وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي ومني»^(٤).

ثم قال ابن عطاء الله: «فاغسل قلبك بالندم على ما فاتك من الله عز وجل...». إلخ الفقرة.

(1) الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في معالي الأخلاق، رقم (1941). وقال: حسن غريب.

(2) الترمذي في الإيثار، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (2541). وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن، باب: كف اللسان عن الفتنة، رقم (3963).

(3) البخاري في الرقاق، باب: حفظ اللسان، رقم (5993).

(4) الترمذي في الدعوات، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم (3414). وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث سعيد بن أوس عن بلال بن يحيى. والنسائي في الاستعاذة، باب: الاستعاذة من شر السمع والبصر، رقم (5349). وأبو داود في الصلاة، باب: في الاستعاذة رقم (1327). وأحمد في مسند المكين، حديث شكل بن حميد، رقم (14992).

فالندم والحزن لا يكون على فقدان الزوجة أو الزوج أو الوالد أو الولد إذ هؤلاء لا
ينفعوك عند ربك، بل الذي ينفعك هو تقوى الله، فابك على فوات التقوى من قلبك وأن
يكون الناس قد تزودوا بالتقوى للآخرة وأنت صفر اليدين.

قال الشاعر:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى وأبصرت يوم الحشر من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله وأنت لم ترصد كما كان أرصدا

* * *

حسن الخلق هو القيام بحقوق الله تعالى

يقول ابن عطاء الله: أنحسب أن حسن الخلق هو أن يكون الإنسان حسن الملتقى؟. ومن أكرم الناس وضع حقوق الله تعالى؟. ليس هذا بحسن خلق، بل لا تكون ممدوحاً بحسن الخلق، حتى تكون قائماً بحقوق الله تعالى، وقائماً بأحكامه مستسلاً لأوامر الله، مجتنباً لنواهيه، فمع منع نفسه معاصي الله، وأدى حقوق الله فقد حسن خلقه.

ليس حسن الخلق ما يرضي الناس، بل ما يرضي الله سبحانه، وعندما قال النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً»^(١).

انظر كيف ربط حسن الخلق مع اللطف بالزوجة، إذ إن كثيراً من المسلمين تحسبهم ملائكة تسير على الأرض، لا يكاد أحدهم يُغلق باب منزله من ورائه حتى ينقلب شيئاً آخر، فهو بين الناس حسن الكلام مهذب اللفظ، لكن في بيته خشن قدر الألفاظ، هو بين الناس ناعم يسيل عذوبة ورقة، لكنه في بيته جاف غليظ الطبع فاجر متوحش. إنه حسن الملتقى لكن ضيع حقوق الله التي أمره بها في بيته.

إذاً حسن الخلق نابع عن الإيمان ومن ثمراته أداء حقوق الله واجتناب نواهيه. فمن فعل ذلك كان حسن الخلق، وإلا فلا؟!.

* * *

(١) الترمذي في الرضاع، باب: ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم (1082). وقال: حسن صحيح. وأحمد في باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة، رقم (7095).

نقاء البصيرة

يقول ابن عطاء الله: بدل ما تقول: أين أصحاب الخطوة؟ أي الأولياء؟ أي الرجال؟ قل: أين البصيرة؟ هل يصلح للمتلطخ بالعدرة أن يرى بنت السلطان؟!

البصيرة: نور يقذفه الله في القلب كالبصر في العين، يرى به حقيقة الأشياء وحقيقة القرآن وما أخبر به الرسل عن ربهم عز وجل^(١). والبصيرة جاءت في القرآن الكريم مرتين، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ [يوسف: 108]. وقال عز وجل: ﴿بَلْ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ^(١٤) وَلَوْ أَلْفَ مَآذِرَةٍ﴾ [القيامة: 14 - 15]. على نفسه بصيرة أي: على معرفة وتحقيق^(٢).

سبب عدم وجدانك للأولياء والرجال الصالحين هو حجاب بصيرتك بسبب ما ران عليها من الذنوب والشهوات، فمن رمدت عينه كيف يرى الشمس ومن رمدت بصيرته كيف يرى أولياء الله.

صحح بصيرتك بتوبة صادقة واجتهد في طاعة الله تجد الكثير من حولك ممن هم مثلك في الطاعة ومن سبقوك في القرب من الله سبحانه.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث جعل الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه».

فالأولياء الذين تولاهم الله بعنايته واصطفاهم لنفسه واختصهم بمحبته وطهر قلوبهم من الأغيار، لم يظهرهم إلا لمن يعرفهم، لأن الحق تعالى أغير على أوليائه من أن يظهرهم إلى من لا يعرفهم، فلم يجعل لأحد دليلاً عليهم إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا

(1) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية: 1 / 143.

(2) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: 3 / 461.

من أراد أن يوصله إليه. إذ لا يعرفه سبحانه إلا من صدق في عبوديته وتوجه بقلبه إلى ربه. بل كثيراً من الخلق محبوبون عن ربهم بسبب طغيان الهوى على بصيرتهم. إذاً حتى تعرف الأولياء كن مثلهم في الطاعة والعبادة وكن محباً لهم محترماً لهم في الظاهر والباطن وصح بصيرتك بتوبة صادقة إلى الله تعالى.

* * *

لا تؤذ مؤمنا

يقول ابن عطاء الله: من أكرم مؤمناً فكأنها أكرم الله، ومن آذى مؤمناً فقد آذى سيده ومولاه.

فإياك أن تؤذي مؤمناً، فإن نفسك قد امتلأت بمساوئها، يكفيك حملك.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 58].

فلا يجوز إيذاء المسلم بقول ولا فعل، ولا التكبر عليهم ولا سماع بلاغات الناس بعضهم في بعض، ولا تبليغ بعضهم ما تسمع من بعض.

إن إيذاء المؤمن إيذاء الله سبحانه؟. وهي مبالغة لخطورة إيذاء المؤمن إذ لا يمكن لأحد أن يؤذي الله سبحانه! والدليل على ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»⁽¹⁾.

لقد ارتكب من عادى ولياً جرماً عظيماً استحق بذلك عذاب الله وهلاكه.

ويقول تعالى في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في أحدهما عذبتة»⁽²⁾.

والتكبر والعظمة تكون على الخلق فهي إيذاء لهم ولذلك تعرض صاحبها لعقوبة الله سبحانه.

(1) البخاري في الرقاق، باب: التواضع، رقم (6021).

(2) مسلم في البر والصلة، باب: تحريم الكبر، رقم (4752).

إن المسلم من سلم المسلمون من لسان ويده كما قال ﷺ^(١).

وبالمقابل فإن إكرام المؤمن إكرام الله، يشهد لهذا قوله ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»^(٢).

وإكرام المسلم: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتحييه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس^(٣)، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبر قسمه، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب، وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك.

وانظر إلى هذا المعنى في الحديث القدسي الذي يقول فيه رب العالمين: «عبدني استطعمتك فلم تطعمني، قال: وكيف أطعمك وأنت رب العالمی، قال: وكيف أطعمك وأنت رب العالمی، قال: ألم تعلم أن فلاناً استطعمتك فلم تطعمه أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي... إلخ الحديث»^(٤).

* * *

(١) البخاري في الإيمان باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم (١٠). ومسلم في الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام، رقم (٥٧).

(٢) الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، رقم (١٨٧٨). وقال: حسن صحيح. وأحمد في باقي مسند المكثرين، مسند أبي سعيد الخدري، رقم (١٠٨٥٠).

(٣) للأسف كثير من المسلمين لا يعلمون كيفية تشميت العاطس، وإذا شمت أحدهم وقيل له: يرحمك الله، تحير ولم يعرف الإجابة؟.

(٤) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: فضل عيادة المريض، رقم (٤٦٦١).

المرور على الصراط

يقول ابن عطاء الله: فإن أردت أن تعرف كيف تمر على الصراط فانظر حالك في الإسراع إلى المساجد، فيكون جزاء الذي يأتي المسجد قبل الأذان أن يمر على الصراط كالبرق الخاطف، والذي يأتي في أول الوقت يمر عليه كأجاويد الخيل، وها هنا صراط الاستقامة لا يشهد بالأبصار، ولكن تشهده القلوب، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153]. ولم يشر إلا إلى موجود، فمن أضاءت له الطريق يتبعها، ومن كانت طريقه مظلمة لم يشهدا فيبقى متحيراً، فإن كنت قد أطلقت سمعك وبصرك ولسانك برهة من عمرك فقيّد الآن ما أطلقت.

الصراط جسرٌ يضرب على جهنم كما أخبر بذلك النبي ﷺ ففي الصحيحين: «ويضرب جسر جهنم فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلم سلم وبه كلاليب، مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله. فتخطف الناس بأعمالهم منهم الموبق بعمله ومنهم المخردل ثم ينجو. .»⁽¹⁾.

والصراط هو المنهج الذي أمرنا الله باتباعه بقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: 153].

إن اجتياز الصراط يوم القيامة هو انعكاس لأعمالك في الدنيا فإن كنت قد أعطيت نفسك ما تشتهي ووسعت لها في الملذات ضاق صراطك، يوم القيامة حتى يصبح أحد من السيف، وإن كنت ضيقت على نفسك سبل الشهوات وحجزتها عن معصية الله اتسع صراطك حتى كأنه جادة عريضة.

(1) سبق تخريجه، ص: 117.

أما الكلاليب المذكورة في الحديث التي تخطف الناس فإنها بسبب أعمالهم لأنهم اتخذوا الدنيا للهو واللعب فنسوا بسبب ذلك هذه المواقف التي ستواجههم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...﴾ [الأعراف: 51].

* * *

الفقراء والأغنياء

يقول ابن عطاء الله: قال رسول الله ﷺ: «يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»^(١). وذلك لأنهم سبقوا في الدنيا بالعبادات، وأنت تترك الجماعة وتصلي وحدك، وإذا صليتها نقرتها نقر الديك، وهل يهدى للملوك إلا ما حسن وانتخب؟. فما سبق الفقراء إلى الجنة إلا لأنهم سبقوا إلى خدمة المولى في الدنيا، والمراد بالفقراء الصبر: الذين صبروا على مر الفاقة، حتى إن أحدهم ليفرح بالشدة كما تفرح أنت بالرخاء، فدخول الفقراء الجنة يدل على تحضيضهم على الفاقة.

الأحق بدخول الجنة هو الأعلام بسنة النبي ﷺ وأتبعهم لها.

وفي ذلك يقول ابن القيم في كتابه: «عدة الصابرين».

«وما ينبغي أن يُعلم أن كل خصلة من خصال الفضل قد أحل الله رسوله ﷺ في أعلاها، وخصه بذروة سنامها، فإذا احتجت بحاله فرقة من فرق الأمة التي تعرف تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها، أمكن للفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضاً.

فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف، احتج به العلماء على مثل ما احتج به أولئك، وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم، احتج به الداخلون في الدنيا والولاية، وسياسة الرعية، لإقامة دين الله، وتنفيذ أوامره... إلى أن قال:

(١) ابن ماجه في الزهد، باب: منزلة الفقراء، رقم (4112). وأحمد، باقي مسند المكثرين، مسند أبي هريرة

رقم (7605). والترمذي في الزهد، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل الأغنياء، وقال:

حسن صحيح.

وإذا احتج به الفقير الصابر، احتج به الغني الشاكر. . . ثم قال: «والمقصود بهذا الفصل: أنه ليس الفقراء والصابرون، أحق به ﷺ من الأغنياء الشاكرين وأحق الناس به أعلمهم بستته وأتبعهم لها»^(١).

فإذا كان الفقير صابراً فإنه أحق بدخول الجنة من الغني غير الشاكر، وهذا معنى قول ابن عطاء الله: «المراد بالفقراء الذين صبروا على الفاقة».

وإذا كان الغني شاكراً فهو أحق بدخول الجنة من الفقير الذي لم يصبر على فقره وفاقته. أما إذا تساوى الغني مع الفقير من التقوى فالغني الشاكر أفضل عند الله لإنفاقه المال في سبيل الله.

إن الفقير عندما يسبق الغني بالطاعات فمن الطبيعي أن يدخل الجنة قبل الغني. فالفقير الذي خشع في صلاته وحافظ على صلاة الجماعة، أفضل من الغني الذي عقله وقلبه قد شغفا بحب المال فهو لذلك يترك الجماعة ويصلي وحده في داره أو محله صلاة سريعة ينقرها نقر الديك. فكأنه لم يصل كما قال ﷺ لذلك الرجل الذي أسرع في صلاته، قال ﷺ: «ارجع فصل فكأنك لم تصل»^(٢).

إن الفقير إلى الله المنخلع من اعتماده على نفسه المعتمد على الله وتوفيقه وتدبيره المتصف بذل عبوديته له، أفضل ممن يعتقد على نفسه وماله وغناه مدبراً لنفسه ولا يأبه لتوفيق الله وتدبيره؟!.

* * *

(١) عدة الصابرين، ابن القيم، ص: 412 وما بعدها.

(٢) البخاري في صفة الصلاة، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم. . . ، رقم (724).

تكريم الله للإنسان

يقول ابن عطاء الله: جعلك الله في العالم الأوسط بين ملكه وملكوته، ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، وأنت جوهرَةٌ انطوت عليها أصداف مكوناته، أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك.

هذه إحدى الحكم العطائية وتعني: أن الله جعل الإنسان عالماً متوسطاً بين ملكه وهو عالم الشهادة وملكوته وهو عالم الغيب. ولم يجعلك ملكياً محضاً ولا ملكوتياً محضاً، بل جعل فيك من عالم الملك جسمك، ومن عالم الملكوت روحك وسرك، ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، حيث جمعت بين الظاهر والباطن، وبين الجسمانيات والروحانيات، ففيك انطوى العالم الأكبر.

كما قال سيدنا علي عليه السلام:

وتزعم أنك جزمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ومتى تدبرت ذلك علمت أنك جوهرة نفيسة، تنطوي أي: تحتوي عليك للخدمة والحفظ مكوناته التي هي لك كالأصداف المحيطة بالجوهرة. فإن الله تعالى سخر لك جميع مخلوقاته لنفعك كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: 13]. فينبغي لك أن ترفع همتك عن الأكوان، وتشتغل بعبادة الكريم المنان، فإنه يقبح منك أن تخدم الخدم وتترك عبادة مولي النعم^(١).

والأكوان هي هذه الأشياء من حولك، فمن كان مع الأكوان فقد تقيد بها واحتاج إليها، ثم تتخلي عنه ولا يبقى إلا عمله.

(١) شرح الحكم العطائية، عبد المجيد الشرنوبى، ص: 163، 164.

فمن عرف هذه الحقيقة وأن الأكوان حجاب تحجبه عن شهود الله، تخلص عنها واتجه بشهوده إلى الله تعالى فعلم أنه الخالق والمنعم والمحسن الأوحد عندئذ يستغني عن الأكوان ويتحرر من أسر عبوديتها، وتصبح هي محتاجة إليه وخادمة له ومتبركة به.

* * *

أنواع الصحبة

يقول ابن عطاء الله: فإن قيل: كيف الصحبة لله، فاعلم أن صحبة كل شيء على حسبه، فصحة الله تعالى بامثال أوامره واجتناب نواهيه، وصحة الملكين أن يملئها الحسنات، وصحة الكتاب والسنة أن يعمل بهما، وصحة السماء بالتفكر فيها، وصحتك الأرض بالاعتبار لما فيها، وليس من لازم الصحبة وجود الرتبة، فالمعنى صحبة الله أياديه ونعمه، فمن صحب النعم بالشكر، وصحب البلاء بالصبر، وصحب الأوامر بالامثال، والنواهي بالانزجار، والطاعة بالإخلاص، فقد صحب الله تعالى، فإذا تمكنت الصحبة كانت خلة.

- صحبة الله هي امثال أوامره واجتناب نواهيه، فعندما يأمرنا الله بأمر كقوله تعالى: ﴿وَأَبِذْ الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: 26] فعلينا امثال هذا الأمر وتطبيقه عملياً في حياتنا، وعندما ينهانا الله عز وجل عن الزنى بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 32]. فعلينا الابتعاد عن هذه الجريمة، وهكذا في كل أمر أمرنا الله به وكل نهي نهانا عنه.

- وصحة الملكين أن يملئها الحسنات: قال تعالى: ﴿إِذْ يُلْقَى الْمُتَّقِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفُظُونَ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْ رَقِيبٍ عَنِيدٌ﴾ [ق: 17: 18].

فالملك الموكلان يتلقيان: أي يحفظان ويكتبان أعمال الإنسان ملك عن اليمين يكتب الحسنات وملك عن الشمال يكتب السيئات.

- وصحة الكتاب والسنة أن يعمل بهما: قال ﷺ: «تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيف عنها بعدي إلا هالك، من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ»^(١).

(١) ابن ماجه في المقدمة، باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (43). وأحمد، مسند الشاميين، حديث العرباض بن سارية، رقم (16519).

وقال ﷺ: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الخوض»^(١).

- وصحبة السماء بالتفكر فيها، وصحبتك الأرض بالاعتبار لما فيها: قال: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: 101].

وقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191].

فانتقلوا من شهود الأكوان إلى شهود المكون سبحانه وتعالى.

ثم يقول ابن عطاء الله: «وليس من لازم الصحة وجود الرتبة».

أي أن يكون صاحب مثل المصحوب، ليس هذا المقصود إنما المقصود طاعة الله في أوامره وشكره على نعمه والصبر على البلاء والإخلاص في كل ذلك. عندئذ تتمكن الصحة لتصبح خلة.

والخلة هي: الصداقة الحميمة والمحبة التي تخللت القلب فصارت خلاله أي في باطنه.

قال ﷺ: «لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً: لاتخذت أبا بكر ولكن أخي وصاحبي ﷺ»^(٢). أي هو أخي في الإسلام أما الخلة فقد اتخذ الله نبيه محمداً ﷺ خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً وفي رواية «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي».

فخلة العبد لربه هي طاعته، وخلة الله للعبد بمعنى نصره له ومعاونته.

* * *

(1) الحاكم في المستدرک، رقم (319): 1 / 172. والبيهقي في السنن الكبرى: 10 / 113. والدارقطني،

رقم (149): 4 / 245.

(2) البخاري في المناقب، باب: قول النبي: لو كنت متخذاً خليلاً، (3383).

التواضع والتأدب مع الله تعالى

يقول ابن عطاء الله: كان النبي ﷺ إذا شرب الماء، قال: «الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاباً بذنوبنا». وهو ﷺ مقدس عن الذنوب، ولكن تواضعاً منه وتعليماً، وكان يمكنه أن يقول: بذنوبكم، وما أكل ﷺ ولا شرب إلا ليعلمنا الأدب، وإلا فكان عليه الصلاة والسلام يطعم ويسقى^(١)، فالعارف ينكس رأسه إذا شرب، وربما تقطر عيناه بالدموع ويقول: هذا تودد من الله تعالى.

يعلمنا ابن عطاء الله كيفية التأدب مع الله، فإذا أحس الإنسان بنعمة وتلذذ بها لم ينس المنعم بل ينكس رأسه خجلاً من الله وشكراً له على هذه النعمة!.. إذ لم يكن همهم إشباع بطنه بل التقوي على طاعة الله سبحانه.

فليتفكر كيف أن الله أنعم عليه بنعمة الإحساس فرزق الحواس الخمسة، وآلة الحركة في طلب الغذاء، فلو خلق لك البصر حتى تدرك به الطعام، ولم يخلق لك في الطبع شوقاً إليه وشهوة تستحثك على الحركة، كان البصر معطلاً، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له، ولا يقدر على تناوله لسقوط شهوته، فانظر إلى هذه النعم لتقوى على الشكر، ولتأدب مع الله عند الطعام والشراب وتقول: هذا تودد ومن الله، إنه يحبنا بذاته سبحانه ونحن غافلون عن كل هذا، ما هذا الحمق؟.

(١) هذه مبالغة، فالنبي ﷺ يتصف بصفات البشر وإن كان نبياً يوحى إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ فهو يجوع ويشبع. وله خصوصية عند ربه تختلف عن البشر، وقد خرج النبي ﷺ من بينة مرة من الجوع، وفي غزوة الخندق كان يربط حجراً على بطنه من الجوع ﷺ.

أما قول ابن عطاء الله - رحمه الله - : «وإلا فكان عليه الصلاة والسلام يطعم ويسقى» وذلك عندما نهى النبي ﷺ صحابته الكرام عن الوصال فقالوا له: «إنك تواصل، فقال ﷺ: إني لست كهيتكم، إني أطعم وأسقى»⁽¹⁾.

وقد غلط من ظن أن هذا طعام وشراب حسي للفم. ولو كان كما ظنه هذا الظان: لما كان صائماً، فضلاً عن أن يكون مواصلاً. ولما كان جوابه ﷺ: «إني لست كهيتكم». فأجاب بالفرق بينه وبينهم. ولو كان يأكل ويشرب بفيه الكريم حساً، لكان الجواب أن يقول: وأنا لست أواصل أيضاً. فلما أقرهم على قولهم: «إنك تواصل» علم أنه ﷺ كان يمسك عن الطعام والشراب، ويكتفي بذلك الطعام والشراب العالي الروحاني، الذي يغني عن الطعام والشراب الحسي⁽²⁾.

* * *

(1) البخاري في الصوم، باب: بركة السحور، رقم (1788).

(2) مدارج السالكين، ابن القيم: 3 / 87.

العلم والعمل به

ما فائدة العلم إلى العمل به، مثاله كملك كتب إلى نائبه كتاباً، فما فائدة الكتاب أن تقرأه فقط، إنها فائدته العمل به.

يقول الإمام الغزالي - رحمه الله - ينصح ذلك الطالب: «أيها الولد: ولو قرأت العلم مئة سنة، وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعداً لرحمة الله تعالى إلا بالعمل لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: 39]. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: 110]. وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 82]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (١٧) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: 70].

وما نقول في هذه الأحاديث؟: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً»^(١).

والإيمان: قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان. . .

أيها الولد: ما لم تعمل لم تجد الأجر. قال علي عليه السلام: من ظن أنه دون الجهد يصل فهو متمن، ومن ظن أنه يبذل الجهد يصل فهو مستغن. أي أنه يركن على عمله غير محتاج إلى فضل الله ورحمته. . . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»^{(٢) (٣)}.

(١) البخاري في الإيمان، باب: بني الإسلام على خمس، رقم (7). ومسلم في الإيمان، باب: بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم (21).

(٢) الترمذي في صفة القيامة والرقائق، رقم (2383). وقال: حديث حسن. وابن ماجه في الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له، رقم (4250). وأحمد، مسند الشاميين، حديث شداد بن أوس، (16501).

(٣) أيها الولد، الغزالي، ص: 8 وما بعدها.

إن العلم بلا عمل إكثار من حجة الله على العالم لأنه سيحاسبه قائلاً له: أنت تعلم كذا وكذا وكذا فهل عملت بما علمت؟! ولذلك قالت أم الدرداء لرجل: هل عملت بما علمت؟ قال: لا. قالت: فلم تستكثر من حجة الله عليك؟. وقال الفضيل: يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغفر للعالم ذنب واحد، فما يبلغ من الكل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: 19] ^(١).

ولنستمع لابن الجوزي يحدثنا عن صحبته للمشايخ ويبين أن الذي انتفع منه هم العاملون بما علموا فيقول: «ولقيت مشايخ أحوالهم مختلفة، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه وإن كان غيره أعلم منه، ولقيت جماعة من علماء الحديث يحفظون، ويعرفون، ولكنهم كانوا يتساحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل، ويسرعون الجواب لئلا ينكسر الجاه وإن وقع خطأ. ولقيت عبد الوهاب الأنطاقي فكان على قانون السلف لم يسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقاق بكى واتصل بكأؤه، فكنت - وأنا صغير السن حينئذ - يعمل بكأؤه في قلبي ويبنى قواعد. . . ورأيت مشايخ كانت لهم خلوات في انبساط ومزاح، فراحوا عن القلوب، وبدد تبديدهم ما جمعوا من العلم، فقل الانتفاع بهم في حياتهم ونسوا بعد مماتهم، فلا يكاد أحد يلتفت إلى مصنفاتهم، فالله الله في العلم والعمل» ^(٢).

إذاً العلم سابق للعمل ويدل عليه، وانظر كيف بدأ الله بالعلم التوحيد ثم أتبعه بالاستغفار وهو عمل فقال سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: 19].

وغلط بعضهم ففضلوا العبادة على العلم، وهذا يخالف لسنة النبي ﷺ التي تثبت أن العلم أفضل من العبادة.

(1) صيد الخاطر، ص 77.

(2) صيد الخاطر، ص: 180، 181.

يقول ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»^(١).

ومن حكم ذلك أن العلم نفعه متعدد ونفع العبادة قاصر على صاحبه.

ولأن العلم هو الذي يكشف الغوامض من المسائل ويجد الحلول للمشكلات فذلك الذي حدث عنه النبي ﷺ أنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل رجلاً عابداً هل له من توبة فقال له: لا توبة لك، فقتله، ثم سأل رجلاً عالماً فقال له: ويحك ومن يحول بينك وبين التوبة اخرج من القرية الخبيثة التي أنت فيها إلى القرية الصالحة قرية كذا وكذا فاعبد ربك فيها. . .»^(٢).

وبالعلم تعرف الحلال من الحرام والسنة من البدعة ودون العلم قد يقع المرء في باطل وهو يظنه حقاً، ويرتكب البدعة وهو يحسبها سنة، ويتورط في الحرام وهو يتوهمه حلالاً.

فالعلم أفضل من العبادة، لأن العلم يدل صاحبه على العمل الأفضل عند الله، وإن كان أقل من غيره مشقة، فصاحب العلم أقل تعباً ومعاناة، وهو أكثر مئوبة وأجراً، وانظر إلى الصناعات والأجراء كيف يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم، ويربهم كيفية العلم، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه.

ولذلك قال أحدهم: ما سبقكم أبو بكر ﷺ بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه !.

أي ما وقر في قلبه من العلم بالله والهيبة له والتعظيم لحرماته.

* * *

(١) الترمذي في العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (2606). وقال: لا تعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندي بمتصل. وأبو داود في العلم، باب: الحث على طلب العلم، رقم (3157). وابن ماجه في المقدمة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (219). وأحمد في مسند الأنصار، باقي حديث أبي الدرداء، رقم (29723).

(٢) البخاري في أحاديث الأنبياء، حديث الغار، رقم (3211). ومسلم في التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (4968).

الرحلة من الأكوان إلى المكون

يقول ابن عطاء الله: لا ترحل من كون إلى كون فتكون كالخمار في الرحي^(١). يسير والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل فيه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: 42].

هذا جزء من إحدى الحكم العطائية وباقي الحكمة: «وانظر إلى قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(٢).

فافهم قوله عليه الصلاة والسلام، وتأمل في هذا الأمر إن كنت ذا فهم.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾^(٣٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْدُوءُ^(٣٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ^(٣٩) فَفَرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ^(٤٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: 47-51].

هذه آيات خمس، الثلاث الأولى منها وصفت الأكوان علوها وسفلها وما انبث فيها من حياة وأحياء.

والاثنتان الأخريان انتقلت من الأكوان إلى المكون فتحدثت عن وجوده ثم توحيده.

إن من له أدنى مسكة يعرف - من العالمين - رب العالمين، ويعرف - من الأكوان - صاحب هذه الأكوان^(٣) !!.

(1) لفظ الحكم: كخمار الرحي.

(2) البخاري في بدء الوحي، باب: بدء الوحي، رقم (1). ومسلم في الإمارة، باب: قوله إنها الأعمال بالنية، رقم (3530).

(3) الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص: 127.

فمن كانت همته الحظوظ والشهوات النفسية والتعلق بالمكونات فقط، فحالته حال حمار الساقية في السير دائم وهو في موضعه قائم يظن أن قطع مسافة مما طلب، وما زاد إلا نقصاً مع تعب.

فينبغي أيها العبد أن ترحل من رؤية الأكوان إلى شهود المكون سبحانه وتعالى.

ثم استدل على طلب رفع الهمة إلى الله مع الإعراض عما سواه بحديث الهجرة الذي في الصحيح، فقال: «وانظر إلى قوله ﷺ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . . . إلخ الحديث».

أي من هاجر قاصداً بهجرته الوصول إلى رضا الله ورسوله فهجرته موصلة إلى الله ورسوله على حسب قصده وهيمته، ومن كانت هجرته إلى حظوظ نفسه وهواه فقد خاب قصده ومسعاها وغاية هجرته ما هاجر إليه وكانت هجرته زيادة في جر الوبال إليه^(١).

وذكر ابن عطاء الله في حكمة أخرى ما يشبه هذه الحكمة فقال: «أباح لك أن تنظر في المكونات وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: 101] فبقوله انظروا ماذا في السموات فتح لك باب الأفهام ولم يقل انظروا السموات لئلا يدل ذلك على وجود الأجرام».

فلا يجوز الوقوف عند المكونات كالسما، وإنما الانتقال من السموات إلى خالق السموات سبحانه وتعالى.

* * *

(١) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة، ص: 74.

من هو الفقيه

يقول ابن عطاء الله: قال الشيخ أبو الحسن رضي الله تعالى عنه: ليس الفقيه من فقاً الحجاب عيني قلبه، وإنما الفقيه من فهم سر الإيجاد، وأنه ما أوجده إلا لطاعته، ولا خلقه إلا لخدمته، فإذا فهم هذا كان هذا الفقه منه سبباً لزهده في الدنيا وإقباله على الآخرة وإهماله لحظوظ نفسه واشتغاله بحقوق سيده، مفكراً بالمعاد، قائماً بالاستعداد، قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»^(١). والمؤمن القوي هو الذي أشرق في قلبه نور اليقين.

قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٢). وقال: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين وبصره بعيوب نفسه»^(٣). فالفقه في الدين سبب لمعرفة النفس.

والفقه: العلم، أي العلم بالأحكام الشرعية، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122].

فليس الفقيه من كانت الذنوب والمعاصي وعيوب النفس حجاباً يحجبه عن الله وشهود عظمته، بل الفقيه من فهم سر قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الذاريات: 56]. فهل رأيت عبداً يشتري سيده للأكل والشرب؟ إنه اشترى لطاعة سيده.

فالعاقل من زهد في الدنيا ونسي حظوظ نفسه وكان همه إلى الآخرة والتفكير بقدومه على الله سبحانه؟.

ثم قال ابن عطاء الله تفسيراً للحديث المذكور: «المؤمن القوي هو الذي أشرق في قلبه نور اليقين».

(1) مسلم في القدر، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، رقم (4816).

(2) البخاري في العلم، باب: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، رقم (69). ومسلم في الزكاة، باب: النهي عن المسألة، رقم (1719).

(3) أخرجه ابن أبي شيبة، رقم (31049): 240 / 6.

كلمة اليقين تدل على معنى الثبات مع الوضوح، واليقين هو العلم الذي انتفت عنه الشكوك والشبهات.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «ما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: اللهم أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا. . .»⁽¹⁾.

فالؤمن القوي هو القوي في يقينه بأن يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده، فيؤمن بأن الرازق هو الله، فيعتمد عليه لا على نفسه بأن يأخذ بالأسباب أما النتائج فهي بيد الله عز وجل. وكأن اليقين ينبثق من ينبوع البحث والتأمل، وسعة التدبر والتفكير، فيعمر نور الإيمان قلب الإنسان، ويدفعه ذلك إلى أداء الفروض والواجبات ويجعله على الدوام متذكراً لقاء الله، فيحسن الاستعداد لهذا اللقاء.

ومن نتائج قوة اليقين بالله القناعة وحسن الظن بالله.

قال ﷺ: «طوبى لمن هُدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به»⁽²⁾.

وقال ﷺ: «إن الله يحب الفقير المتعفف»⁽³⁾.

وقال ﷺ: «أنا عند ظن عبدي بين وأنا معه إذا ذكرني. . .»⁽⁴⁾.

* * *

(1) الترمذي في الدعوات، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم (3424) وقال: حديث حسن غريب.

(2) مسلم في الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة، رقم (1746).

(3) ابن ماجه في الزهد، باب: فضل الفقراء، رقم (4111).

(4) البخاري في التوحيد، باب: قول الله تعالى ويحذرکم الله نفسه، رقم (6856). ومسلم في الذكر والدعاء،

باب: الحث على ذكر الله، رقم (4822).

حقيقة الشهود

يقول ابن عطاء الله: قال الشيخ أو الحسن الشاذلي رحمهما الله: قوي علي الشهود فسألته أن يستر علي ذلك، فقل لي: لو سألتها بما سأله موسى كليمه، وعيسى روحه، ومحمد حبيبهم عليه السلام وصفيه لم يفعل، ولكن سله أن يقويك، فسألته فقواني.

ما منعك من الشهود إلا عدم وقوفك مع الحدود، واشتغالك بهذا الوجود.
تقدم الكلام عن معنى الشهود^(١)، أما قوله: «ما منعك من الشهود إلا عدم وقوفك مع الحدود، واشتغالك بهذا الوجود».

أي ما منعك شهود عظمة الله وشهود صفاته وآلائه ومظاهر فضله ورحمته وأن المنعم والمحسن الأوحد في هذا الكون هو الله سبحانه إلا تجاوزك لحدود المنهج الذي أمرك الله به واشتغال القلب بالمكونات ونسيان المكون سبحانه.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه» فالكون كله ظلمة لأنه حجاب لمن وقف مع ظاهره عن شهود ربه، وإنما أناره تجلي الحق به وظهوره فيه، فمن نظر إلى ظاهر حسه رآه نوراً قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: 35].

* * *

(١) انظر، ص: 483.

التوكل على الله

يقول ابن عطاء الله: قال بعضهم: كن مع الله كالطفل مع أمه، كلما دفعته أمه ترمى عليها لا يعرف غيرها.

هذه درجة التوكل على الله وهي: أن يكون حال العبد مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها، وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه: يا أماه، وأول خاطر يخطر في قلبه أمه فإنها مفزعة، فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له، ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلاً في ذهنه، ولكن كل ذلك وراء الإدراك، فمن كان باله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كلف به كما كلف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقاً. فإن الطفل متوكل على أمه^(١).

* * *

(١) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي: 4 / 373.

من توكل على الله كفاه ما أهمه

يقول ابن عطاء الله: فأهل الفهم أخذوا عن الله وتوكلوا عليه فكانوا بمعونته لهم، فكفاهم ما أهمهم، وصرف عنهم ما أغمهم، واشتغلوا بما أمرهم عما ضمن لهم، علماً منهم بأنه لا يكلهم إلى غيره، ولا يمنعهم من فضله، فدخلوا في الراحة ووقفوا في جنة التسليم، ولذاذة التفويض، فرفع الله بذلك مقدارهم، وكمل أنوارهم.

أهل الفهم هم المتوكلون على الله سبحانه، والتوكل شعور بهيمنة الله على الحياة، وبأن حركاتها وسكناتها محكومة بحوله وقوته لا يمكن أن تند منه أو تبعد عنه. إنه الشعور بالاعتماد على الله في كل شيء.

إن التوكل دلالة علم بالله وصفاته وما ينبغي له. من أجل ذلك كثرت الأوامر في الكتاب والسنة بالتوكل على الله جلا وعلا، قال تعالى ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: 123].

فالتوكل اشتغل بما أمره الله أما الرزق فهو على الله سبحانه قد ضمنه له، وهذا معنى قول ابن عطاء الله: «واشتغلوا بما أمرهم عما ضمن لهم».

وبهذه اليقظة الفكرية والنفسية كان المتوكل أهلاً لأن يظفر برعاية الله وتوقيه ومحبه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3].

ومن الجهل بالله وصفاته أن يتوقع أحد الخذلان والضياع مع ارتباطه بالله! وقد جاء في نظم القرآن الكريم تساؤل غريب يكشف وجه الحق في هذه القضية: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزمر: 36 - 37].

وهذا معنى قول ابن عطاء الله «كفاهم ما أهمهم وصرف عنهم ما أغمهم».

والتوكل على الله لا يعني الكسل والقعود عن العمل، فقبل أن يأمر الله نبيه بالتوكل عليه في قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: 123]. قيل ذلك مباشرة قال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٣٧) وَأَنْتُمْ لَا تُعْمَلُونَ﴾ [هود: 121 - 122].

فالأمر بالتوكل جاء بعد إعلان عن عمل موصول وصبر طويل.
ورأى أحد الأئمة فقيراً ينطلق إلى الحج دون زاد، فسأله: أين زادك؟
فقال: أنا متوكل على الله.

فقال له: أمسافر أنت وحدك؟ قال: بل مع القافلة.

فقال له: أنت متوكل على القافلة؟!.

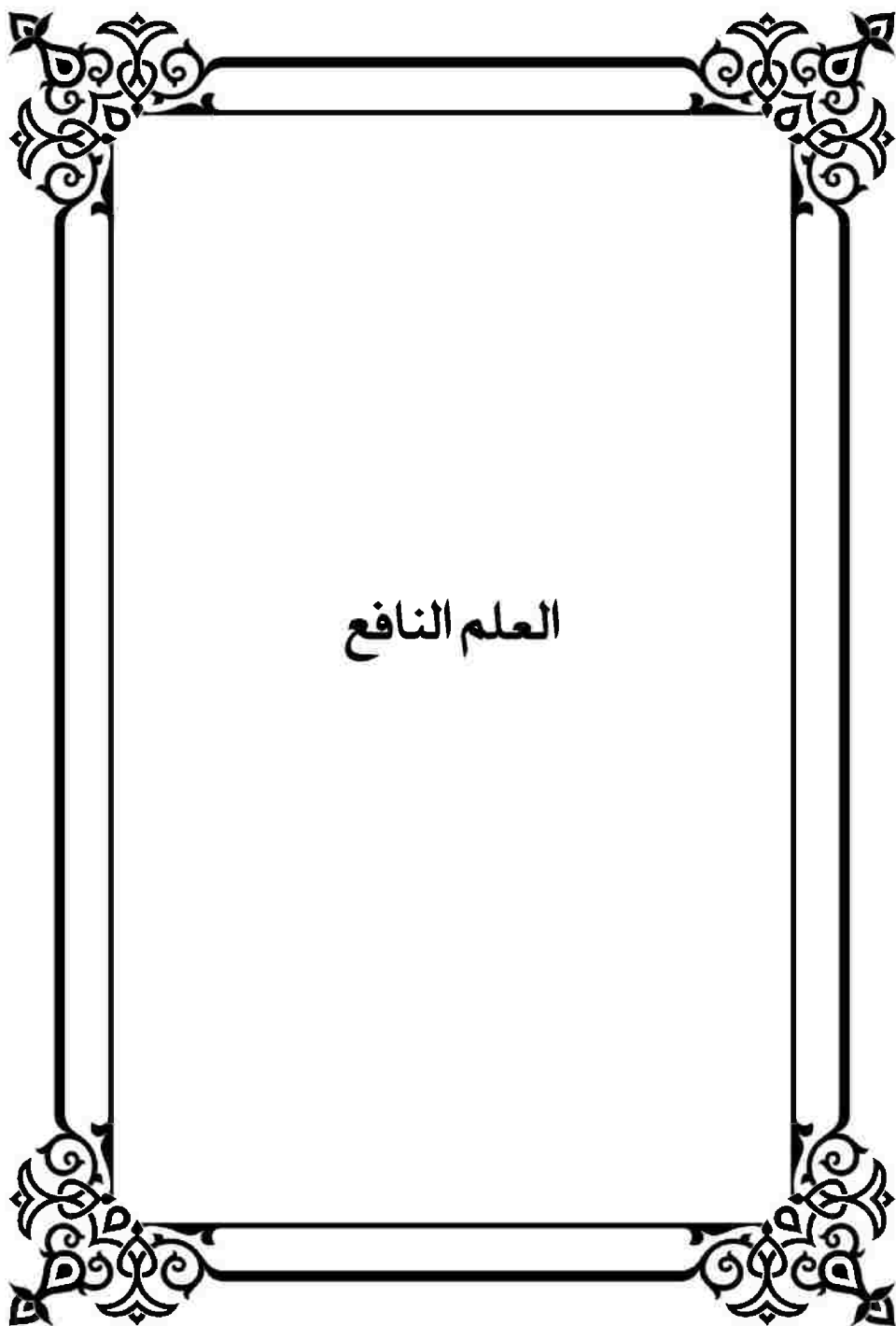
وصدق، فهذا متأكل لا متوكل، وهذا الصنف جاهل بالإسلام، ومعرفته بالله غامضة، يشوبها حق كثير.

التوكل إيمان بالغيب بعد استفاد كل الوسائل المقررة في عالم الشهادة، إيمان بالله بعد أداء كل ما يربط بالنفس من واجبات (١).

إذاً: هل الفهم كما وصفهم ابن عطاء الله: «وقفوا في جنة التسليم ولذاذة التفويض». فوضوا الأمر إلى الله الذي بيده كل شيء وعملوا بالأسباب التي أمرهم الله بها دون الاعتماد عليها فرفع الله بذلك مقدارهم وامتلاّت قلوبهم بالأنوار بسبب طاعتهم لله وقربهم منه سبحانه وتعالى.

* * *

(١) الجانب العاطفي من الإسلام، ص: 236 وما بعدها.



العلم النافع هو القاهر للهوى القامع للنفس

يقول ابن عطاء الله: واعلم رحمك الله تعالى - أن العلم - حيثما تكرر في الكتاب العزيز أو في السنة المطهرة إنما المراد به العلم النافع الذي تقارنه الخشية، وتكتنفه المخافة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: 28]. فبين أن العلم تلازمه الخشية، فالعلماء هم أهل الخشية، وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ [الإسراء: 107]. وقوله تعالى: ﴿ الرَّاكِبُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ [النساء: 162]. وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: 114]. وقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»⁽¹⁾، إنما المراد بالعلم في هذه المواطن كلها: العلم النافع، القاهر للهوى، القامع للنفس، وذلك متعين بالضرورة، لأن كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ أجل من أن يحمل على غير ذلك.

قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع»⁽²⁾.

كثيراً ما يكون العلم سيئاً، لبعد العالم عن ربه إذا كان يقصد الشهرة بين الناس وكسب الحظوظ الدنيوية، إنه العلم الضار أما العلم النافع فهو الذي يقربك إلى الله سبحانه وهو الذي يقهر الهوى ويقمع النفس عن حظوظها، هذا هو حال من فهم كلام الله وفهم كلام رسول الله ﷺ.

وقد حذر النبي ﷺ من أن يكون قصد العالم غير الله.

(1) الترمذي في العلم عن رسول الله، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (2606). ثم قال: ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء وليس عندي بمتصل: وأبو داود، العلم، الحث على طلب العلم، (3157).

(2) مسلم في الذكر والدعاء، باب: التعوذ من شر ما عمل، رقم (4899).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله عز وجل، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف ⁽¹⁾ الجنة يوم القيامة» ⁽²⁾.

وقال ﷺ: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو يباري ⁽³⁾ به الشفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه، فهو في النار» ⁽⁴⁾.

والعلم الذي تقارنه الخشية هو: علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب. وهذا ما كان يطلق عليه اسم «الفقه» في العصر الأول: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لَيَنْفَقَهُنَّ فِي الدِّينِ وَلَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122]. فهذا الذي يحصل به الإنذار والتخويف دون تفرعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه.



(1) عرف الجنة: ربح الجنة.

(2) أبو داود في العلم، باب: في طلب العلم لغير الله تعالى، رقم (3179). وابن ماجه في المقدمة، باب: الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم (248). وأحمد في باقي مسند المكثرين، رقم (8103).

(3) يباري: يجادل.

(4) ابن ماجه في المقدمة، باب: الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم (249).

العلم النافع يلزم الخشية من الله تعالى

يقول ابن عطاء الله: والعلم النافع هو الذي يُستعان به على الطاعة، ويلزم الخشية من الله تعالى، والوقوف على حدود الله تعالى، وهو علم المعرفة بالله تعالى، ولكن من استرسل بإطلاق التوحيد ولم يتقيد بظواهر الشريعة فقد قذف به في بحر الزندقة، ولكن الشأن أن يكون بالحقيقة مؤيداً، وبالشرعية مقيداً، وكذلك المحقق فلا يكون منطلقاً مع الحقيقة ولا واقفاً مع ظاهر إسناد الشريعة، وكان بين ذلك قواماً، فالوقوف مع ظاهر الإسناد شرك، والانطلاق مع الحقيقة من غير تقيد بالشرعية تعطيل. ومقام الهداية فيما بين ذلك.

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «خير العلم ما كانت الخشية معه».

لأن الله تعالى أثنى على العلماء بذلك فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]. فكل علم لا خشية معه فلا خير فيه، بل لا يسمى صاحبه عالماً على الحقيقة.

وقال في حكمة أخرى: «العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك». فالعلم الذي قارنته الخشية لك، لأنك تنتفع به في دنياك وآخرتك. والعلم الذي لا خشية فيه عليك، لأنك تستضر به.

ورأس العلم هو المعرفة بالله تعالى وآلائه، وأنه المعبود دون سواه.

ثم قال: «ولكن من استرسل بإطلاق التوحيد ولم يتقيد بظواهر الشريعة فقد قذف به في بحر الزندقة». إلخ الفقرة.

ورد في حديث جبريل المشهور^(١) الذي يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه تقسيم الدين إلى ثلاثة أركان، بدليل قول الرسول ﷺ لعمر: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

(١) البخاري في الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (48). ومسلم في الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (9).

الركن الأول: الإسلام وهو الجانب العملي من عبادات ومعاملات وأمور تعبدية، ومحلها الأعضاء الظاهرة الجسدية. وقد اصطلح العلماء على تسميته بالشرعية، واختص بدراسته الفقهاء.

الركن الثاني: الإيمان وهو الجانب الاعتقادي القلبي، من إيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، وقد اختص بدراسته علماء التوحيد.

الركن الثالث: الإحسان وهو الجانب الروحي القلبي، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وقد اصطلح العلماء على تسميته الحقيقية.

ولتوضيح الصلة بين الشريعة والحقيقة نضرب لذلك مثلاً الصلاة، فالإتيان بحركاتها وأعمالها الظاهرة، والتزام أركانها وشروطها، وغير ذلك مما ذكره علماء الفقه، يمثل جانب الشريعة، وهو جسد الصلاة، وحضور القلب مع الله تعالى في الصلاة يمثل جانب الحقيقة، وهو روح الصلاة.

ومن هنا ندرك التلازم الوثيق بين الشريعة والحقيقة كتلازم الروح والجسد. والمؤمن والكامل هو الذي يجمع بين الشريعة والحقيقة.

أما من نظر إلى الحقيقة مجردة عن الشريعة فقد قال بالجبر وأن الإنسان لا خيار له في أمر من الأمور، فعطل بذلك أحكام الشريعة والعمل بها وأبطل حكمته والنظر إليها.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ عبد القادر الجيلاني -رحمه الله- تعالى بقوله: «كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طر إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة. ادخل ويدك في يد الرسول ﷺ»⁽¹⁾.

(1) الفتح الرباني: عبد القادر الجيلاني، ص: 29. مطبعة بولاق، مصر 1302 هـ.

وقال منكراً على من يعتقد أن التكاليف الشرعية تسقط عن السالك في حال من الأحوال: «ترك العبادات المفروضة زندقية. وارتكاب المحظورات معصية. لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال»^(١).

فمن يقول أن المقصود من الدين هو الحقيقة فقط فقد عطل أحكام الشريعة وهؤلاء ضالون منحرفون زنادقة—كما يقول ابن عطاء الله: «فقد قذف به في بحر الزندقية».

* * *

(١) المرجع السابق.

كل علم تميل إليه النفس فارم به

يقول ابن عطاء الله: كل علم تسبق إليك فيه الخواطر وتتبعها الصور، وتميل إليه النفس، وتلتذ به الطبيعة، فارم به، وإن كان حقاً، وخذ بعلم الله الذي أنزله على رسول الله ﷺ، واقتد به وبالخلفاء من بعده، وبالصحابة والتابعين من بعدهم، وبإلهادة إلى الله تعالى، الأئمة المبرئين من الهدى، ومتابعتهم تسلم من الشكوك والظنون، والأوهام، والوساوس، والدعاوى الكاذبة المضلة عن الهوى وحقائقه.

قال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»⁽¹⁾. فقد ورثوا علم النبي ﷺ وما اقتدى به الخلفاء الصحابة والتابعين من بعده.

فالعلم المفروض على كل مسلم هو علم التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته، وعلم الفقه ويعلم به العبادات والحلال الحرام، وعلم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل ويجمع كل ذلك العلم بالكتاب والسنة والإجماع والقياس.

وأما علم فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب، والحساب، والهندسة. . إلخ.

وأما العلم المذموم فهو علم السحر والطلسمات وعلم النجوم وما شابه ذلك.

والخلاصة: كل علم دنيوي يلهيك عن الآخرة فارم به، واجعل نيتك في كل عمل رضا الله سبحانه فذلك هو المطلوب. أما الركون إلى الأعمال الدنيوية فهذا خطر على الدين وعاقبته وخيمة يوم القيامة.

* * *

(1) الترمذي في العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (2606): وأبو داود في العلم، باب: الحث على طلب العلم، رقم (3157). وابن ماجه في المقدمة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (219). وأحمد في مسند الأنصار، باب: باقي حديث أبي الدرداء، رقم (20723).

أنواع من العلم النافع

يقول ابن عطاء الله: وحسبك من العلم النافع: العلم بالوحدانية، ومن العلم: محبة الله ومحبة رسوله ﷺ، ومحبة الصحابة، واعتقاد الحق للجماعة، وإذا أردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله تعالى، فعليك برفض الناس جملة، إلا من يدللك على الله تعالى، إما بإشارة صادقة أو بأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة، فارفع همتك إلى مولاك واشتغل به دون غيره.

قال ابن عطاء الله في حكمه: «العلم النافع هو الذي ينبسط في الصدر شعاعه، وينكشف به عن القلب قناعه».

فالعلم النافع هو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه، والعلم بكيفية التعبد له والتأدب بين يديه، فهذا هو العلم الذي ينبسط في الصدر شعاعه فيتسع وينشرح للإسلام، ويكشف عن القلب قناعه فتزول عنه الشكوك والأوهام^(١).

ومن العلم محبة الله ومحبة رسوله ﷺ وهي فرض على كل مسلم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165].

وقال ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي بحبي»^(٢). فيجب على المسلم أن يعلم فضل هذه المحبة وآثارها، فقد بشر النبي ﷺ المحبين بالمعية مع محبوبهم، فقد روى أنس رضي الله عنه: «أن رجلاً سأل النبي ﷺ متى الساعة يا رسول الله؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكنني أحب الله

(١) غيث المواهب العلية، الرندي: 2 / 125.

(٢) الترمذي في المناقب، باب: مناقب أهل بيت النبي، رقم (3722). وقال: حسن غريب.

ورسوله. قال: أنت مع من أحببت. قال أنس: فقلنا ونحن كذلك؟ قال: نعم. ففرحنا بها فرحاً شديداً^(١).

أما محبة الصحابة فسببها أنهم بلغوا أوج الكمال في الإيمان والأخلاق والتضحية بسبب محبتهم لله ورسوله. وأنستهم حلاوة المحبة مرارة الابتلاء وقساوة المحن، وحملهم دافع المحبة على بذل الروح والمال والوقت وكل غال ونفيس في سبيل محبوبهم لعلهم يحوزون رضوانه وحيه فكيف بعد ما قدموه للإسلام لا نحبههم؟!.

ومن العلم النافع اعتقاد الحق للجماعة، قال ﷺ: « لا تجتمع أمتي على ضلالة »^(٢)، والإجماع هو المصدر الثالث من مصادر التشريع.

وبذلك تنتهي الفقرات التي تكلمت عن حقيقة العلم النافع لصاحبه يوم القيامة.

* * *

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب: ما جاء في قول الرجل ويلك، رقم (5701). ومسلم، كتاب: البر

والصلة والآداب، باب: المرء مع من أحب، رقم (4775).

(٢) الترمذي في الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (2093).

أداء الأمانة كما يجب

يقول ابن عطاء الله: مثال المدخر للأمانة كعبد الملك لا يرى أن له مع سيده شيئاً، ولا يعتمد على ادخار ما في يده، ولا بدل له، ولا يختار إلا ما اختاره السيد له، فإذا فهم هذا العبد أن الإمساك مراد السيد، أمسك لسيدته لا لنفسه، حتى يتخير موضع صرفه، فيكون له صارفاً حين يفهم لسيدته لا لنفسه. كذلك أهل المعرفة بالله إن بذلوا ففيه، وإن أمسكوا فله، يبتغون ما فيه رضاه، لا يريدون ببذلمهم وإمساكهم إلا إياه، فهم خزائن أمناء، وعبيدٌ كبراء، وأبرارٌ كرماء، حررهم الحق من رق الآثار، فلم يميلوا إليه بحب، ولم يقبلوا عليها بود منعهم من ذلك ما أسكنه في قلوبهم من حب الله ووده وما امتلأت به صدورهم من عظمتهم ومجده، فصارت الأشياء في أيديهم كهبي في خزائن الله من قبل أن تصل إليهم، علماً منهم بأن الله تعالى يملكهم ويملك ما ملكهم.

يقول ابن القيم: «علمت كلبك فهو يترك شهوته في تناول ما صاده احتراماً لنعتك وخوفاً من سطوتك وكم علمك معلم الشرع وأنت لا تقبل. حرم صيد الجاهل والممسك لنفسه فما ظن الذي أعماله لهوى نفسه»^(١).

كل ما في هذا الكون ملك لرب العالمين أما البشر فلا يملكون شيئاً قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7].

فالمال مال الله، والرزق رزق الله وقد أمرنا الله بإنفاق المال في وجوه الجلال، فمن فهم هذا فإنه لا يبذل المال إلا في مرضاة الله، وإن منع الإنفاق فخوفاً من الله، إنهم خزائن أمناء، قال ﷺ: «من أعطى الله، ومنع الله، وأحب الله، وأبغض الله، فقد استكمل الإيمان»^(٢).

* * *

(١) الفوائد، ص 115.

(٢) أبو داود في السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (4061).

معنى قوله تعالى: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾

يقول ابن عطاء الله: عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمته الله أنه قال: قيل لي: يا علي ظهر ثيابك من الدنس، تحفظ بمدد الله في كل نفس، فقلت: وما ثيابي! فقيل: إن الله كساك حلة المعرفة، ثم حلة التوحيد، ثم حلة المحبة، ثم حلة الإيمان، ثم حلة الإسلام، فمن عرف الله صغر لديه كل شيء، ومن أحب الله هان عليه كل شيء، ومن وحد الله لم يشرك به شيئاً، ومن آمن بالله، آمن من كل شيء، ومن أسلم لله قل ما يعصيه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره، قال: ففهمت من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدر: 4].

إذا بحثنا عن تفسير هذه الآية في كتب التفاسير نجد أن لها تفسيراً ظاهراً وتأويلاً باطنياً، فالتفسير الظاهر يعني: أن الله يأمر نبيه بأن يظهر ثيابه من النجاسات والمستقذرات، فإن المؤمن طيب طاهر، لا يليق منه أن يحمل الخبيث.

أما التأويل فقال ابن عباس: كنى بالثياب عن القلب والمعنى: وقلبك فطهر من الإثم والمعاصي واستشهد بقول غيلان:

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

قال الرازي، والسبب في حسن هذه الكناية: أن الثوب كالشيء الملازم للإنسان، فلهذا السبب جعلوا الثوب كناية عن الإنسان، فقالوا: المجد في ثوبه، والفق في إزاره⁽¹⁾. والمعنى الثاني هو المقصود في هذه المغفرة.

فمن طهر قلبه من محبة الأغيار وملاؤه بمحبة الواحد القهار صغر لديه كل شيء وهان عليه كل شيء، ومن أسلم نفسه لله قل ما يعصيه، وإن اقترفت يده معصية أسرع وتاب إلى الله واعتذر إليه فقبل الله عذره.

* * *

(1) مدارج السالكين، ابن القيم: 2 / 22.

عناية الله بالعبد

يقول ابن عطاء الله: إن كانت معك عناية ينفعك القليل، وإن لم تكن لك عناية لم ينفعك الكثير.

«قليل في سنة خير من كثير في بدعة»^(١).

وأي بدعة أعظم من حب الدنيا والانكباب عليها بالقلب والقالب فهذا مهمل عمل فإنه قليل عند الله وإن كان كثيراً في الحس، وأما من كان قلبه متعلقاً بربه زاهداً في الدنيا فإنه ينفعه قليل العمل: لأن هذا القليل كبير عند الله. ولذلك قال ابن عطاء في إحدى حكمه: «ما قل عمل برز من قلب زاهد ولا كثر عمل برز من قلب راغب». أي راغب في حب الدنيا وشهواتها.

وما مثال عبادة الزاهد مع قلتها في الحس وكثرتها في المعنى، وعبادة الراغب مع كثرتها في الحس وقلتها في المعنى إلا كرجلين أهديا للملك أحدهما أهدى ياقوتة صافية صغيرة قيمتها ستون قنطاراً والآخر أهدى ستين صندوقاً خاوية فارغة. فلا شك أن الملك يقبل الياقوتة ويكرم صاحبها ويرد الصناديق ويهين صاحبها ويغضب عليه لكونه استهزأ بالملك^(٢).

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده».

فالإمدادات الإلهية التي يمد الحق تعالى بها عباده المؤمنين زيادة في إيمانهم، لا أثر فيها لطول العمر ولا قصره، فلا تنقص بذلك ولا تزيد به وإنما ترد عليهم من خزائن الفضل

(١) نسبه في مجمع الزوائد لابن مسعود وليس حديثاً: 1 / 173. ونسبه البيهقي للحسن بن علي، شعب

الإيمان: 7 / 72.

(٢) إيقاظ الهمم، ص: 77.

والكرم والفضل بحسب قوة استعدادهم وكمال قابليتهم، وبهذا فضلت هذه الأمة على سائر الأمم على قصر أعمارهم، وطول أعمار غيرهم.

وفي حكمة تالية لهذه الحكمة يقول ابن عطاء الله: «من بورك في عمره أدرك في يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة».

فالبركة في العمر أن يرزق العبد من الفطنة ما يحمله على اغتنام أوقاته، ويشرق عليها من الأنوار الربانية ما تعجز العبارة عنه، وكل ذلك في عمر قصير وزمن يسير^(١).

* * *

(١) غيث المواهب العلية، الرندي: 2 / 194.

الاحتراس للدين لا للبدن

يقول ابن عطاء الله: ما أكثر احتراسك على بدنك، وما أرخص دينك عليك، لو قيل لك: إن هذا الطعام مسموم لا تمتنع منه، ثم لو حلف لك بالطلاق أنه ليس بمسموم لتوقفت عنه، بل لو غسلت الوعاء الذي هو فيه مراراً لنفرت منه نفسك، فلم لا تكن كذلك في دينك؟!..

طبيعة الإنسان أنه يسعى لمصلحة بدنه ويحترس له ومن خوفه يمتنع من أكل طعام ظن أنه مسموم ولو قيل له إنه ليس مسموماً، أما في دينه فإنه يغامر به ويعرضه للهلاك فتراه ينغمس في الملذات، ويدخل في شبهات الحرام والربا.

فكما أنت حريص على بدنك كن حريصاً على دينك بأن تكون صادقاً في عبادتك لله لا تبغى أي شيء سواه إذ كل ما سواه ضرر على دينك كضرر السم على الجسد؟.

ثم إياك واقتراف الذنوب والمعاصي فإنها أيضاً سموم لا يمكن التخلص منها إلا بالإحراق بالنار يوم القيامة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنَّنُونَ﴾ أي: يحرقون. [الذاريات: 13].

* * *

توفيق الله

يقول ابن عطاء الله: لا تعتقد أن الناس فاتهم العلم، بل فاتهم التوفيق أكثر من العلم.

كثيراً ما يكون العلم سبباً لهلاك صاحبه وعذابه يوم القيامة، إذا كان العلم يُقصد به التفوق على الأقران والجدال، أو أن يكون العالم قد شُغف بحب مدح الناس وتعظيمهم له، أو يكون الهدف من علمه هو جمع المال، وهذه بعض آفات العلم الكثيرة. . .

ويشهد لهذا قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو ليماري به السفهاء لم يزد من الله إلا بعداً»^(١).

إذاً الناس لم يفهم العلم بل فاتهم التوفيق لأن يكون علمهم خالصاً لوجهه سبحانه، لا تشوبه أي شائبة من مغريات الدنيا ومفاتها، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 282].

أي: يعلمكم الله علماً تجدون لذة العبادة معه لا علماً جافاً تعتمدون فيه على أنفسكم وجهدكم العقلي فقط.

* * *

(١) ابن ماجه في المقدمة، رقم (256).

علماء مزييفون

يقول ابن عطاء الله: وقد ابتلى الله تعالى بحكمته ووجود منته الفقراء الذين ليسوا بصادقين بإظهار ما كمنوه من الرغبة، وأسروه من الشهوة فابتذلوا أنفسهم لأبناء الدنيا، مباسطين لهم موافقين لهم على مآربهم، مدفوعين عن أبوابهم فترى الواحد منهم يتزين كما تتزين العروس، معتنين بإصلاح ظواهرهم، غافلين عن إصلاح سرائرهم ولقد وسمهم الحق وشمة كشف بها عوارهم^(١)، وأظهر أخبارهم، فبعد أن كانت نسبتهم مع الله، أن لو صدق مع الله أن يقال له: بعد. فأخرج عن هذه النسبة فصار يُقال له: شيخ الأمير، أولئك الكاذبون على الله تعالى، الصادون العباد عن صحبة أولياء الله، لأن ما يشهده العوام منهم يحملونه على كل منتسب إلى الله، صادق وغير صادق، فهم حجب أهل التحقيق، وسحب شمس أهل التوفيق، ضربوا طبولهم، ونشروا أعلامهم، ولبسوا دروعهم، فإذا وقعت الحملة ولوا على أعقابهم ناكسين، ألسنتهم منطلقة بالدعوى، وقلوبهم خالية من التقوى، ألم يسمعوا قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ لَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: 8]. ترى إذا سأل الصادقين، أيترك المدعين من غير سؤال؟ ألم يسمعوا قوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسَيْرِ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتَرَدُّوكَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشَرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]. فهم في إظهار زي الصادقين، وعملهم عمل المعرضين.

هذه صفة العالم عندما يكون قصده من علمه رضا الناس لا رضا الله سبحانه. يلبس زي العلماء ويحسن ظاهره للناس، أما الباطن فمشوب بآفات النفوس وأمراض القلوب، همهم أن يعظمهم الناس ويحترمهم ويقوموا على خدمتهم.

فمن كان هذا وصفه مهما أظهر الإخلاص لله في دعوته وعمله فإنه سيكشف في يوم من الأيام وسيكون ذلك الكشف سبباً في صد الناس عن الله وتشكيك الناس بالعلماء عامة

(١) العوار: العيوب.

والطعن بعلمهم وصدقهم، فهو لاء يصبحون كما قال ابن عطاء الله: «حجب أهل التحقيق وسحب شمس أهل التوفيق».

ومهما حاول هؤلاء إقناع الناس بألسنتهم فإن ما وقر في قلوبهم من حب الدنيا سيطغى على ذلك الكلام كما قال سيدنا علي عليه السلام: ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه.

وكما قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز». فالقلب المتدنس بالذنوب كلام صاحبه يوجب قسوة القلب لا رفته. بينما القلب المتطهر من الأغيار تشرق عليه الأنوار فيكتسب الكلام نوراً ويتنفع به السامعون ويزدادون سروراً.

فليحذر هؤلاء من سؤال الله لهم يوم القيامة، فإنه سبحانه سيسأل الصادقين عن صدقهم فكيف بالمدعين، سيسأل المتقين فكيف بمن زيه الصدق وعمله عمل المعرضين، هؤلاء تنتظرهم فتن تجعل الحليم فيهم حيراناً، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللبن، ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل: أبي يغترون أم علي يجترئون فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيراناً»^(١).

اللهم لا تجعلنا منهم، واجعلنا مخلصين لك في أعمالنا كلها يا أرحم الراحمين.

* * *

(١) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء في ذهاب البصر، رقم (2328).

كشف الحجاب

لو كشف عنك الحجاب، لرأيت كل شيء ناطقاً مسبحاً لله تعالى، ولكن النقص فيك والحجاب منك.

مصدق هذا قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44].

وفي الصحيح قال ﷺ: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه، أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح!»^(١).

فمن داوم على طاعة الله وجاهد نفسه قد ينكشف له الحجاب عن بعض أسرار هذا الكون الذي أودعها الله فيه ومنها تسبيح الكائنات، ولكن الذي أعطى نفسه هواها وملأ قلبه بالأمراض الدنيوية فقد حجب بسبب ذلك عن تلك الأسرار.

يقول ابن عجيبة: «اعلم أن الحق سبحانه لما أراد أن يتجلى بأسرار ذاته وأنوار صفاته أظهر بقدرته قبضة من نوره الأزلي فاقتضت القدرة ظهور آثارها وشهود أنوارها واقتضت الحكمة إسدال حجابها وإظهار أستارها، فلما فرغت القدرة نورها في مظاهر الكون، أسدلت عليها الحكمة رداء الصون فصارت الأكوان كلها نوراً في حجاب مستور، ثم إن الحق سبحانه قسم الخلق على قسمين وفرقهم فرقتين: قسم اختصهم بمحبته وجعلها من أهل ولايته ففتح لهم الباب وكشف لهم الحجاب فأشهدهم أسرار ذاته ولم يحجبهم عنه بآثار قدرته، وقسم أقامهم لخدمته وجعلهم من أهل حكمته، أسدل عليهم حجاب الوهم وغيب عنهم نور العلم والفهم فوقفوا مع ظواهر القشور ولم يشهدوا بواطن النور مع شدة الظهور»^(٢).

* * *

(١) البخاري في الجهاد، باب: إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق، رقم (2866).

(٢) إيقاظ الهمم، ص: 61.

من هم السابقون

يقول ابن عطاء الله: قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ [الواقعة: 10 - 12]. سبقوا إلى الله فخلص قلوبهم مما سواه، فلم تعقهم العوائق، ولم تشغلهم عن الله الخلائق، فسبقوا إلى الله، فكلما همت قلوبهم أن ترحل إلى الله سبحانه وتعالى جذبها ذلك التعلق الذي به تعلقت، فكرت راجعة إليه ومقبلةً عليه، فالحاضرة محرمة على من هذا وصفه، وممنوعة على من هذا نعته.

قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۚ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۚ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۚ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۚ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ [الواقعة: 7 - 12].

فقد قسم الله الناس ثلاثة أصناف (١):

الأول: أصحاب اليمين: الذي يؤتون صحائفهم في أيانهم، فهؤلاء يدخلون الجنة ويتنعمون فيها.

الثاني: أصحاب المشأمة: الذين يؤتون صحائفهم بشألمهم، وهؤلاء يدخلون النار ويشقون فيها.

الثالث: السابقون: أي السابقون إلى الخيرات والحسنات، السابقون إلى جنات النعيم، ثم أثنى الله عليهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ المقربون من الله في جواره وفي ظل عرشه ودار كرامته في جنات النعيم.

(1) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: 3 / 288 - 289.

والسابقون هم الأعلى درجة والأقرب إلى الله من غيرهم وهج المذكورون في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: 32].

فالظالم لنفسه هو العاصي، الذي يتلو القرآن ولا يعمل به، والمقتصد هو المتوسط في فعل الخيرات، يعمل بالقرآن في أغلب الأوقات، ويقصر في بعض الفترات، والسابق قد أحرز قصب السبق في فعل الطاعات بتوفيق الله وتيسيره.

هذا ما ورد في تفسير الآية، ويزيد ابن عطاء الله في صفة السابقين بأنهم الذين سبقوا إلى الله وشغلت قلوبهم بمحبته وذكره وشهود عظمته ونعمه وآلائه، أما الدنيا فلم يلتفتوا إليها ولم تعقهم عوائقها ولم تكن حجاباً يحجبهم عن الحق سبحانه بل رموا الدنيا وراء ظهورهم وأخلصوا عملهم ونيتهم لله سبحانه فرحلت قلوبهم إليه ولم تجذب بعلائق الدنيا. وهؤلاء هم المتوكلون على ربهم الواثقون بما عنده، أخذوا بالأسباب كما أمرهم الله سبحانه أما النتائج فتركوها لخالقهم.

فاعتمدوا على توفيقه لا على عملهم وجهدهم وتدبيرهم.

أما الذين منعوا السبق فهم المعوقون بعوائق الدنيا كلما همّت قلوبهم للرحيل إلى الله منعها ذلك التعلق بالدنيا فمنعوا بذلك من دخول حضرة عز وجل.

* * *

إنفاق المال في وجوه الحرام

يقول ابن عطاء الله: لا شيء يجعلك يوم القيامة مثل درهم أنفقته في حرام.

هذا حال من أنفق درهماً في حرام، فكيف بمن أنفق الآلاف؟! كم سيكون خجله من ربه حين يسأله عن ماله فيم أنفق؟.

إن الإثم في كسب المال من الحرام هو نفس الإثم فيمن ينفق المال في الحرام، كأن ينفقه في شرب الخمر أو من أجل الزنى أو ليؤذى به مسلماً أو ليصد عن سبيل الله كما يفعل الكافرون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 36].

وقد حذرنا النبي ﷺ من إنفاق المال في الوجوه غير المشروعة فقال ﷺ: «لن تزول قدماً عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم»⁽¹⁾.

* * *

(1) الترمذي في صفة القيامة والرقائق، باب: ما جاء في شأن الحساب والقصاص، رقم (2340). وقال: حديث غريب.



العبد مع الله

مثال العبد مع الله كالطفل مع أمه

يقول ابن عطاء الله: مثال العبد مع الله في هذه الدار كالطفل مع أمه، ولم تكن الأم لتدع تدبير ولدها من كفالتها، ولا أن تخرجه من رعايتها، كذلك المؤمن مع الله قائم له بحسن الكفالة، فهو سائق إليه المنن، ودافع عنه المحن.

فكما أن الطفل لا يعرف غير أمه وهي التي تقوم برعايته وتدفع عنه الأذى فالله سبحانه هو الذي يدبر شؤون العبد. تكفل له بالرزق ووهبه الصحة والعافية والنعم التي لا تعد ولا تحصى، وحماه الله من الأعداء وجميع أنواع الأخطار، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ تَوَكَّلِ الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: 196].

وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: 11].

وقد سبق قول ابن عطاء الله: «من صدق مع الله كفاه الله مضرّة الأعداء». وكما قال سبحانه: ﴿إِلَّا إِنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

* * *

مثال العبد مع الله كمثل أجير الملك

يقول ابن عطاء الله: ومثال العبد مع الله، كمثل أجير أتى به ملك إلى داره، وأمره أن يعمل عملاً فما كان الملك ليأتي بالأجير ويستخدمه في داره ويتركه من غير تغذية، إذ هو أكرم من ذلك، فكذلك العبد مع الله: فالدنيا دار الله، والأجير هو أنت، والعمل هو الطاعة، والأجرة هي الجنة، ولم يكن الله ليأمرك بالعم، ولا يسوق لك ما به تستعين عليه.

فاشتغل أيها العبد بما أمرت من طاعة الله وتنفيذ وصاياه وثق أن رزقك مقسوم من عند الله، ولن تموت حتى تستكمل رزقك، قال ﷺ: «أيها الناس: اتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن بطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل ودعوا ما حرم»^(١).

ومن اتقى الله وأجمل في الطلب فإن جزاءه الجنة كالأجرة للعامل.

* * *

(١) ابن ماجه في التجارات، باب: الاقتصاد في طلب المعيشة، رقم (2135).

مثال العبد في الدنيا

يقول ابن عطاء الله: ومثال العبد في الدنيا: كمثال عبد قال له سيده: اذهب إلى أرض كذا وكذا، وأحكم أمرك لأن تسافر منها في برية كذا وكذا، وخذ أهبتك وعدتك، فإذا أذن له السيد في ذلك، فمعلوم أنه قد أباح له أن يأكل ما يستعين به على إقامة بنيته ليسعى في طلب العدة، وليقوم بوجود الأهبة. كذلك العبد مع الله أوجده في هذه الدار وأمره أن يتزود منها لمعاده، فقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: 197]. فمعلوم أنه إذا أمره بالزاد للآخرة، فقد أباح له أن يأخذ من الدنيا ما يستعين به على تزوده إلى الآخرة، واستعداده وتأهبه لمعاده.

من الخطأ الانقطاع الكامل عن الدنيا وترك لبس الثياب النظيفة وترك الأكل زهداً فيه. هذا خطأ وليس من سنة الأنبياء أجمعين فقد كانوا أزهد الناس بالدنيا وكان ﷺ أزهدهم فيها، لكنه ﷺ أكل اللحم وادهن بالطيب ولبس الثياب الغالية الثمن وتزوج. لكن كل ذلك لم يشغله عن المهمة التي أوكلت إليه وهي التزود للدار الآخرة بالتقوى والعمل الصالح.

فخذ من الدنيا وزينتها ما يعينك على الطاعة فقط ولا تنغمس في ملذاتها وشهواتها لأن الله أباح لك منها ما تستعين به على التزود للآخرة فقط.

* * *

مثال آخر للعبد مع الله

يقول ابن عطاء الله: ومثال العبد مع الله: كمثل عبد أمره الملك أن يقيم في أرض كذا ويحارب فيها العدو ويجاهده فيها، فمعلوم أنه إذا أمره بذلك أباح له أن يأكل من مخازن تلك الأرض بالأمانة، ليستعين به على محاربة العدو، وكذلك العباد: أمرهم الحق سبحانه وتعالى بمحاربة النفس والشيطان، ومجاهدتهما، لقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: 78]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 6]. فلما أمر العبد بمحاربته، أذن له أن يتناول من منابت أرضه ما يستعين به على محاربة الشيطان، إذ لو تركت المأكل والمشرب لم يمكنك أن تقوم بطاعته، ولا أن تنهض بخدمته.

فالطعام والشراب من المباحات التي تنقلب إلى عبادة عندما يقصد به التقوى على طاعة الله ومحاربة الشيطان ومجاهدة النفس. وإن كان المطلوب ألا يملأ الإنسان بطنه بالطعام حتى لا يثقل عن الطاعة ويحتاج إلى النوم، وإنما المطلوب كما قال ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه بها فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»⁽¹⁾.

فالتقليل من الطعام هو الذي يعين على الطاعة ومجاهدة الشيطان والنفس.

* * *

(1) الترمذي في الزهد، باب: ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم (2303). وابن ماجه في الأطعمة، باب:

الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، رقم (3340). وأحمد، مسند الشاميين، حديث المقدم بن معدي

كرب، (165556).

مثال العبد مع الله كمثال ملك له عبيد

يقول ابن عطاء الله: ومثال العبد مع الله: كمثال ملك له عبيد، فبنى داراً وبهجها وحسنها وتولى غراسها وكمل المشتريات فيها، في غير الموطن الذي فيه العبيد، وهو يريد أن ينقلهم إليها، أترى إذا كانت هذه عنايته بهم فيما ادخر لهم عنده وهياً لهم بعد الرحلة أيمنعهم ها هنا أن يتناولوا من مننه، وفضلات طعامه وهو قد هياً لهم الأمر العظيم والفضل الجسيم؟! . كذلك العباد مع الله، جعلهم في الدنيا، وهياً لهم الجنة، فلا يريد أن يمنعهم من الدنيا ولكن ما يقيم به وجودهم، قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: 51]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172]. وإذا ادخر لك الباقي ومن عليك به لا يمنعك الفاني، فإنما يمنعك ما لم يقسمه لك، وما لم يقسمه لك فليس لك.

فالعبد في الدنيا أباح له الله الطيبات من الرزق وقسم له معيشته يستخدمها لحاجته ولإعانته على طاعة ربه، حتى ينتقل إلى دار أخرى أسمى من هذه فيها نعيم مقيم هي جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

أما الممنوع عليك في هذه الدنيا فهو ما لم يقسمه لك لأنه ملك غيرك لا ملكك أنت فلماذا تتعب في طلبه؟! .



مناجاة الحق سبحانه لعبده في شأن التدبير والرزق على لسان هواتف الحقائق

أبها العبد: التي سمعك وأنت شهيد يأتك مني المزيد، وأصغ بسمعك فأنا لست عنك ببعيد. كنت بتدبيري لك قبل أن تكون لنفسك، فكن لنفسك بألا تكون لها. وتوليت رعايتها قبل ظهورك، وأنا الآن على الرعاية لها.

أنا المنفرد بالخلق والتصوير، وأنا المنفرد بالحكم والتدبير، لم تشاركني في خلقي وتصويري فلا تشاركني في حكمي وتدبيري.

أنا المدبر للملكي وليس لي فيه ظهير^(١)، وأنا المنفرد بحكمي فلا أحتاج إلى وزير.

أيها العبد: من كان لك بتدبيره قبل الإيجاد فلا تشاركه في المراد، ومن عودك حسن النظر منه إليك فلا تقابله بالعناد.

عودتك حسن النظر مني لك فعودني إسقاط التدبير منك معي.

أشكا بعد وجود التجربة؟ وحيرة بعد وجود البيان، وضلالاً بعد وضوح الهدى؟! وقد سلمت لي قيامي بمملكتي وأنت من مملكتي، فلا تنازع ربوبيتي، ولا تضاده بتدبيرك مع وجود ألوهيتي.

متى أحوجتك إليك حتى تحتال عليك؟!.

متى وكلت شيئاً من مملكتي لغيري حتى أكل ذلك إليك؟!.

متى خاب من كنت له مدبراً، ومتى خذل من كنت له ناصرأ؟!.

(١) ظهير: ناصر ومعين.

أيها العبد: لتشغلك خدمتي عن طلب قسمتي، وليمنعك حسن الظن بين عن اتهام ربوبيتي، لا ينبغي أن يتهم محسن، ولا أن ينزع مقتدر، ولا أن يضاد قهار، ولا أن يعترض على حكيم، ولا أن يعال هم مع لطيف.

لقد فاز بالنجاح من خرج عن الإرادة معي، ولقد دل على تيسير الأمور من احتال علي، ولقد استوجب النصر مني عبد إذا تحرك تحرك بي، ولقد استمسك بأقوى الأسباب من استمسك بسببي.

أيها العبد: نريد منك أن تريدنا ولا تريد معنا، ونريد منك أن تختارنا ولا تختار معنا، ونرضى لك أن ترضانا ولا ترضى سوانا. وكما سلمت لي تديري في أرضي وسمائي، وانفرادي فيها بحكمي وقضائي، سلم وجودك لي فإنك لي، ولا تدبر معي فإنك معي، واتخذني وكيلاً وثق بي ويحك! إنا أجللنا قدرك أن نشغلك بأمر نفسك فلا تصغر قدرك.

يا من رفعناه: لا تدلن بحوالتك على غيرنا.

يا من أعزناه: ويحك! أنت عندنا أجل من أن نشغلك بغيرنا. لحضرتي خلقتك، وإليها خطبتك، وبجواذب عنايتي إليها جذبتك، فإن اشتغلت بنفسك حجبتك، وإن اتبعت هواها طردتك، وإن خرجت عنها قربتك، وإن توددت إلي بإعراضك عما سواي أحببتك.

أيها العبد: ما آمن بي من نازعني، ولا وحدي من دبر معي، ولا رضي بي من شكاً ما أنزلت به إلى غيري، ولا اختارني من اختار معي، ولا امثل أمري من لم يستسلم لقهري. لو طلبت التدبير لنفسك لجهلت، فكيف إذا دبرت لها، ولو اخترت معي ما أنصفت فكيف إذا اخترت علي؟!.

أيها العبد: يكفيك من الجهل أن تسكن لما في يدك، ولا تسكن لما في يدي، أنا أختار لك أن تختارني أفتختار علي؟!.

يا مهموماً بنفسه، لو ألقيتها إلينا لاسترحت.

ويحك! أعباء التدبير لا يحملها إلا الربوبية، وليس يقوى عليها ضعيف البشرية.

ويحك! أنت محمول فلا تك حاملاً، أردنا راحتك فلا تكن لنفسك متعباً.

أيها العبد: أمرتك لخدمتي، وضمنت لك قسمتي، فأهملت ما أمرت، وشككت فيما ضمننت، ولم أكتف بالضمان حتى أقسمت، ولم أكتف بالقسم حتى مثلت، فخاطبت عباداً يفهمون فقلت: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢٢) ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ [الذاريات: 22 - 23].

وقد رزقت من غفل عني وعصاني فكيف لا أرزق من أطاعني ودعاني؟!.

ويحك! الفارس للشجرة هو ساقها، والممد للخلقة هو باريها. مني كان الإيجاد وعلي دوام الإمداد. مني كان الخلق وعلي دوام الرزق. أأدخلك داري وأمنعك إراري؟! أأبرزك لكوني وأمنعك وجود عوني؟! أأخرجك إلى وجودي وأمنعك جودي?!.

لك هيأت منتي، وفيك أظهرت رحمتي، وما قنعت لك بالدنيا حتى ادخرت لك جنتي وما اكتفيت لك بذلك حتى أتخفتك برويتي.

فإذا كانت هذه أفعالي فكيف تشك في أفضالي؟.

فاخترني ولا تختز علي، ووجه قلبك بالصدق إلي فإن فعلت أريتك غرائب لطفني، وبدائع جودي، وأمتع سرّك بشهودي.

لقد أظهرت الطريق لأهل التحقيق، وبنيت معالم الهدى لذوي التوفيق، فبحق سلم إلي الموقنون، وبيان توكل علي المؤمنون، علموا أي خير لهم من أنفسهم لأنفسهم، وأن تدبيري لهم أخرى من تدبيرهم لها، فأدعنا الربوبيتي مستسلمين، وطرحوا أنفسهم بين يدي مفوضين، فعوضهم عوض ذلك راحة في نفوسهم، ونوراً في عقولهم، ومعرفة في قلوبهم. وتحقيقاً بقري في أسرارهم. هذا في هذه الدار، ولهم عندي إذا قدموا علي أن أجل منصبهم

وأعلي محلهم، ولهم إذا أدخلتهم داري: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

أيها العبد: الوقت الذي أنت تستقبله لم أطلبك به بالخدمة، فلا تطالبني فيه بالقسمة، فإذا كلفتك تكفلت لك، وإذا استخدمتك أطعمتك.

واعلم بأي لا أنساك ولو نسيتني، وأي ذكرتك قبل أن تذكرني، وأن رزقي عليك دائم وإن عصيتني، فإذا كنت كذلك في إعراضك عني، فكيف ترى أن أكون لك في إقبالك علي؟. ما قدرني حق قدري إن لم تستسلم لقهري، ولا رعيت حق بري إن لم تمتثل أمري، فلا تعرض عني فإنك لا تجد من تستبدله مني، ولا تغتر بغيري فلا أحد يغنيك عني.

أنا الخالق لك بقدرتي، وأنا الباسط لك منتي، فكما أنه لا خالق غيري فكذلك لا رازق غيري، أأخلق وأحيل على غيري وأنا المتفضل؟! وأمنع العباد وجود خيري وأنا المنعم؟!.

فثق أيها العبد بي فأنا رب العباد، واخرج من مرادك إلي أبلغك عين المراد، واذكر سوابق لطفي، ولا تنس حق الوداد.

* * *

مناجاة ابن عطاء الله

إليه! أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري، وأنا الجهول في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي.

إلهي! مني ما يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك. إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك ولك المنة علي، وإن ظهرت المساوئ مني فبعدلك ولك الحجة علي.

إلهي! كيف تكلني وقد توكلت لي! وكيف أضام وأنت الناصر لي، أم كيف أخيب وأنت الحفي بي؟!.

ها أنا أتوسل إليك بفقري، وكيف أتوسل بما هو محال أن يصل إليك! أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك، أم كيف أترجم بمقالي وهو منك برز وإليك، أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت عليك، أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك؟!.

إلهي! ما ألطفك بي مع جهلي، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي! وما أقربك مني وما أبعدني عنك، وما أرفك بي فما الذي يحجبني عنك؟!.

إلهي! كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك، وكلما أياستني أوصافي أطمعني منتك.

إلهي! من كانت محاسنه مساوئ فكيف لا تكون مساويه مساوئ؟! من كانت حقائقه دعاوي فكيف لا تكون دعاويه دعاوي!.

إلهي! كيف أعزم وأنت القاهر، وكيف لا أعزم وأنت الآمر.

ترددي في الآثار يوجب بعد المزار، فاجعني عليك بخدمة توصلني إليك.

كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟!.

أ يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك؟!.

متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟!.

إلهي! عميت عينٌ لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً.
إلهي! هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك. منك أطلب الوصول وبك أستدل عليك، فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

إلهي! علمني من علمك المخزون، وصني بسر اسمك المصون، وحققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي في مسالك أهل الجذب، وأغنني بتدبيرك عن تدويري، وباختيارك عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري، وأخرجني من ذل نفسي، وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي^(١).

بك استنصر فانصري، وعليك أتوكل فلا تكلني، وإليك أسأل فلا تحرمني، وفي فضلك أرغب فلا تخيبني، ولجنابك أنتسب فلا تبعدني، وببابك أقف فلا تطردني.

إلهي! إن القضاء والقدر غلبي، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرنى، فكن أنت الناصر لي حتى تنصرنى وتبصرنى، وأغنني بفضلك حتى أستغني بفضلك عن طلبي.

أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك، وأنت الذي أزلت الأغيار من أسرار أحبائك. أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حتى استبان لهم المعالم.

ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك؟.

ولقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى دونك متحولاً. كيف يُرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان، وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟!.

(١) الرمس: القبر والمعنى قبل دخول قبري.

يا من أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين.

يا من ألبس أوليائه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين.

أنت الذاكر من قبل الذاكرين، وأنت البادي بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالإعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب لنا ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين، فاطلبنى برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بمنتك حتى أقبل عليك.

إلهي! إن رجائي لا نقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفي لا يُزِيلني وإن أطعتك. قد دفعتني العوالم إليك، وأوقفني علمي بكرمك عليك، فكيف أخيب وأنت أُملي، أم كيف أهان وعليك متكلي؟! كيف أستعز وفي الذلة أركزتني، أم كيف لا أستعز وإليك قد نسبتني؟! كيف لا أفترق وأنت الذي في الفقر أقممتني، أم كيف أفترق وأنت الذي بجودك أغنيتني?!.

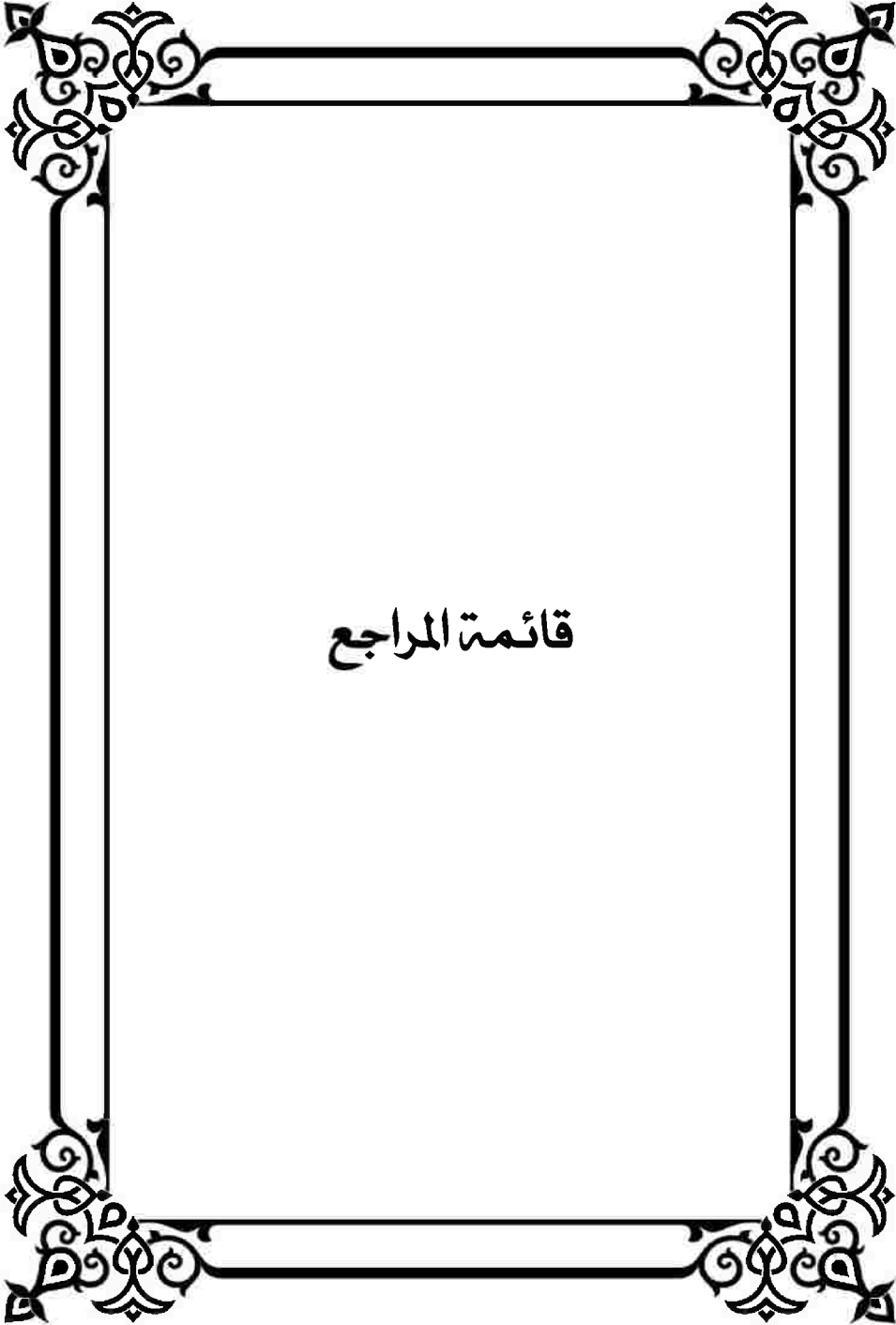
أنت الذي لا إله غيرك. تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء، وأنت تعرفت لي في كل شيء فرأيتك ظاهراً في كل شيء، فأنت الظاهر لكل شيء.

يا من استوى برحمانيته على عرشه، فصار العرش غيباً في رحمانيته كما صارت العوالم غيباً في عرشه. محقت الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار.

يا من احتجبت في سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار، يا من تجلى بكمال بهائه فتحققت عظمته الأسرار، كيف تخفى وأنت الظاهر، أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر?!.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي الطاهر الزكي، وعلى آله صلاة تحل بها العقد، وتفرج بها الكرب، ويذول بها الضرر، وتهون بها الأمور الصعاب. صلاة ترضيك وترضيه وترضى عنا يا رب العالمين.

* * *



قائمة المراجع

قائمة المراجع

- 1- إحياء علوم الدين، محمد الغزالي، دار الحديث، القاهرة، ط 1998 م.
- 2- آداب النفوس، الحارث المحاسبي، ت: عبد القادر عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط 19912 م.
- 3- الأذكار، النووي، مكتبة دار البيان، دمشق، ط 20033 م.
- 4- أمراض القلوب، ابن تيمية، مكتبة ابن القيم دمشق، ط 2999 م.
- 5- إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ابن عجيبة، دار المعرفة، بيروت.
- 6- أبيها الولد، محمد الغزالي، دار الترمذي.
- 7- تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت.
- 8- تربية الأولاد في الإسلام، عبد الله ناصح علوان، دار الفكر، ط 30 1996 م.
- 9- تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت.
- 10- تفسير القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشعب، القاهرة، ط 2، 1372 هـ.
- 11- تلخيص الخبير، أحمد بن علي (ابن حجر)، ط 1964 م.
- 12- جامع العلوم والحكم، ابن جرب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت، ط 1408 هـ.
- 13- الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط 1997 م.
- 14- الحكم العطائية شرح وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق ط 2000 م.
- 15- حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى، مكتبة الفرقان، حلب، ط 5 1993 م.
- 16- حول تفسير الفتحة، عبد الله سراج الدين، مكتبة دار الفلاح، حلب، ط 1 1991 م.
- 17- حياة الحيوان الكبرى، محمد بن موسى الدميري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1994 م.
- 18- الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 1998 م.
- 19- الخشوع في الصلاة، محمد نجدات المحمد، دار الرؤية، دمشق، ط 1 2002 م.

- 20- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط 2 1998 م.
- 21- الرسالة القشيرية، عبد الكريم القشيري النيسابوري، دار الخير، دمشق، ط 1 1991 م.
- 22- رياض الصالحين، النووي، دار المأمون للتراث، دمشق، ط 1 1994 م.
- 23- سنن أبي داود، سليمان بن أشعث السجستاني، دار الفكر، بيروت.
- 24- سنن البيهقي، أحمد بن الحسين البيهقي، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1994 م.
- 25- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 26- سنن الدارقطني، علي بن عمر الدارقطني، دار المعرفة، بيروت، 1916 م.
- 27- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجه، دار الفكر، بيروت.
- 28- شرح الحكم العطائية، عبد المجيد الشرنوبي، دار ابن كثير، دمشق، ط 3 1992 م.
- 29- شرح النووي على صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 2 1392 هـ.
- 30- شعب الإيمان، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 1410 هـ.
- 31- شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله، عبد الله سراج الدين، مكتبة دار الفلاح، حلب.
- 32- الشيخ المجاهد محمد الحامد، عبد الحميد طهناز، دار القلم، دمشق، ط 4 1995 م.
- 33- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، ضبط د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ط 3 1987 م، بيروت.
- 34- صحيح الحاكم، الحاكم النيسابوري، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 1990 م.
- 35- صحيح ابن حبان، محمد بن حبان، ت: شعيب أرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 2 1993 م.
- 36- صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 1970 م.
- 37- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1 1972 م.
- 38- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الفكر، بيروت، ط 1 1996 م.

- 39- صفوة الصفوة، عبد الرحمن الجوزي، دار المعرفة، بيروت، ط 1979 م.
- 40- صور من حياة الصحابة، عبد الرحمن رأفت باشا، مؤسسة الرسالة، ط 1 1994 م.
- 41- صيد الخاطر، ابن الجوزي، ت: يوسف علي بديوي، ط دار اليمامة، دمشق، ط 2 2002 م.
- 42- عون المعبود، شمس الحق آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2 1315 هـ.
- 43- غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، محمد بن إبراهيم الرندي، مطبعة السعادة، مصر، ط 1 1970 م.
- 44- فتح الباري، أحمد بن حجر العسقلاني، دار الفكر، ط 1993.
- 45- الفتح الرباني، عبد القادر الجيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، وأولاده، مصر.
- 46- الفردوس بمأثور الخطاب، أبو شجاع الهمذاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 1986 م.
- 47- فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط 10 1991 م.
- 48- الفوائد، ابن القيم، ت: عصام الدين الصباطي، دار الحديث، القاهرة.
- 49- فيض القدير، عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط 1 1356 هـ.
- 50- في ظلال الحديث النبوي، د. نور الدين عتر، ط 2 2000 م.
- 51- قضايا في الدين والحياة والمجتمع، محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 1 1991 م.
- 52- قطر الولي على حديث الولي، الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1985 م.
- 53- كشف الخفاء، إسماعيل بن محمد الجراحي، ت: أحمد قلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 4 1405 هـ.
- 54- لسان العرب، ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1995 م.
- 55- مجمع الزوائد، الهيثمي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط 1407 هـ.
- 56- مختصر منهاج القاصدين، أحمد بن قدامة المقدسي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1 1995 م.

- 57- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ت: محمد البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 4 1997.
- 58- مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، مصر.
- 59- مسند البزار، أحمد بن عمر، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط 1 1409 هـ.
- 60- مصنف ابن أبي شيبة، ت: كما يوسف الحوت، مكتبة الرشيد، الرياض، ط 1 1409 هـ.
- 61- مسند الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، دار المغني، الرياض، ط 1 2000 م.
- 62- المعجم الأوسط، الطبراني، دار الحرمين، القاهرة، ط 1415 هـ.
- 63- المعجم الكبير، الطبراني، ت: حمدي السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط 2 1983 م.
- 64- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط 3.
- 65- مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط 2 1996 م.
- 66- منهاج العابدين، محمد الغزالي، مكتبة ابن القيم، دمشق، ط 1 2002 م.
- 67- هذا ما قلته أمام بعض الرؤساء والملوك، محمد سعيد رمضان البوطي، دار اقرأ، دمشق، ط 1 2001 م.
- 68- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت.

* * *

المحتوى

المحتوى

الموضوع	الصفحة
المقدمة.....	5
من هو ابن عطاء الله السكندري	11
خطر المعاصي والذنوب ووجوب التوبة منها	
اطلب التوبة من الله في كل وقت	15
تعريف التوبة	15
أركان التوبة	16
الإسراع في طلب التوبة	18
أفضل الأوقات لطلب التوبة	21
محاسبة النفس	23
أهمية الخلوة	24
خطر الذنوب على القلوب.....	26
المصاب حقاً من محقته الذنوب	30
مثال العبد إذا فعل المعصية	31
من تاب ظفرو من لم يتب خسر	33
فرحة الله ورسوله بتوبة العبد	36
تجرو العبد على معصية المحسن سبحانه	39
ماذا تتضمن المعصية	43
الآثار الظاهرة للمعصية	46

48	 الآثار الباطنة للمعصية
55	 مقارنة بين الطائع والعاصي
58	 مشروعية زيارة القبور
61	 الذنوب الصغائر والكبائر
66	 متى يصبح الذنب الصغير كبيراً
68	 أمثلة عن صغائر يتسامح بها الناس
71	 المعصية قد تكون سبباً لتوقف الرزق
72	 الحكمة من اختيار ابن عطاء الله سن الأربعين
74	 واؤتوا البيوت من أبوابها
75	 حقيقة سوء الخاتمة
79	 الذل يترافق مع المعصية
83	 مثال الإيمان معك إذا عصيت الله كالشمس المكسوفة
85	 المنكوب من عصي الله
86	 قصة عبد الله بن أبي نوح مع رجل يعظه
88	 طهر قلبك من العيب يفتح لك باب الغيب
91	 حلاوة الطاعة وحلاوة المعصية
92	 إنما عصي الله من لم يعرف عقابه
92	 صور من عقاب الله للعصاة وما أعدّه الله لأهل الجنة
97	 من الناس من هو جعلي الهمة فراشي العقل
97	 ما هي الهمة

99	 إذا نمت على تخليط رأيت التخليط في منامك
100	 ما أرخص نفسك عليك
101	 إن طلبت أن تعصيه فاطلب مكاناً لا يراك فيه
101	 قصة إبراهيم بن أدهم مع رجل
103	 إن تفضل عليك بالتوبة فمن فضله سبحانه تبت إليه
104	 تفهقه بالضحك كأنك جاوزت الصراط
105	 تعريف الورع وحقيقته
107	 قصة رائعة عن الورع
109	 حقيقة الاستدراج
111	 نعم الله على العبد
113	 جددوا إيمانكم بقول لا إله إلا الله
114	 مثال الذنب كحيفة أدخلت الكلاب خراطيمها فيها
115	 من أحب الله تطهر من العيوب
116	 العبد العاصي لا قيمة له عند ربه
118	 اجتناب مجالس المعصية
119	 خطر الغيبة وحقيقتها
120	 تعريف الغيبة
122	 ما يباح من الغيبة
124	 كفارة الغيبة والتوبة منها
125	 النجاة من المعاصي يكون بالهروب إلى الله والاستغاثة به

- 126 مثال من يكثر الذنوب والاستغفار
- 127 تنقية القلب من الذنوب يكون بالتوبة والأذكار والندم والاستغفار
- 129 القلب يتنور بالطاعة ويظلم بالمعصية
- 130 حقيقة الفراسة

فضل متابعة النبي ﷺ

- 135 حقيقة متابعة النبي ﷺ
- 137 الخير يكون بمتابعة النبي ﷺ
- 138 بماذا تكون المتابعة

أحوال القلب

- 145 إذا جف القلب سقطت ثمراته
- 147 القلب شجرة تسقى بهاء الطاعة
- 150 مثال الإيمان في القلب كالشجرة الخضراء
- 152 مثال القلب كالمرآة
- 152 تعريف الزاهد
- 153 تعريف العارف
- 154 أربعة تعينك على جلاء القلب
- 158 القلب أشد تقلباً من القدر إذا غلت
- 160 القلب بمثابة السقف وحقيقة ذلك
- 162 مثال القلب إذا أسلمته إلى النفس
- 164 الغيرة على القلب والإيمان
- 165 المؤمن له قلبان يرجو بأحدهما ويخاف بالآخر

165	 خوف القلب تعريفه وحقيقته
167	 رجاء القلب تعريفه وحقيقته
170	 الجمع بين الرجال والخوف
171	 هل يغلب الرجاء أم الخوف
173	 أمثلة القلوب
173	 أمثلة القلوب العامرة السليمة
174	 أمثلة القلوب السقيمة
176	 إبليس يهوى القلوب الخربة
177	 مثال الجوارح كالسواقي تجري إلى القلب
178	 كيف يستنير القلب
181	 مرض القلب وعلاجه
183	 علاج القلب من الهوى أفضل ممن يكثّر الصلاة والصوم
184	 عزلة القلب
186	 فوائد الخلوة
187	 كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته
مثال العبد مع الله	
191	 إن أردت شفاء قلبك فاخرج إلى صحراء التوبة
192	 إنما الأنوار مطايا القلوب والأسرار
195	 أنوار أذن لها في الدخول إلى القلب وأنوار أذن لها في الوصول
198	 القلب السليم وحقيقته

الحكمة من الابتلاءات في الدنيا

203	مجاهدة النفس
203	تعريف النفس
203	معنى جهاد النفس
205	كلام ابن الجوزي حول جهاد النفس
208	مثالك مع نفسك
209	خيانة النفس
210	الرجل من صاح على نفسه وردها إلى الله تعالى
211	اجعل نفسك كدابتك
213	مخاطر صحبة النفس
215	الحكمة من وجود القلب والروح والنفس والهوى
217	احذر نفسك التي بين جنبيك
219	النفس كالمرأة كلما أكثر خصلها أكثر خصلها
219	معنى: تسلم النفس لله
221	إنما تحتاج إلى معالجة نفسك في الابتداء
222	خطر اتباع هوى النفس
224	النفس في وقت الرضا كالبعير المعقول
225	حب الدنيا من عيوب النفس
226	لولا هوان نفسك عليك ما عرضتها لعذاب الله تعالى
227	من لم يلزم نفسه لزمته

228 أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس

231 أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس

234 المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكراً

الغفلة عن الله

..... من أماتته الغفلة لم ترده النكبات

238 من علامات الغفلة انشغال القلب بالدنيا

239 علاج الغفلة

240 الغفلة والشهوة والإعراض من صفات النفس

حقيقة المؤمن

243 من هو المؤمن والمخدول

كيفية التعامل مع العصاة والمذنبين

247 خطر مباسطة ومؤانسة العاصين

250 الرحمة بالعصاة

252 الإعراض عن العصاة والدعوة لهم في الغيبة

254 لا تنتقد على الناس بظاهر الشرع ولا تنكر عليهم

255 لا تقتط الناس من رحمة الله

كيف تكون الطاعة لله وحده

259 ليتك لو أطعت مولاك كما يطيعك عبدك

260 أفراد الله بالعبادة

261 قصة سيدنا إبراهيم الخليل مع النمرود

262 التقرب إلى الله

263	 جوارحك غنمك وقلبك الراعي والله هو المالك
264	 صنائع الله للعبد
	حلاوة محبة الله والتودد له والياس من التودد للمخلوقين
267	 حلاوة محبة الله
270	 التودد للخلق والتودد للحق سبحانه
273	 اقطع يأسك من المخلوقين
277	 قد هان كل الهوان من احتاج إلى الخلق
279	 عليك بالحوالة على مولاك
281	 إذا ظلمك الغوي فارجع إلى القوي
283	 من هو التائه
284	 غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك
286	 رفع الهمة عن الخلق
287	 لا ترفع حوائجك إلا إليه سبحانه
288	 خطر التعلق بالزوجة والأولاد
290	 استفت قلبك
291	 الحسد المحمود والمذموم
294	 لا تحسد إلا عبداً قد لف في ملابس التقوى
295	 ضياع العمر واستدراك ما فات منه
297	 فوائد الأذكار الجامعة
299	 فضل الصلاة على النبي ﷺ

302		تحصيل الزاد للرحيل للآخرة
303		ترقيع العبادة بالبكاء والتضرع لمن كبرت سنه
305		من بلغ أربعين سنة فقد اقترب من لقاء الله
306		فائدة ذكر الله تعالى
310		التماس الأعذار
312		خطر التكبر
318		الإعجاب بالطاعة
320		آفات التكبر

حقيقة الدنيا والآخرة

325		مثل من عال هم الدنيا وترك هم الآخرة
328		الدنيا أحقر من أن يُعال همها
332		كفاك من الإدبار أن تفتح عينيك في هذه الدار
334		إنما تأكل لتعيش ولا تعيش لتأكل
336		قيمتك قيمة ما أنت مشغول به
337		العاقل بما هو أبقي أفرح منه بما هو يفنى
339		كفى بك جهلاً أن تعول هم الصغير وتترك هم الكبير
342		مثال الدنيا كعجوز جذماء برصاء
344		وحدانية الله سبحانه وتعالى
346		التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين
346		حقيقة التوسل وأدلته

349 التوسل بالعمل الصالح

أسرار الصلاة

355 من أراد أن يعرف حقيقته فليُنظر إلى صلاته

358 كل صلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر لا تسمى صلاة

359 من فوائد الصلاة

360 مثال الصلاة بغير حضور قلب

361 الدواء النافع في إحضار القلب

364 ركعتان بالليل خير من ألف بالنهار

366 الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة

368 الشك في الرزق

370 فوائد الذكر

377 مهمة الشيخ المربي

378 صفات المربي والمرشد

380 ليس الرجل من يربيك لفظه إنما الرجل من يربيك لحظه

381 قصة الشيخ محمد الحامد مع شيخه أبي النصر خلف

أبناء الدنيا وأبناء الآخرة

387 عليك بأبناء الآخرة

390 صحبة أبناء الدنيا وأبناء الآخرة

392 إذا طلبت من يدلك على الله ويعرفك بعيوب نفسك لم تجد إلا قليلاً

394 من أكثر من مجالسة أهل هذا الزمان فقد تعرض لمعصية الله

أحوال النفس

399	 البلاء اختبار للعبد
399	 لماذا قضى الله أن تكون الدنيا مشوبة بالأكدار
404	 الحكمة من الفاقة والغنى والفقر
406	 ربما كان موت الولد ليتفرغ القلب لعبادة ربه
407	 إنفاق المال أم إنفاق الدمع
409	 الأخلاء الثلاثة: المال والعيال والعمل
411	 الاستقامة
413	 السالك والمجذوب والفرق بينهما
415	 الإخلاص في العمل وذم الرياء فيه
421	 مثال الحكمة كالقيد
423	 عقل الإنسان لأي شيء يستعمل
425	 مثالك في صغر عقلك كالمولود
427	 النعم الثلاث: الوقوف على الحدود والوفاء بالعهود والفرق في الشهود..
430	 سبب استغراب أحوال العارفين
432	 حق شهادة أن لا إله إلا الله
435	 إياك وظلم العباد
438	 لذة المناجاة
440	 معاملة الله كل يوم
441	 شرط النصر والعطاء من الله

442		معرفة أولياء الله والتأدب معهم
444		مشروعية التبرك بالأنبياء والصالحين
446		معرفة أولياء الله
448		التخلف عن صلاة الجماعة
		أحوال السلف الصالح رضي الله عنهم
451		الصحبة للنبي ﷺ أعظم كرامة
452		صدق الصحابة والسلف مع ربهم
453		فضل الصحابة الكرام على المؤمنين إلى يوم القيامة
456		الصحابة الكرام والدنيا
457		غزوة بدر أو امتحان للصحابة مع الغنائم
459		الدنيا في أيدي الصحابة لا في قلوبهم
461		صحبة المشايخ وحقيقتها
464		تكرار حضور مجالس العلماء
465		أهمية حضور مجالس العلماء
466		تصحیح البدايات
467		فوائد الصدق مع الله
468		تقوى الله وحسن الخلق
471		حسن الخلق هو القيام بحقوق الله تعالى
472		نقاء البصيرة
474		لا تؤذ مؤمناً

476		المروء على الصراط
478		الفقراء والأغنياء
480		تكريم الله الإنسان
482		أنواع الصلوة
484		التواضع والتأدب مع الله
486		العلم والعمل به
489		الرحلة من الأكوان إلى المكون
491		من هو الفقيه
493		حقيقة الشهود
494		التوكل على الله
495		من توكل على الله كفاه ما أهمه

العلم النافع

499		العلم النافع هو القاهر للهوى القامع للنفس
501		العلم النافع يلزم الخشية من الله تعالى
504		كل علم تميل إليه النفس فارم به
505		أنواع من العلم النافع
507		أداء الأمانة كما يجب
508		معنى قوله تعالى «وثيابك فطهر»
509		عناية الله بالعبد
511		الاحتراس للدين لا للبدن

512	 توفيق الله
513	 علماء مزيقون
515	 كشف الحجاب
516	 من هم السابقون
518	 إنفاق المال في وجوه الحرام

مثال العبد مع الله

521	 مثال العبد مع الله كالطفل مع أمه
522	 مثال العبد مع الله كمثل أجير الملك
523	 مثال العبد في الدنيا
524	 مثال آخر للعبد مع الله
525	 مثال العبد مع الله كمثل ملك له عبيد
526	 مناجاة الحق سبحانه لعبد في شأن التدبير والرزق
530	 مناجاة ابن عطاء الله رحمه الله
533	 قائمة المراجع
539	 المحتوى